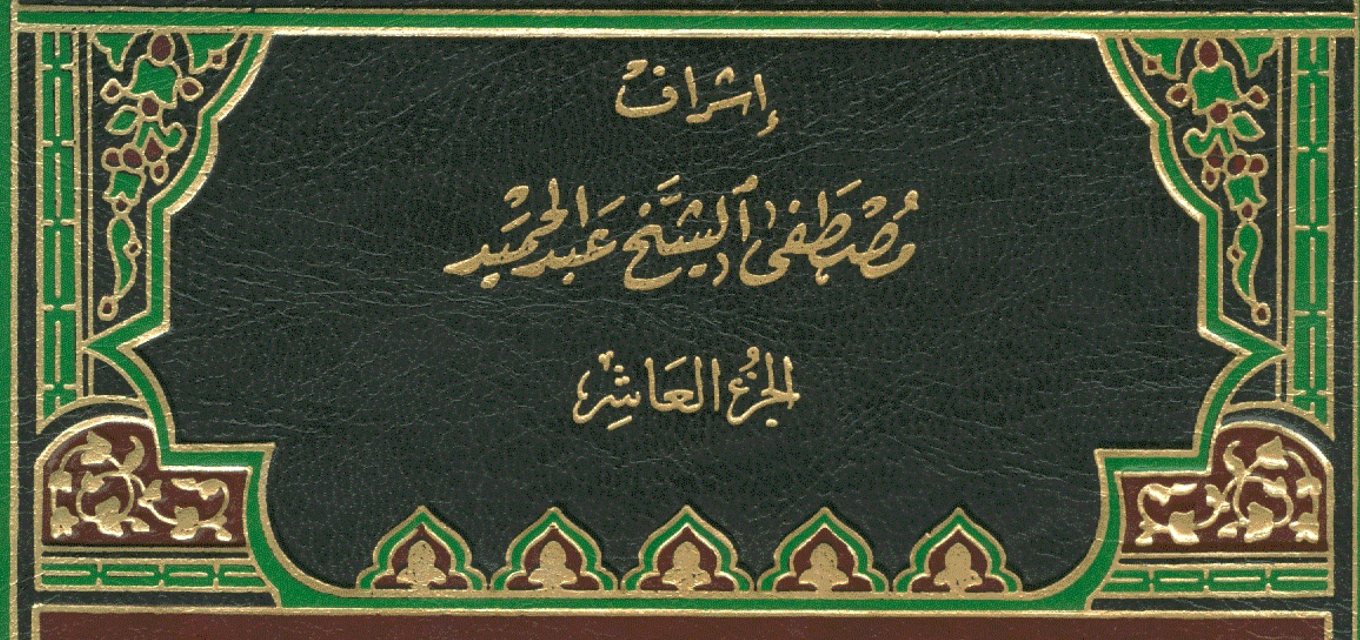
محاضرات الوائلي



إشراف

مصطفى آل الشيخ عبد الحميد

الجزء العاشر

منشورات

شركة دار المصطفى لإحياء التراث

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر



هوية الكتاب

اسم الكتاب:.... محاضرات الوائلي ج ١٠

المؤلف: .... الشيخ احمد الوائلي رحمه الله

الناشر: .... ناجي الجزائري

الكمية: .... ١٠٠٠ نسخة

الطبعة: .... الاولى ١٣٨٦ هـ.ش

المطبعة: .... شريعت

الشابك: ٧ـ ١٥ ـ ٢٦٨٢ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨

محاضرات الوائلي

رحمه الله

إشراف

مصطفى آل الشيخ عبد الحميد

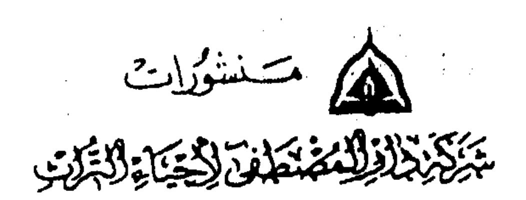
الجزء العاشر

منشورات

شركة دار المصطفى لإحياء التراث

الطبعة الأولى
١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

يطلب من:
لبنان ـ بيروت ـ جادة السيد هادي ـ مفرق الرويس ـ بناية اللؤلؤة ط١ ـ
ص.ب: برج البراجنة ـ بعبدا ـ ٢٠٢٠ ١٠١٧ ـ هاتف: ٠٠٩٦١١٥٤٠٦٧٢
سوريا ـ دمشق ـ ص.ب: ٧٣٣ ـ السيدة زينب ـ محمول: ٠٠٩٦٣٩٤٤٣٥٦٥٨٤
مؤسسة المصطفى: إيران ـ قم ـ خ سمية ـ ١٦ مترى عباس آباد بلاك ٢٤
تلفاكس: ٠٠٩٨٢٥١ ـ ٧٧٣٨٨٥٥
البريد الإلكتروني: E-mail: mnmnmn3@hotmail.com



﴿١٧٨﴾

ولاية المؤمنين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْـمُؤْمِنُونَ وَالْـمُؤْمِنَاتُ بَـعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَـنْهَوْنَ عَنْ الْـمُنكَرِ وَيُـقِيمُونَ الصَّـلَاةَ وَيُـؤْتُونَ الزَّكَـاةَ وَيُـطِيعُونَ اللهَ وَرَسُـولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [(١)].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: التغليب في كلام العرب

تقول الآية الكريمة: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْـمُؤْمِنَاتُ﴾، وهنا ربما يسأل سائل فيقول: إن كلمة ﴿ٱلْمُؤْمِنُوْنَ﴾ صفةٌ حالها حال كلمة (المسلمين)، فتشمل في الخطاب الذكور والإناث، كما درجت عليه خطابات القرآن الكريم خاصّة والخطابات العربيّة عامّة؛ وذلك للتغليب، فيشار إلى الرجل والأُنثى بلفظ التذكير. وبناء على هذا، فما هي الحاجة أو الضرورة التي تجعل القرآن الكريم يعقّب كلمة ﴿ٱلْمُؤْمِنِيْنَ﴾ بكلمة ﴿ٱلْمُؤْمِنَاتِ﴾، ولا يكتفي بذكر الكلمة الأُولى؟

---

(١) التوبة: ٧١.

والجواب أن يقال: إن السامع عادة ـ حينما لا يكون هناك مخصّص أو قرينة على إرادة الذكور فقط من أمثال هذه المفردة فإنه يفهم منها بالتبادر أن المراد: الذكر والاُنثى، وعليه فلا حاجة إذن لمثل هذا التأكيد إلّا أن يراد به هدف آخر. ومثل هذا الهدف لا يمكن أن يتنبّه له من لا يستأنس بأهداف القرآن الكريم، وكذلك من ليس عنده اطّلاع على خلفيّة الخطابات القرآنية التي تحتوي عادة على أسرار كثيرة تغلّف تعبيراته أو أساليبه. فالقرآن الكريم كما عبر عنه الحديث الشريف بقوله: **«ظاهره أنيق وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه»** [1].

نظرة الإسلام إلى المرأة

إذن فهناك من وراء هذا التعبير قصد، والقصد كما يتراءى للمدقّق فيه هو أن يضع كلّ شيء وقبيله، فيضع صنفاً ما في جهة ويضع الصنف المناظر له في الجهة المقابلة. ولتوضيح هذا الأمر نذكر أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب مع أنه رسالة إلى الدنيا بأجمعها، ولابدّ من أن نعترف بأن العرب ـ شأنهم في ذلك شأن غيرهم ـ كانوا يضعون المرأة عن مستوى، ويعتبرونه من مرتبة أعلى.

وليس العرب وحدهم من يتبنّى هذه المسألة أو يعتقد بهذا الأمر، بل إن هناك الكثير من الحضارات القديمة كاليونانيّة وغيرها كانت تنظر إلى المرأة على أنها دون مستوى الرجل. ولعلّ هذا هو الذي يفسّر لنا أن المعاملات الاجتماعية والنفسيّة البيتيّة كانت يفرّق فيها بين المرأة والرجل، أي أن هناك فرقاً واضحاً في

---

(١) نهج البلاغة / الكلام: ١٨، الخطبة: ١٥٢، ورواه في الكافي ٢: ٥٩٨ - ٥٩٩ / ٢ عن رسولنا الأكرم ﷺ بلفظ: «لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه».

التعامل مع الرجل والمرأة. إذن فهناك حضارات كثيرة شاركت العرب وشاطرتهم هذه العقيدة في المرأة، فهناك اليونان والرومان والهند ممّن كانوا ينتهجون هذا المنهج، وينحون هذا المنحى، وكذلك الحال مع مجموعة كبيرة من شعوب الشرق الأقصى آنذاك، وهي شعوب كانت معاملتها للرجل تتّسم بسمة التمايز والتمييز له عن المرأة؛ بدعوى أن مستواها وتركيبتها الجسديّة والنفسيّة دون مستواه وتركيبته، فهي تضعها أبداً في مستوى دون مستواه.

وكان هذا المعنى في محيط العرب معمّقاً أكثر من غيره، وكانت هذه النظرة إلى المرأة عندهم واضحة المعالم لدرجة أنهم كانوا يئدونها، بل يحتقرون من لم توأد.

ومن هذه الزاوية نجد أن القرآن الكريم أراد أن يبيّن للناس كافّة خطأ هذه النظرة، وأراد أن يعالج هذا المعنى عندهم. ومن الطبيعي في مثل هذه الأمور والمعالجات التي تمسّ الموروث الاجتماعي والعقائد ألّا يكون العلاج دفعة واحدة؛ لأن معنى أن يكون العلاج كذلك ـ أي على شكل دفعة واحدة ـ في مثل هذه الحالات أنه ربما يعطي مردوداً سلبيّاً وعكسيّاً؛ لأنه يحدث ردّة فعل عند هؤلاء الذين يتوجّه إليهم الخطاب، وردّة الفعل هذه ستكون أعنف من العلاج، وبالنتيجة فإن العلاج سوف لن يكون ناجعاً ومفيداً، ولن يكون ذا أثر فعّال. ولهذا فإن القرآن الكريم اتّبع أُسلوباً تدريجيّاً في هذه المعالجة.

إذن فالقرآن الكريم اتّبع هذا الأُسلوب التدريجي الذي يستلزم بطبيعة الحال مدّة طويلة كي يتمكّن من أن يستلّ من النفوس هذا الشعور وهذه العقيدة الفاسدة التي لا تقوم على أساس صحيح، ولا تستند إلى نظريّة علميّة أو دينية.

والغريب في الأمر أننا إلى الآن لا زلنا نرى مثل هذه النظرة عند الكثير من الشعوب ومنها بعض الشعوب الإسلاميّة، فعندما ندرس علم الأجناس أو علم الشعوب نجد أن هذه الظاهرة موجودة ومتركّزة بشكل كبير عند هذه الشعوب مع ما فيها من سلبيات.

ولبيان هذا الأمر نضرب مثلاً وهو أننا لا زلنا نرى الكثير من الناس ممّن يستعملون في حياتهم اليوميّة الكثير من وسائل التطوّر الحضاري والتكنولوجيا الحديثة باختلافها واختلاف مصادرها وتنوّعها يعيشون حالة من التناقض؛ فهم يعيشون الجانب الحضاري الجاهلي المتخلّف في نفوسهم، أي أنهم يعيشون الجانب المدني باستخدامهم وسائل التقنية الحديثة لكنهم لا يعيشون الجانب الحضاري؛ لأن عقليتهم وأفكارهم لا زالت أسيرة لكثير من القواعد الجاهليّة، والعديد من الموروثات الاجتماعية القديمة أو العقائد الفاسدة التي كان الناس يعتقدونها آنذاك.

وكلّ فرد من هؤلاء حينما ندخل إلى بيته نجده يعامل زوجته كما يعامل الإنسان القديم المرأة؛ فينظر إليها على أنها أدنى منه مستوى، وأقل منه مرتبة، فهو يعتقد بأن المرأة لا تعدو أن تكون جزءاً من كيان البيت، بمعنى أنها عبارة عن قطعة من أثاثه، وبالتالي فهو يجب أن يتعامل معها على هذا الضوء.

ومثل هذا التعامل وهذا الاعتقاد، ومثل هذا الشخص يمكن أن يعدّا نكسة في جبهة الإنسانيّة، ووصمة عار في تاريخها المتحضّر؛ فالإنسان الواقعي المحقّ يجب عليه أن يحرص في سلوكه مع المرأة كما يحرص في سلوكه وتعامله مع الرجل. هذا إذا تنزّلنا وقلنا: إن خطر المرأة مساوٍ لخطر الرجل أمّا والحال أن خطر المرأة أكبر وأقوى وتأثيرها أشد، فلابدّ أن يكون ذلك التساوي والحرص عليه

موجودين أثناء التعامل مع المرأة.

وظيفة المرأة دور خطر ومسؤوليّة عظمى

وربما يقول قائل: كيف يمكن أن يكون خطر المرأة أكبر من خطر الرجل؟

والجواب أن المرأة هي المصنع الذي يخرّج الأطفال والأجيال إلى الوجود، وهذا المعمل إذا كان معملاً قائماً على أساس الأخلاق والاستقرار النفسي والتعامل الطبيعي فإن هؤلاء الأطفال سوف يولدون وينشؤون ويترعرعون وهم في كامل صحّتهم واستقرارهم النفسيّين، وبالتالي فإن الأجيال ستكون أجيالاً مستقرّة معطاءة، أما إذا كانت المرأة خلاف ذلك، فيمكن للمجتمع أجمع أن يسقط في قرار الجريمة والانحطاط. فالمرأة إذا كانت صالحة صلح النشء وصلح المجتمع، وإن كانت فاسدة فسد النشء وفسد المجتمع.

تشريع نكاح المتعة والضرورة إليه

إنني أُسأل كلّ يوم عن كثير من القضايا التي تمسّ العلاقات الزوجيّة والحياة داخل البيت والأُسرة، وأنا لا أودّ أن أذكرها من على هذا المنبر؛ لأن في بعضها جانباً جنسيّاً مفضوحاً، والمنبر يجب أن يكون عفّاً مهذّباً ومنزّهاً عن مثل هذه الأُمور؛ لأننا نريد أن نربي جيلاً عفيفاً مهذّباً صالحاً ومستقيماً، لكن هنا نقطة مهمّة أُحبّ أن أُنبّه إليها، وهي التي أتعرض دائماً للسؤال عنها من قبل البعض من النساء، وهذه النقطة هي أن الكثير من الرجال هذه الأيّام لا يملّون من اللهاث والركض وراء المتعة خارج البيت وإن كان بشكل مشروع عموماً، فنجد هؤلاء لا ينفكّون يردّدون في كلّ يوم من حياتهم أنهم يريدون أن يلجوا عالم زواج المتعة ويجرّبوا حظّهم فيه.

وهذه التصرّفات في الحقيقة غير صحيحة وغير موجهة، وإلّا فهل إن جميع مشاكل الدنيا قد حلّت ولم تبقَ إلّا هذه المشكلة، فهي بانتظار الحلّ؟ إن هذا اللون من الأسئلة تُوجه إلي كما ذكرت، دون أن يعرف اللّاهثون وراءها (المتعة) أنها حالة من حالات الإباحة التي وضعها الشارع المقدّس في حال الضرورة، بمعنى أنه إذا كانت هنالك ظروف معيّنة تحكم الرجل ـ ولا نريد أن نخوض فيها ـ فإنه يمكن أن يلجأ إلى هذا اللون من النكاح، وذلك في حال السفر وغيره من الضرورات، أمّا وهذا اللّاهث يمتلك زوجة لا ينقصها شيء فيجب عليه أن يكون بمستوى المسؤوليّة التي وضع نفسه فيها، وأن يعفّ نفسه ويصونها عن الوقوع في الخطأ، وأن يضع نفسه في مستوى الدين ومستوى الجيل الذي يريد أن يربيه.

إننا لا نريد من الرجل ـ أو بالأحرى لا نطالبه ـ أن يكلّف نفسه ما لا يستطيع، فنطالبه بأن يضعها في مستوى الأولياء أو الأنبياء، لكن عليه أن يسعى بدرجة تقريبيّة لأن يضعها في مكان يناسب ما اختارته الشريعة للمرأة من مكانة؛ لأن هذه المرأة هي التي سوف تتصدّر عرش الأُمومة.

إنني لا أُريد أن أقول بأنه ليس من حقّ الرجل ذلك، لكن ليس كلّ ما يعرف يقال، وإلّا فإن قضية المتعة هي تشريع إلهي صحيح وضعه الشارع بحدوده وضمن ظروف معينة يضطر فيها الرجل إلى هذا الزواج. ويجب أن نتنبه إلى أن هناك تيّارات وراءها أكثر من ألف علامة استفهام، بل وألف استعمار تحاول كلها مجتمعة الإساءة إلى المذهب عبر استخدام هذا التشريع، فهناك أصابع للغرب تمتدّ داخل بعض المجتمعات لبذر بذور الفتنة بين المسلمين، وهذه المجتمعات تتلقّى هذه البذور وكأنها أفضل أرض صالحة لإنباتها؛ حيث إننا

نجدها تنبت وتورق وتثمر وتصبح مكاناً ملائماً لنشر هذه الفتنة وهذه التفرقة بين المسلمين.

مشروعيّة نكاح المتعة

إن مسألة المتعة موجودة حتى عند الفقهاء السنة كالحنابلة[١] والأحناف[٢]؛ لأن لهؤلاء آراء صريحة في الزواج المؤقّت وإن لم يسموه كذلك، فهم ينصّون على أن من يعقد على امرأة ناوياً أن يطلقها ولو بعد يوم أو يومين، وهي تعلم بذلك، وأبوها أو الولي والعاقد يعلمان بذلك، لكنه لم يصرّح به بلسانه، فإن هذا يعتبر عندهم عقداً صحيحاً لا شائبة فيه.

ونحن نقول: إن هذا الأمر هو المتعة بعينه، فما هو الفرق بين أن يكون العقد بذكر الأجل فيه أو لا يكون كذلك؟ إن مثل هذا الزواج لا يفرق عن المتعة إلّا بذكر الأجل فيها، وعدمه فيه، وبإيقاع الطلاق فيه، وإلّا فإن العاقد والمعقود عليها وولي أمرها يعلمون بأن هذا الرجل سوف يطلّق.

إننا لا نريد أن نطيل الحديث في هذا الموضوع، فهذا النزاع موكول أمره لساحة الفقهاء. ثم إن عندنا ما يكفينا من المشاكل التي تعيق مسيرتنا الإسلاميّة؛

---

(١) قال عبد اللّه بن قدامة: «وإن تزوّجها بغير شرط إلّا إن في نيّته طلاقها بعد شهر، أو إذا انقضت حاجته في هذا البلد ـ الذي سافر إليه ـ فالنكاح صحيح في قول عامّة أهل العلم إلّا الأوزاعي قال: هو نكاح متعة. والصحيح أنه لا بأس به، ولا تضرّ نيّته، وليس على الرجل أن ينوي حبس امرأته، وحسبه إن وافقته وإلّا طلقها».
المغني ٧: ٥٧٣، وبمعناه في الاستذكار ٥: ٥٠٨.

(٢) قال الحصكفي: «وبطل نكاحُ متعةٍ ومؤقتٍ وإن جهلت المدّة أو طالت في الأصحّ، وليس منه ما لو نكحها على أن يطلّقها بعد شهر، أو نوى مكثه معها مدّة معيّنة».
الدر المختار ٣: ٥٦ - ٥٧.

في مجتمعاتنا، أو في حياتنا، بل إن من هذه المشاكل ما يتهدّد وجودنا كمسلمين، فعلينا أن نولّي مثل هذه المشاكل كامل أهمّيتنا، وأن نوجد لها الحلول والعلاجات الناجعة قبل أن نأتي إلى الغرائز المنحطّة ونشبعها. إن على كلّ مسلم أن يعي واقعه الذي يعيشه، فيحاول أن يسمو بالجيل ولا يرجع به إلى مستوى بهيمي، فهذه الغرائز يجب تهذيبها وردعها بالصوم والصبر بدلاً من أن تحرّك عوامل تهييجها وإثارتها، وبالنتيجة فإنها يمكن أن تتحوّل إلى حالة من جحيم لا يطاق تأثيره، فيحرق صاحبها وما حوله.

فالواجب على كلّ مسلم أن يترفّع عن هذه الغرائز إلى مستوى المجتمع وإيجاد حلول لمشاكله، أما هذه القضايا الجانبيّة التي تعيش في بطون الكتب والنزاعات بين الفقهاء، فيجب أن نتركها لأصحابها، وألّا نقع تحت طائلة مريديها ومثيريها؛ لأنها تؤدّي إلى التفرقة بين المسلمين، وتحقّق هدف الاستعمار الذي من أجله أُثيرت، وهو قانون «فرّق تسُدْ». فهؤلاء المستعمرون يريدون أن يصلوا إلى استعمارنا، فيلقوا بخبثهم المعهود بذور الفتنة بين المسلمين لتفريقهم، ولجعلهم يتناحرون فيما بينهم؛ حتى يتمكّنوا من أن يسودوهم ويسيطروا عليهم وعلى ثرواتهم ومقدّراتهم.

طبيعة المعالجات القرآنيّة

وعلى أيّة حال فالآية الكريمة المارّة تتناول هذا الجانب من المعالجات، وتأخذ بنظر الاعتبار الكثير من الأشياء التي تمسّ حياة المرأة ووجودها وكيانها، والمرأة لها وعليها مسؤولية كبيرة إلى جانب الرجل، فهي تساهم بالقسط الأكبر والأوفى في صنع الحياة؛ لأنها القاعدة التي ينطلق منها الجيل الكبير. ولهذا نجد

أن القرآن الكريم يضعها في مصافّ الرجل، ويريد أن يؤكّد على هذه الظاهرة، وأن يحارب تلك الظاهرة المضادّة التي كانت سائدة عن المرأة في محيطهم، والتي كانت تحتقر المرأة وتنزل بها عن مستوى الرجل، وتضعها عنه.

إذن فالقرآن الكريم يريد أن يقول لهم بأنهم على خطأ في اعتقادهم هذا، وأنهم في رؤيتهم هذه لا يمكن أن يصلوا إلى المستوى الذي أهّلهم الله تعالى له وأراد لهم أن يصلوه؛ لأن الله تعالى كرّم ابن آدم عامّة ـ أي ذكوراً وإناثاً ـ ومعنى تكريمه تعالى له: أنه لا يصحّ معه أن يوضع هنالك فرق بين الجنسين؛ لأن ذلك يؤدّي إلى حدوث شرخ في التركيبة البشريّة، ويؤدي إلى إهانة شقّ كبير من أبناء هذا الجنس الذي هو المرأة. ولهذا فإننا نجد أن القرآن الكريم يقول: **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾**[١].

تفصيل لا تفضيل

وقد يقول قائل: إن هناك فروقاً متنوّعة كثيرة بين الجنسين، كالفروق الفسيولوجية والفروق النفسية والجسديّة وغير ذلك، فالحواسّ الخمس مثلاً سيّما حاسّة الشمّ تمتاز بأنها عند المرأة أقلّ منها عند الرجل، وهذا شيء ثابت عن طريق العلم، فالأطبّاء المختصّون قد توصّلوا عبر التجارب المخبرية إلى هذه النتيجة، ولذا فإن المشرّع الإيطالي «أميروزو» صاحب النظرية العقابية في الفقه الجنائي يتعامل مع المرأة حال الجريمة على هذا الأساس. فالمرأة حينما تكون أقلّ حاسّة من الرجل في الشمّ فإن هذا يعني أنها أقل تعرّضاً للأمراض، وأقل

(١) الإسراء: ٧٠.

تعرّضاً للتأثّر. ولذلك فهو يربط هذا بنظريّته العقابيّة فيقول: إن الإجرام أو السلوك الإجرامي يتأثران بالخواصّ الوراثية والفطرية والجسديّة، بمعنى أن المجرم له سُحنة خاصّة، وله حواسّ كذلك تميّزه عن غيره.

وكمثال على ذلك أيضا القلب؛ فهو عند الرجل أثقل منه عند المرأة بما معدّله ستّون غراماً تقريباً. وبعمليّة حسابيّة بسيطة نعرف أن الرجل حينما يحرق في الساعة الواحدة (١١) غراماً من الكربون مثلاً، فإن المرأة تحرق من (٤ – ٦) غرامات منه. ومثال آخر على ذلك أيضاً أن المرأة عادة تكون أكثر عاطفة من الرجل وأخصب خيالاً.

والجواب أن يقال: صحيح أن هناك فروقاً بيولوجية بين الرجل والمرأة، لكن هذه الفروق لا تعني بالضرورة جانب التفضيل، مطلقاً؛ فكلّ من الرجل والمرأة مكيّف للبيئة التي يعيش فيها، وللدور الذي أُنيط به والذي سوف يؤدّيه ويقوم به. ونحن حينما نقول: إن سعة الجمجمة عند الرجل أكبر بما يعادل مئتي سنتيمتر مكعب منها عند المرأة، وبالنتيجة فإن الأخاديد والغشاء السنجابي تكون أكثر سعة عنده؛ مما يعطي معدّل ذكاء أعلى وأكثر.

لكن هل كلّ هذا لا يعني التفضيل مطلقاً؛ فنحن نعرف مثلاً أن بعض الكائنات الحيّة تكيّفت لأن تعيش على اليابسة، وهناك كائنات أُخرى غيرها تكيّفت لأن تعيش في الماء كالأسماك وما شابه، وهذا لا يعني بحال أن السمك أفضل من تلك الكائنات البريّة؛ لأنها لا تستطيع أن تعيش في الماء، أو أن تلك الكائنات البريّة أفضل من السمك؛ لأنه لا يستطيع أن يعيش على اليابسة. فالكائنات البريّة تكيّفت للعيش مع الظروف الصحراوية، شأنها شأن السمك الذي تكيف للعيش مع ظروف البيئة المائيّة.

وهذا الحال بعينه ينطبق تماماً على الرجل والمرأة، فكلّ منهما مكيّف ومهيّأ لأن يقوم بالدور الذي كلّفه الله به، فالمرأة مكيّفة بالدرجة الأُولى لبناء الأُسرة. وقولنا بأنها مكيّفة ومهيّأة لبناء الأُسرة لا يعني أنها لا تستطيع أن تعمل خارج المنزل، بل إنها بما أعطاها الله تعالى من عقل وذكاء وطاقات أُخرى يكون لها القابليّة على أن تشغل أيّ وظيفة تريدها حالها في ذلك حال الرجل، لكن الشكل الطبيعي والوظيفة الطبيعيّة لها هي أنها مرتبطة بالأُسرة.

ودليل هذا أننا معاشر الرجال لا نستطيع أن نجلس مع طفل عمره أيّام أو أشهر، ونرعاه أو نقوم على شؤونه وما شاكل، بل إن ذلك يعدّ من أصعب الأُمور بالنسبة لنا، أما مع المرأة فهو خلاف ذلك، كما أننا لا نستطيع أن نناغي الطفل كما تناغيه أُمّه، ولا أن نتفاعل أو نتعامل معه كما تتفاعل أو تتعامل هي معه؛ لأنها تملك دفئاً عاطفياً يستحيل أن يملكه الرجل.

إن هرمون الأُمومة الذي أودعه الله فيها يجعلها تفيض عاطفة، وتتدفّق حناناً وعطفاً ورأفة بهذا الطفل. فالأم تمتلك كلّ تلك الأُمور. وهذا هو السبب الذي يجعلها لا تأنف ولا تستقذر أن تقوم بتنظيف ابنها والقيام على شؤونه في أي حال كان، وفي أي وقت من الليل والنهار، بل إنها ربما تترك طعامها أو لذيذ منامها كي تقوم إلى طفلها وتراعيه.

إن الأُم حينما تقوم بهذا مع طفلها لا تقوم به لأنها تشفق عليه فقط، بل إنها يتعدّى الأمر عندها ذلك إلى التلذّذ بهذه العمليّة التي تمارسها مع طفلها من تنظيفه وإزالة القذارات عنه، وتأنس بهذا الفعل أيّما إيناس، فلا تشعر بالاشمئزاز، ولا يخالجها شعور بأنها ربما تكون خالية من الانفعالات النفسيّة التي أودعها الله تعالى عند الإنسان من استقذار القذارات واستطياب الطيبات وما شاكل. إن

الواقع يقول: إن المشاعر هي عينها موجودة عند الأُمّ وعند غيرها غير أن غزارة العاطفة عندها مكيّفة ـ كما شاء الله ذلك ـ للطفل ولرعايته والاعتناء به.

إذن فالأُنوثة تضفي على البيت لوناً من العطف الدافئ الذي يحوّله إلى لوحة متناسقة الألوان ومتناغمة الزوايا لا يملك منها الرجل شيئاً. وهذا اللون من التكيّف العاطفي والنفسي والذهني ليس فيه نوع تفضيل أبداً، وإنما هو تصنيف كما قلنا وأشرنا إليه في الكثير من محاضراتنا. فالمسألة إذن هي مسألة تصنيف وتفصيل وليست مسألة تفضيل؛ لأن هذا التكيّف وراءه تربية أطفال وتغذيتهم وتنشئتهم، والرجل ليس مكيّفاً أبداً لهذا الدور؛ فهو لا يملك ثدياً لإرضاع طفله، ولا يملك سعة صدر لتحمّله وتحمل بكائه وآلامه ونوبات مرضه، ولا يملك طاقة كافية للقيام على شؤونه من تنظيفه وتربيته وما إلى ذلك.

كما أن المرأة – وقد أشرنا إلى هذا أيضا في محاضرات أُخرى – لا تعطي الطفل غذاءه من اللبن فقط حينما ترضعه، بل إنها ترضعه العاطفة والاستقرار النفسيّين والسكون والهدوء، فهي بمقدار ما تطعمه وتملأ معدته من اللبن تسكب في روحه الدعة والراحة والأمن والاستقرار، بل ربما تعطيه من هذه الأُمور النفسية قدراً أكبر.

وبهذا فإننا نخلص إلى نتيجة هي أن المرأة بما كُيّفت له ليست أفضل من الرجل، وأن الرجل بما كُيّف له ليس أفضل من المرأة؛ لأن المسألة لا تعدو أن تكون مسألة تصنيف وليست مسألة تفضيل، أو كما يقال: مسألة تفصيل لا تفضيل. ولهذا فإننا نجد أن النظريّة القرآنيّة تريد أن تربّي المجتمع على فكرة أن الرجل يجب أن يقتنع بأن المرأة إلى جانبه وفي المستوى عينه، وليس الأمر قائماً على أن المجتمع الذكوري أفضل من المجتمع النسوي. وهذا الأمر شامل لجميع الميادين، كي

يتعاونا معاً على صنع الحياة.

الإسلام وحقوق المرأة

وربما يقول قائل: إذا كان الأمر كذلك، فلماذا يمنع الإسلام المرأة من مزاولة بعض الأشياء ويسلبها حرّيّتها فيها؟ مثلاً فهو لا يعطيها الحقّ في الولاية العامّة شأنها في ذلك شأن الرجل. نعم الإسلام ربما يعطيها ولاية خاصّة، لكن الولاية العامّة لا يعطيها إيّاها.

والجواب على هذا هو أن نقول: إن السبب الذي من أجله لم يعطِ الإسلام للمرأة ولاية عامة هو أن المرأة يكون عندها بعض الأُمور التي تخصّها ـ أي أنها أُمور غير موجودة عند الرجل ـ وهذه الأُمور قد تشغلها، بل هي فعلاً كذلك؛ حيث إنها تشغلها عن ممارسة سلطة هذه الولاية التي نتحدّث عنها، وعن أداء حقوقها المترتّبة لها، وواجباتها المترتّبة عليها في هذه الفترات التي تمرّ هي بها. ومن ذلك فترات الحيض أو العادة الشهرية، وفترات النفاس، والحمل، وما يرافق الحمل من وحام وما شاكل ذلك.

وهذه الأدوار كلّها تأخذ حيّزاً كبيراً من حياة المرأة الجسديّة والنفسية، ومن تفكيرها وصحّتها، فالغدة الدرقيّة عندها تتأثّر تأثّراً بالغاً في هذه الأيام التي تمر بها؛ فيحصل لها سلوك نفسي خاصّ يمتاز بالعصبيّة وعدم الاستقرار. وهذا الأمر أخذه الإسلام بنظر الاعتبار في عدم إعطائها حقّ الولاية العامّة.

إذن فحينما تناط بالمرأة مسؤولية عامّة كبيرة، فإن هذه المسؤوليّة تحتاج إلى جهد وضغط عصبيّين ونفسيّين وجسديّين كبيرين، والممارسات الوظيفية لهذه الولاية تضيف عليها تعباً وضغطاً نفسيّين وعصبيّين جديدين، ثم يأتي دور هذه

المراحل التي ذكرناها والتي تتغيّر فيها الحالة النفسيّة للمرأة وتتأزم كثيراً. فكلّ هذه العوامل تجتمع لتشكّل عامل ضغط شديد على المرأة؛ ولهذا فإن الإسلام جنّبها مثل هذه المواقف.

وكما نوّهنا فإن هذا ليس فيه تفضيل للرجل على المرأة مطلقاً، بدليل أن فقهاءنا يقولون: إن المرأة لها الحقّ في الحصول على كامل حقوقها المدنيّة الأُخرى، كأن تَنتخب وتُنتخب.

إنني آنس كثيراً عندما أرى أن البعض الغالب من فقهائنا المعاصرين يعطون المرأة حقّ الانتخاب، شريطة ألّا تكون هناك مفسدة في البين. وهذا طبيعي؛ فالعصر قد تغيّر، وأصبحت له قيمه وعاداته المختلفة [1]، والانتخاب أصبح ضرورة من ضرورات العصر الحديث. وحتى من الناحية الشرعيّة فإن الانتخاب لا يعدو كونه وكالة، فحينما ينتخب أحد أحداً غيره، فهو في الحقيقة إنما يوكله في ممارسة دور تحصيل حقوقه عامّة نيابة عنه، والمرأة لها حقّ الوكالة، وتصحّ منها الوكالة كما تصحّ من الرجل؛ لأن الأهليّة القانونيّة عند المرأة متوفّرة، وهي حالها في ذلك حال الأهليّة القانونيّة للرجل.

ولو أننا رجعنا إلى موضوع الوكالة لوجدنا أن من شروطها الأهلية الكاملة. وهي قضية قابلة للتجزّؤ، فالمشرّع الإسلامي يجزّئ الأهلية فيعطي البعض أهلية غير كاملة كالصبي ذي العشر سنين فإنه لا يوكل في بعض الأعمال، لكن المرأة من الناحيتين القانونية والشرعية تعدّ كاملة الأهليّة. وهذا هو السبب الذي من أجله يعطيها بعض الفقهاء الحقّ بأن تَنتخب وتُنتخب. وهذا كما قلنا بشرط ألّا

---

(١) وممّا ينسب لأمير المؤمنين عليه السلام قوله: «لا تقسروا أولادكم على تربيتكم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم». شرح نهج البلاغة ٢٠: ٢٦٧ / الحكم المنسوبة إلىٰ أمير المؤمنين عليه السلام.

يكون هناك مفسدة في البين؛ لأن المشرّع الإسلامي المقدس يهتمّ كثيراً بجانب الطهارة والعفّة عند المرأة، فهو يؤكّد أكثر ما يـؤكّـد عـلى كـونها نـظيفة عـفيفة طاهرة محصنة؛ لأنها وسيلة بناء الأُسرة والمجتمع، ولأنها مستودع تربية الأطفال والقناة إلى ذلك، ولأنها المثل الأعلى للأبناء داخل الأُسرة؛ فإذا صلحت صلحوا، وإذا فسدت فسدوا كما مرّ ذكره.

وبالنتيجة فإن نظافة المرأة تعني نظافة المجتمع واستقامته، وفي المقابل كذلك فإن تلوّثها بالخطيئة والانحراف يعني تلوث المجتمع، وبـالتالي انـحطاطه كـلّه وانتكاسه.

وعليه فالتعبير القرآني حـينما يـضع المـرأة إلى جـانب الرجـل فـي مسـألة الخطابات التي يعتمدها هذا الكتاب الكريم؛ سواء كانت خـطابات مـولويّة، أو إرشادية فهو إنما يهدف إلى أن يبيّن للرجل أن المـرأة ليست أدنـى مـنه مـرتبة ومستوى، فهو يقول له: إني أضع المرأة إلى جانبك؛ كي تتخلّص من المـوروث الاجتماعي الجاهلي الذي يعيش في رأسك، والذي يجب عليك أن تتخلّى عنه، وتعود إلى الاختيار الإلهي في هذه المسألة.

المبحث الثاني: في معنى الولاية

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، وقد اختلف المـفسّرون فـي معنى الولاية الواردة فيها، فهم تارة يقولون بأنها التناصر والتراحم، وتارة يقولون بأنها القيام ببعض الأعمال. وسوف أروي هنا حادثة تلقي الضوء عـلى المـعنى المقصود والمراد من هذا المقطع الكريم، وهي حادثة وقعت لصـفوان الجـمّال، وصفوان هذا قد وردت فيه رواية كان للإمام الكاظمعليه السلام موقف حدّي واضح معه فيها، حيث إنهعليه السلام قال له: **«كلّ شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً»**. فقال

له: جعلت فداك، أي شيء؟ قال عليه السلام: **«إكراؤك جمالك من هذا الرجل»**. يعني هارون الرشيد، فقال له: والله تعالى، ما أكريته أشراً ولا بطراً، ولا للصيد ولا للّهو، ولكني أكريته لهذا الطريق - يعني طريق مكّة - ولا أتولّاه بنفسي، ولكن أبعث معه غلماني. فقال عليه السلام له: **«يا صفوان أيقع كراؤك عليهم؟»**. قال: نعم. قال عليه السلام: **«أتحبّ بقاءهم حتى يخرج كراك؟»**. قلت: نعم. قال عليه السلام: **«فمن أحبّ بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم كان ورد النار»**. قال صفوان: فذهبت فبعت جمالي عن آخرها[1].

أي أنه عليه السلام يبيّن له أنهم بهذا يركنون إليهم، والقرآن الكريم يقول: **﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾**[2]؛ لأنهم إنما يرفعونهم على أكتافهم ويوصلونهم إلى مرادهم، وهذا لون من ألوان الركون إلى الظالم.

---

(١) وسائل الشيعة ١٦: ٢٥٩ / ٢١٥٠٨، ١٧: ١٨٢ - ١٨٣ / ٢٢٣٠٥، وانظر جواهر الكلام ٢٢: ٥٣. ومثله حديث ابن أبي يعفور عن أبي عبد الله عليه السلام حينما دخل عليه رجل من أصحابه فقال له: أصلحك الله تعالى، إنه ربما أصاب الرجل منا الضيق أو الشدّة فيدعى إلى البناء يبنيه، أو النهر يكريه، أو المسنّاة يصلحها، فما تقول في ذلك؟ فقال عليه السلام «ما أحب أني عقدت لهم عقدة، أو وكيت لهم وكاء وأن لي ما بين لابتيها، لا ولا مدّة بقلم. إن أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يحكم الله بين العباد». الكافي ٥: ١٠٧ / ٧.
وحديث يحيى بن إبراهيم بن مهاجر قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: فلان يقرئك السلام، وفلان وفلان. فقال عليه السلام: «وعليهم السلام». قلت: يسألونك الدعاء. فقال عليه السلام: «وما لهم؟». قلت: حبسهم أبو جعفر. فقال: «وما لهم وما له؟». قلت: استعملهم فحبسهم. فقال: «وما لهم وما له؟ ألم أنههم؟ ألم أنههم؟ ألم أنههم؟ هم النار، هم النار، هم النار». قال: ثم قال عليه السلام: «اللهم اخدع عنهم سلطانهم». قال: فانصرفت من مكّة، فسألت عنهم فإذا هم قد أُخرجوا بعد هذا الكلام بثلاثة أيّام. الكافي ٥: ١٠٧ / ٨.
(٢) هود: ١١٣.

ورواية المقام التي أشرنا إليها هي أن صفوان قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قد عرفتني بعملي، تأتيني المرأة أعرفها بإسلامها وحبّها إيّاكم، وولايتها لكم، ليس لها محرّم. فقال عليه السلام: «**إذا جاءت المرأة المسلمة فاحملها، فإن المؤمن محرّم المؤمنة**»، ثم تلا هذه الآية: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾[1].

ذلك أن الأصل أن يكون المؤمن نظيفاً طاهراً، فهذه هي الحال الطبيعية للمؤمن، فإذا كان كذلك استحقّ أن يكون وليّ المؤمنة. وبالنتيجة فإنه يحافظ على سمعتها وكرامتها وعرضها. فمازال المؤمن يمتلك هذه المقوّمات، وهو مؤمن بمعنى أنه يمتلك أساساً صفة الإيمان فإنه يجب عليه أن يتحلّى بصفة النظافة والطهارة؛ كي يكون أهلاً لأن يصبح وليّاً للمؤمنة. إن هناك قاعدة عند الأُصوليّين تنصّ على أنه إذا ترتّب الحكم على الوصف، فإنّ هذا يشعر بأن الصفة علّة له، بمعنى أن القرآن الكريم حينما يقول: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾، فهو إنما يصفهم بالإيمان، وهذا الإيمان أصبح علّة لكون بعضهم أولى ببعض.

ولتوضيح المعنى أكثر نقول: إن المؤمن معنى خارجي يتركّب من جزأين: الجزء الأول هو الإنسان، والجزء الثاني هو الإيمان.

إذن فالمؤمن يعني: الرجل أو المرأة المتّصفين بصفة الإيمان.

وعليه فعندما يقول: ﴿**بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾ فإن هذا هو موضوع الحكم، وإذا كان هذا هو الموضوع فأين الحكم؟ الحكم هو كونهم أولياء بعض، وهذا الحكم إنما ترتّب على الإيمان، أي أنه ترتّب على الوصف؛ ولذا فإنه

---

(١) وسائل الشيعة ١١: ١٥٣ – ١٥٥ / ١٤٥٠٣.

أشعر بأن الوصف علّة لهذا الحكم. وبناءً عليه فإنه ليس كلّ رجل بمقدوره أن يصطحب معه امرأة ليس معها أحد من أرحامها إلى الحجّ ـ أي يصطحبها بمفردها ـ بل إن الرجل المؤمن ـ وهو الذي يمتلك صفة الإيمان ـ هو الذي بمقدوره أن يصطحب تلك المرأة وإن لم يكن معها أحد من محارمها؛ لأنه حينئذ يعتبر ولياً لها، وهو لم يستحقّ هذه الصفة إلّا لأنه قد توفّرت فيه صفة العفّة والطهارة، وغضّ البصر، وصيانة ما حرّم الله تعالى؛ لأن هذه الأُمور من لوازم الإيمان.

إذن الوصف يشعر بأنه علّة للحكم، ومن هذا نفهم أن القرآن الكريم يريد أن يقول: يجب على المجتمع أن يتراحم ويتعاطف ويتعاون فيما بينه على صعيد الجنسين ـ الذكر والأُنثى ـ فيتعاونا على البناء، أي بناء مجتمع وتكوين أُمّة صالحة مستقيمة يسوسها الإيمان والعفة والطهارة؛ حتى لا يتحوّل ذلك المجتمع إلى كيان منخور. فالرجل المؤمن يفترض فيه – بما له من صفة الإيمان الذي من لوازمه العفّة والطهارة والنزاهة، وصيانة ما حرّم الله – أن يحفظ المرأة وألّا يعتدي عليها، كما أن المؤمن يفترض به أن يرشد أخاه المؤمن ويوجّهه وينصحه إذا أخطأ أو اقتضت الضرورة ذلك[1].

---

(١) ورد في الحديث الشريف عن رسولنا الأكرم ﷺ أنه قال: «المؤمن مرآة أخيه المؤمن؛ يرى فيه حسنه وقبحه». المجازات النبويّة: ٧٩ / ٤٧.
وكذلك عنه ﷺ: «المؤمن مرآة أخيه يميط عنه الأذى». مشكاة الأنوار: ١٨٩ ـ ١٩٠، وسائل الشيعة ١٢: ٢١٠ / ١٦١٠٨.
وفي غيره عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «المسلم مرآة أخيه؛ فإذا رأيتم من أخيكم هفوة فلا تكونوا عليه إلباً، وأرشدوه وانصحوا له وترفّقوا به. وإياكم والخلاف فإنه مروق». عيون الحكم والمواعظ: ٧٠، الخصال: ٦١٨ / ١٠، تحف العقول: ١٠٨.

وسوف أروي هنا حادثة استدلّ بعض الفقهاء فيها بهذه الآية، كان حاكم مصر أحمد بن طولون متحلّياً بالعدل مع تجبّره وسفكه للدماء، وكان يجلس للمظالم وينصف المظلوم. وقد حكي أن ولده العباس استدعى مغنيّة وهو يصطبح يوماً، فلقيها بعض صالحي مصر ومعها غلام يحمل عودها، فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا جارية سيّدي العبّاس بن أحمد بن طولون. فقال لها: ما هذا الذي معك؟ قالت: العود؛ لأُغنّيه به. فأخذه منها فكسره.

فجاءت سيّدها وأخبرته بما حصل لها مع ذلك الرجل الصالح، فدخل العبّاس إلى أبيه وأخبره بذلك، فأمر بإحضاره، فلما أُحضر إليه قال له: أنت الذي كسرت العود؟ قال: نعم. قال: أفعلمت لمن هو؟ قال: نعم، هو لابنك العبّاس. قال: أفما أكرمته لي؟ قال: أُكرمه لك بمعصية الله عزّ وجلّ، والله تعالى يقول: **﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**، ورسول الله ﷺ يقول: **«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»**[١]؟ فأطرق أحمد بن طولون عند ذلك، ثم قال: كلّ منكر رأيته فغيّره، وأنا من ورائك[٢].

فهذا الرجل الصالح كان قد رام وجه الله تعالى؛ ولذا فإن ابن طولون يقرّر له أنه بفعلته هذه يكون قد فعل فعلاً كريماً يستهدف من ورائه تنظيف المجتمع من الانحلال.

إذن فهذه الآية الكريمة تريد أن تقرّر للمؤمنين أنهم أولياء بعض، وهذه الولاية

---

(١) مسند أحمد ١: ١٣١، ١٤٩، وغيرها.

(٢) المستطرف من كلّ فن مستظرف ١: ٢٢٨ - ٢٢٩.

لها شروطها، ولها واجباتها وحقوقها، ولها من يتولّاها.

المبحث الثالث: مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ﴾، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة لها مراتب متعدّدة؛ فهي تارة تكون بالإنكار القلبي، وأُخرى تكون بالإنكار اللفظي، وثالثة تكون بالإنكار العملي بحيث إنه يصل إلى مستوى التضحية بالنفس. وهذا تاريخ الإسلام والمسلمين بين أيدينا ينبئنا عن أن هناك الكثير ممّن وصلوا إلى هذه المرتبة من التضحية والإنكار للمنكر، فهذه حمنة بنت جحش أُخت زينب التي تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن طلّقها زيد، جاءت مهرولة مولولة بعد معركة أُحد، وكان الناس ينظرون إليها وهي ذاهلة فيظنّونها مسكينة تبحث عمّن فقد لها، فقالوا: هذه مسكينة مذهولة لفقد أخيها وخالها وزوجها.

لكن الواقع كان خلاف هذا؛ حيث إن هذه المرأة التي لم يبقَ لها شيء، كان كلّ همّها أن تنظر إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكأنها تريد أن تقول: إن بذهابنا جميعاً لا تترتّب أي مضرّة للإسلام بخلاف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حامل الرسالة السماوية المتجسّدة بشخصه ووجوده وأخلاقه؛ فإن بفقده فقدَ الإسلام، وبذهابه ذهابَ هذا الدين الجديد.

فأي إيمان أكبر من هذا الإيمان؟ وأي عزم أكبر من هذا العزم؟ وما أعظم هذه البطولة من هذه المرأة التي راحت تعزّي نفسها عن فقد زوجها وخالها وأخيها بسلامة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ وهكذا راحت تصيح: أين رسول الله؟ وراحت تبحث عنه صلى الله عليه وآله وسلم حتى لقيته، فنعى صلى الله عليه وآله وسلم لها أخاها عبد الله بن جحش رضي الله عنه فاسترجعت واستغفرت، ثم نعى لها خالها الحمزة بن عبد المطّلب رضي الله عنه فاسترجعت واستغفرت،

ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير رضي الله عنه فولولت، لكنها عادت بعد ذلك وقالت: وإنك لحيٌّ يا رسول الله؟ كلّ مصيبة بعدك جَلَل [١].

ومثل حمنة هذه نسيبة بنت كعب المازنية المعروفة بأُمّ عمارة، هذه المرأة المجاهدة التي نزلت يوم أُحد إلى المعركة لتطبّب الجرحى بما تيسّر عندها من علاجات بدائيّة، لكنها لما رأت أن الحرب قد اشتدّ أُوارها والناس قد انهزموا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخذت سيفاً وراحت تدافع عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى ضُربت ضربة أجافتها، أي بلغ السيف جوفها. فلما عولج كتفها وشدّ، أمسكت السيف باليد الثانية وأخذت تقاتل حتى قتلت بعضاً منهم. فأي إيمان أعظم من هذا الإيمان؟ هذا في حين أن هناك مجموعة كبيرة من الرجال قد انهزموا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان العباس بن عبد المطلب يعدو خلفهم ليردّهم إلى القتال وهو ينادي: يا أهل بيعة الشجرة، هذا رسول الله، ويحكم ثوبوا إليه [٢].

آية المقام والكفاءة بين الزوجين

إذن فالقرآن الكريم يضع الرجال والنساء في صفّ واحد متكافئ، وقد استفاد الفقهاء من هذا الأمر في هذا المقام عدم اشتراط الكفاءة في غير الإسلام والإيمان بين المرأة والرجل مما هو من عرض الدنيا. وعليه فالمسلم كفء المسلم مادام مؤمناً، والأشياء الدنيويّة ليس لها مدخليّة بالكفاءة هنا أبداً.

وهذا هو رأي الإمامية والمالكيّة في المسألة، بل إن المذاهب الإسلاميّة

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٢١٠، لكنه لم ينسب قول: «كلّ مصيبة بعدك جَلَل» لها، بل نسبه في المورد نفسه لامرأة من بني النجّار، شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٦٢، مواهب الجليل ٥: ٢٩٢.

(٢) المزار (المشهدي): ٢٧٤، تفسير السمعاني ٢: ٢٩٩.

الأُخرى التي تشترط الكفاءة إنما تشترطها بالأُمور الكسبية لا بالأُمور الذاتية. فالمال لا يمكن أن يشكّل شيئاً ذا قيمة في موضوع الكفاءة حتى يصبح شيئاً مميزاً، فليس فيه ما يمكن أن يجعله ذا ميزة من مزايا التميز أو التمييز، فهو لا يمنح المجنون عقلاً ولا يصير الجاهل عالماً. كما أن هذا هو المفروض الذي يجب أن يكون لأنه بهذا لا يمنح صاحبه كرامة واحتراماً؛ فالشخص المحترم محترم وإن كان فقيراً، وهذا هو شأن أنبياء الله ورسله، وأوليائه وخاصّته.

إذن فالمسلم كفء المسلم من أي جنس كان، أمّا ما تعتمده بعض المذاهب الإسلامية من أن هناك فرقاً بين الناس بلحاظ أن أُمّهات بعضهم عربيّات وأُمّهات البعض الآخر جوارٍ، وأنهم بهذا يتفاضلون، فهذا غير منطقي وليس بصحيح البتّة.

رواية «أبيتم يا آل أبي سفيان إلّا كرماً»

وهؤلاء يخترعون رواية يستشهدون بها، ويحتجّون على صحّة مذهبهم هذا، وهي ما يرويه المدائني من أن عقيل بن أبي طالب ذهب إلى معاوية يوماً، وهذا بطبيعة الحال على فرض التسليم بوقوعه فهو بعد استشهاد أمير المؤمنين؛ فنحن نعلم أن عقيلاً كتب إلى أمير المؤمنين حين بلغه خذلان أهل الكوفة وعصيانهم إياه كتاباً يقول فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله علي أمير المؤمنين من عقيل بن أبي طالب. سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلّا هو.

أما بعد: فإن الله حارسك من كلّ سوء، وعاصمك من كلّ مكروه. وعلى كلّ حال، إني خرجت إلى مكّة معتمراً فلقيت عبد الله بن سعد بن أبي سرح في نحو من أربعين شابّاً من أبناء الطلقاء، فعرفت المنكر في وجوههم، فقلت لهم: إلى أين يا

أبناء الشانئين؟ أبمعاوية تلحقون؟ عداوة والله منكم قديمة غير مستنكرة، تريدون بها إطفاء نور الله وتبديل أمره. فأسمعني القوم وأسمعتهم.

فلما قدمت مكّة سمعت أهلها يتحدّثون أن الضحّاك بن قيس أغار على الحيرة فاحتمل من أموالهم ما شاء، ثم انكفأ راجعاً سالماً؛ فأُفٍّ لحياة في دهر جرّأ عليك الضحّاك، وما الضحاك؟ فقع بقرقر. وقد توهّمت حيث بلغني ذلك أن شيعتك وأنصارك خذلوك، فاكتب إليّ يابن أُمّي برأيك، فإن كنت الموت تريد تحمّلت إليك ببني أخيك وولد أبيك فعشنا معك ما عشت ومتنا معك إذا متّ. فوالله ما أُحب أن أبقى في الدنيا بعدك فواقاً. وأُقسم بالأعزّ الأجلّ إن عيشاً نعيشه بعدك في الحياة لغير هنيء ولامريء ولا نجيع، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

فأجابه عليه السلام بكتاب جاء فيه: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى عقيل بن أبي طالب، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلّا هو. أما بعد: كلأنا الله وإيّاك كلاءة من يخشاه بالغيب إنه حميد مجيد. فقد وصل إليّ كتابك**».

إلى أن قال: «**وأمّا ما عرضت به علي من مسيرك إليّ ببنيك وبني أبيك، فلا حاجة لي في ذلك؛ فأقم راشداً محموداً، فوالله ما أُحبّ أن تهلكوا معي إن هلكت. ولا تحسبن ابن أُمّك ولو أسلمه الناس متخشّعاً ولا متضرّعاً ولا مقرّاً للضيم واهناً، ولا سلس الزمام للقائد، ولا وطئ الظهر للراكب المقتعد، إني لكما قال أخو بني سليم:**

فإن تسأليني كيف أنت فإنني ... صبور على ريب الزمان صليبُ
يعزّ علي أن تُرى بي كآبة ... فيشمت عادٍ أو يساء حبيبُ»[1]

---

(١) الغارات ٢: ٤٢٨ - ٤٣٦.

على أية حال بعد أن دخل على معاوية قال له: هل من حاجة فأقضيها لك؟ قال: نعم، جارية عرضت علي وأبى أصحابها أن يبيعوها إلّا بأربعين ألفاً، فأحبّ معاوية أن يمازحه فقال له: وما تصنع بجارية قيمتها أربعون ألفاً وأنت أعمى؟ تستطيع أن تجتزئ بجارية قيمتها خمسون درهماً. قال: أرجو أن أطأها فتلد لي غلاماً إذا أغضبته يضرب عنقك. فضحك معاوية وقال له: مازحناك يا أبا يزيد. ثم أمر فابتيعت له تلك الجارية التي أولد منها مسلماً رضي الله عنه.

فلما أتت على مسلم رضي الله عنه ثماني عشرة سنة وقد مات عقيل أبوه قال لمعاوية: يا أمير المؤمنين؛ إن لي أرضاً بمكان كذا من المدينة، وإني أُعطيت بها مئة ألف، وقد أحببت أن أبيعك إياها، فادفع إليّ ثمنها.

فأمر معاوية بقبض الأرض ودفع الثمن إليه، فبلغ ذلك الحسين عليه السلام، فكتب إلى معاوية: **«أمّا بعد: فإنك اغتررت غلاماً من بني هاشم، فابتعت منه أرضاً لا يملكها، فاقبض من الغلام ما دفعته إليه واردد علينا أرضنا»**. فبعث معاوية إلى مسلم فأخبره ذلك وأقرأه كتاب الحسين عليه السلام وقال: اردد علينا مالنا، وخذ أرضك؛ فإنك بعت ما لا تملك. فقال مسلم رضي الله عنه: أما دون أن أضرب رأسك بالسيف فلا. فاستلقى معاوية ضاحكاً يضرب برجليه وقال: يا بني هذا والله كلام قاله لي أبوك حين ابتعت له أمّك. ثم كتب إلى الحسين عليه السلام: إني قد رددت عليكم الأرض وسوّغت مسلماً ما أخذه. فقال الحسين عليه السلام: **«أبيتم يا آل أبي سفيان إلّا كرماً»** (١).

نقد الرواية ومناقشتها

والغرض من هذه الرواية هو هذه العبارة الأخيرة، وهي قولة الإمام

---

(١) بحار الأنوار ٤٢: ١١٦ - ١١٧، شرح نهج البلاغة ١: ٢٥١ - ٢٥٢.

الحسين عليه السلام له: «**أبيتم يا آل أبي سفيان إلّا كرماً**». وسوف أُبيّن هنا موارد النقد على هذه الرواية وهو ما سأحصره بالآتي:

الأمر الأول: المغالطة في نسب أم مسلم رضي الله عنه

إن أُمّ مسلم رضي الله عنه اسمها عليّة، وأبوها من ملوك النبط من آل سرجان، ويظهر من الأقوال أن عقيلاً اجتمع في مكّة مع أبيها فخطبها منه وتزوّجها. ونحن لا يعنينا أن تكون ابنة ملك أو لا، بل الذي يعنينا هنا هو أن هذه المرأة هي غير تلك المذكورة في الرواية. وليس هذا فقط، بل لأننا نعتقد أن الأموال لا تزيد من مكانة الشخص ولا تنقصها.

الأمر الثاني: المفارقة التاريخيّة للرواية

فبناء على هذه الرواية يكون عمر مسلم بن عقيل رضي الله عنه يوم الطفّ دون العشرين سنة؛ لأن التحاق عقيل بن أبي طالب بمعاوية كان في سنة (٤١) للهجرة، وعلىٰ فرض أن حادثة الزواج هذه قد حدثت فإنها ربما تكون وقعت في نهاية سنة (٤١) أو في سنة (٤٢) للهجرة، وبهذا فإن مسلماً رضي الله عنه يكون قد ولد سنة (٤٢) أو (٤٣) للهجرة، وهذا يعني أن عمره يوم الطف كان (١٧) أو (١٨) عاماً، في حين أن المسلّم به هو أن عمر مسلم بن عقيل رضي الله عنه يوم الطف كان (٣٥) سنة.

الأمر الثالث: أن فعل مسلم يخالف فقه أهل البيت عليهم السلام

إن من المعلوم المسلّم به والمقطوع به أن مسلم بن عقيل رضي الله عنه من فقهاء أهل البيت عليهم السلام ومن خاصّة أهل بيت الحسين عليه السلام، ودليل هذا ما كتبه سيد الشهداء عليه السلام لأهل الكوفة: «**وأنا باعث إليكم أخي وابن عمّي وثقتي من أهل**

بيتي مسلم بن عقيل»[1].

فإذا كان مسلم بن عقيل المفضّل عند الحسين من أهل بيته، فكيف يمكن أن ينهب الأرض ويبيعها؟ إن الإمام الحسين لا يفضل إلّا من فضّله الله تعالى، ولا يقرب إلّا المخلص المؤمن المتهجّد. إن هذا الفعل الذي تنسبه الرواية لمسلم بن عقيل لا يمكن أن يقوم به أبسط الناس إيماناً وأقلّهم ورعاً وتقوى، فكيف الحال بمسلم بن عقيل وهو ما هو عليه من صفات أبرزها الإمام الحسين بحقّه في كتابه الذي ذكرنا؟

الأمر الرابع: عدم امتلاك مسلم حجّة الأرض

ثم إنه إذا كانت الأرض له، فكيف لا يملك حجّتها أو وثيقتها الشرعيّة التي تثبت تلك الملكيّة له؟ وكيف يشتري معاوية منه أرضاً ولا يطالبه بإحضار وثيقة تملك تلك الأرض؟ إن هذا لا يمكن أن يكون، لأن المتعارف بين الناس أن أحداً إذا أراد أن يشتري أرضاً أو داراً أو غيرهما من شخص فإنه يطالبه بوثيقة التملّك، وهذا ما لا يمكن أن يكون قد حدث في هذه الصفقة؛ لأن الرواية تقول: إن الأرض لم تكن لمسلم، أي أنه لم يكن يملك وثيقة التملّك. وكذلك لو كان هذا الأمر واقعاً لردّ معاوية على الإمام الحسين بأن الأرض لمسلم، وقد أبرز حجّتها عند المبايعة، حينما ذكر له أن هذه الأرض ليست لمسلم.

الأمر الخامس: أن فيها استخفافاً بمسلم

فعلى فرض أن الرواية مثبتة في شأن أن الأرض كانت لمسلم، فإذا كان الأمر كذلك، فكيف يكتب الإمام الحسين لمعاوية يطلب منه أن يرجع الأرض

---

(١) روضة الواعظين: ١٧٣، الكامل في التاريخ ٤: ٢١.

ويسترجع أمواله، مع أن مسلم بن عقيل رجل بالغ، وتصرّف البالغ صحيح ويجيزه الشرع؟ فحينما يملك رجل أو امرأة قطعة أرض ثم يبيعها فإنه يكون قد باع ما يملك، وإذا كان قد باع ما يملك فإن تصرّفه صحيح وليس من حقّ أحد آخر أن يعترض عليه.

ولو قال قائل: إن الإمام الحسين إنما اعترض بدافع الولاية العامّة التي له على الناس؛ باعتبار أنه إمام معصوم مفترض الطاعة.

لقيل: إن هذا لا يعني إعطاء حقّ سلب الملكية، أي أنه يعترض على البيع دون أن يسلب مسلماً ملكيته لهذه الأرض.

وربما يرى البعض أن من المصلحة ألّا تباع على معاوية، لكن في مثل هذه الحال يجب أن يتوجّه الخطاب على هذا الأساس لا على أساس أن معاوية قد اشترى أرضاً من شخص لا يملكها؛ لأن هذا كذب، والإمام المعصوم منزّه عن الكذب، فلا يقول: لقد اشتريت أرضاً من شخص لا يملكها، وهو في واقع الحال يملكها. فهذا كذب واضح وافتراء فاضح منزّه عنه الإمام المعصوم.

خلاصة المبحث

إذن من بعد هذه النقاط التي سقناها وجعلناها إيرادات على هذه الرواية لابدّ أن نكون قد تنبّهنا إلى الغرض الصحيح الذي يهدف من ورائه أُولئك الذين اخترعوها من أجل خدمة أغراضهم وأهدافهم والاستدلال بها على ما يريدون أن يفتوا به. وكذلك يمنح الأُمويين منزلة ليسوا أهلاً لها، فيصوّرون معاوية على أنه كريم وذو فضل على الهاشميّين، وأن الإمام الحسين قال له: «**أبيتم يا آل أبي سفيان إلّا كرماً**». والحال أنه لم يكن هكذا أبداً، والدليل على هذا أن المحدّثين

والمؤرّخين يروون هذه الرواية فيقولون: إن هنداً زوجة أبي سفيان جاءت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل بخيل، فهل عليّ أن أُطعم عيالنا من ماله؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا، إلّا بالمعروف**». أي بقدر حاجتكم[١].

فهؤلاء لم يكن معروفاً عنهم الكرم والجود، فكيف يمدحهم الإمام الحسين عليه السلام بهذا المدح، وهو العارف بأحوال العرب؟ فالكلمات على أية حال كلّها مخترعة، ولا تصمد أمام النقد، وإلّا فإن مسلماً رضي الله عنه كما ذكرنا موضع ثقة الإمام الحسين عليه السلام بشهادة الإمام عليه السلام نفسه. ولو لم يكن موضع ثقته ومعتمده لما أرسله إلى هذا البلد المشتعل بالحركات المتماوجة والمتناقضة، والمفعم بالمشاكل والرزايا.

إذن فاعتماد الإمام الحسين عليه السلام عليه كان دليلاً على أن مسلماً رضي الله عنه هو أهل لهذه الثقة؛ لورعه وإيمانه وتقواه وشدّة التصاقه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبأهل بيته عليهم السلام، وبالدين الحنيف.

المبحث الرابع: دور مسلم بن عقيل في الكوفة

ولقد حقّق مسلم رضي الله عنه ظنّ الإمام الحسين عليه السلام به حينما أرسله، فقد وقف موقفاً جسّد فيه الوفاء بأسمى معانيه. ونحن نعرف البداية التي دخل بها الكوفة والنهاية

---

(١) فتح الباري ٩: ٤٤٧، عمدة القاري ١٦: ٢٨٤، ٢١: ١٩، الإصابة ٨: ٣٤٧، تاريخ مدينة دمشق ٧٠: ١٧٧ – ١٧٨، ومنها مارواه كل من أحمد بن حنبل، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وغيرهم من أن فاطمة بنت قيس جاءت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكرت له أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباها، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لامال له».
انظر: مسند أحمد ٦: ٤١٢، صحيح مسلم ٤: ١٩٥، سنن أبي داود ١: ٥١٠ / ٢٢٨٤، سنن النسائي ٦: ٧٧ – ٧٥.

التي انتهى به المطاف إليها فيها، فبعد أن أُدخل إلى قصر الإمارة بعد قتال عنيف خاضه ضد جيش كامل جاءه مدجّجاً بالسلاح، وبعد أن قتل منهم خلقاً كثيراً، وبعد أن أثخنته الجراح وأخذه الطعن من كلّ جانب ومكان جاؤوا به والدم ينزف منه، فأوقفوه على باب قصر الإمارة، فنظر إلى قُلّة ماء وكان عطشاناً، فقال: اسقوني شيئاً من الماء.

فالتفت إليه مسلم بن عمر الباهلي وقال له: أتراها؟ ما أبردها! لا والله لا تذوق منها قطرة أبداً حتى تذوق الحميم في نار جهنم. فقال له مسلم رضي الله عنه: ويلك من أنت؟ فقال: أنا الذي عرف الحقّ إذ أنكرته، ونصح لإمامه إذ غششته، وأطاعه إذ خالفته، أنا مسلم بن عمرو الباهلي. فقال له مسلم بن عقيل رضي الله عنه: لأُمّك الثكل، ما أقساك وأفظّك وأقسى قلبك! أنت يابن باهلة أولى بالحميم والخلود في نار جهنم منّي، أما أنا فسأفد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأشرب من حوضه [1].

ثم التفت عمرو بن حريث إلى غلامه، وأشار إليه أن أعطِه الماء. فأتاه الغلام بالقُلّة؛ فلما أدناها مسلم رضي الله عنه ليشرب منها امتلأ الكأس دماً، فأفرغها وأُوتي بغيرها فلما أراد أن يشرب امتلأ الكأس بالدم ثانية، وكذلك في المرّة الثالثة، وفيها سقطت ثنيتاه داخلها؛ لأن إحدى الضربات كانت على فمه، فوقعت على مقدّم أسنانه، فلما رأى مسلم ذلك قال: الحمد لله، لو كان لي من الرزق المقسوم شربته.

ثم أُدخل على عبيد الله بن زياد فلم يسلّم عليه، فقال ابن زياد: يا مسلم، سواء عليك سلّمت أو لم تسلّم إنك مقتول لا محالة. ثم قال له: قتلني الله إن لم أقتلك قتلة لم يُقتلها أحد في الإسلام من الناس. فقال له مسلم رضي الله عنه: أما إنك أحقّ من

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ٥٢، لواعج الأشجان: ٦٢، تاريخ الطبري ٤: ٢٨١ - ٢٨٢، الكامل في التاريخ ٤: ٣٤.

أحدث في الإسلام ما لم يكن، وإنك لا تدع سوء القِتلة وقبح المُثلة وخبث السيرة ولؤم الغلبة، لأحد أولى بها منك.

فأقبل ابن زياد يشتمه ويشتم الحسين وعليّاً عليهما السلام وعقيلاً، وأخذ مسلم لا يكلّمه، ثم أمر ابن زياد بأن يُصعد به فوق القصر ويضرب عنقه، فقال مسلم: والله لو كان بيني وبينك قرابة ما قتلتني.

ولم يكن يريد بهذا الكلام أن يستجدي عطفهم أو يستدرّ شفقتهم، أو أن يسترحمهم؛ لأنه يعلم من هم، وما هم عليه.

ثم قال مسلم: أُريد رجلاً قرشيّاً أُوصيه. فقام عمر بن سعد إليه وقال له: ما وصيّتك؟ فقال له: أول وصيتي أنا أشهد أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن عليّاً ولي الله ووصيّ رسوله وخليفته في أُمّته. والثانية أن تبيع درعي وتقضي عني سبعمئة درهم استقرضتها. والثالثة أن تكتب إلى سيدي الحسين عليه السلام أن يرجع ولا يأتي إلى بلدكم. فقال له ابن سعد: أما ما ذكرت من الشهادة فكلّنا نشهد بها، وأما بيع الدرع وقضاء الدين فإن شئنا قضيناه وإلّا لم نقضِه، وأما أمر الحسين فلابدّ من أن يقدم إلينا ونذيقه الموت [1].

ثم صاح عبيد الله: أين الذي ضرب مسلم رأسه بالسيف؟ فجيء إليه ببكر بن حمران، فقال له: خذ مسلماً وتولّ أمره واقتله بنفسك. فصعد به إلى أعلى قصر الإمارة وهو يسبّح الله تعالى ويقدّسه، ثم صلى ركعتين، وأدار وجهه إلىٰ جهة الإمام الحسين عليه السلام وصاح: السلام عليك أبا عبد الله، إن ابن عمك أسير بين أيدي القوم، ولا يدري أيبيت أم لا. فضربه بكر بن حمران فقطع رأسه، ورمى بجسده

---

(١) ينابيع المودّة ٣: ٥٨.

الشريف من أعلى القصر:

المگـــدّر گـــضه وشـــاعت اخـــباره ___ رمـــوه الگـــوم مـــن گـــصر الإمـــاره

وكان الإمام الحسينعليه السلام في زرود، فقام من مكانه وهو يقول: « **وعليك السلام يا غريب كوفان** ». ثم قام من فوره إلىٰ خيمة النساء، وأحضر حميدة ابنة مسلم، وأجلسها في حجره، وجعل يمسح على رأسها، فقالت: ياعمّ، أراك تصنع بي ما يُصنع باليتامى؟ قال: «**بنيّة عظم الله لك الأجر بأبيك**»[1].

تگلــه يعـمـي ابــوي ويــنــه



---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٥٤.

﴿١٧٩﴾

الإسلام والمجتمع المدني

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: مشكلة الجهل والتواكلية عند المجتمعات

نزلت هذه الآية الكريمة لتعالج جانباً هاماً من جوانب التاريخ الإسلامي عند المسلمين في بدء الدعوة المباركة. إن المجتمع الذي نزل فيه الإسلام -أعني مجتمع الجزيرة العربيّة- كان يقيس كل الأشياء على ضوء النفع المادي الشخصي، فكانوا يظنّون أنهم بإسلامهم وباتّباعهم هذا الدين الجديد قد أصبحوا ذوي أفضال وأيادٍ على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم؛ بحكم أنها مسألة شخصيّة بظنّهم. ومن هنا جاءت هذه الآية تنبّههم إلى خطأ هذا الاعتقاد وفساده.

وقد بيّن القرآن الكريم هذا الاعتقاد منهم في مورد آخر، فقال جلّ من قائل:

---

(١) الأنعام: ٥٠.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلْ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]. وهكذا نرى أن هذه الآية المباركة نزل بها الأمين جبرائيل عليه السلام لتعالج هذا الجانب الحيوي، وهو جانب إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على تفاهة آرائهم واعتقاداتهم؛ لأن الأُمور لا تقاس جميعها بمقياس النفع المادّي والمصلحة الشخصيّة. وهؤلاء كانوا يطالبون النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بمطالب ويعدّون استجابته صلى الله عليه وآله وسلم لها مقدّمة لإيمانهم به، وبخلاف ذلك فإنهم سوف لن يؤمنوا به. ومن هذه الشروط:

أولا: أن يفتح لهم كنوز الأرض ليأخذوا منها ما يريدون.

ثانيا: أن يخبرهم بما سيقع عليهم وسيحدث لهم في المستقبل، حتى إذا عرفوا أنه خير استقبلوه، وإن عرفوا أنه شرّ اجتنبوه.

ثالثاً: أن يترفّع عن العوارض والصفات البشرية؛ فلا يأكل ولا يشرب ولا يمشي في الأسواق، ولا يفعل ما يفعله بنو البشر.

وهذه الطلبات التي تقدّم بها هؤلاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم هي قضايا وليدة الجهل والتربية الفاسدة غير السليمة؛ ولذا كان لابدّ من نزول آيات تعالج هذا الاعتقاد الفاسد والرؤية السقيمة المخطوءة معالجة واضحة صريحة. وهنا تخاطبهم آية المقام بقولها: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ﴾، فالله تعالى يأمر نبيّه بأن يخبرهم ويوضّح لهم بأن مسألة الإيمان بالله تعالى لا يعود نفعها على الله تعالى، ولا على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بشيء، بل إنه يعود عليهم هم أنفسهم؛ لأنه يقيهم عذاب الله وغضبه وحسابه لحظة الوقوف بين يديه.

---

(١) الحجرات: ١٧.

وفي واقع الأمر أن على هؤلاء أن يشكروا الرسول الأكرمﷺ لا أن يمنّوا عليه إيمانهم وإسلامهم: **﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلْ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**. فالواجب شكر رسول اللهﷺ على نعمته عليهم بما هداهم به، وتقدّم به إليهم من أمر هذا الدين وهذه الرسالة المباركة؛ لأن الغاية والقصد منهما هو تربيتهم وتنشئتهم والإحسان إليهم وتوجيههم.

إذن فالمسألة أنهم يجب ألّا يظنوا أنهم يستطيعون أن يأخذوا من خزائن الله ما يريدون ومتى يشاؤون عبر الرسولﷺ؛ لأن أمر تلبية رغباتهم وإشباع حاجاتهم الماديّة يجب أن يظل بعيداً عن الإيمان بالله تعالى وكونه مشروطاً بحصوله، فضلاً عن ارتباطه به.

خزائن الله تعالى

ثم إن خزائن الله تعالى على قسمين:

١ ـ الخزائن المادية: وهي ما أودع الله تعالى في جوف الأرض وعلى ظهرها من كنوز وثروات عضوية وغيرها، وكذلك في السحاب وما يحمل من خيرات وأرزاق. فكل هذا وأمثاله من خزائن الله تعالى المادية.

٢ ـ الخزائن المعنوية: وهي الهداية إلى الإيمان، والقوة والقدرة على طلب العلم وفهمه، وتحصيل المعرفة واستخدامها في الرقيّ بالبشرية. فكل هذا داخل تحت إطار الخزائن المعنوية التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله: **﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ﴾**، ونبّههم إلى أن داخلهم طاقات يجب أن يستثمروها، وألّا ينتظروا من الرسول الأكرمﷺ أن يفجّرها لهم تلك الطاقات الخارجية

ويستثمرها لهم مع أنهم يعيشون في ظلّها.

وهذه نقطة هامّة جدّاً؛ لأن الناس بهذه الحالة يكونون قد بنوا مجتمعاً اتّكالياً، وهو كمثل إنسان يترك له أبوه ثروة ضخمة فيترك العمل ويعتمد على هذه الثروة فيأكل منها حتى يصبح امرأً مترهّلاً غير قادر على فعل شيء، ولا على استثمار ما منحه الله تعالى من قوى وطاقات وإمكانات بالطلب والتحصيل والجدّ.

فالإسلام يريد من الإنسان أن يقوم بذلك كلّه، وأن يستغلّ وقته وحياته، فقد جاء وكان هناك حالات كثيرة من هذا القبيل.. حالات ينتظر أصحابها من يقدّم لهم لقمة العيش، فكانوا يتجمهرون حول البيت الذي يبذل الطعام، ليصلهم نواله، يقول الشاعر واصفاً هذا:

لنا الجفنات الغرّ يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما[1]

فكان هؤلاء لا يدخلون ميادين الزراعة أو الصناعة، بل ينتظرون أن تغدق عليهم السماء رزقها، أو أن يحين وقت الغزو فيغزوا غيرهم ليسلبوهم ويأكلوا مما انتهبته أيديهم منهم. وكلّ هذا بعيداً عن استنهاض طاقاتهم وإمكانياتهم البدنيّة والذهنيّة واستثمار ما أودع الله تعالى في الكون كلّه من كنوز.

وفوق هذا كلّه نجد أنهم يمدحون من يأكل من كدّ سيفه ورمحه، ويذّمون من يأكل من كدّ يده، فكانوا يجدون بانتزاع الطعام بالسيف صفة محبّبة إلى نفوسهم، فيتركون الأرض معطّلة دون أن تزرع وتسقى إلّا من الدم الذي تريقه سيوفهم ظلماً لينهبوا مال غيرهم الذي هو غالباً آتٍ عن طريق هذه الوسيلة عينها. وكذلك تعطّل الثروات المعدنية التي يجب أن تستغلّ في الصناعة، بل حتى النفس والعقل

---

(١) البيت لحسّان بن ثابت. خزانة الأدب ٨: ١١٤.

يعطّلان فلا يستثمران ثقافياً. ولهذا السبب فإن الأُميّة والجهل كانا يضربان أطنابهما في تخوم ذلك المجتمع، وكان التخلّف يخيّم عليه، حتى جاء الإسلام فعمل على استنقاذه من وهدة الجهل وبؤرة التخلّف.

وهذا الأمر يحتاج تحقيقه إلى جهود ضخمة، وبذل عمل جبّار، وقد تنبّه الإسلام إلى ذلك، وعرف من خلال دراسة واقعهم أن هذا الأمر يتطلّب منه أن يقوم بنقلة نوعية ضخمة جدّاً على المستوى النفسي، وعلى الصعيد الخارجي. وهكذا بدأ فعلاً هذا التوجه الإصلاحي، فراح النبي الأكرمﷺ يستثمر كلّ ما عندهم من طاقات: **﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ﴾**، وحاول أن يعلّم هؤلاء بأن انتظار السماء أن تمطر عليهم ذهباً أو رزقاً هو أمر غير صحيح، ولا يندرج تحت ميزان الأسباب الطبيعيّة الواجب مراعاتها في مسيرة الحياة. فعليهم أن يعمدوا إلى ما عندهم من طاقات وخيرات ليستثمروها ويستغلّوها، فعندهم أرض وعليهم أن يستصلحوها ويزرعوها، وعندهم ثروة مائية عليهم أن يعتمدوا على ما فيها من خيرات، وعندهم غير ذلك.

وكان قد بدأ فعلاً من لا يرى إلّا السيف ينزل إلى ساحة العمل وميدان التجارة ليعتاش منهما، يروى أن عمرو بن معديكرب ـ بعد أن أسلم ـ اقتنى مجموعة من الحيوانات، وأمر جاريته بأن تبيع منتجاتها ليأكل منها ويدّخر، وقد سأله أحدهم مرة فقال: أنت فارس العرب وصاحب الصمصامة، وأنت الذي لم تأكل من قبل إلّا من سيفك، وتفعل الآن هذا الفعل وتتاجر بالحيوانات ومنتجاتها؟ فقال عمرو: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يأتي على الناس زمان لا ينفعهم فيه إلّا درهمهم**»، وأنا أُحبّ أن آكل من كدّ يدي، ولا أُريد أن أتكفّف على الناس.

وهكذا نجد أنه قد انتهى به الأمر أن طوّع نفسه للعمل وعوّدها عليه.

فالآية الكريمة بادهت هؤلاء بهذه الحقيقة، فكان أن توجّه قسم من هؤلاء بعد فترة وجيزة إلى العمل في الزراعة أو التجارة أو الأعمال الحرّة الأُخرى، وراحوا يزاولون أعمالاً شريفة كانت تعدّ في عرفهم أيام الجاهليّة عاراً ووضاعة. فالإسلام كيّف الناس وجعلهم يتعايشون بقناعة مع فكرة العمل، ويتقبّلون هذا التوجّه الاقتصادي الجديد، فأصبح كلّ فردٍ منهم منتجاً بعد أن كان مستهلكاً. بل إن توجّههم هذا أصبح أكثر وعياً ومنطقيّة، فقد حوّلوا الزراعة إلى مادة استراتيجيّة بلغة العصر الحديث، حيث استخدموها كوسيلة حرب ضد أعدائهم، وهكذا تحوّلت الزراعة إلى مادّة للحرب وعنصر ضغط فيها، وسلاح في القتال.

ولو رجعنا إلى التاريخ لوجدنا أنهم فعلاً استعملوها كذلك، ومن ذلك أن أهل مكّة حينما تمّردوا على الإسلام قطع تمامة بن أنال الحنفي، وهو رئيس محترم في اليمامة الطعام عنهم؛ فقد كانت جماعة الرسول الأكرم ﷺ مرتبطة به، وكان أهل مكّة يأخذون قوتهم من بلاده، فرأىٰ هذا الرئيس أن يقطع الطعام عنهم؛ لأن هذا يشكّل أفضل وسيلة حسب رأيه لمحاربتهم وقتالهم. فاشتدّ الجوع علىٰ قريش، ممّا حدا بأبي سفيان أن يكتب كتاباً للنبي الكريم ﷺ قال فيه: أمّا بعد: فإنك تأمر بصلة الرحم، وأراك تقطع الرحم؛ فقد قتلت الكبار وأجعت الصغار. فلمّا قرأ الرسول الأكرم ﷺ هذا الكتاب تأثّر تأثّراً بالغاً، وأمر ذلك الرئيس برفع الحجْر عن الطعام [1].

هذا في حين أنهم حينما تمكّنوا من المسلمين أشبعوهم جوعاً وألماً؛ فأخلاق

---

(١) انظر الكافي ٨: ٢٢٩ / ٤٥٨، صحيح البخاري ٢: ١٩.

الأُمويين هي هي، وكذلك هي أخلاق أتباعهم ومن سار على نهجهم وسيرتهم حتى الساعة؛ فهم يحملون اللون نفسه والطبع نفسه اللذين كان يحملهما الأُمويّون الأوائل.

وعليه فإن أول شيء عمدت إليه الآية الكريمة هو أنها نبّهتهم إلى ضرورة عمليّة استثمار كلّ الطاقات والموارد والثروات التي منحهم الله تعالى إيّاها، ووجّهتهم إلى الطريق السليمة في تحقيق عملية الاستثمار هذه. وهي عمليّة تشمل الطاقات الداخلية المودعة عند الإنسان، والخارجية المودعة في الكون. فهي في مقام بيان أن القاعد عن العمل والإبداع لا محلّ له ولا مكان في هذا المجتمع الذي يراد له أن يكون أفضل المجتمعات وأسماها، فكلّ فرد فيه عليه أن يتوجّه إلى رفع شأن هذا المجتمع عبر العمل واستعمال الثروات استعمالاً صحيحاً.

النبي ﷺ فقير إلى الله تعالى

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ الله﴾ دلالة واضحة على أنه ﷺ فقير إلى الله تعالى، فهو مثلهم ما لم يمنحه الله جلّ وعلا، ويغدق عليه نعمه ورزقه. وكان ﷺ قد ضرب لهم مثلاً فعليّاً في سيرته الشريفة حيث إنه ﷺ قد زاول التجارة في أوائل حياته (زمان ما قبل البعثة المشرّفة)، فسافر بمال خديجة (رضي الله تعالى عنها) إلى الشام، وبادل منتجات الشام بمنتجات مكّة، وهكذا. أي أنه ﷺ ضرب لهم مثلاً عملياً في حقيقة الاستثمار وصوره وأنماطه الصحيحة. وتكسّبه ﷺ كما يتكسّب الناس وعدم توقّفه عن ذلك إلّا في حالات خاصّة ثم بعد ذلك حينما اضطر ﷺ لتركها نهائيّاً لانشغاله بأمر الدين والدولة والمجتمع وتضخّم أمر المسلمين ومسؤوليّتهم لهو دليل واضح وبرهان

بيّن على ضرورة طلب العمل واستثمار الطاقات والنعم. ولم يكن يأخذ ﷺ من بيت مال المسلمين إلّا كما يأخذ سائر المسلمين إن لم يكن أقلّ منهم، تقول عائشة: مرّت بنا أيام لم نتقوت بها إلّا بالأسودين ـ أي التمر والماء ـ وقد بلغت أربعين يوماً.

التربية واقع ومستلزمات

ومن الثابت أن الإنسان حينما يريد أن يربي أحداً فإنه لا يعلّله بالأُمنيات، بل إنه يضعه في الإطار الواقعي والصورة الحقيقيّة للحياة، وهذا ما فعلته الآية الشريفة مع الرسول الأكرم ﷺ حيث إنها قد أمرته بأن يقول للناس: ﴿**قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ الله**﴾؛ ليضعهم في الصورة الحقيقيّة؛ كيلا يحاولوا أن يعتمدوا ويتّكلوا على السماء اتّكالاً كاملاً غير مشفوع بالعمل والمحاولات الجادّة لاستعمار الأرض واستثمار خيراتها.

فالخيال وإرضاء المشاعر الكسلى وإشباعها كسلاً على كسل يزيد الإنسان إغراقاً في حياة الوهم والخيال، بعيداً عن مواجهة الواقع المرّ الذي يعيشه. إن الخطّ الصحيح هو أن يتنبّه الإنسان إلى ضرورة التكيّف على قدر ما يتمكّن مع هذاالواقع، والتعامل معه بحذر ومسؤوليّة كبيرين؛ كي يتمكن من التعايش مع متطلّبات الحياة وإفرازاتها وتعقيداتها، وما هي الكيفية الضروريّة التي ينبغي له أن يتعايش فيها معها.

فاستثمار الواقع المتمثّل بالأرض والسماء والنفس والعقل من أولويّات الدين الإسلامي الحنيف؛ ولذا فإنه راح يحثّ الناس عليها بشدّة فائقة وحرص وتأكيد بالغين.

المبحث الثاني: الغيب في القرآن الكريم

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾، وهـذه نـقطة ضـروريّة تحتاج إلى أن نقف عندها وقفة قصيرة وفق ما يقتضيه المقام. إن علم الغيب بطبيعة الحال يمكن أن يُتصوّر على نحوين:

الأوّل: أن يكون العلم بالغيب لذات من يعلمه وبذاته، أي أن تكون ذاته مبدأ لاكتشاف الموجودات. ولتوضيح هذا الأمر نشبّهه بالرؤية في الظـلام الدامس؛ فإنها تنعدم فيه ولا يمكن للإنسان أن يرى فيه ما لم يسرج له سراجاً، بمعنى أن هذا الإنسان قهر الظلام، واهتدى طريقه بواسطة هذا السـراج. وهـذا مـعناه ان الضوء بالنسبة للإنسان لا يعّد شيئاً ذاتياً، بل إنه أتاه من مصدر خارجي أجـنبي عنه. لكن رؤية الطريق بالنسبة للضوء ذاته وبالقياس إليه تعتبر ذاتيّة، لأنـه هـو الإنارة والنور؛ فذات الضوء هي التي كشفت الظلام.

وهذه فكرة تقريبيّة ومثال توضيحي لهذا الأمر، وهو شأن الله تعالى في علمه الغيب، فهو جلّ وعلا يعلمه بذاته.

الثاني: أن يكون العلم به بمعلّم أو مخبر، كما هو شأن الأنبياء وأوصيائهم عليهم السلام؛ فهم يعلمون الغيب بتعليم منه تعالى وإخبار.

معنى الغيب

والغيب هو كلّ ما غاب عن الحواسّ الخمس، فكلّ ما لا تدركه هذه الحواسّ بنفسها هو غيب بالنسبة لنا؛ لأنه غائب عن مجال إدراكاتنا الجسديّة. فـنحن لا نعلم هذه الأشياء الخارجة عن حدود حواسّنا الظاهرة وعن سلطتنا، وهي غيب بالنسبة لنا؛ لأنها من خفايا عالم الغيب الخفي عن كلّ مخلوق سوى الله تعالى.

وبهذا فالغيب أمر لا يعلمه إلّا الله تعالى، أو من أراد الله تعالى أن يطلعه عليه، كالأنبياء وأوصيائهم (صلوات الله تعالى عليهم أجمعين) كما ذكرنا قبل قليل. وبهذا نعرف كيف أن الأنبياء وأوصياءهم ﵈ كانوا يخبرون بالمغيّبات، وقد وقعت منهم حوادث كثيرة، ورويت عنهم أخبار أكثر كانوا يخبرون فيها بعدد من المغيّبات التي ستحصل في المستقبل، وهي من معاجزهم ﵈ وكراماتهم. فالنبي الأكرم ﷺ أخبر بالكثير مما سيقع وسيحصل، ومنها إخباره ﷺ بأن المسلمين سيرثون عرش كسرى وقيصر، ففي حفر الخندق كان ﷺ قد أخذ فأساً، فضرب حجراً به فتطاير منه شرر، فكبّر ﷺ وكبّر معه أصحابه، ثم التفت إليه أحدهم قائلاً: روحي فداك، لم كبّرت؟ قال: **«تراءت لي قصور بُصرىٰ والشام كأنها أنياب الكلاب، وقد وعدني ربي أن يفتحها عليَّ»**(١).

وهنا تهامس المنافقون وقالوا: إنه يحفر خندقاً حول نفسه وأتباعه ليحميها ويحميهم، ثم يطمع أن يستولي علىٰ قصور فارس والشام، أي كلام هذا؟ وبالفعل فإن كلّ ذلك قد حصل، فما إن كرّت الأيام والسنون حتىٰ فتح الله له ذلك، وما هو أبعد منه، فقد فتحت أقطار أُخرى، ودخلت تحت راية **«لا إله إلّا الله»**، وحصل كل ما أخبر عنه الرسول الأكرم ﷺ، وخفق لواء الإسلام عالياً علىٰ ربوع تلك الديار. وغير هذا الإخبار هناك الشيء الكثير (٢).

فالنبي الأكرم ﷺ لم يكن يعلم الغيب لذاته، بل إنه ﷺ كان يعلمه بتعليم وإخبار من الله جلّ وعلا.

---

(١) الطبقات الكبرى ٤: ٨٣.

(٢) يمكن الرجوع إلى كتب التاريخ والسيرة النبويّة لمعرفة الكثير عن إخباره ﷺ بالمغيّبات.

علم الإمامعليه السلام الغيب

ويتفرّع على هذه المسألة مسألة أُخرى هي علم الإمام المعصومعليه السلام الغيب. إننا نعلم أن الإمامعليه السلام قد أخبر كذلك بجملة من المغيّبات، كما فعل أمير المؤمنينعليه السلام في (نهج البلاغة) حيث خصّص فصولاً للإخبار عن الملاحم والفتن التي ستحدث في المستقبل[١].

ولو رجعنا إلى سيرة أيمتناعليهم السلام وحياتهم فإننا سنجد أن هناك الشيء الكثير من هذا القبيل في كلماتهم وأحاديثهم الشريفة. إننا بطبيعة الحال لا نقول: إن الإمامعليه السلام يعلم الغيب بنفسه، فليس من يتّصف بذلك ـ علم الغيب بالذات ـ إلّا الله تعالى، وليس معنى هذا إلّا أنهعليه السلام محدّث أو أنهعليه السلام يُلقي الله تعالى في روعه ذلك الأمر ويحدّثه بما يسمى «حديث النفس». ولتقريب المعنى نضرب مثلاً هو أن بعض الناس يهمّ في الخروج من منزله لأمر ما، لكنه يتردّد بعد ذلك ويمتنع عن الخروج أو ينصرف عنه، ذلك أن الله تعالى يلقي في روعه أنه سيتعرّض للأذى؛ وبه يمتنع عن الذهاب إلى قصده. وهذا أحد صور الإلهام، وهو التحديث.

ولعلماء الكلام نظريتان حول علم الإمامعليه السلام الغيب لا مجال لذكرهما والتطرّق إليهما، لكن كلتاهما ترجع إلى محصّل واحد هو أن الإمامعليه السلام لا يعلم الغيب لذاته أو بذاته، بل بعلم من الله تعالى كما هي الحال عند الأنبياءعليهم السلام.

علم الغيب عند أهل السنّة

إن القول بأن فلاناً يعلم الغيب أو أنه محدّث لا يقتصر على الشيعة فقط، بل إن أهل السنّة يذهبون إلى هذا أيضاً، فمؤرّخوهم يروون أن عمر بن عبد العزيز كان

---

(١) انظر نهج البلاغة / الخطبة: ١٠٨، ١٢٨، ١٣٨، ١٥٠.

يمشي وإلى يمينه الخضر، وهو يحدّثه (١).

كما أن هذا الأمر يتكرّر عندهم مع عمران بن حصين الذي يروون أنه كانت تحدّثه الملائكة، وكان يقول: «قد كان يسلّم علي حتى اكتويت فتركت، ثم تركت الكيّ فعاد»، كما يرويه محدِّثوهم (٢)، لكن لماذا؟ لا نعلم ذلك!.

كما أنهم يروون عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنه أشار إلى مجموعة مُحدَّثين وملهمين، منهم الخليفة الثاني عمر (٣).

الناس أعداء ما جهلوا

ومع كلّ هذا يعترض البعض علينا ويرمينا بالغلوّ؛ لأننا ننسب ذلك إلى أيمّتنا عليهم السلام امتداد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، لكن أن ينسب ذلك إلى من يحدثه الخضر عليه السلام أو الملائكة عليهم السلام فلا بأس به، بل يذهب البعض إلى التكفير وإباحة الدماء. فلماذا هذه المفارقة وهذا التفريق بين المثلين؟ مع أن الواقع أن الأيمّة عليهم السلام أكثر من مثل؛ فهم أهل بيت معصومون مطهّرون. إن هذا لا يعدو أن يكون ضيق أُفق وجهل، و«**الناس أعداء ما جهلوا**» (٤).

ومثل هؤلاء حينما تذكر أمام أحدهم قضية معيّنة لا تروقه يدور في خلده أن هذا الذي يقول بها قد تفرّد بالاعتقاد فيها، مع أنه لو كلّف نفسه بالبحث عنها وعن

---

(١) تهذيب التهذيب ٧: ٤١٩ / ٧٩١.

(٢) مسند أحمد ٤: ٤٢٧، صحيح مسلم ٤: ٤٧ – ٤٨، سنن الدارمي ٢: ٣٥، سنن أبي داود ٢: ٢٢١ / ٣٨٦٥.

(٣) فهم يروون أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قد كان في الأمم السابقة قبلكم محدّثون، فإن يكن في أُمّتي أحد منهم فهو عمر بن الخطاب». صحيح البخاري ٤: ١٤٩، صحيح مسلم ٧: ١١٥، مسند الحميدي ١: ١٢٣، صحيح ابن حبان ١٥: ٣١٧.

(٤) نهج البلاغة / الحكمة: ١٧٢.

أمثالها، ورجع إلى الكتب والمصادر المختصّة بالعقيدة لوجد عنده من أمثالها الكثير. والأدهى من هذا والأمرّ أن بعض المسلمين ينسب لنا ما عنده من اعتقادات وأفكار وآراء؛ فمثلاً نحن عندنا بإجماع متكلّمينا وفقهائنا ومفسّرينا وعلمائنا أن الرؤية مستحيلة على الله تعالى؛ لأنها تستلزم الجسميّة، والجسميّة تستلزم الحدود، وبالنتيجة فإنها تستلزم عدم القدم وعدم الربوبيّة؛ ممّا يستلزم ضرورة الإيمان بخلافه؛ تنزيهاً له تعالى عن التحديد والتجسيم. وهذا الأمر يجب الاعتقاد بأنه كذلك في الدنيا وفي الآخرة على حد سواء؛ فهو تعالى لا يمكن أن يُرى في الدنيا ولا أن يُرى في الآخرة.

وهذه آراء علمائنا كافّة كما ذكرنا، ولكن مع ذلك نجد من ينسب لنا التشبيه والتجسيم مع أن هذا الذي ينسب لنا ذلك هو الذي يعتقد به ويقول به، فهناك من يقول: إن طوله سبعة أشبار بشبر نفسه[١]، أو من يقول: إن طوله ستّون ذراعاً[٢] أو إنه يجلس فيئِطُّ العرش من تحته[٣]، أو من يقول: إنه تعالى شاب أمرد أجعد قطط[٤]، أو يقول: إنه شيخ أشمط الرأس واللحية[٥]، أو من يقول: إنه تعالى يمهل حتى يذهب ثلث الليل ثم ينزل إلى سماء الدنيا[٦]، وما إلى ذلك.

وهذه الروايات كلها وغيرها موجودة عند أبناء المذاهب الإسلاميّة الأُخرى،

---

(١) دفع شبه التشبيه: ١٥١، المواقف ٣: ٣٨ - ٣٩.

(٢) صحيح البخاري ٧: ٢٢٥، صحيح مسلم ٨: ١٤٩.

(٣) سنن الدارمي ٢: ٣٢٥، الدعاء (الطبراني): ٥٩٧، وغيرهما كثير.

(٤) دفع شبه التشبيه: ١٥١، المواقف ٣: ٣٨ - ٣٩، وقد أنكرا على قائله.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٩٠، المصنف (الصنعاني) ١: ٥٥٦، ٥: ١٦ - ١٧، عمدة القاري ٧: ١٩٨.

أما نحن فليس عندنا من يقول بها، لكن مع هذا نجد أن الرازي يقول: «اليهود أكثرهم مشبهة، وكان بدء ظهور التشبيه في الإسلام من الروافض مثل هشام بن الحكم، وهشام بن سالم الجواليقي، ويونس بن عبد الرحمن القمّي، وأبي جعفر الأحول»[1].

وهذا في منتهى العيب وقلّة الذوق وانعدام الضمير، فليس من الإسلام ولا من الأخلاق أن ينسب أحدٌ معائبه إلى غيره، سيّما ممّن يتّصف بصفة العلم، ويندرج ضمن قالبه وينتظم في سلكه. وأنا أتمنى أن تزول هذه الادّعاءات أو الافتراءات في العصر الحاضر؛ لأن المفروض أن مؤشّر الوعي قد ارتفع عند هؤلاء بحكم التطوّر والتفتّح والانفتاح على الكون كلّه. فعلى المسلمين أن يدركوا ضرورة أن يتخلّصوا من جميع هذه السلبيّات، وأن هذه الخلافات يجب أن تمتصّ؛ فجميع هذه الأُمور إنما وضعت في طريقهم من أجل تمزيق صفّهم وتفكيك وحدتهم، وعليهم أن يدركوا ذلك، ويعرفوا أنهم واقعون في مستنقع المخطّطات الاستعمارية. فكفاهم تمزّقاً وتفكّكاً وتشرذماً.

إن جيوش العرب والمسلمين وأساطيلهم تملأ القفار والبحار، لكنهم يعجزون عن أن يحرّكوا ساكناً أمام قرارات ثلّة من اليهود، فهل هناك ذلّ أعظم من هذا؟ وهل هناك عار أشدّ من هذا؟ وكلّ هذا نتيجة حتميّة للتمزّق والتشرذم، وهو شيء غير مستغرب؛ للابتعاد عن أجواء التوحّد والاندماج في عالم القضايا المصيريّة، والابتعاد عن تعاليم الدين الحنيف وعن الله تعالى وتوجيهاته. وربما يحدث ما هو أعظم من هذا.

---

(١) لعلّ المقصود به سليم الرازي في كتابه الترغيب والترهيب ١: ١٣١. انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤: ٢٧٩ / ٥٠٥٧، أمّا الفخر الرازي فقد ذكر أن أكثر اليهود مشبّهة، ولم يعقّبه في تفسيره بهذه العبارة، التفسير الكبير ١٨: ٢٨.

وهذه المعادلة يمكن أن ترسم بطرفيها:

الأول: إسرائيل، وهي تفعل ما يحلو لها، وكيف تشاء ووقت تشاء، وتدعمها في ذلك أمريكا، فتذهب حيث تريد أن تذهب.

الثاني: العرب والمسلمون، وهم يشربون العار ويأكلون الذلّ ولا يكادون يشبعون منه.

كيفية الإخبار بالغيب

على أية حال فإن الغيب مختصّ بالله تعالى وحده، وهو الذي يطلع بعض عباده على بعض منه بمشيئته وإرادته وتخطيطه؛ ولذا فإن النبي ﷺ إذا أخبر بالغيب فإنما عن الله يخبر؛ سواءً كان هذا الإخبار عن طريق إعلام الله المباشر له، أو عن طريق جنبة تكوينية بأن يجعل ذاته مبدأ لانكشاف الموجودات. إن الله تعالى في هذه الآية الكريمة يأمر نبيّه الكريم ﷺ بأن يبيّن لهؤلاء أنه ﷺ لا يعلم الغيب، وعليه فيجب ألّا يطرقوا بابه كلّ حين ليطلبوا منه أن يخبرهم بما سوف يحدث غداً، وما إذا كان خيراً فيستقبلونه، أو شرّاً فيجتنبونه. ويبيّن لهم كذلك أن علم الغيب مختصّ بالله وحده، وما علم النبي ﷺ به إلّا من تعليم الله له وإطلاعه إياه. وكذلك تلفت هذه الآية النظر وتوجّهه إلى أن هؤلاء يجب ألّا يطالبوا بثمن إسلامهم عن طريق مطالبة الرسول ﷺ بإخبارهم ببعض الأشياء؛ فنفع هذه الرسالة ليس عائداً له ﷺ بل إنه عائد لهم هم أنفسهم.

المبحث الثالث: اختراع مبرّرات العظمة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَلَاأَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾، وهذا المقطع من الآية الشريفة يقرّر حالة بني الإنسان على مرّ تاريخ الجنس البشري وامتداد

خطّه. هذه الحقيقة هي أن هؤلاء الناس يريدون أن يوجدوا مبرّراً لعظمة من يرونه عظيماً، فحينما يجدون شخصاً على قمّة هرم السلطة - أي سلطة كانت - فإنهم يلجون بأنفسهم مجالاً كبيراً من التساؤلات، ويخلقون الكثير منها حول سبب عظمته وسرّ تربّعه على قمّة هذا الهرم، ثم يطرحون إجابات وتعليلات ليقنعوا بها أنفسهم حول المؤهّلات التي يمتلكها هذا؛ كي يصل إلى ما وصل إليه. بمعنى أنهم يخلقون التساؤلات ويوجدون الإجابة عنها، ويرون أنه لابدّ أن يكون ذا مبرّر أو سبب استطاع عبره أن يحقّق هذا الهدف الذي بلغه.

هذا في المرحلة الأُولى، ثم بعد هذا يأتي دور المرحلة الثانية وهي مرحلة المغالاة التي غالباً ما تتطوّر إلى خرافة يعتقدها الناس في هذا الشخص ويعتنقونها له من أجل تبرير سرّ عظمته. ولو رجعنا إلى بعض مؤرّخي الغرب لوجدنا أنهم حينما يؤرّخون لعظمائهم فإنهم يعطونهم صفة من صفات التبجيل، وهالةً ضخمةً من التعظيم لأجل تبرير ذلك النبوغ الذي وصلوا إليه. ومن هذا أننا حينما نقرأ عن حياة الفيلسوف «جون مل ستيورت» نجد أن مؤرّخيهم وهم يترجمون له يذكرون أنه كان يحفظ سبع لغات وهو في عمر أربع سنين.

وهذا في الواقع لون من ألوان الإغراق في الخرافة لا يمكن التصديق به، بل إن هؤلاء المؤرّخين يعطونه ميزات غريبة أُخرى. وما هذا إلّا من أجل إعطائه أسباباً تبرّر مكانته العلمية التي وصل إليها.

وهذا الأمر يتوسّع ليشمل الجوانب الحياتية الأُخرى كالتاريخ الديني والسياسي وغيرهما.

وهكذا نعرف أن الشعوب حينما تعتقد بعظمة شخص فإنها تمنحه صفاتٍ خرافية، وترسم حوله هالة من القداسة والتعظيم، وهو ما يتطوّر لاحقاً ليتحوّل إلى

حالة من حالات الغلوّ حيث تختلق الميزات، وتروى بحقهم ولهم عجائب الروايات وغرائب القضايا. وكمثالٍ على هذا فإن عمرو بن معديكرب كان معروفاً بالقوّة وموصوفاً بالشجاعة، لكن البعض حينما يريد أن يصف مبلغ شجاعته يذكر عنه أن سيفه يبلغ طوله ثمانية عشر ذراعاً، وأنه كان يتغدى ببعير ويتعشى بآخر، وكذلك تفعل زوجته.

وهذا الكلام في واقع الأمر لا معنى له؛ لأن الشجاعة لا تبرّر أن نوجد لصاحبها مبرّرات غير معقولة حولها، كما أنها لا تبرّر أن يكون طعامه بعيرين كلّ يوم. وهذا في غاية السخف والاستخفاف بعقول الناس.

ونادراً ما نجد شخصيّة دينية أو سياسيّة لم يرسم حولها هذا اللون من المبالغة والصفات المختلقة؛ لأن الشعوب تحرص على أن تعطي عظماءها ميزات تميّزهم عن سائر الناس، وترفعهم عنهم، وتبني لهم صرحاً فوق مستوياتهم. ولأجل هذا نجد أن أُولئك الذين عاصروا النبيﷺ كانوا يريدون منه أن يكون فوق الناس وأرفع منهم حتى يكون نبيّاً، أو حتى يثبت لهم ذلك، فكانوا يقولون له: كيف تدّعي أنك نبي وأنت مثلنا تأكل وتشرب وتتزوّج وتنام؟ فما هو الشيء الذي يميّزك عنا حتى تستحقّ أن تتّصف بصفة النبوّة؟ إنك بهذا لا تفرق عنا بشيء.

فكان النبيﷺ يقول لهم: **﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ﴾**[1]، أي ليس معنى أن أكون نبيّاً أنني لابدّ أن أكون خارج نطاق الصفات البشريّة، أو أن أشذّ عن دائرة بني الإنسان، إني إنسان مثلكم، وغاية مافي الأمر أني الفرد الأكمل من بني البشر. أي أن أقصى ما يمكن أن يصل أحد من بني

(١) الكهف: ١١٠، فصلت: ٦، وقال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ إبراهيم: ١١.

الإنسان من الكمال فهو عنده ﷺ وزيادة على ذلك، بل إن هذه الغاية القصوى لا يمكن لأحد أن يبلغها سواه. وهذا ما قرّره القرآن الكريم بقوله: **﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾**(١).

يروي أحد العلماء فيقول: كنت أذهب إلى الأرياف للتبليغ أو لأُمور أُخرى في بعض الأحيان، فكنت كلّما قمت لأذهب إلى بيت الخلاء أرى أحد الريفيّين يتبعني، ولما سألته عن السبب الذي يحدوه لأن يتتبّع خطاي في كل شاردة وواردة قال: أُريد أن أرى بنفسي هل أنك في هذا الأمر مثلنا تماماً؟

الكيلاني يحيي العظام وهي رميم

وهذه الحالة موجودة عند كثير من الناس الذين يظنّون بأن بعض الأشخاص عندهم نوع من التميّز عن الآخرين في أحوالهم العاديّة. ولهذا فإن القرآن الكريم جعل من ضمن أهدافه أن ينزع هذه الأُسطورة التي يرسمها البعض من أذهانهم. وقد استغلّت هذه الظاهرة على مرّ العصور على المستويات السياسيّة والدينيّة والاجتماعيّة، ينقل الدميري أن امرأة جاءت بولدها إلى الشيخ عبد القادر الگيلاني وقالت له: إني رأيت قلب ابني هذا شديد التعلّق بك والحبّ لك، وقد تنازلت عن حقّي فيه لله عزّ وجلّ ولك، فاقبله.

يقول الدميري: فقبله الشيخ وأمره بالمجاهدة، وذات يوم جاءت المرأة لترى ابنها، فلمّا دخلت عليه وجدته مصفرّاً نحيلاً من آثار الجوع والسهر، ووجدته يأكل قرصاً من الشعير، ولمّا دخلت على عبد القادر الگيلاني رأت بين يديه إناء

(١) الفرقان: ٧.

فيه عظام دجاجة وقد أكلها كلّها، فقالت له: أنت تأكل لحم الدجاج، وابني يأكل خبز الشعير؟ فوضع يده على تلك العظام وقال لها: قومي بإذن الله تعالى الذي يحيي العظام وهي رميم. فقامت الدجاجة صحيحة سالمة سويّة وصاحت، فقال الشيخ لها: إذا استطاع ابنك أن يفعل هذا، فليأكل ما يشاء [١].

ومثل هذه الروايات في حقيقة الأمر تسبّب لنا مشاكل مع الآخرين؛ فحينما يأتي أحد الغربّيين أو الأُوروبيّين فإنه سوف يحكم على ديننا وتاريخنا بأنهما مبنيّان على الخرافات واللامعقولات. وليس ذنب عبد القادر الگيلاني أن يكون له أتباع منحرفون، فالرجل متصوّف منقطع وصاحب طريقة يريد أن يتقرّب بها إلى الله تعالى، لكن الذنب ذنب من يروي عنه مثل هذا وينسبه إليه. إن هذا الذي يروي عنه مثل هذه الأُمور يمكنه أن يصفه بأنه أحد الأبدال أو أحد الأتقياء الأبرار بدل إعطائه هذه الخصائص.

ومثل هذه الأُمور موجودة عند أتباع جميع المذاهب الإسلامية، وغير الإسلامية.

وعليه فيجب ألّا نستغرب مثل هذا الخطاب القرآني الذي يحاول أن ينتزع مثل هذه الخرافة من رؤوس الناس، ويذكّرهم بأن النبيﷺ ما هو إلّا إنسان مثلهم يأكل وينام ويمشي، لكنه – وهذا كل ما في الأمر – يتميّز عنهم بخصائص ـ باعتباره الفرد الأكمل ـ ترفعه في عالم الكمال ودنيا الرقي البشري. إن القرآن الكريم يخاطبهم بهذا ويبين لهم بأنهم لا يستطيعون أن يكونوا أنبياء مثله؛ لعدم امتلاكهم مقوّمات الكمال وحيثيات الترفع عن ملاذّ الدنيا، وكذلك لعدم تمكّنهم

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ١: ٤٧١.

من مجاهدة أنفسهم كما يجاهد هوﷺ نفسه، ومقاومة إغراءات الدنيا كما يقاومها هو.

طبيعة الكمال عند الرسول الأكرمﷺ

إن هذا النوع من الكمال عند الرسول الأكرمﷺ هو كمال آتٍ من الاكتساب الذاتي، أي أنه يتحصّل لصاحبه بمجاهدة النفس وممارسة أنواع الصبر كافّة، بخلاف الكمال الممنوح الذي لا فضل لصاحبه فيه أبداً، كما لو أن رجلاً طويلاً فارعاً عريضاً، أو امرأةً جميلةً صبيحة الوجه، فإن هذا النوع من الكمال لا فضل لهما فيه؛ لأنهما لا دخل لهما في وجوده وإيجاده. وهذا بخلاف من يسهر ليله مكبّاً على القراءة والمطالعة في سبيل الحصول على شهادة دراسيّة عالية، فإن مثل هذا يكون قد اكتسبها بتعبه وجدّه وسهره، وتركه لذيذ الرقاد في سبيل تحقيق هدفه هذا.

إن من يستعمل أنواع الرياضات والمجاهدة في سبيل الرقي على سلّم الكمال هو الذي يمدح؛ لأنه اكتسب الكمال بإنهاك الجسم، أما من يخلق طويلاً أو جميلاً أو أن يكون له أبٌ ثري يترك له الملايين، فيعيش مرفّهاً، فهذا ما لا فضل له فيه أبداً. فمن يكافح من مرحلة الصغر ليكوّن له ثروة من كدّه وتعبه وجدّه هو الذي يستحقّ المدح، دون من يولد وفي فمه ملعقة من ذهب.

فالأمر إذن يتعلّق بالتحصيل والاكتساب لا بشيء خارج عن إرادة الإنسان واختياره وإمكاناته، وهذا ما أكّد عليه الرسول الأكرمﷺ في إخباره إيّاهم بذلك. فالتأكيد هنا مبتنٍ على أن عدم الأكل والشرب، والمشي في الأسواق لا فخر فيه ولا فضل، بل إن الفخر هو أن يكونﷺ بشراً مثلهم ولكنه يفوقهم في مراتب الكمال المكتسب في حدود الإمكانات البشرية.

فقوله تعالى: ﴿وَلَآأَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ يقرّر حال الكثير من هؤلاء بأنهم كانوا ينتقدون الأنبياء عليهم السلام لأنهم يتزوّجون مثلهم ويأكلون ويمشون في الأسواق. وليس هذا النقد مقتصراً على هؤلاء، بل إنه تعداهم ليصل إلى الكثير من المستشرقين الذين كانوا يوجّهون نقدهم اللّاذع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيرمونه بأنه صلى الله عليه وآله وسلم كان زير نساء، يتزوج ويطلّق كلّما عنّ له ذلك، كما أنهم كانوا يصفونه بأنه نبيّ نساء.

وفي واقع الأمر أن هؤلاء نقّاد رخيصون وغير منصفين؛ لأنهم يبحثون عن أشياء يظنّونها معائب كي يلصقوها بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وإلّا فإنهم لو تأمّلوا جميع زيجات النبي صلى الله عليه وآله وسلم لوجدوها أنها كلّها كانت من أجل تثبيت الإسلام. وهذا يتّضح من ملاحظة أعمار أغلب نسائه صلى الله عليه وآله وسلم، فما هي اللذّة التي يبتغيها من زوجة عمرها ستون عاماً؟ أو أن يتزوّج بنت عدوّه مع ما للحواجز النفسيّة من أثر بين شخصين تحكم بينهما العداوة، كزواجه من بنت أبي سفيان الذي ما رُفعت راية حرب ضدّ الإسلام إلّا وكان له فيها يد، بل كان حامل رايتها والمساهم الأول فيها. وهذا ما حصل في أُحد وبدر والأحزاب وغيرها، وكمواقفه من المسلمين ومن الدعوة في بواكيرها.

إن هناك حادثتين لايمكن أن ينساهما النبي صلى الله عليه وآله وسلم في واقعة أُحد حينما قتل أسد الله وأسد رسوله الحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه:

الأولى: عندما جاء أبو سفيان واتّكأ برمحه على خدّ الحمزة حتى خرج من الجانب الثاني.

الثانية: حينما جاءت هند زوجته وشقّت بطن الحمزة وراحت تمزّق أحشاءه حتى أخرجت كبده وراحت تلوكها.

فهل عدمت النساء حتى يتزوّج ابنة من فعل بعمه ما فعل؟

فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما يثبت القرآن لنا الكريم ذلك ـ ما هو إلّا بشر من لحم ودم ومشاعر وعواطف، وأبو سفيان فعل ما فعل بعمّه، ومع ذلك صاهره، فهل كان للّذّة دخل في هذه المصاهرة؟ كما أن أبا سفيان كان له موقف آخر لا يمكن أن ينسى، وهو أنه حينما قتل عاصم بن أبي الأقلح رضي الله عنه راح يبحث عنه ليأخذ رأسه ويسلخه ويشرب فيه الخمرة [1].

لقد كان بإمكانه صلى الله عليه وآله وسلم أن يبحث عن بيت غير هذا البيت ليتزوّج منه، لكن المصلحة اقتضت أن يتزوّج منه.

وكانت كلّ زيجات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من هذا القبيل، فهي كانت إما لأهداف اجتماعيّة أو لأهداف سياسيّة يقصد من ورائها إعلاء كلمة الإسلام أو ما شاكل ذلك إلّا زيجة واحدة أو اثنتين كانتا قرّة عينه.

إذن فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول لهم: أنا مثلكم ومخلوق من طين كما أنكم منه مخلوقون، فلا تتركوا هذه الخرافات تتغلغل في رؤوسكم، ولا تدعوا هذه الاعتقادات الفاسدة تعشعش في أذهانكم وتسيطر على قناعاتكم واعتقاداتكم: **﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ﴾**، أي ليس من المهمّ أن تعتقدوا بأني عظيم، وأن هذه العظمة أتتني من الخارج، بل المهم أن تعتقدوا أني نبيّ، وأن عظمة النبي مترشّحة عنه ومن اكتسابه هو. يقول حسّان بن ثابت في مدحه إيّاه صلى الله عليه وآله وسلم:

---

(١) لم نعثر عليه عن أبي سفيان، والذي مذكور في كتب التراجم والسير أن من طلب ذلك سلاقة بنت سعد بن شهيد، فقد نذرت إن هي قدرت على قحف عاصم لتشربن فيه الخمر. الطبقات الكبرى ٢: ٥٥ ـ ٥٦، ٣: ٤٦٢ ـ ٤٦٣، عمدة القاري ١٤: ٢٩٣.

وأحســـنُ مـــنك لم تـــرَ قـــطّ عـــيني وأجـــملُ مـــنك لم تـــلد النســـاءُ

خـــلقت مـــبرّأ مـــن كـــلّ عـــيب كأنك قـــد خـــلقت كـــما تشـــاءُ[1]

كماله ﷺ بالاستعداد لا بالتكوين

وينبغي التنبّه إلى أن معنى (خلقت مبرّأ) إنما هو بالاستعداد لا بالتكوين، وقد وجدت بعض الشراح حينما يشرحون هذا البيت يُخطئون في شرحه وبيان معناه، فيذهبون إلى أن المراد منه أن الله تعالى حينما خلقه فطره على الكمال.

وإذا كان ﷺ كذلك بخلق الله له فلا ميزة له حينئذٍ ولا فضل؛ لأنه حينئذٍ سيكون مجبراً على التصرّف وفق هذا الكمال الذي وضعه الله فيه، لا لأنه يحبّ الكمال والتصرّف على ضوئه وأنه وصل إلى هذا الكمال بنفسه. فليس من الفضل والفضيلة في شيء أن يخلق الله إنساناً غير قادر على فعل الخطأ ثم لا يخطئ، بل الفضل والفضيلة هو أن يخلقه الله قادراً على فعله ثم يبيّن له ضرر هذا الخطأ وعدم صواب فعله، وأن له أثراً على حياته في الدنيا والآخرة، ثم يتركه لنفسه بأن يخيّره بين فعله وله النار، أو تركه وله الجنّة، ثم لا يقدم ذلك الإنسان على هذا الفعل خوفاً من الله أو أداءً لحقّ طاعته والعبودية له.

وعليه فيكون معنى البيت: أنك خلقت مبرّأً بالاستعداد لا بالفعليّة، وهذا يعني أن النبي ﷺ كان يمتلك القابليّة على فعل المعصية لكنه لا يفعل ذلك. وهذا هو معنى العصمة، فهي ملكة تعصم صاحبها من ارتكاب المعصية مع قدرته على ارتكابها وفعلها[2]. فهو لا يرتكب الإثم؛ لأنه الفرد الأكمل، وأنه قد حاز لوناً

---

(١) المستطرف في كلّ فن مستظرف ١: ٤٢٩، ٢: ٢٩.

(٢) بحار الأنوار ١٧: ٩٣، شرح نهج البلاغة ٧: ٧، المواقف ٣: ٤٤٩، النجاة في القيامة في تحقيق أمر الإمامة (ابن ميثم البحراني): ٥٥. قال المجلسي: قال المحقق الطوسي ﷺ: ولا

عالياً من التربية ومجاهدة النفس والصبر.

المبحث الرابع: في اجتهاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾، ولنا هنا وقفة مع هذا المقطع الكريم من الآية الشريفة؛ لنحقّق معنى وقع فيه نزاع بين العلماء المسلمين، وهو أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هل يقع منه الاجتهاد في بعض القضايا التي تعرض له أو يسأل عنها، أو لا يقع منه أصلاً. وهذه نقطة مهمة جدّاً؛ ولذا فإننا نجد أن القرآن الكريم يعبّر عنه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[1]. وهذا يعني أن تصرّفات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كلّها ليس فيها شيء ذاتي أبداً، بل إنها من وحي السماء، وهذا شامل لكلّ ما يفعله النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو يقوله.

لكن الحقّ أن الأمر ليس بهذه الصورة من الشموليّة والتعميم، فهناك مناطق فراغ في الحكم والإدارة تركت للرسول صلى الله عليه وآله وسلم حرية ملئها وفق ما يرتئيه، ومن هذا ما يرويه البعض من أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نزل في أحد الأماكن في واقعة بدر، فجاءه المسلمون وقالوا له يا رسول الله، نزولك في هذا المكان إن كان بوحي فسمعاً

☚ تنافي العصمة القدرة. وقال العلّامة (نور الله ضريحه) في شرحه: اختلف القائلون بالعصمة في أن المعصوم هل يتمكن من فعل المعصية أم لا، فذهب قوم منهم إلى عدم تمكنه من ذلك، وذهب آخرون إلى تمكنه منها. أما الأولون فمنهم من قال: إن المعصوم مختص في بدنه أو نفسه بخاصية تقتضي امتناع إقدامه على المعصية. ومنهم من قال: إن العصمة هي القدرة على الطاعة، وعدم القدرة على المعصية، وهو قول أبي الحسين البصري. وأما الآخرون الذين لم يسلبوا القدرة فمنهم من فسرها بأنها الأمر الذي يفعله الله تعالى بالعبد من الألطاف المقربة إلى الطاعات التي يعلم معها أنه لا يقدم على المعصية بشرط ألّا ينتهي ذلك الأمر إلى الإلجاء، ومنهم من فسرها بأنها ملكة نفسانية لا يصدر عن صاحبها معها المعاصي، وآخرون قالوا: العصمة لطف يفعله الله لصاحبها. كشف المراد: ٤٩٤.

(١) النجم: ٣ ـ ٤.

وطاعة، وإن كان باجتهاد ورأي فهو منزل مكيدة. فقال ﷺ: **«بل باجتهاد ورأي»**، ثم رحل [١].

فالمسلمون أخبروا الرسول الأكرم ﷺ بأن هذا المكان سوف يمنح قريشاً موضعاً استراتيجيّاً ضدّهم، وسوف يمكّنهم من ضرب المسلمين والانتصار عليهم، ولهذا فإنهم أشاروا عليه بأن يبارح هذا المكان.

وهذا الأمر يعني أن هناك بعض الأُمور التي ترك للنبي ﷺ مساحة للتحرّك فيها برأيه، وذلك في الأُمور التي لا نصّ من القرآن الكريم فيها. وليس معنى هذا أن من الممكن أن يخطئ النبي ﷺ، أو أنه لا يختار الحكم الصائب، بل معناه أن النبي ﷺ مسدّد من السماء في كلّ تصرّفاته وأقواله، وأن الله لا يتركه يقع في الخطأ. وهذا لا على نحو الإجبار، بل على نحو التربية العالية [٢] كما مرّ. فالوحي يسيّر النبي ويسدّده. وهذا الموضوع كذلك موضوع أخذ وردّ بين المسلمين، وهو موضوع ذو آثار مهمّة.

كما أن هناك الكثير من الباحثين حينما يتناولون تاريخ الدولة الإسلاميّة فإنهم يخلصون إلى نتيجة هي أن المسلمين ليس لديهم أُنموذج أو هيكل لدولة إسلامية في حضارتهم.

وهذا خطأ واضح، فالرسول الأكرم ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده أسسّوا دولة إسلامية مهيكلة واضحة المعالم. صحيح أننا لا يمكن أن نعدّ الدولة التي كانت في عهد الأُمويّين والعباسيّين دولة إسلاميّة، ولا يمكن أن نحسبهما على الإسلام،

---

(١) المستصفى: ٣٤٧.

(٢) قال رسولنا الأكرم ﷺ: «أدّبني ربّي فأحسن تأديبي». بحار الأنوار ١٦: ٢١٠، ٦٨: ٣٨٢، الجامع الصغير ١: ٥١ / ٣١٠.

لكن الدولة التي كانت في عهد الرسول والخلافة الراشدة كانت دولة بيّنة المعالم والحدود، وترتسم على هيكل شامل وواضح.. هيكل رسمته السماء لدولة إلهيّة مباركة.

المؤرّخون المسلمون يعتدون على الإسلام

وربما يقول قائل: كيف يقال هذا بحق الأُمويّين والعباسيّين، وكتب المؤرّخين المسلمين كافّة تصفهم بأنهم قد بنوا دولة إسلامية؟

والجواب أن هذا وهم واعتقاد فاسد، فمن يصف هاتين الدولتين بهذا فهو على خطأ كبير، بل ومعتدٍ على الإسلام؛ لأن الإسلام الحنيف موجود في القرآن والسنة وفي صدور الأشخاص الذين جسّدوا الإسلام في تصرفاتهم.. أُولئك النماذج الشريفة الذين حملوه ووعوه ودافعوا عنه. وهذا بعيد كلّ البعد عن الحال المعاش أيام الدولتين المشار إليهما، فلا الخمور ولا الفجور، ولا السهر حتى الصباح مع عزف الجواري ورقص القيان، ولا التلاعب بمصائر الناس وحرّيّاتهم وحقوقهم ومصادرتها من قانون الإسلام أو من تشريعاته في شيء، وغير ذلك الكثير الكثير [١].

---

(١) كتمزيق القرآن، انظر: مروج الذهب ٣: ٢٤٠، الجامع لأحكام القرآن ٩: ٣٥٠.
وحرق الكعبة المشرّفة وإهانتها، وقتل اللائذ فيها، انظر: سنن ابن ماجة ١: ٦٢٣ / ١٩٣٦، الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١ ـ ٢٥٢، ٢٦٦، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، الكامل في التاريخ ٢: ١٣٥، البداية والنهاية ٨: ٣٦٣، سبل الهدىٰ والرشاد (الشامي) ٦: ٢١٤، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٥، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤ / ٣٨٨، ١٨٧ / ٣٣٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، ١١: ٣١٦ / ٦٠٠، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٧٤، فتح الباري ٨: ٢٤٥، ينابيع المودّة ٣: ٣٦.
والالتفاف على الحكم الشرعي كما حصل من الرشيد لابن هرمة، انظر: جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ٣١١، تاريخ مدينة دمشق ٧: ٧٣. وغير ذلك من الخروقات الكثيرة.

فالذي نريد قوله هو أن الإسلام على عهد الرسول الأكرم ﷺ والخلفاء الراشدين بنى دولة واضحة المعالم، وحكم بالفعل وفق التشريع الإلهي، وسطر لنا النظريّات الضخمة في الإدراة والحكم، وكل ذلك جسّد هيكل الدولة الحقيقيّة في زمن النبي الأكرم ﷺ؛ بموجب وحي السماء تارة، وبمبادرة ذاتيّة منه تارة أُخرى. ومن هذا قضية الرجم في الزنا للمحصن، فالقرآن الكريم يقول: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾[1] ، فهو ينصّ على الجلد دون الرجم، لكن عندنا أن الزاني المحصن ـ وهو الذي عنده زوجة تكفيه لكنه مع ذلك يذهب ليعتدي على أعراض الناس ـ يرجم. فالرسول الأكرم ﷺ رجم مثل هذا مع أنه ليس فيه نصّ قرآني، فهل فعله الرسول ﷺ بوحي أم باجتهاد منه؟ ومثله قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾[2] ، فجاء الرسول ﷺ إلى الأراضي وافتتحها وخصّص بعضها بالزراعة ثم وزّعها على المسلمين، فهل هذا التوزيع هو تمليك أم اختصاص؟ بمعنى هل إنها ملك صرف للمسلمين يتصرّفون بها كيف يشاؤون، أم إنها استثمار بأن تعطى لمن يزرعها ويستثمرها وتؤخذ ممّن لا يفعل ذلك؟ وهذا التوزيع للأراضي هل كان فيه نصّ أم أنه قانون سنّه النبي الأكرم ﷺ؟

نظريات المسلمين في اجتهاد النبي ﷺ

ولتوضيح هذا الأمر نقول: إن عندنا حياله مدرستين تمثّلان نظريّتين متقابلتين هما:

الأولى: نظرية الوحي

وهي نظرية قائمة على أساس أن النبي ﷺ لا يمكن أن يفوه بشيء من نفسه

---

(١) النور: ٢.   (٢) الرحمن: ١٠.

أبداً، بل إن كلّ ما يقوله وما يفعله هو من وحي السماء وتوجيهها.

الثانية: نظرية منطقة الفراغ

وهي النظرية الأسلم والأصحّ، والتي تتماشى مع روح الإسلام وخلوده واستمراريّته وانفتاحه على العالم، وعلى العلم وشموليّته. وتنصّ على أن الرسول الأكرم ﷺ يمكن له أن يجتهد في بعض الأُمور التي لا نصّ فيها من القرآن الكريم، أي أن هناك الكثير من الأُمور التي تركت لتقدير النبي ﷺ أو الإمام عليه السلام أو ولي الأمر عامّة. وهذا ما يسمى بمنطقة الفراغ، فنحن نعلم ونوقن بأن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله تعالى للبشريّة جمعاء إلى نهاية العالم، وليس هناك نبي بعد نبينا الأكرم ﷺ، فالإسلام خالد حتى تقوم الساعة.

وهذا يعني أن هناك الكثير من مناطق الفراغ في التشريع لم يعالجها القرآن الكريم أو السنة النبوية المطهّرة. وكان لا بد من ملء هذه المناطق؛ ولذا فإن النبي ﷺ أو ولي الأمر عليه السلام قد أُعطيا حريّة التصرّف لملئها، أي أن تقديرها موكول إليهما.

اذن فمن الممكن أن يملأ النبي ﷺ أو خليفته الشرعي منطقة الفراغ في نطاق الخطوط العامّة للإسلام وفق ما تقتضيه مصلحته أو مصلحة الدولة والأُمّة دون أن يقتصر ذلك على الوحي فقط [١].

المبحث الخامس: أهمّية العلم ودوره في الإسلام

ثم انتقلت الآية الكريمة بعد ذلك فقالت: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ

---

(١) سيأتي الكلام عليها مفصّلاً في المبحث الخامس من محاضرة (الخلافة في الأرض) من هذا المجلّد.

﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، وهذا في واقع الأمر نقلة عظيمة ضخمة. فـ﴿الأَعْمَى﴾ يراد به الجاهل، و﴿الْبَصِيرُ﴾ يراد به العالم. فالآية الكريمة إذن تفضّل من يمشي على علم على من يعيش في ظلمات الجهالة، كما أنها تقرّر أن النبي ﷺ تصرّف عن علم، وحكم عن علم.

ومن هنا نجد أن هذا المقطع الشريف يقسم الناس إلى صنفين:

الصنف الأول: الذين يندرجون تحت فئة (البصير)، وهم الذين يتعاملون مع الحياة على ضوء العقل والعلم، وتحليل الأُمور تحليلاً صحيحاً.

الصنف الثاني: الذين يندرجون تحت فئة (الأعمى)، وهم الذين يتخبّطون في هذه الحياة في ظلمات الجهل بجهلهم، ويخبطون فيها خبط عشواء، فلا يميّزون بين الصواب وغيره لجهلهم.

وهذا التشبيه القرآني هو من أرقى أقسام التشبيه، بل هو أرقاها وأروعها على الإطلاق، ذلك أن الجهل أعظم كارثة تصيب الإنسان، في حين أن العلم من أعلى وأسمى الفضائل، يقول أحد الأُدباء:

أخو العلم حيّ خالد بعد موته ... وأعضاؤه تحت التراب رميمُ
وذو الجهل ميْت وهو ماشٍ على الثرىٰ ... يُظنّ من الأحياء وهو عديمُ[1]

ولذا فإننا حينما نمرّ بتاريخ أُمّة من الأُمم فإننا نجد أنه تاريخ علمائها وعظمائها، بمعنى أن الأُمّة التي يغلب عليها طابع العلم والعلماء هي التي تسمى

---

(١) البيان لابن السيد البطليوسي. البداية والنهاية ١٢: ٢٤٥، سير أعلام النبلاء ١٩: ٥٣٣.
ويقول غيره:
العلم يبني بيوتاً لا عماد لها ... والجهل يهدم بيت العزّ والشرف
شرح رسالة الحقوق: ٥١١.

أُمّة حضارية، بخلاف تلك التي يسيطر عليها الجهل ويطبعها بطابعه فإنها تعد أُمّة ميتة. وهذا هو السبب الذي يجعل الأمم الجاهلة تعيش عالة على الأمم المتعلّمة والمتحضّرة؛ فنحن لا يمكن أن نطلق لفظ «أُمّة حيّة» على مجموعة من الناس تفتقر إلى الآخرين بحياتها وآرائها وأفكارها ونظريّاتها الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة وغيرها. إن مثل هذه الأُمّة ليست أُمّة مطلقاً، بل هي حطام أُمّة.

فالأُمّة التي تحقّق الاكتفاء الذاتي في جوانب الحياة كافّة، وكان المنهج العلمي هو المسيطر عليها هي الأُمّة الحيّة.. الأُمّة البصيرة، وتحضرني هنا حادثة هي أن رجلاً من جند الشام له عندهم تجلّة واحترام استأذن على عبد الملك بن مروان وهو يلعب بالشطرنج، فقال عبد الملك لغلامه: يا غلام، غطّها؛ فهذا شيخ له جلالة. ثم أذن له، فلما دخل عليه سأله عبد الملك عن مسألة فلم يعرفها، ثم سأله عن أُخرى فلم يعرفها كذلك، ولمّا كلّمه وجده يلحن، فمدّ رجله أمامه وقال: يا غلام اكشفها فليس للاحن حرمة [١].

فالعلم يمنح صاحبه مكانة لا تسموها مكانة، والعلماء هم الأعلام، وهم الركائز التي تحيا بها الأرض، وعليها تستند، فالله تعالى يحيي البلاد والأُمم بالعلم والعلماء بعد أن كانت ميتة بالجهل وغارقة في الظلام. إن أغلب المفسّرين حينما يتناولون قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [٢] فإنهم ينصّون على أن إنقاصها إنما هو بموت علمائها [٣]، لأن بموت العالم تفقد

(١) انظر اتفاق المباني وافتراق المعاني ١: ١٣٧.

(٢) الرعد: ٤١.

(٣) الكافي ١: ٣٨ ـ ٣٩ / ٦، الفقيه ١: ١٨٦ / ٥٦٠، التبيان ٧: ٢٥٢، الجامع لأحكام

الأرض حصّة من العلم ومساحة من العقل والتنوّر. ومن هذا نعرف أن العلم زينة الدنيا وجمال الوجود.

فالقرآن الكريم بناءً على هذا التقرير شبّه العالم والجاهل بالبصير والأعمى، خاصمت أعرابيّة رجلاً، فسُمعت تقول: «والله لو صّور الجهل لأظلم معه النهار، ولو صوّر العقل لأضاء معه الليل»[1]؛ لأن ظلام الجهل ليس فوقه ظلام، ونور العلم ليس فوقه نور حتى الشمس. والقرآن الكريم يحفل بالكثير من المواطن التي كرّم الله تعالى فيها العلم والعلماء، والتي حثّ فيها على العلم وطلبه.

وربما يقول قائل: إن هذا الأمر نظري فقط.

والجواب أن هذا الادّعاء ليس صحيحاً أبداً. فالإسلام خصّص جزءاً كبيراً من بيت المال للإنفاق على طلبة العلوم، فهؤلاء ينفق عليهم ما داموا يطلبون العلم ويقضون أوقاتهم في تحصيله، فيرعاه في حياته وييسّر له سبل العلم وأدواته، ويرعاه كذلك بعد موته.

كان للشريف المرتضى ﷺ مدرسة علمية، وكان يرعى شؤون طلبتها رعاية خاصّة، فبنى لهم مخزناً وضع فيه كل ما يحتاجونه من أطعمة ووقود وملابس، فكان طالب العلم كلّما احتاج شيئامن طعام أو غيره ذهب إلى أمين المخزن وأخذ منه ما يحتاجه. وحدث أن جاء الشريف المرتضى ﷺ إلى المدرسة مرّة فوجد أحد الطلبة منفعلاً غاضباً، فسأله عما به فقال له: كنت أبحث في مسألة وداهمني الظلام ولمّا أُتمّها، وجئت إلى أمين المخزن لآخذ منه شمعة فلم أجده، وإني أخشى أن يداهمني الوقت فيفوتني أمر البحث فيها. فما كان من الشريف ﷺ

☚ القرآن ٩: ٣٣٤، المستدرك على الصحيحين ٢: ٣٥٠.

(١) جمهرة خطب العرب ٢: ٢٩٧.

إلّا أن صنع لكلّ طالبٍ نسخة على مفتاح المخزن؛ كيلا يتكرّر ما حصل مع هذا الطالب.

وكان ﵀ قد وجد كتاب (الجمهرة) في اللغة لابن دريد معروضاً للبيع، وكان في غاية الجودة فاشتراه، فلمّا فتحه وجد بضعة أبيات سطرت عليه، وهي:

أنست بها عشرين حولاً وبعتها	**لقد طال وجدي بعدها وحنيني**
وما كان ظني أنني سأبيعها	**ولو خلدتني في السجون ديوني**
ولكن لضعف وافتقار وصبية	**صغار عليهم تستهل شؤوني**
فقلت ولم أملك سوابق عبرة	**مقالة مكوي الفؤاد حزينِ**
وقد تخرج الحاجات يا أم مالك	**كرائم من ربّ بهن ضنينِ**

فعرف منها أن الكتاب لأبي الحسن علي بن أحمد بن علي بن سلك الفالي الأديب، وأن الحاجة قد دعته إلى بيعه، فوهبه له [١].

ثنائيّة العلم والإيمان

بقي أن نشير إلى أن العلم لابدّ أن يرافقه الإيمان؛ لأنه يوجهه الوجهة الصحيحة، فإذا اجتمعت هاتان الصفتان (العلم والإيمان) كانت النعمة الكبرى؛ ولذا فإن الجهل إذا خيّم على عقول البعض فإنهم يعملون بكل ما يسعهم فعله من أجل هدم العلم وأهله؛ لأنه يهدم أهدافهم ومآربهم. وهذا ما فعله الأُمويّون حينما جيّشوا جيوشهم ضدّ الإمام السبط أبي عبد الله الحسين ﵇ في الطف، وهم إذ قتلوا بن رسول الله فإنما قتلوا العلم والهدى والإيمان. وقد خرج ﵇ إليهم وهو يلبس رداء رسول الله ﷺ، وقد اعتمّ بعمامته، وتقلّد سيفه، وركب على فرس

---

(١) وفيات الأعيان ٣: ٣١٦، الكنى والألقاب ٢: ٤٨١.

رسول الله ﷺ؛ ولذا فإن من نافلة القول أن يقال: إنه عليه السلام جاءهم طالباً المودّة والرحمة؛ لأنه لو كان يريد ذلك لمكث في مدينة جدّه لكنه آثر الخروج والقتال لإعلاء كلمة الله تبارك وتعالى؛ وهو الموقف الذي أثار مولاتنا زينب عليها السلام، فجاءته حينما طلب من يقدّم إليه جواده، فبكت ولمح الحسين عليه السلام في عينيها دمعة، فأخرج منديله فمسح به دمعة كادت تنزل على خدّها، وقال لها: **«أُخيّة تعزّي بعزاء الله، لا يذهبن بحلمك الشيطان، اعلمي أن أهل السماء لا يبقون، وأهل الأرض يموتون ولي ولكلّ مسلم برسول الله ﷺ أُسوة حسنة. أُخيّة تمسّكي بحبائل الصبر»**[1]. فصاحت: والوعتاه ابن أُمّ أراك تغتصب نفسك اغتصاباً[2]:

انچان تريدني أنسه	**وابطل النوح وونيني**
اخذ ذكراك من گلبي	**واخذ صورتك من عيني**
أيام الچنت ويّاك	**أناغيك وتناغيني**
شبيدي عايشه ويّاي	**من ذيچ الايام اشباح**

* * *

قوموا إلى التوديع إن أخي دعا	**بجواده إن الفراق طويلُ**
فبرزن ربّات الحجال حواسراً	**وغدا لها حول الحسين عويلُ**

(١) الإرشاد ٢: ٩٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٩، البداية والنهاية ٨: ١٩٢.

(٢) مقاتل الطالبيّين: ٧٥.

﴿١٨٠﴾

الابتلاء وأثره الوضعي في بناء شخصيّة المسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً﴾ (١).

مباحث الآية الكريمة

توطئة

تتناول هذه الآية الكريمة الكثير من المشاكل التي تواجه المسلمين، والتي يعاني منها معظمهم خصوصاً المسلم الواعي، فهي تحاول أن تربّي المسلمين على النمط الأفضل من أنماط الحياة.. النمط الذي يتميّز بالصبر والتحمّل والثبات عند مواجهة الصعاب، وتعدّهم لمواجة تعقيدات الحياة وصعابها ومشاكلها، وأن كل عقيدة لابدّ أن يدفع إزاءها المعتقد بها الضريبة المترتّبة عليها. والإسلام في ذلك شأنه شأن غيره من العقائد، فعلى كلّ مسلم أن يدفع تلك الضرائب المترتّبة عليه، فالذي يحمل رسالة الإسلام عليه مواجة الشدائد، وألّا يظن أن الطريق الذي يسلكه إلى تحقيق هدفه وغايته سهل ومعبّد، فالحياة علمتنا أن نعطي كي نأخذ،

---

(١) آل عمران: ١٨٦.

بل أن نعطي ضعف ما نأخذ، وهذه إحدى سننها.

المبحث الأول: سبب النزول

كان سكان المدينة المنوّرة آنذاك ثلاث فئات: المشركون (الوثنيون)، وأهل الكتاب وهم النصارى واليهود، وطلائع المسلمين من المهاجرين والأنصار، وكانت الدولة الإسلامية حينها في بدايتها، وكانت تحتاج إلى واردات مالية تقيم إود هذه الدولة وتساعد في بنائها وهيكلتها. ومعلوم أن المسلمين سيما المهاجرين كانوا فقراء ليس عندهم ما يكفي لسدّ احتياجات دولتهم، وهذا هو السبب الذي جعل الرسول الاكرم ﷺ يضطرّ للاقتراض من المعاهَدين (اليهود).

وكان من ذلك أن كتب كتاباً مع أحد أصحابه إلى فنحاص بن عازورا يطلب منه فيه أن يقرضه بعضاً من المال، وكان فنحاص من رؤساء اليهود وأثريائهم، فلما قرأ الكتاب التفت إلى أصحابه وقال: «لقد احتاج رب محمد إلينا». فهمّ الصحابي بضربه لكنه تذكّر وصيّة الرسول ﷺ بالصبر على أذاهم عند استفزازهم إياهم (١).

وفيما يخصّ المشركين كان رسول الله ﷺ يطوف على مجتمعاتهم وأنديتهم يدعوهم إلى كلمة الله، وجاء يوماً إلى جماعة متحلّقين بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفيهم رأس المنافقين عبد الله بن أُبيّ، وكان رسولنا الأكرم ﷺ يمتطي ظهر حمار، فلما وصل إليهم غشيت المجلس عجاجة الدابة، فخمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه ثم قال: لا تغبروا علينا. فسلم عليهم النبي ﷺ ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله تعالى، وقرأ عليهم القرآن، فقال له عبد الله بن أبي: أيها المرء لا أُحسن من هذا، إن كان ما تقول حقّاً، فلا

---

(١) مجمع البيان ٢: ٤٦٠، عمدة القاري ١٨: ١٥٤.

تؤذِنا في مجالسنا، وارجع إلى رحلك، فمن جاء منا فاقصص عليه. فقال عبد الله ابن رواحة: اغشنا في مجالسنا؛ فانا نحب ذلك.

قال: فاستبّ المسلمون والمشركون واليهود حتى همّوا ان يتواثبوا، فلم يزل النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخفضهم، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال: «**أي سعد، ألم تسمع ما قال أبو حباب؟**». يريد عبد الله بن أبي، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**قال كذا وكذا**». فقال: اعفُ عنه يا رسول الله واصفح؛ فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة أن يتوّجوه فيعصبونه بالعصابة، فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاكه، شرق بذلك، فذاك فعل به ما رأيت. فعفا عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم [١].

فكان المسلمون بعد ذلك يسمعون كلاماً كثيراً من اليهود والمشركين، وكانوا يألمون لهذا، فنزلت هذه الآية الكريمة لبناء الشخصية الإيمانية، ولتحاول أن تروّضهم على تحمّل المصاعب والشدائد وقبول ذلك، ولتبيّن لهم بأنهم سيجدون أمامهم طريقاً وعراً ملؤه الأذى والألم النفسيّان، بل وإلى خسارة مادية أيضاً، فعليهم أن يرضوا بهذه التضحية كي يحقّقوا الهدف الذي يريده الله تعالى وإن كانت تضحية بالنفس وليست بالمال فقط.

المبحث الثاني: في معنى الابتلاء

تقول الآية الكريمة: ﴿**لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ**﴾، إن النظر في مضامين هذه الآية الكريمة يأخذنا إلى عالم فسيح من التربية العالية التي يريد الله تعالى أن يربّي بها أتباع رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، وأبناء دينه الحنيف. وهذا المقطع الشريف ينبئ

---

(١) مسند أحمد ٥: ٢٠٣، صحيح البخاري ٧: ١٣٣، صحيح مسلم ٥: ١٨٣.

المسلمين بأنهم سوف يتعرّضون إلى اختبار إلهي كبير في أموالهم وأنفسهم؛ فمسألة نشر هذا الدين مسألة كبيرة لا تتوقّف على النطق بالشهادتين والاستسلام لمشاكل الحياة المعيشية، بل إن وراء كلمة «**لا إله إلّا الله**» ضريبة ضخمة يتوجّب دفعها ليصل الإنسان إلى رضوان الله ومباركته. وهذه الضريبة هي الابتلاء بالمال والنفس، ومن هذه الضرائب الزكاة التي يعدّ الخمس داخلاً فيها، فالإسلام يعبّر عن الخمس بالزكاة؛ لأن فيه تطهيراً للمال بأخذ الحقّ منه.

أقسام الحقوق الماليّة

وأخذ الحقّ واستخراجه يختلف باختلاف المتعلّق، فإذا كانت الأموال زكوية وهي الغلّات الأربع والنقدان والأنعام الثلاث كان فيها الزكاة المخصوصة المعروفة، وإن لم تكن الأموال كذلك كان فيها الخمس بخصوصه. والدليل علىٰ أن الزكاة تطلق على الخمس أن هناك البعض من الروايات تطلق لفظ الزكاة عليه.

إذن فأول اختبار وابتلاء واجهه المسلمون هو إخراج الأموال الزكوية بنسبة معيّنة فرضها الشارع المقدّس. والغاية التي من أجلها شرع الله تعالى هذه الفريضة هو خلق مجتمع متوازن تتساوى فيه فرص توزيع الثروة، أو لا أقل من أن تتقارب مداخيلهم كي يكون هناك مجتمع متوازن غير متخلخل، سئل الإمام الرضا عن السبب في تشريع الزكاة، فكتب: «**وعلّة الزكاة من أجل قوت الفقراء وتحصين أموال الأغنياء؛ لأن الله تبارك وتعالى كلّف أهل الصحّة القيام بشأن أهل الزمانة والبلوى، كما قال الله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾؛ ﴿فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ بإخراج الزكاة، و﴿وَأَنْفُسِكُمْ﴾ بتوطين الأنفس على الصبر مع ما**

في ذلك من أداء شكر نعم الله عزّ وجل » [١].

وبالنتيجة فلن تكون هناك ثغرة في المجتمع تعمل على نخره؛ لأن الاختلال في المجتمعات يعمل على هدمها، فلو وُعظ شخص بشتّى المواعظ ولِما شاء الله تعالى من الزمن ثم يعود إلى بيته ولا يجد فيه رغيف خبز لأطفاله، ولا يجد فراشاً ينام عليه، وهو يرى غيره يتقلّب على فراش النعمة وألوان الحرير، ويعبث بالأموال كما يريد، فإن الوعظ الذي سمعه يصبح بالنسبة إليه كأنه لم يكن؛ لأن المعدة الخاوية لا تعرف لغة المنطق ولا تستوعب الموعظة. لكن مثل هذا لو مكّن من الرغيف وكُفي الحاجة فإن الموعظة حتماً ستؤثّر فيه. هذا إذا كان عنده استعداد أصلا لتقبل الموعظة بطبيعة الحال.

وعليه فضمان الحاجات الأساسيّة للفرد أمر ضروري جدّاً، وهو الخطوة الأُولى والأساس في مشروع الدعوة؛ لأن الشخص حينها سيكون عنده الاستعداد الكامل لتقبّل الوعظ والإرشاد، وإلّافإن الدعوات الهدّامة ستجد طريقها إلى المعدة الخاوية، وسوف تتغلغل إلى عقله. فالجسد العاري والمعدة الفارغة هما أسهل وسيلة لتحقيق ذلك. ونحن لا نعنى بهذا (توفير لقمة العيش، وسدّ احتياجات الفرد) إعطاءه من بيت المال، فليس هذا هو الوضع الطبيعي، بل إن الوضع الطبيعي هو إيجاد فرصة عمل له يتكسّب بها، فيضمن استقراره النفسي ورضاه. وبهذا الشكل سوف نتمكّن من بناء مجتمع مسلم صالح يترفّع عن الرذائل.

وقوله عليه السلام: **« تحصين أموال الأغنياء »**، يعنى أن الأموال التي لا يخرج الحقّ منها

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٩٦ - ٩٧، علل الشرائع ٢: ٣٦٩ / ب ٩١، ح ٣.

تتحوّل إلى أموال محرّمة، فيمحقها الله تعالى؛ لأنها أصبحت سحتاً، فإذا أُخرج الحقّ منها حصّنت من المَحق والسحت. فالله تعالى أوعد بأن يسحت الباطل؛ إمّا بصورة مباشرة كأن يسّلط عليه آفة سماوية تأكله [١]، أو بصورة غير مباشرة كأن يسلط عليه آفة اجتماعية حيث يأتي قانون يمحق تلك الأموال ويصادرها. فإذا أُخرجت الحقوق حصّنت أموال الأغنياء، وسدّت حاجات الفقراء، وبالنتيجة يُقضى على الاختلال الذي يمكن أن يحصل لولا ذلك. وإذا ارتفع الاختلال خُلقت حالة من التوازن داخل المجتمع، ومن التعاطف بين أفراده، وتستلّ الضغينة والبغضاء. سئل أبو جعفر أو أبو عبد الله عليه السلام عن الرجل له دار وخادم وعبد أيأخذ من الزكاة؟ قال عليه السلام: **«نعم؛ إن الدار والخادم ليسا بمال»** [٢].

ذلك أن الحق الشرعي يجب أن يوضع في موضعه، وموضعه كلّ محتاج له، وهذا الإنسان اعتاد نمطاً معيّناً من الحياة والعيش، وربما كان عنده مجلس يرتاده الناس؛ فلأجل هذا يعطى من الزكاة ما يسدّ حاجته ويحفظ كرامته؛ لأن أساس مجتمعنا أنه مجتمع كفاية وليس مجتمع كفاف [٣]. وهذا يعني أنه لا يلبس ثوباً من أي نوع كان، بل أنه يكسى ثوباً يناسب مكانته وكرامته، وكذلك الحال مع مسألة الطعام والسكن وغيره.

---

(١) كما حصل مع أصحاب الجنّة الذين منعوا المحتاج منها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ القلم: ١٧ ـ ٢٠.

(٢) الفقيه ٢: ٣٣ / ١٦٢٧.

(٣) وعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «وقد تحلّ الزكاة لصاحب السبعمئة، وتحرم على صاحب الخمسين إذا كان صاحب السبعمئة له عيال كثير، فلو قسمها بينهم لم تكفِه؛ فليعفِ عنها نفسه وليأخذها لعياله، وأما صاحب الخمسين فإنه تحرم عليه إذا كان وحده وهو محترف يعمل بها، وهو يصيب فيها ما يكفيه». الفقيه ٢: ٣٣ / ١٦٢٨.

فالزكاة إذن مهمّتها إنشاء مجتمع تنعدم فيه الثغرات التي تؤدّي إلى انهياره وتفكّكه. وهذا هو الأمر الذي يؤكد عليه القرآن الكريم حينما يقول: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾، وهو أمر قائم على خلق مجتمع لا يعتمد الشعارات فقط في حياته العمليّة وأنشطته اليوميّة؛ لأن الشعارات تبقى طافية على السطح دون أن تغوص إلى عمق المشكلة، بل مجتمع يتجاوز الشعارات إلى مرحلة التطبيق العملي للحلول الاجتماعيّة جذريّاً؛ لأن بخلاف ذلك سوف يتعرّض المجتمع للانهيار كما قلنا.

المبحث الثالث: مظاهر الابتلاء بالأنفس

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَأَنْفُسِكُمْ﴾، والابتلاء بالأنفس له مظاهر متعددة منها:

الأول: المرض

إن من سنن الحياة أنْ لا أحد يعيش فيها دون أن يصاب بمرض ما، وكذلك من سننها التي تعلمناها أن الإنسان حينما يصاب بمرض معين ألّا يجزع ولا يتذمّر أو يسأم الحال التي هو عليها، بل إن الحقّ هو أن عليه أن يصبر ويتحمّل، سأل رسول الله ﷺ أصحابه فقال: «**من أحبَّ أن يصحّ ولا يسقم؟**». قالوا: نحن يا رسول الله. فقال ﷺ: «**مه**»، وعرف في وجهه، ثم قال: «**أتحبّون أن تكونوا كالحمير الصيّالة؟**». فقالوا: يا رسول الله، لا. قال ﷺ: «**ألا تحبّون أن تكونوا أصحاب بلاء وأصحاب كفّارات؟**». قالوا: بلى يا رسول الله. فقال ﷺ: «**فوالله، إن الله ليبتلي المؤمن؛ وما يبتليه إلّا لكرامته عليه، وإن له عنده منزلة ما يبلغها بشيء من عمله دون أن ينزل به من البلاء ما يبلغ به تلك المنزلة**»[١].

---

(١) الطبقات الكبرى ٧: ٥٠٨، كنز العمّال ٣: ٣١٤ / ٦٧٢١.

أي أنه خلاف ذلك سوف يتكبّر ويدّعي الاُلوهيّة؛ ولذا فإننا نقرأ في التاريخ أن الجبابرة الذين يدّعون الاُلوهيّة قد أصابهم الله بعد ذلك بشرّ مصرع، كأن تدخل ذبابة أو بعوضة في اُذنه أو أنفه فتسحق كبرياءه. فالإنسان بشكل طبيعي يتعرّض للأمراض والأسقام والأوجاع والآلام، وهذا أمر ضروري جدّاً، لأن المرض؛ يشعره بأنه بحاجة إلى لطف الله وعنايته ورعايته، وأن عليه ألّا يظن أن الدنيا تستطيع أن تشفيه من مرضه إذا لم يرد له الله ذلك: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[1].

فمهما يخترع العلم والمختبرات العلمية الدنيوية من مضادات كيمياوية أو حيوية لعلاج مرض معين فإن أمراضاً اُخرى وآفات غيرها سوف تمدّ رأسها في هذا النسيج البشري متحدّيةً العلماء وكشوفاتهم ومختبراتهم. وهذا الأمر من سنن الحياة؛ لأنهم حينئذٍ سوف يشعرون بأنهم بحاجة دائماً إلى معونة السماء ورفدها؛ فالإنسان ملاك الضعف، والله تعالى ملاك القوّة والقدرة المطلقتين.

وفي هذا الابتلاء تتّضح لنا فلسفة الابتلاءات الإلهيّة التي يختبر الله بها إيمان الإنسان وثباته على عقيدته ودينه. وفي هذا المقام نذكر كلمة لعلماء المسلمين تقول: «كلّ ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك»[2]، فالمخلوق يغنىٰ ويفتقر، ويصحّ ويمرض، ويضعف ويشتدّ، وهكذا في كثير من الثنائيّات الدنيويّة المتضادّة التي تحكم حياة الإنسان، بل والوجود كلّه. وكلّ هذا بأمر الله تعالى الذي هو الموجود المطلق والغني المطلق، والذي لا يسقم ولا يضعف ولا يفتقر أبداً.

ولذا فعلى الإنسان إذا مرض ألّا يجزع من هذا المرض؛ لأنه ابتلاء ربّاني يراد

---

(١) الشعراء: ٨٠.

(٢) ذكر أن هذه الكلمة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الشورى: ١١. انظر: دفع شبه التشبيه: ١٣٥، التنديد بمن عدّد التوحيد: ٦٥.

به مصلحة الإنسان نفسه، وليس مصلحة أحد غيره، وكذلك إذا أُفقر أو ابتلي بلون ما من ألوان الابتلاءات، بل عليه أن يطلب العون من الله تعالى على مجابهة هذه الشدائد ومواجهتها. وهذا ما يؤكّده الإمام السجّادعليه السلام في دعائه بقوله: «**اللهم إنك كلّفتني من نفسي ما أنت أملك به مني، وقدرتك عليه وعليَّ أغلب من قدرتي، فأعطني من نفسي ما يرضيك عني، وخذ لنفسك رضاها من نفسي في عافية. اللهم لا طاقة لي بالجهد، ولا صبر لي على البلاء، ولا قوة لي على الفقر، فلا تحظر عليّ رزقي، ولا تكلني إلى خلقك، بل تفرّد بحاجتي، وتولَّ كفايتي، وانظر إليّ، وانظر لي في جميع أُموري؛ فإنك إن وكلتني إلى نفسي عجزت عنها، ولم أُقم ما فيه مصلحتها، وإن وكلتني إلى خلقك تجهّموني وإن ألجأتني إلى قرابتي حرموني**»[1].

ولهذا فإننا نجد أن الكثير من المؤمنين الصابرين لا تسمع منهم كلمة تأوّه أو جزع، مهما ابتلي ومهما كان الابتلاء شديداً.

الثاني: الجهاد

وهذا كذلك ممّا يصح انطباق مفهوم الابتلاء عليه؛ ذلك أن الجهاد يتطلّب جراحاً وقتلى؛ ولذا فإن من يمرّ بأصحاب الصفّة في مسجد النبيّ يجد فيهم الكثير من المعاقين الذين أُصيبوا في الحروب التي خاضها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ضد الكفّار وأصحاب العقائد المنحرفة. هؤلاء بجراحاتهم إنما يعلّقون أوسمة المجد دفاعاً عن الكرامة والدين والمقدّسات، وأوسمة شرفٍ في سبيل المعتقد.

---

(١) الصحيفة السجّادية: ١١٨ / دعاؤهعليه السلام عند الشدّة والجهد وتعسر الأُمور، المصباح (الكفعمي): ١٦٩.

إذن بهذا المظهر يكون الابتلاء بالنفس عن طريق الجهاد بفقد الحياة، أو بفقد عضوٍ من أعضاء البدن، أو بمرضٍ يترتّب على هذه الإصابات، أو بعوقٍ يصيب الإنسان المجاهد فيذهب ببصره أو بسمعه أو بأطرافه العليا أو السفلى، أو تأخذهم السيوف والرماح. وكان هذا شأن جميع المجاهدين المخلصين، وعلى رأسهم سيّدهم وأميرهم الإمام علي بن أبي طالب؛ حيث إن جسده الشريف قد أصابته (٤٦) طعنة رمح وضربة سيف في واقعة اُحد، حتى تحوّل إلى كتلة من الجراح:

عشقتْكَ الجِراحُ حيّاً وميتاً ... فرأيناك مثخناً بالجراحِ

ويشهد له قوله:

«أفاطمُ هاكِ السيفَ غيرَ ذميمِ ... فلستُ برِعديدٍ ولا بمُليمِ

لعمري لقد بالغتُ في نَصرِ أحمدٍ ... وطاعةِ ربٍّ بالعبادِ رحيمِ»[1]

وكلّ تلك الجراح كانت في سبيل الله تعالى، وهي وإن كانت عاهة في الجسم وألماً في النفس إلّا إنها وسام مقدس. ومن هنا نستوعب حقيقة الخطاب القرآني الشريف وهو يخاطب المسلمين مبيّناً لهم أن هذه الجراحات هي شرف العضويّة والانتساب إلى هذا الدين الحنيف.

المبحث الرابع: دور الصبر في بناء الشخصيّة المسلمة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، وفي هذا المقطع الشريف يأمر القرآن الكريم المسلمين بالتحلّي بالصبر

---

(١) الفائق في غريب الحديث والأثر ٣: ٣٨٥ ـ هاء، شرح نهج البلاغة ١٥: ٣٥، وفيهما هائي، هاكِ.

والسيطرة على النفس عندما يسمعون كلمة نابية خبيثة من هؤلاء؛ لأنهم سوف يسمعون منهم الكثير الكثير من مثل هذا الكلام. فالمسلم إذا أراد أن يستثمر طاقاته فعليه أن يفعل ذلك (صمّ السمع عن كلام السوء)؛ كي يتمكّن من أداء دوره وتبليغ رسالة الله تعالى؛ لأنه سوف لن يتمكّن من استثمار الطاقات سواءً تلك التي أودعها الله فيه أو التي أودعها في أرضه إلّا إذا روّض نفسه على تحمّل المكروه والمشقّة، وتقبّل الواقع المرّ.

وهكذا فإن عليهم أن يسمعوا كلام هؤلاء، ثم يغضّوا الطرف عنه، ويعرضوا بأسماعهم دون أن يلتفتوا إليه، ولا يعاملونهم إلّا على أساس أنهم يمدحونهم، وليس على أساس أنهم يذمونهم:

أصمّ عن فعل الخنا سمعه وما عن الخير به من صممْ[(١)]

فالمؤمن عليه أن يظهر بحال من لم يسمع الكلمة الرديئة وإن كان يسمعها، بل وأكثر من هذا أن يجيب عنها بالرفق واللين والترفّع عن الكلمة الخبيثة، خرج أمير المؤمنين عليه السلام يخطب الناس، فصاح به جماعة من الخوارج من جوانب المسجد: لا حكم إلّا لله. وصاح به آخر: **﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾**[(٢)] فأجابهم عليه السلام بقول الله تعالى: **﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾**[(٣)].

---

(١) البيت لداود بن سليم من جملة أبيات يمدح بها قثم بن العبّاس. الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة: ١٥٢، الاستيعاب ٣: ١٣٠٥، شرح نهج البلاغة ١٦: ١٤١، الوافي بالوفيات ٢٤: ١٥٠، عيون الأثر ٢: ٣٧٨.

(٢) الزمر: ٦٥.

(٣) الروم: ٦٠. وانظر: بحار الأنوار ٣٣: ٣٤٥، شرح نهج البلاغة ٢: ٢٦٨ - ٢٦٩، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٨: ٧٣١، ٧٣٣ - ٧٣٤، مسند ابن الجعد: ٣٤٤ - ٣٤٥.

فهؤلاء يقولون له: إنك أشركت وجعلت معاوية معك شريكاً في التحكيم، وعليه فإن عملك قد ذهب كأن لم يكن بشيء. وكان جواب الإمام يدلّ على سعة صدرٍ وأُفقٍ واسع في تحمّل إساءات الآخرين، يقول أمير المؤمنين﵇: **«آلة الرئاسة سعة الصدر»**[١]. فهو﵇ لم يكن بالذي تستفزّه الكلمة الخبيثة، خرج﵇ ذات مرّة من مسجد الكوفة فالتقاه أحدهم عند الباب وقال له: أنا لا أُبايعك، ولا أخرج معك لقتال، ولا أجتمع معك في جمعة أو جماعة. وهنا ما الذي يمكن أن نتصوّره من موقف له﵇ إزاءه؟ لقد سكت﵇ عنه ولم يعنّفه، ثم إنه﵇ قال له بعدُ: **«وأنا لا أهيجك، ولا أمنع عنك عطاءك ما دام المسلمون منك في أمان»**[٢].

وهذه النقطة استغلّها أعداؤه﵇ فيه، فاتّهموه بأنه لا يحسن إدارة الدولة ولا تدبير شؤون الحياة؛ لأنهم يريدون منه أن يديرها على حساب مبادئه وقيمه، لا على ضوء تعاليم الإسلام؛ ولهذا فإن القوى التي تضرّرت من تطبيق نظم الإسلام قد وقفت بوجهه كلّها كالأُمويين والخوارج وأمثالهم. فهؤلاء لم يكونوا بالذين يرتضون نظام الإسلام وهو يأمر بالمساواة والعدل بين الناس كافّة، وبالعفو عند المقدرة، بل إنهم كانوا يريدونها حياة تخضع لنظام جلّادٍ، وهذا ما لم يكن يريده الإسلام ولا الإمام علي﵇ باعتباره الشخص الوحيد الذي يمثّل الإسلام، فهو﵇ يريد أن يصلحهم بطريق هادئ؛ ليرفعهم إلى مصافّ الجوّ الإسلامي النظيف. غير أنهم لم يكونوا يريدون إلّا من يرتقي بقدميه على أعناقهم.

ومن هنا نجد أن الكتّاب حينما يتناولون سيرة الحجّاج يكتبون عنه بالشكر

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ١٨، ٧٠.

(٢) قريب منه ما في الإصابة ٣: ١١٦ / ٣٣٦٤.

والامتنان والتعظيم له ولمنهجه باعتباره الإداري القدير الذي استطاع أن يخضع البلاد والعباد لسلطانه وسلطان أسياده الأُمويّين. وما ذلك إلّا لأنهم يرون الحياة غابة من الذئاب. وهذا الفهم للحياة هو فهم بليد وبعيد عن التصوّر الإسلامي للدولة والسلطان، في حين أن الإمام عليّاًعليه السلام فهم الحياة على ضوء المنظور الإسلامي الذي أراده الله تعالى؛ ولذا فإنهعليه السلام أراد صنع مجتمع قرآني تحكمه أخلاقيّات القرآن ونظم السماء. وهذا ما نلمسه واضحاً بيّناً في كل حركاته وسكناته؛ ولذا فإننا نجد أنهصلى الله عليه وآله وسلم ليس فيه من عيب من وجهة نظرهم سوى هذا؛ لأن المجتمعات الجاهليّة تروى الخضوع لأوامر السماء عيباً.

الاغتراب في حياة أمير المؤمنينعليه السلام

وإني أجزم بأن الإمامعليه السلام لو رجع اليوم إلى الحياة فإنه سوف يصاب بالشيء نفسه الذي أُصيب به آنذاك؛ لأن المجتمع الذى يعيش اليوم هو عينه المجتمع الذي كان يعيش آنذاك؛ فعقليّته هي عقليته؛ ورؤيته هي رؤيته؛ وقيم الجاهلية لا زالت تعيش في أذهان الناس في العصر الحديث وكأنها (تلك الأذهان) لم تأخذ من الإسلام إلّا قشوره، ولا من قوانينه إلّا أُموراً سطحية، وهي أُمور لا علاقة لها بروح الإسلام التي أساسها التعايش بين المسلمين والتعاون والمحبّة بينهم. وهذا هو الذي حدا بالإمام أمير المؤمنينعليه السلام أن يقول لذلك المعترض عليه: **«وأنا لا أُهيجك، ولا أمنع عنك عطاءك ما دام المسلمون منك في أمان»**.

ولعلّ هذا هو الذي يفسّر لنا اقتصار الإمام عليعليه السلام في تعامله وبوح همومه ومشاكله على شريحة معينة كان قد ربّاها تربية إسلامية سليمة؛ فهوعليه السلام كان يشعر

بأن هؤلاء يفهمهم ويفهمونه، ويحسّهم ويحسّونه، وكانوا يمثّلون له الأُذن الصاغية التي تتلهّف لسماع كلّ ما يقوله، فتأخذه لتستنير به. وكان هؤلاء يسمعون الأذى بآذانهم ويصبرون عليه، مع أن بوسعهم أن ينتقموا من هؤلاء المتعرّضين لهم؛ فقد كان بوسعهم ذلك، لكن تربية أمير المؤمنين عليه السلام قد أثمرت معهم.

ولم يكن هذا الأمر مقتصراً على أصحابه عليه السلام الذين عاشوا زمنه، بل إنه تعدّاهم إلى جماعات أُخرى غيرهم حفل بهم تاريخنا، وكانوا نِقاطاً من النور شرّفت وجه التأريخ، فكانوا يتسمّون بالحلم وسعة الصدر والصبر على أذى الآخرين، سبّ رجل الإمام السجاد عليه السلام، فسكت عنه، فقال له: إيّاك أعني. فقال عليه السلام: «**وعنك أُغضي**»[1].

فهذا هو مجتمع القرآن: ﴿**وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً**﴾[2] فاللفظة النابية تمرّ بهم وكأنهم لا يسمعونها، فلا يعنيهم أمرها، لأنها لا تغيّر من الواقع شيئاً، بل إن بعضاً منهم ممّن ارتفع في مستوى التهذيب حتى شارف القمّة فيه يشكر من يبتدره بكلام سوء؛ لأنه يعتبره قد أبان حلمه، واستثمر طاقاته، وأفاده اختباراً[3].

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٦، تهذيب التهذيب ٧: ٢٧٠، تهذيب الكمال ٢٠: ٣٩٨، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٩٥ - ٣٩٦.

(٢) الفرقان: ٧٢.

(٣) فلكأن الشاعر محموداً الوراق يعبّر عمّا في أنفسهم وهو يقول:

إني شكرت لظالمي ظلمي ... وغفرت ذاك له على علمِ
ورأيته أسدى إليّ يداً ... لما أبان بجهله حلمي
رجعت إساءته إليه وإحـ ... ـساني فعاد مضاعف الجرمِ
ورجعت ذا أجرٍ ومحمدةٍ ... وغدا بكسب الوزر والإثمِ

شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٧٨.

والقرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى، حيث إنه يبيّن للمؤمنين بأنهم سيسمعون من اليهود والمشركين والمنافقين كلاماً نابياً، وسيلقون منهم أذىً كثيراً. وهو بهذا يروّضهم لتحمّل هذا العبء الملقى على عواتقهم؛ لأن أُولئك المبغضين يريدون أن يفتنوهم عن دينهم، ولهذا فلابدّ للمؤمنين من الثبات على دينهم، ولا يكون ذلك إلّا بترك هؤلاء ونباحهم.

المبحث الخامس: في فضيلة الصبر

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾، أي اصبر أيها المسلم واتّقِ المؤثّرات؛ لأن هذا من عزم الأمور، ومراتب بناء الشخصية الإسلاميّة. فعلى المسلم أن يروّض نفسه على سماع الكلمة النابية أو الخبيثة إذا طرقت سمعه من هؤلاء، وأن يصبر عليها. كان الحجازيّون في أيام الفتوح قد أبدلوا قسماً من أراضيهم بأراضٍ في الشام؛ لأنهم كانوا يشعرون بأنهم يحتاجون إلى بساتين غنّاء، وأراضٍ خضراء، ومياه متدفّقة، وكان كلّ هذا موجوداً ومتوفّراً في الشام. وكان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب عنده أرض هناك اعتاد أن يذهب إليها، فإن ذهب ولم يحضر مجلس الحاكم الأُموي افتقدوه، وقد دخل مرة مجلس عبد الملك بن مروان، فاستقبله عبد الملك بالترحيب، ثم أخذ بيده فأجلسه معه على سريره، ثم سأله عن مطعمه ومشربه، فلما انقضت مساءلته قال له يحيى بن الحكم: ما فعلت خبيثة؟ يعني المدينة المنوّرة التي سمّاها النبيّ ﷺ طيبة.

ويحيى بن الحكم هذا هو أخو مروان.. هذه السلالة الأُمويّة التي كان لها موقف سلبي خاصّ من مدينة رسول الله ﷺ؛ لأنهم سمعوا رسولنا الأكرم ﷺ يحدّث

فيها بحقّهم أحاديث جعلتهم خزياً على المسلمين، فقد طردهم ﷺ منها، وقال فيهم: «**إن الخلافة محرّمة على ولد أبي سفيان**»(١).

وهي كذلك المدينة التي سمعته ﷺ يقول ذات يوم، وقد رأىٰ أبا سفيان راكباً، ومعاوية يقوده وابنه الثاني يزيد يسوقه: «**لعن الله السائق والراكب والقائد**»(٢).

فكانت هاتان المقولتان مختزنتين في ذاكرة أهلها وذاكرة الاُمويّين، وهذا ما صيّر مواقفهم كلّها إزاءها مواقف إجراميّة همجيّة تتّسم بالقسوة والظلم، فكانت وقعة الحرّة التي خطّطوا لها؛ ليستوفوا منها حقّهم، وليفرغوا غلّهم وليشفوا غيظهم، فأباحوها ثلاثة ايام، وسفكوا فيها الدماء حتى أوصلوها إلى قبر رسول الله ﷺ، واعتدوا على أعراض المسلمين فيها(٣).

فقال عبد الله له: وما خبيثة؟ قال: أرضك التي جئت منها. فقال: سبحان الله! يسميها رسول الله ﷺ طيبة، وأنت تسميها خبيثة! لقد اختلفتما في الدنيا، وستختلفان في الآخرة.

فهؤلاء انعقدت نفوسهم على حقد دفين على المدينة المنوّرة، فهم أبداً متألمون منها؛ لأنهم لم يجدوا فيها الأشياء التي تنشرح لها نفوسهم، ذلك أن فيها عبق جبرائيل، وطيب نبيّنا محمد ﷺ وفيها، محاريب آل محمد عليهم السلام، وبطولات ومواقف رجالات الإسلام الشرفاء الذين حملوا الإسلام. وهذا كلّه لا يروقهم ولا يستسيغونه:

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٢١٦، اللهوف في قتلى الطفوف: ١٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣١٢، ٣٢٦، حياة الحيوان الكبرى ١: ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) المعجم الكبير ٣: ٧٣، ترجمة الإمام الحسن عليه السلام (ابن عساكر): ١٩١، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧٥.

(٣) تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

طيبةٌ يا شذى البساتين طِيباً ... يا هديلَ المُرَجِّعِ الأُغرودِ

يا رُؤَى جبرئيلَ والنورِ والأنـ ... ـغامِ في نظرةِ الكتابِ المجيدِ

يا عبيرَ الفتوحِ لقّع بالأطـ ... ـيابِ من وثبةِ الكماةِ الصيدِ

يا عطاءَ القرآنِ يصنع دنيا الـ ... ـسحبَ في أُمّةٍ من الجلمودِ

فهذه هي الصورة المشرقة للمدينة التي تلوح في سمائها صورة الإسلام وملامح جبرائيل عليه السلام وروح محمد والأوائل من الصحابة الذين هم بحق حواريو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . ولهذا كلّه حاول الأُمويّون محو كلّ هذه الملامح، وتشويه هذه الصورة القدسيّة للمدينة، ثم يصبغونها بصبغتهم الجاهليّة الظلامية، وتحويلها من بلد مقدّس يعدّ بؤرة مضيئة انطلق منها شعاع الإسلام نحو رحاب العالم كلّه إلى بلد اللهو والغناء والخمر والرذيلة، يقول مالك بن أسماء الفزاري:

لو كنت أحمل خمراً حين زرتكُمُ ... لم ينكرِ الكلبُ أني صاحبُ الدارِ

لكن أتيت وريحُ المسكِ يقدمني ... والعنبرُ الوردُ مشبوباً على النار

فأنكر الكلبُ ريحي حين خالطني ... وكان يألفُ ريح الزقّ والقارِ [(١)]

فالمدينة التي كانت محطّ زغب جبرائيل عليه السلام ، والتي تردّد جدرانها بقايا أصداء صوت بلال وهو يرفع كلمة **«لا إله إلّا الله»**، والتي ضمت صوراً من أسارير محمد صلى الله عليه وآله وسلم وآله عليهم السلام على جدرانها كانوا يعتبرونها عدوّهم الأول.

ثم قال له يحيى: لأَن أموت بالشام أحبّ إليّ من أن أموت بها. فقال عبد الله: اخترت جوار النصارى على جوار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [(٢)]!

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٩: ٣٥٠.

(٢) الدرجات الرفيعة: ١٧٧، عن العقد الفريد ٤: ٢١، وأنساب الأشراف ١: ٤٦ / ط: بيروت، قاموس الرجال ١١: ٤٥، عن العقد الفريد كذلك.

وهذا هو معنى الصلابة والوقوف بوجه الباطل. فكان عبد الله يكثر من الرحلات إلى الشام وفي المرّة التي توفيت فيها زوجته السيدة زينب الكبرى كان قد اصطحبها معه إليها، فلمّا دخلتها عنّت لها ذكرياتها الأليمة، وتذكّرت كيف كان حالها وحال حرم رسول الله ﷺ وهن يدخلنها مسبيّات مسلوبات، فاشتدّ بها الألم حتى قضت نحبها بعد ثلاثة أيام من دخولها، فدفنت هناك وفي عينيها طيوف الطفّ وذكرياته، وآلام السبي والاستهتار الأُموي. يقول المنهال: وقعت عيناي على علي الإمام زين العابدين ﵇ فقال: «**يا منهال، هل معك ثوب عتيق؟**». فقلت: يا سيّدي، مالذي تفعله به؟ فقال ﵇: «**أضعه تحت الجامعة؛ فقد أكلت لحم عنقي**». ثم قال ﵇: «**وهل معك شيء من الدراهم؟ فإني أُريد أن أدفعها لحامل الرؤوس؛ كي يبتعد عن المحامل؛ فقد خزينا من كثرة النظر إلينا**».

ثم جاؤوا بحرم رسول الله ﷺ حتى أدخلوهن مجلس يزيد:

وإنّ من أدهى الرزايا السودِ ... وقوفها بين يدي يزيدِ

أتوقَفُ الحرَّةُ من آل العَبا ... بين يدي طليقِها وا عجبا

حنّت بقلبٍ والهٍ محترقِ ... على أخيها فأزالها الشقيْ

* * *

يا صيحةً تُحمَدُ من صوائحِ ... ما أهونَ الموتَ على النوائحِ

﴿١٨١﴾

الخلافة في الأرض

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في وظائف الأنبياء عليهم السلام

إن للنبوّة بشكل عام وظيفتين أساسيّتين هما:

الأولى: تنظيم علاقات الحياة

وهذا الجانب يتناول العلاقات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والأخلاقيّة، أو بتعبير آخر كلّ ما يتعلّق بنظام الحياة.

الثانية: الإجابة على تساؤلات الإنسان

وهذه الوظيفة تتضمّن الإجابة الشافية على كلّ ما يدور في خلد الإنسان أو في ذهنه عن هذا العالم، أو عن الحياة ما بعد الموت، أو ما يسمى بـ«العالم الميتافيزيقي».

---

(١) الأنبياء: ٧٣.

وبلحاظ أن الأنبياء عليهم السلام يمثّلون السماء؛ لأنهم هم الذين يجسّدون وحيها على الأرض، وبلحاظ أن السماء وحدها هي التي تمتلك الإجابة عن جميع الأسئلة التي تخصّ عالم ما وراء الطبيعة وعالم ما بعد الموت، فإن النبي صلى الله عليه وآله يكون هو المخوّل الوحيد، وهو صاحب الصلاحيّة المتفرّد في الإجابة عن الأسئلة المتعلّقة بهذا العالم المشار إليه. إن من المعلوم الثابت أن عالم ما بعد الموت لا يمكن إخضاعه للتجربة داخل المختبر، فليس هو عالَماً كيميائيّاً أو فيزيائيّاً. وبمعنى آخر أنه لا يمكن أن يقع تحت طائلة حواسّنا حتى ندّعي بأننا ذوي مقدرة على حلّ الغموض الذي يكتنفه، وعلى الكشف عن أسراره وخباياه.

إن الأمر بهذا الشكل يصبح أشبه شيء بإعطاء ما ليس من اختصاص الإنسان له، بل هو أشبه بقول القائل: إن العدد الناتج من جمع خمسة وخمسة يساوي خمسة وعشرين. إن هذه الحال لا يمكن الاطمئنان إليها أبداً في علم الرياضيّات. أو أن يأتي شخص ما ويقول: إن المثلّث القائم الزاوية يكون طول الوتر فيه أقصر من أحد الضلعين الآخرين المقابلين له، أو أن يقول: إن المثلّث المتساوي الساقين يكون أحد ساقيه تسعين سنتيمتراً والآخر خمساً وعشرين سنتيمتراً.

إن هذا التقرير ينمّ عن جهل بعلم الهندسة، وهو أمر لا يمكن قبوله ممّن هو ليس من اختصاصه؛ لأن تدخّل هذا القائل فيما هو ليس من اختصاصه معناه قلب الموازين العلميّة. وعليه فلا بد من أن نعطي كلّ صاحب اختصاص اختصاصه.

وهذا الحال عينه ينطبق على قضيّة الإجابة عن الأسئلة الخالدة المحيّرة التي تداعب عقول الناس وتدور في أذهانهم وتلاقح مخيّلاتهم منذ القدم، عن عالم ما بعد الموت. ولذا فإن المؤهّل الأول والوحيد للإجابة عن هذه الأسئلة هي السماء أو من تختاره وتنيبه عنها في أداء هذه الرسالة، وهم الأنبياء عليهم السلام.

إذن يمكن أن نلخّص وظيفة الأنبياء بأنها تتألّف من جانبين: الأول جانب دنيوي، والثاني جانب أُخروي، أو بتسمية أُخرى السلطة الدينية والسلطة الدنيوية الزمنية.

المبحث الثاني: في معنى الجعل وأقسامه

وانطلاقاً من هذا المعنى يقول القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾. ولتوضيح هذه الفكرة نقول إن الجعل عندنا يكون على نوعين:

الأول: الجعل التشريعي

وهو الجعل المتعلّق بعمليّة إصدار القوانين والشرائع التي تنظّم حياة الإنسان في هذه الأرض.

الثاني: الجعل التكويني

ويراد به عمليّة الخلق والإنشاء، والإيجاد والإحياء، أي تكوين الإنسان وغيره من المخلوقات والموجودات الحيّة وغير الحيّة، مع امتلاك السلطة الكاملة المطلقة في تدبيرها وإقامة وإدارة شؤونها وحياتها، وما إلى ذلك: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً﴾[1].

فالجعل التكويني هنا يعني الخلق، فالمراد منها قطعاً هو الجعل التشريعي وليس الجعل التكويني؛ ذلك أن الله تعالى حينما خلق الخلق ومهد الأرض وخلق الإنسان فيها، فإنه تعالى خلق الخلق متساوين، أي أنه مجرّد استعداد لتقبل كلّ ما يريد أن يكون، فليس هنالك أحد يخرج نبيّاً أو يولد نبياً، بل إنه يتلبّس بالنبوّة بعد أن يبعثه الله بها. ولا يبعثه الله بها إلّا بعد أن يترعرع ويشبّ

---

(١) نوح: ١٩ ـ ٢٠.

ويصل إلى سنّ معينة متربّياً على الفضائل الحسنة والأخلاق الحميدة والصفات المحمودة.. التربية التي تجنّبه كلّ مذموم عقلاً، بمعنى أنه بمجاهدته نفسه وبمجاهدته إغراءات الحياة يكون قد أوجد في نفسه أرضيّة صالحة لأن ينطلق منها شعاع النبوّة فيكون نبيّاً. وكذلك الحال مع الإنسان المشرك أو الفاجر أو غيرهما، فهو لم يكن ليولد فاجراً، لكن تربيته واستعداده وعدم مجاهدته نفسه، وترويضها على الصبر جعلته يضع نفسه في هذا الموضع، وبالتالي فإنه يصبح على ما هو عليه.

وبما أننا قد مررنا بهذه النقطة فإني أُحبّ أن أُلفت نظر الآخرين إلى شيء هو أن الله تعالى لا يبعث نبيّاً حتى يبلغ ذلك النبي أشده، بمعنى أنه يبعث بعد أن يكتمل عقله، وتشتدّ مداركه، وتتّسع آفاقه، ويصل إلى مرحلة الكمال. فالنبي بشر، وغاية ما في الأمر أنه يحمل وحي السماء، وما دام يحمل وحي السماء فمتى يمكن أن يصبح مؤهّلاً لحمل هذا الوحي؟ طبعاً إنه يصبح مؤهّلاً أو تصبح له الأهليّة الكاملة لحمل ذلك بعد أن ينضج فكريّاً، وبعد أن تتكامل مراتبه العقليّة. فإذا حصل كلّ ذلك فهذا يعني أن استعداده قد تحقّق لحمل هذا الوحي الشريف.

سنّ بلوغ الإنسان أشدّه وإشكال حول نبوّة يحيى عليه السلام

وهنا يختلف المفسّرون حول السنّ التي يبلغ عندها الإنسان أشدّه؛ فبعضهم يقول: إنها السنة الثالثة والثلاثون من عمر الإنسان، وآخر يقول: إنها السنة الأربعون من عمره.

وبهذا فربما يرد سؤال أو يعترض إشكال فيقال: إذا كان الأمر كذلك وهو أن الإنسان يبلغ أشدّه عند سن الثالثة والثلاثين أو عند سنّ الأربعين، فما معنى قوله

تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾[١] في خصوص النبي يحيى عليه السلام؟

والجواب على هذا أن يقال: إن معنى ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ هو: آتيناه مؤهّلات النبوّة، وليس المقصود به النبوّة الفعليّة. فالنبوّة الفعليّة من المستحيل أن يؤتاها إنسان ما لم يكتمل نضجه. أما مؤهّلاتها فمن الممكن أن يؤتاها قبل أن يبلغ أشدّه. وعليه فمن لم يبلغ الأشدّ من غير الممكن أن يحمل شعلة النبوّة؛ وذلك لأمرين:

الأول: أن النبي عليه السلام حتى يتمكّن من حمل هذه الشعلة لابدّ له من أن يبلغ أعلى درجة في سلّم الكمال؛ ولذا فإننا نعتبر الأنبياء عليهم السلام أفضل بني البشر كافّة.

الثاني: أن ابن العشرين سنة يفتقر إلى كثير من التجارب والخبرات التي يتوفّر عليها ابن الأربعين، بمعنى أن ذا الأربعين عاماً يكون أكثر خبرة في الحياة؛ لما مرّ به من تجارب، ولما عركته فيها من صروف. وهذا بديهي: فإن تجارب أربعين عاماً حتماً هي أكثر من تجارب عشرين عاماً.

مراتب العقل

وهذه الحال ليست مطّردة مطلقاً. وهذا يتّضح من خلال فهمنا الصحيح لمفهوم العقل، فالعقل هو عبارة عن جنبتين:

الجنبة الأولى: الاستعداد

ويراد بالاستعداد هنا: سلامة القوى العصبيّة من كل ما يمكن أن يؤثّر عليها سلباً، ويجعل صاحبها عرضة للمرض. أي أن يكون جهاز الإنسان العصبي سالماً وهو يتفاعل مع المجتمع، فكلّ فعاليّاته الحياتيّة نتيجة لسلامة هذا الجهاز الحيوي

---

(١) مريم: ١٢.

عنده لابدّ أن تكون سليمةً وموزونةً، ولا يعتريها النقص أو الخلل. وهذا هو المقصود بالاستعداد.

الجنبة الثانية: إعمال الاستعداد

ونقصد بإعمال الاستعداد هنا: عمليّة التفاعل أو الاستفادة من التجربة، فحينما يهبط هذا الإنسان إلى المجتمع فإنه سيختلط فيه بشتّى أصنافه وطبقاته وطيوفه، ويرى فيهم الخيّر والشرّير، والعالم والجاهل، والعاقل والمجنون، والمتّزن وغير المتّزن. ومن هذه الثنائيّات يستخلص سنناً وتجارب كثيرة يستفيد منها في حياته، وفي مسيرته، وفي علاقاته، وفي تكوين شخصيّته ونفسيّته، وما إلى ذلك ممّا يخصّه شخصيّاً، أو يخصّ علاقاته بهذا المجتمع الذي استفاد منه هذه التجارب والخبرات.

إذن فمن يكن ذا سنّ معيّنة، فإنه حتماً أكثر تجارب ممّن يصغره سنّاً، وليست هذه القاعدة على إطلاقها كما ذكرنا؛ لأن هذا كما قلنا يعتمد على عقل الإنسان الذي هو عبارة عن الجنبتين المارّتين. وبالنتيجة فإننا قد نجد شخصاً عمره أدنى من عمر غيره، وهو مع ذلك أكثر منه خبرة وأكثر تجارب وأكثر حنكة وحكمة في هذه الحياة.

يبقى أن نشير إلى أننا إنما نتكلّم عن الجانب الأعمّ الأغلب، وهو أن الحياة بمسيرتها وسننها تمنح ذا السنّ الأكبر عادة تجارب أكثر.

أقسام العقل

وبهذا، وتعقيباً على مفهوم العقل فإننا نجد أنه كما أن العقل يقع على جهتين، فكذلك هنالك عندنا نوعان من العقل، وهما: العقل المسموع، والعقل المطبوع، أو

العقل العملي، والعقل النظري. ومما ينسب لأمير المؤمنين عليه السلام في المقام قوله:

رأيت العقل عقلين	فمطبوع ومسموعُ
ولا ينفع مطبوع	إذا لم يكُ مسموعُ
ولا ينفع مسموع	إذا لم يكُ مطبوعٌ
كما لا تنفع الشمس	وضوء العين ممنوعُ(١)

ويمكن تمثيل هذا بالعين وعملية الإبصار، فالعين السليمة لا يمكن لها أن ترى إذا لم يكن هنالك ضوء ووسط ناقل لهذا الضوء؛ لأنهما شرطان ضروريان في عملية الرؤية، فلا يمكن للعين أن ترى إلّا بوجود وسيلة المشاهدة أو النظر، والوسط الناقل لها. وكذلك الحال مع العقل فإن من شروط اكتمال العقل عند الإنسان ونضوجه ووصوله إلى مرحلة الكمال هو احتكاكه بالتجارب؛ فهذه التجارب هي التي ستوصل هذا الإنسان إلى مرتبة الكمال، وهي أشبه ما تكون بالطعام المطهوّ الناضج الذي يتناوله الإنسان، فإنه سرعان ما يستفيد منه بعكس غير المطهوّ؛ لأنه سيستلزم وقتاً أطول، بل ربما كان مضرّاً به.

ومثال هذا ما لو أن شخصاً أنهى دراسته الثانويّة ثم انتظم في وظيفة في أحد البنوك، وبقي يمارس هذه المهنة لفترة طويلة، فإنه حتما سيكون أكثر خبرة ممّن تخرّج توّاً من كلّية الاقتصاد وإن كان يحمل شهادة في علم الاقتصاد منها. والسبب في هذا هو أن هذا المتخرّج حديثاً مع أنه يحمل شهادة إلّا إنه يحمل معها بضعة نظريات في علم الاقتصاد، وهذه النظريّات لازالت مُقولبة في قوالب جامدة لم تدخل عنده حيّز التطبيق العملي، والاستفادة منها في مجال العمل الاقتصادي. كما أنه لا يعرف ما هو الصالح منها لهذا المشروع وما هو غير صالح

---

(١) إحياء علوم الدين ٣: ٢٨، أدب الدنيا والدين: ٢٩.

له، أو ما إذا كانت صالحةً مطلقاً للمجتمع، أو غير صالحة له أو بحدّ ذاتها.

وهذا الأمر بعينه ينطبق على الإنسان فمجرّد الاستعداد ليس كافياً في منح الإنسان القابليّة على التعامل مع مفردات الحياة اليوميّة بصبغة عقلائيّة أو حكيمة، بل لابدّ له من أن يتفاعل مع مشاكل الحياة، ويعرف الخير والشر حتى تنضج تجربته، وبالتالي ينضج عقله. وحينها يمكن أن يقال: إن عقل هذا الإنسان قد اكتمل. ومن هذا كلّه نخلص إلى نتيجة حتميّة هي أن العقل هو عبارة عن استعدادٍ وتجربة، والتجربة هي عملية إعمال هذا الاستعداد عنده.

إذن فالإنسان ما لم يكن قد أكمل هاتين المرحلتين؛ بحيث إنه أصبح ذا استعداد وذا تجربة، لا يمكن أن يسمى شخصاً قد بلغ أشدّه، وسوف لن يكون أفضل من غيره. وبهذا فإن من المستبعد عن حكمة الله جلّ وعلا أن يبعث نبيّاً قبل أن يبلغ أشدّه.

ثم إن عندنا ـ مضافاً لهذا كلّه ـ روايات تنصّ على أن النبي لا يبعثه الله تعالى حتى يبلغ أشدّه، وقبالتها روايات تقول: إنه لا يبعث إلّا بعد أن يكمل الأربعين [1].

فرى على الشيعة

فرية عبد الله بن سبأ

وهنا أودّ أن أُشير إلى فرية قد افتريت علينا وإن كنت قد أشرت لها فيما مضى، لكني أودّ أن أُؤكد عليها هنا؛ لأني أتعرّض للسؤال عنها كثيراً، وهي فرية أينما حلّ أحدنا يسمعها. وأنا مطمئنّ إلى أن الذي أشاعها ولا زال يشيعها ويبشّر بها هو

---

(١) وعليه فيمكن حملها على أنها مخصّصة للطائفة السابقة من الروايات.

نفسه غير مطمئنّ لها، وغير مؤمن بصحّتها، لكن هؤلاء إنما يشيعونها لأنهم يريدون أن يتاجروا بتمزيق وحدة المسلمين، فهناك أيادٍ خبيثةٍ تتحرّك في الخفاء وتنشط وراء الكواليس، مهمتها محاولة ضرب وحدة المسلمين. وهي أيادٍ مسمومة أخذت على عاتقها نشر الوباء بين المسلمين، فتضرب على أوتار خطرة في كيانهم.. أوتار الفرقة وبذر حبوب الفتنة والشقاق بينهم.

إنّي أطمح أن يكون وعي شبابنا أكبر بكثير ممّا هو عليه الآن، وأن يكون قادراً على امتصاص هذه الظاهرة وأمثالها، فقد جرّبنا فيما مضى أنماطاً مختلفة من هذاالتعامل، وهو أننا حينما نختلف مع شخص في رأي فليس معنى هذا أنه ممّا يوجب العداء بيننا وبينه [1]؛ فنحن نعرف أن المفسّرين قد يختلفون في تفسير آيةٍ قرآنيّةٍ ما وقد تصل آراؤهم فيها إلى العشرة أو أكثر، وليس معنى هذا أن هناك عداءً بينهم، ومن ذلك: الاختلاف الواقع بينهم في مسألة الوضوء حول قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ﴾ [2]؛ فبعض هؤلاء يقول: إن هذه الباء للإلصاق، وآخر يقول: إنها ليست للإلصاق وإنما هي للتبعيض. ومعنى أنها للتبعيض أن المتوضّئ حتى إذا مرّر إصبعاً واحدة على رأسه، أو ما يصدق عليه عرفاً أنه ماسح، فإنه يكفي في المسح. في حين أن الذي يقول بأنها للإلصاق يستفيد منها بأنه يجب وضع اليد كلّها على الرأس، والمسح بها.

وهذا الاختلاف في الفتوى ناشئ من الاختلاف في فهم الآية، وهذا لا شيء يضير فيه، لأنه اختلاف علمي قائم على الاختلاف في فهم الدليل.

---

(١) قال الشاعر:

واختلاف الرأي لا يفـ ـسد في الود قضيهْ

(٢) المائدة: ٦.

ومن موارد هذا الاختلاف كذلك: الاختلاف في أفضليّة الصحابة، فكلّ طائفةٍ من المسلمين تذهب إلى أن بعض الصحابة أفضل من غيرهم، وكلّ منهم يملك دليله في هذا، وكلّ هذا لا مشكلة فيه، لكن الذي يخلق ألف مشكلة في البين هو أن يُستغل هذا الاختلاف العلمي المبتني على الأدلّة والبراهين لأغراض خبيثة. فمن يضرب على هذه الأوتار فإنه إنما يريد ضرب وحدة المسلمين.

لقد قامت قبل فترةٍ ثلّة مدفوعة بتوزيع نشرة على الطلاب في أمريكا، وقد وزعوا منها أعداداً كثيرة، وهي نشرة حينما يقرؤها الإنسان المسلم الواعي فإنه حتماً سوف ينتابه الألم والغضب؛ لأنها لم تكن لتحوي سوى شتم للشيعة. إن مثل هذه النشرات ليست أمراً طبيعياً البتّة، فالمسلمون في مثل هذا الظرف بالذات هم أحوج إلى الوحدة، إنهم إنما يتجادلون على شيءٍ ليس بأمرٍ واقع هذه الأيام، فليس هنالك عندنا خلافة إسلاميّة حتى تكون مشكلتها هي المشكلة القائمة، وهي المشكلة التي يعيشها المسلمون، إنها مشكلة تعيش في دنيا النظريات وملفّات التاريخ المؤرشفة. ونحن الآن عندما نتناولها فإنما نتناولها من وجهة نظرية بحتة، وليس من جهة أنها واقع قائم، فلا خلافة هذه الأيام للمسلمين، بل إنهم جميعهم أصبحوا ولاة وعمّالاً للدول المستكبرة.

إذن فهم حينما يثيرون مثل هذه المشاكل مع أنها ليس لها وجود واقعي عملي قائم فإنهم إنما يثبتون بهذا أنهم أُناس ضحلون مأجورون مدفوعون من قبل ثلّة حاقدة خبيثة تحاول أن تفرّط في وحدة المسلمين، وأن تمزّق اجتماعهم واتّحادهم، وفرط عقدهم، في وقت هم فيه أحوج ما يكونون إلى هذا الاتّحاد والاجتماع.

إن الخلافة أمر يستوعب الدنيا كلّها، لكنه الآن أصبح أمراً نظرياً يعيش في

بطون كتب التاريخ والكلام ومع هذا نجد هنالك نقاشاً حادّاً محتدماً بين علماء المسلمين كافّة حولها وحول تفاصيلها. وهنالك خلافات بينهم حول هذه التفاصيل والجزئيّات، لكنها الآن أصبحت من الماضي السحيق، كما أن العزف على هذا الوتر يعني أن هناك أيدياً خبيثة تحاول أن تستثمر هذا الخلاف لصالح أعداء الإسلام.. لصالح الدول المستكبرة والاستعمار الذي يحاول القضاء على الإسلام. وأُولى خطوات القضاء على الإسلام هي تفريق وحدة المسلمين وتمزيق كلمتهم.

إنني أستغرب أن يأتي شخص في مثل هذه الأيام ليحاول أن يثير فرية أُثيرت سابقاً، ثم أتى عليها الزمان، وأكل عليها الدهر، وهي نسبة طائفة من المسلمين كبيرة تؤمن بالله ربّاً، وبمحمدٍ نبيّاً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن كتاباً، ثم يقال: إن أساسها اليهوديّة، وإن من أسسها هو رجل يهودي اسمه عبد الله بن سبأ.

الردّ على هذه الفرية

إن الردّ على هذه الفرية الشنيعة الحاقدة يكون من عدّة وجوه مذكورة في مظانّها [1]، نذكر منها:

الأول: أن التحقيق التاريخي والعلمي أثبت أن هذه الشخصية وهمية ولا وجود لها في التاريخ أبداً.

الثاني: أن هذا الذي يدّعي أن الشيعة ما هم إلّا تبع لرجلٍ يهودي، وأنه هو الذي أسّس هذه الطائفة، وأن هذا شيء يقدح بصاحبه، فإنه بفعله هذا يكون قد

---

(١) لزيادة الاطّلاع يمكن الرجوع إلى كتاب (عبد الله بن سبأ) للسيد مرتضى العسكري، ففيه بحث علمي منهجي دقيق حول إثبات زيف هذه الشخصيّة المختلقة والمفتعلة.

قدح بنفسه؛ لأنه هو نفسه قد أخذ جميع عقائده من اليهود، وهذا ما تشهد به كتب التاريخ والتفسير والحديث عندهم.

الثالث: أن مثل هذا الادّعاء، ومثل هذه الفرية ليست بكلام شخص عنده أثارة من علم، أو منهج أو عقل؛ لأن هذا الادّعاء قائم على كون المؤسّس يهودياً، وإذاكان المؤسس يهوديّاً ـ وعلى فرض صحّة هذا الادّعاء ـ فإن هذا لا يعني أن الموجودين حاليّاً هم كفرة؛ لأن لسان حالهم يشهد بخلاف ذلك، فهم مسلمون ينطقون بالشهادتين، ويصلّون إلى القبلة، ويصومون ويحجّون ويزكّون، وما إلى ذلك من أداء أركان الإسلام وواجباته ووظائفه وتطبيقاته العمليّة.

فعبد الله بن سبأ شخصيّة وهميّة خرافيّة، وهنالك الكثير من الروايات المدسوسة والشخصيّات المفتعلة قد خُدع بها الكثير من الناس. وعلى فرض أن هذه الشخصية غير وهمية وأنها حقيقيّة ـ تنزّلاً وتسليماً ـ فهل يعني هذا أن طائفة كاملة تتكوّن من مئتي مليون شخص تكون كلّها كافرة لأن منها شخصاً واحداً يهودياً؟ أي لغة كلام هذه، وأي لغة علم هي؟ إنها لغة بعيدة عن العلم وعن الصواب.

الرابع: وتأسيساً على الوجه الثالث نقول: لو أن هذا الذي يدّعونه ـ وهو أن الأجداد الأقدمين للشيعة كانوا يهوداً ـ صحيح لكان المسلمون كلّهم الآن كفرة؛ لأنهم قبل الإسلام كانوا كفرة، فهل معنى هذا أن الكفر ما زال ينسحب عليهم حتى الآن، وأنهم بهذا كفّار حتى هذه اللحظة؟ إن هذا لهو الهراء المبين.

إن المذاهب الإسلاميّة الأُخرى كانت ولا زالت تقدّس كعب الأحبار ووهب بن منبه وسليمان بن مقاتل، وهؤلاء كلّهم يهود، وغيرهم وغيرهم من الشخصيّات اليهوديّة التي دخلت الإسلام ودسّت فيه عن عمد أو عن غير عمد الكثير

من الأفكار اليهوديّة. فهل هذا يعني أن نتّهم المسلمين جميعاً بأنهم يهود؟ إن هذه اللغة ليست لغة علمية، وهذه التصرّفات ليست تصرّفات علماء، بل إنها حتّى لا تصل في دنوّها إلى لغة السوقي، فحتى السوقي لا يمكن أن يستخدم مثل هـذه اللغة. وهذا يحدو بنا إلى القول بأن الواقع هو أن الغرض من هذا الكلام ومن هذا الاتّهام هو إثارة انفعالات الطرف المقابل، وبالتالي خلق فتنة بين المسلمين.

فرية (خان الأمين)

أرجع إلى أصل الموضوع وأقول: إن البعض مـن أبـناء المـذاهب الإسـلاميّة الأُخرى ـ وهذا هو الادعاء والفرية اللذين أشرت إليهما في أول هذا المبحث ـ يتّهموننا بأننا نقول: إن جبرائيل عليه السلام كان من المفروض به إن ينزل بالرسالة عـلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وبذلك أمره الله، ولكنه مع هذا خان الأمانة وذهب بها إلى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم. وفي بعض الأماكن نجد أن هذا الافـتراء وهذه التهم يؤخذ بها أخذ المسلّمات، وهي غير قابلة للنقاش. وأكثر من هذا فإنهم يقولون بأننا بعد فراغنا من الصلاة نقول ونحن نلتفت إلى جهتي اليمين والشمال: خان الأمين خان الأمين. فإن كان أميناً فكيف خان؟ وهذا في حقيقته من أدنى ألوان التهريج الذي لا يصدر إلّا من أشخاص يحترفون التهريج، وهم بعيدون عن أخلاقيّات الإسلام وروح العلم ولغته.

دليل بعثة الأنبياء عليهم السلام بعد أن يبلغوا أشدّهم

على أية حال نحن نعتقد بأن الله تعالى لا يبعث النبي إلا بعد أن يبلغ أشـدّه، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾[1]،

---

(١) يوسف: ١٠٩.

فكلمة ﴿رِجَالاً﴾ تعني أنهم ليسوا شباباً، فهناك في سلّم النموّ عند الإنسان مراحل يمرّ بها، وهذه المراحل منها مرحلة الصبا ومرحلة الشباب ومرحلة الكهولة، وما إلى ذلك. وعلى أية حال فإن الإنسان لا يسمى رجلاً إلّا بعد أن يجتاز عامه الخامس والعشرين؛ لأنه إن كان دون ذلك فإنه لا يسمى رجلاً وإنما يسمى شابّاً، فإذا كان رجلاً فهذا يعني أنه قد تجاوز عامه الخامس والعشرين.

والذي يستبين هنا أنهم عليهم السلام لا يبعثون حتى يكونوا مكتملي الرجولة، وذلك بعد أن يكونوا قد تجاوزوا سنّ الخامسة والعشرين، وبعد أن يكونوا قد قطعوا تلك المرحلة. ولهذا فإن الآية الكريمة المارّة تؤكد على هذا فتقول: ﴿إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾. وبهذا فإننا نستفيد من هذا المقطع الشريف عدّة أُمور أذكر منها:

الأمر الأول: ذكورة الأنبياء عليهم السلام

أي أن الأنبياء لا يكونون إناثاً، فلم يبعث الله امرأة نبياً، بل إن جميع الأنبياء عليهم السلام هم من الذكور.

الأمر الثاني: بلوغهم عليهم السلام سنّ الرشد

بمعنى أن النبي لا يبعث إلّا بعد أن يتمّ عامه الخامس والعشرين، وإكمال مرحلة الشباب والدخول في مرحلة الرجولة.

الردّ على فرية (خان الأمين)

ومن هنا، وبناء على هذه الرؤية فإننا نستطيع أن ندحض تلك الفرية المنسوبة إلينا، وهي فرية (خان الأمين) على ضوء هذا التقرير بعدّة أُمور نذكر منها:

الأول: صغر سن علي بن أبي طالب عليه السلام

وبهذا المفهوم فإننا نستطيع أن نفنّد دعوى من يدّعي بأننا نقول: إن الله تعالى قد

بعث بالرسالة إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، ولكن جبرائيل عليه السلام خان الأمانة، فمال بها إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن عمر الإمام علي عليه السلام حينما بعث الله نبيه محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم كان اثنتي عشرة سنوات على أبعد الروايات [١] وسبع سنوات على أقربها، فهل إن من كان بعمر سبع سنوات أو عشر سنوات يمكن أن يبعثه الله نبيّاً؟ وهل إن مثل هذا يسمى رجلاً؟ طبعاً لا؛ لأنه إنما يسمى في هذه المرحلة صبيّاً وليس برجل.

وبهذا المنظور تبطل هذه الفرية التي تتّهمنا بأننا نقول: إن جبرائيل عليه السلام مال بالوحي من علي بن أبي طالب عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: استلزامه نسبة الجهل إليه تعالى

إن الاعتقاد بهذا الأمر والقول به يعني أن القائل به يجوّز نسبة الجهل إلى الله تعالى، أو عدم الحكمة. وهذه الرواية تستلزم كفر صاحبها؛ لأنها لا تعني إلّا أحد جهتين:

الأولى: أن الله تعالى لا يعلم بأن جبرائيل عليه السلام سيخون.

الثانية: أنه تعالى يعلم بخيانته عليه السلام، ولكنه جلّ وعلا مع ذلك أعطاه إياها، وأمره بإيصالها.

وتقرير هذا أن نقول: إن الله جلّ وعلا حينما أعطى الرسالة إلى جبرائيل عليه السلام وأمره بأن يوصلها إلى من طلب منه إيصالها إليه، فهو تعالى إمّا أن يعلم بأن جبرائيل سوف يخون أو لا، وكلا الأمرين فاسد ومستلزم للكفر؛ لأنه إن كان لا يعلم بأن جبرائيل سيخون فهذا يستلزم جواز الجهل عليه تعالى، ومن ينسب الجهل إليه فهو كافر. وإن كان يعلم بأنه سيخون ومع ذلك أعطاه إيّاها فهذا يعني إن

---

(١) مصباح المتهجد: ٨١٩.

الله يواطئ المخطئ على خطئه، والخائن على خيانته، وحاشا الله أن يخون. كما أنه يعني أنه تعالى يتصرّف من غير حكمة، أو أنه تعالى يسير على ضوء غريزة. وهذا أيضا فيه كفر؛ لأنه تجسيد وتجسيم لله جل وعلا، وإخضاع له في كلّ تصرفاته للغريزة والرغبة. وهذا كما قلنا كفر يعاقب الله تعالى عليه [١].

الثالث: افتخار علي عليه السلام بأنه خادم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

إننا نعلم من خلال ما حدثتنا به الكتب والسير أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يفتخر بأنه خادم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وجميع أهل السنة يروون بأنه كان يخصف نعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [٢]، فكيف يمكن أن يخلص لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلّ هذا الإخلاص وهو يعلم

---

(١) وهذه كتب المذهب كافّة صريحة في تنزيه الله تعالى عن المعائب والنقائص، بل تحكم بكفر القائل بها والمعتقد بنسبتها إليه تعالى، فهل يعقل أن يكفّر الإنسان نفسه؟ إن هذا إلّا اختلاق.

(٢) ورد هذا الحديث الشريف بعدّة صيغ منها: «إن منكم رجلاً يقاتل الناس على تأويل القرآن كما قوتلتم على تنزيله». فقام أبو بكر فقال: أنا هو يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا». فقام عمر فقال: أنا هو يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا، ولكنه خاصف النعل».

ومنها: «ليضربنكم رجل على تأويل القرآن كما ضربتكم على تنزيله». فقال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا». فقال عمر: أنا هو يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا، ولكنه خاصف النعل». فانطلقنا فإذا علي يخصف نعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حجرة عائشة، فبشّرناه».

ومنها ما عن أبي ذر رضي الله عنه: «لينتهين بنو وليعة، أو لأبعثن إليهم رجلاً كنفسي، ينفّذ فيهم أمري، فيقتل المقاتلة ويسبي الذرية». فما راعني إلّا كفّ عمر في حجزتي من خلفي: من يعني؟ فقلت ما إياك يعني ولا صاحبك. قال: فمن يعني؟ قلت: خاصف النعل. قال: وعلي يخصف نعلاً.

انظر على سبيل المثال: مسند أحمد ٣: ٣٣، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٢٩٨ / ٣٧٩٩، المستدرك على الصحيحين ٢: ١٣٨، ٣: ١٢٣، ٤: ٢٩٨ ـ ٢٩٩، مجمع الزوائد ٥: ١٨٦، ٩: ١٣٣ ـ ١٣٤، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٤٩٧، ٤٩٨، السنن الكبرى (النسائي)

أنه قد أخذ النبوّة منه؟!

إذن هذه التهم وهذا الافتراء كلها أُمور باطلة وتافهة، بل إنها لا تستحقّ الردّ عليها لولا أن يقال: إن الشيعة لولا أنهم يعتقدون بهذا، ولولا أن الأمر عندهم بهذا النحو، لما سكتوا عنه، بل لردّوا علينا. فسكوتهم علامة على أنهم فعلاً يعتقدون بهذا الاعتقاد. ومن هذا المنطلق فإننا نردّ وإلّا فإن هذا الادّعاء والافتراء من التفاهة بشيء لا يستحق معه الرد؛ لأنه لا يصمد أمام النقد العلمي والتاريخي كما رأينا.

إننا بحاجةٍ ماسّة للتخلّص من هذه التفاهات والابتعاد عن هذه القشور، والولوج إلى اللباب، وأن نبتعد عن كلّ هذه المقارعات التي تستهدف وحدة المسلمين، وجمع كلمتهم، وترمي إلى شل طاقاتهم، وإخضاعهم للعدوّ المستعمر. إن من يلقِ مثل هذه الاتّهامات لابدّ أن يكون مدفوعاً من أعداء الإسلام، بل لابدّ أن يكون قد قبض ثمن هذه الاتّهامات ذهباً [١].

☚ ٥: ١٢٧ ـ ١٢٨ / ٨٤٥٧، خصائص أمير المؤمنين عليه السلام (النسائي): ٨٩ ـ ٦٠، ١٣١ ـ ١٣٢، مسند أبي يعلى ٢: ٣٤١ ـ ٣٤٢ / ١٠٨٦، صحيح ابن حبّان ١٥: ٣٨٥، المعجم الأوسط ٤: ١٥٨، أُسد الغابة ٣: ٢٨٢، الإصابة ٤: ٢٤٥ ـ ٢٤٦ / ٥١٠٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٥٥.

(١) كما فعل سمرة بن جندب إذ طلب منه معاوية ذلك، روى ابن أبي الحديد قال: قال أبو جعفر: وقد روي أن معاوية بذل لسمرة بن جندب مئة ألف درهم حتى يروي أن قوله تعالى نزل في علي بن أبي طالب عليه السلام: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤ ـ البقرة: ٢٠٦]، وأن الآية الثانية نزلت في ابن ملجم، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]،

إن الاستعمار والصليبيّين لازالوا حتى الآن يلعبون أدوارهم، ومعهم عملاؤهم وأذنابهم ممّن يرفعون عقيرتهم ليلَ نهارَ بأُمور تشقّ عصا المسلمين.. من ينبحون ليلَ نهارَ من أجل تفريق وحدة المسلمين. ولكن بمشيئة الله إنّا نأمل أن يـمتصّ وعي المسلمين هذا اللون من التهريج والإسفاف ويقضي عليه.

إشكالية تسمية الرسل عليهم السلام بالأيمّة

ومن هذا نخلص إلى أن الجعل المذكور في الآية الكريمة هو جعل تشـريعي وليس جعلاً تكوينيّاً، بمعنى أن الله تعالى ينتخب أنبياءه عليهم السلام من الناس ويبعثهم إلى الناس.

وأودّ أن أُلفت النظر هنا إلى أن النبي غير الرسول من جهاتٍ وأُمورٍ عدّة، لكن نذكر منها فرقاً واحداً هو أن النبي ذو رسالةٍ محدودة، بخلاف الرسول الذي تكون رسالتهُ عادة رسالة عامة.

وهنا يرد هنا إشكال حول قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾، فإذا كان المجعول نبيّاً فلماذا أطلقَ الله عليهِ لفظ إمام؟ ولماذا يُطلقُ تسمية مـنصب الإمـامة عـلى منصب النبوّة؟

والجواب أن هذا إنما كـان لأن الأنـبياء عليهم السلام يـؤمّون النـاس، أي يـقودونهم ويسيرون أمامهم ليقتدوا بهم.

المبحث الثالث: أقسام الإمامة

والأنبياء عليهم السلام يؤمّون الناس مادّيّاً ومعنويّاً، وبهذا نعرف أن الإمامة تقع عـلى معنيين هما:

☚ فلم يقبل، فبذل له مئتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمئة ألف فلم يـقبل، فـبذل له أربعمئة ألف فقبل وروى ذلك. شرح نهج البلاغة ٤: ٧٣.

الإمامة المادّيّة

وهي أن يؤمّ الرسل أو أوصياؤهم (عليهم صلوات الله أجمعين) غيرهم؛ بأن يقودوا المجتمع الإسلامي كاملاً في أُموره الحياتيّة كافّة، وأهمّها إمامة الصلاة؛ وذلك بأن يؤمّوهم في الصلاة بشخصهم، أو بمن ينيبونه عنهم، فمتى وجِد النبي ﷺ كان هو الأولى والأحقّ بإمامة الجماعة. ولهذا فإننا نجد أن الصحابة كانوا يحرصون أشدّ الحرص على ألّا تفوتهم فريضة خلف النبي ﷺ حتى في أحلك ساعاتهم.

وبقراءة واقع هؤلاء وسيرتهم نجد أنهم كانوا يواظبون على أداء فرائض الصلاة الخمس خلف الرسول ﷺ. وكانت الدنيا كلّها لا تعوّضهم في نظرهم عن فريضة واحدة تفوتهم منها ركعة واحدة في الصلاة خلفه ﷺ. وسوف أروي هنا حادثة لنرى من خلالها درجة الإيمان عند هؤلاء، وما وصل إليه عند بعض الصحابة الخلّص الذين لم يفارقوا الرسول الأكرم ﷺ حال حياتهِ ولا بعدَ موته. وهذه الحادثة تسلّط الضوءَ على مبلغ إيمان هؤلاء الصحابة واندكاكهم في تعاليم هذا الدين الحنيف، ومدى انتهاجهم لنهج النبي الكريم ﷺ، كان الصحابي الجليل أبو طلحة الأنصاري أُنموذجاً مشرّفاً من النماذج التي كانت تسكن المدينة المنوّرة آنذاك، ومن الأدلّة على هذا أنه حينما نزل قوله تعالىٰ: **﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾**[1] فقام له رجل من الأنصار يدعىٰ أبا طلحة فقال له: يا رسول الله روحي فداك، لدي أحسن ضيعة، وهي بيرحاء[2] كنت ادّخرتها

---

(١) آل عمران: ٩٢.

(٢) بيرحا ـ بفتح أوله والراء، على وزن خَيزَلىٰ ـ ويقال: بئرحاء ـ مضاف إليه ممدود ـ ويقال: بيرحاء، وفي رواية مسلم: بريحا، وفي رواية أبي داود: باريحا. وهذا كله يدل على أنها

لنفسي، وأنا أُشهدك أنها صدقة في سبيل الله. فقال النبي ﷺ: **«بخٍ بخٍ ذلك مال رابح»**[(١)].

وكان له ولدٌ واحد، وكان يحبّه كثيراً، وقد أصابه المرض، فجلس أبوه عنده يمرّضه، حتى ترك الصلاة خلف النبي ﷺ بسبب ذلك، فالتفتت إليه زوجته يوماً قائلة: أيلهيك مرض ابنك عن حضور الصلاة خلف النبي ﷺ؟ اذهب وصلِّ خلفه. فذهب أبو طلحة واعتذر إلى النبي ﷺ، وأخبره بما كان من أمره وأمر ولده وزوجته أمّ طلحة، فقال ﷺ: **«الحمد لله الذي جعل في أُمّتي أمثال هذه المرأة»**.

وكان ولده قد مات ساعة خروجه من البيت إلى النبي ﷺ، فسجّته أُمّه ووضعت عليه إزاراً، ولبست أجمل ما عندها من الثياب وتزيّنت وتعطّرت، فلما رجع زوجها سألها: كيف حال الولد؟ قالت: هدأ واستراح، ففهم من كلامها أنه قد برؤ من مرضه، وكانت تعني أنه مات. فدنا إليها فلاطفها ولاطفته وضاجعها وكأن شيئاً لم يكن، ثم جلست إلى جانبه تضاحكه ثم قالت له: أنت نعم الرجل لولا خصلة فيك. قال: ما هي؟ قالت: إذا استودعت أمانة تأبى أن تردّ الأمانة إلى أهلها. قال: معاذ الله. قالت: بلى، إن الله استودع عندك هذا الصبي وقد شاء أن يستردّه. قال: وهل مات؟ قالت: نعم. فسجد لله شكراً، فكان أن رزقهما الله خلفاً له[(٢)].

☚ ليست ببئر، وقيل: هي أرض لأبي طلحة، وقيل: هي موضع بقرب المسجد بالمدينة يعرف بقصر بني جديلة. معجم البلدان ١: ٥٢٤ ـ بيرحا.

(١) مسند أحمد ٣: ١٤١، صحيح ابن حبّان ٨: ١٢٩ ـ ١٣٠، ١٦: ١٤٩ ـ ١٥١، تفسير القرآن العظيم ١: ٣٨٩.

(٢) انظر: مسكّن الفؤاد: ٦٩، بحار الأنوار ٧٩: ١٥١، السنن الكبرى (البيهقي) ٤: ٦٦، تاريخ

فالواقعُ أن هؤلاء يدفعهم ولعهم بالصلاة خلف النبي ﷺ إلى هذه المواقف المشرفة. إذن فالنبي يؤمّ المجتمع ماديّاً بالصلاة وغيرها؛ باعتباره هو الإمام المنصوب من الله تعالى.

صفة الإمام

وقد ورد في الحديث الشريف: **«اجعلوا أيمّتكم خياركم؛ فإنهم وفدكم فيما بينكم وبين الله عز وجل»**[1]. فالإمام هو وفد الإنسان الذي يمثّله، وهذا ينبغي أن ينطبق على من ينتخبه الناس؛ إذ يجب عليهم أن ينتخبوا أجودهم وأفضلهم. وعليه فحينما يريد إنسان أن يتولّى شخصاً ويجعله إماماً له، فلينظر إلى هذا الشخص، وليكن من أفهم الناس وأعلمهم وأتقاهم وأورعهم، وأكثرهم إيماناً وتمسّكاً واتّصالاً بالله تعالى؛ لأنه هو الواسطة بين هذا الإنسان الذي اعتقده إماماً وبينه تعالى. إذن فالذي يفترض بالإنسان حينما يتولّى شخصاً إماماً له أن يختار الأكثر قرباً من الله تعالى؛ لأنه بهذا يكون قد جعله ممثّلاً له عند الله جلّ وعلا، ولابدّ أن يكون هذا الممثّل إمام حقّ وإلّا أدخل من تولاه نار جهنم.

حديث «صلّوا خلف كلّ برّ وفاجر»

ولهذا فإن الفقهاء يشترطون الأورع، أي الأكثر ورعاً بينهم إذا تشاحّوا. على ضوء هذا فإن لنا مؤاخذات على حديث يرويه العامّة عن رسول الله ﷺ وهو في الحقيقة منحول عليه، وهو: **«صلّوا خلف كلّ برّ وفاجر»**[2].

☚ مدينة دمشق ١٩: ٤٠٢.

(١) سنن الدارقطني ٢: ٧٤، الجامع الصغير ١: ٣٤ / ١٨٦، كنز العمّال ٧: ٥٩٦ / ٢٠٤٣٢.

(٢) السنن الكبرى ٤: ١٩، عن مكحول عن أبي هريرة، وتمامه: «وصلّوا على كلّ برّ وفاجر،

فالإمام ما لم تثبت عدالته لا تجوز الصلاة خلفه، وبالتالي فإن هذا الحديث حديث مخترع ومنحول عليه ﷺ، فقد وضعه سلاطين الجور والظلمةُ من الحكام الذين أرادوا أن يوجدوا مسوّغاً ومبرّراً لصلاة الناس خلفهم، مع ما هم فيه من فسوق وفجور وخروج عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، ومروق عن الدين. ومن هذا نذكر أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك ـ هذا الرجل الذي كان يخوض في بحر من الخمر فيشرب منه ويغتسل ثم يأتي ليصلي بالناس جماعة ويؤمّهم ـ أراد أن يبرّر صلاة الناس خلفه، ويثبت أنها صحيحة، فاستدعى أحد الفقهاء الذين كانوا يقيمون على أبوابِ السلاطين ـ ولا مانع من أن يحرّك فقيهاً فيفتيه بما يحب؛ فهؤلاء هم وعّاظ السلاطين، وهم من أعان هؤلاء على ظلمهم وجورهم ومروقهم عن الدين ـ وحرّكه، فأفتاه بصحّة الصلاة خلفه، ثم وضع هذا الحديث كذباً وافتراءً على لسان الرسول الكريم ﷺ (١).

☚ وجاهدوا مع كلّ برّ وفاجر». وهو مروي بطرقٍ كلها واهية ليس فيها سند صحيح، فقد قال: قال علي: مكحول لم يسمع من أبي هريرة... وقال الشيخ: قد روي في الصلاة على كلّ برّ وفاجر، والصلاة على من قال: «لا إله إلّا الله»، أحاديث كلّها ضعيفة غاية الضعف، وأصحّ ما روي في هذا الباب حديث مكحول عن أبي هريرة. أي حديث المتن. ولا ندري كيف يكون أصحّ ما روي في هذا الباب، وراويه لم يروِ عن أبي هريرة. ولم يسمع منه! وانظر كذلك: سنن الدار قطني ٢: ٤٤، حيث قال: «مكحول لم يسمع من أبي هريرة»، نصب الراية ٢: ٣٣، ونقل عبارة البيهقي، ثم قال: «ومن طريق الدار قطني رواه ابن الجوزي في (العلل المتناهية)، وأعلّه بمعاوية بن صالح، مع ما فيه من الانقطاع... والحديث رواه أبو داود في سننه في كتاب الجهاد [١: ١٤٣ / ٥٩٤]، وضعّفه بأن مكحولاً لم يسمع من أبي هريرة.

(١) ومثل هذا قصّة حديث: «لا سبق»، ذلك أن الخليفة المهدي استفتىٰ أحدهم في اللعب بالطيور فأفتاه بالجواز، فسئل عن الدليل فقال: يقول النبي ﷺ: «لا سبق إلّا في خفّ أو حافر أو نصل» أو ريش. فأضاف إلى الحديث الشريف عبارة «(أو ريش»)، فلما خرج

وأفضل من ناقش هذا الحديث نقاشاً علمياً أكاديمياً خلص منه إلى نتيجة مؤداها أن هذا الحديث موضوع ومختلق هو العلّامة الشيخ محمد سعيد العرفي في كتابه (سرّ انحلال الأُمّة العربيّة)، فقد ناقشه مناقشة علميّة استدلّ بها على اختلاق هذا الحديث كما قلنا. ومن الطبيعي أن يكون هذا الحديث موضوعاً؛ لأن الولاة والسلاطين الذين صعدوا على رقاب الناس وجماجمهم ودمائهم لابدّ أن يوجدوا لهم مسوّغاً ومبرّراً لما يفعلون، ثم بعد ذلك يصلّون بالناس كما فعل الوليد بن يزيد.

ويبقى الوصف الدقيق والصحيح للأيمّة هو ما مرّ من الحديث الشريف الوارد عن الأيمّة عليهم السلام **«اجعلوا أيمّتكم خياركم؛ فإنهم وفدكم فيما بينكم وبين الله عزّ وجلّ»**.

إن أثمن أعمال الإنسان وأفضلها الصلاة [1]، وإذا كانت كذلك فكيف نجعل فيها بيننا وبين ربّنا أحداً لا يعرفه ولا يتّقيه ولا يخافه، بل يعتدي على حرماته ويهتكها، ويعصيه ليل نهار؟ وكيف يتمّ هذا المعنى؟ لقد قرأت فيما مرّ فتوىً عجيبة من أحد الطلبة في الأزهر، والظاهر أن الرئيس السابق السادات كان يريد تجديد رئاسته للجمهورية فحاول أن يمنع الانتخابات أو الاستفتاء على شخص الرئيس، فحرّك أحد الطلبة الذي راح يقول: ليس هناك من موجبٍ إلى تجديد الانتخابات؛ لأن التجديد في مثل هذا الظرف وهذه الحال يوجب إهانة. ثم استشهد عليه

☚ هذا المفتي من المجلس ضحك المهدي وقال: لم يكن في الحديث كلمة « أو ريش »، لكنه أتى بها ليرضيني. تاريخ الخلفاء (السيوطي): ٢٧٥.

(١) قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: « الصلاة عماد الدينُ، فمن تركها فقد هدم الدين ». شرح نهج البلاغة ٧: ٢٢٣، ١٠: ٢٠٦، ١٥: ١٦٨.

بحديثٍ يقول فيه: إذا اشتدّ الجوع بالناس واضطرّوا إلى أكل كلّ شيء، فلا يجوز لهم أكل ذيل بغلة ولي أمر المسلمين؛ ذلك أن ولي أمر المسلمين إذا ركب بغلته وكانت من غير ذيلٍ فإن ذلك يسبّب إهانةً له.

هذا واقع، وفي تاريخنا قبالته واقع تمثّله نماذج مشرّفة وقفت في وجه الباطل، ونحن نعتزّ بها أيّما اعتزاز، استدعى أبو جعفر المنصور عبد الله بن طاووس ومالك بن أنس، فلمّا دخلا عليه أطرق ساعة ثم التفت إلى ابن طاووس وقال له: حدثني عن أبيك. فقال: حدثني أبي أن أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى في سلطانه، فأدخل عليه الجور في حكمه. فأمسك أبو جعفر ساعة، قال مالك: فضممت ثيابي خوفاً أن يصيبني دمه. ثم قال له المنصور: ناولني تلك الدواة. ثلاث مرّات فلم يفعل، فقال له: لم لا تناولني إيّاها؟ قال: أخاف أن تكتب بها معصية، فأكون قد شاركتك فيها. فلما سمع ذلك. قال: قوما عني. فقال ابن طاووس: ذلك ما كنّا نبغي. قال مالك. فما زلت أعرف لابن طاووس فضله من ذلك اليوم [1].

فهو بعدم ردّه عليه وعدم إجابته طلبه كأنما يقول له: إني لا أُريد أن أنظر إلى وجه سيعذّبه الله. ومواقف من هذا اللون هي مواقف مشرّفة يعتز بها كلّ مسلم؛ لأنها تنأى بأصحابها عن درك أُولئك الفقهاء الذين يفتون السلاطين بما يحبون..

---

(١) وفيات الأعيان ٢: ٥١١، وفي الثقات (ابن حبّان) ٧: ٣٩٠ ـ ٣٩١ أنها بين أبي الحارث محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن أبي ذئب والرشيد، حيث قال للرشيد: اني أراك ظالماً غشوماً، قعدت في أمر ليس هو لك، وغصبته عمن هو له بحقّ، ثم تأخذ الأموال من حيث لا يحلّ لك، وتنفقها فيما لا يرضى الله ورسوله. ولو وجدت أعوانا لخلعتك من هذا الأمر وأدخلت فيه من هو أنصح لله وللمسلمين منك. فأطرق الرشيد برأسه، قال مالك: فضممت إليّ ثيابي؛ كيلا يصيبني من دمه.

الفقهاء الذين يعيشون على الخنوع لمن باع دينه وباع آخرته بدنياه. وهؤلاء لا يمكن لأحد أن يحسبهم على تاريخ المسلمين؛ فالمسلم الذي يشرّف التاريخ هو الرجل الذي يقف في وجه الباطل ـ أينما كان ـ في حدود استطاعته التي رسمها له التشريع.

الإمامة المعنوية

وهي أن يؤمّ الرسل أو أوصياؤهم (عليهم صلوات الله أجمعين) المجتمع بالأفكار التي يتبنّونها يوحي السماء وأمرها، فيتبناها أتباعهم من بعدهم، وهي الأفكار التي ينزل بها الوحي من السماء. فمجموعة النظم والقوانين والنظريّات التي يأتي بها النبيﷺ هي منظومة عامّة قابلة للتطبيق في كلّ زمان ومكان، وبالتالي يجب على المسلمين أن يتبنوها ائتماماً بالرسولﷺ. وبهذا فإننا نجد أن النبيﷺ يؤمّ الناس معنوياً.

إذن فكلّ فكرة يلزمنا بها رسل اللهعليهم السلام؛ سواءً كانت حكماً أو سنةً أو قانوناً اجتماعيّاً، فهي إنما تمثّل مشيئة الله جلّ وعلا وإرادته. ولهذا فإنه تعالى يقول: **﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾**[1].

المبحث الرابع: الخلافة نصّ وتعيين أم شورى؟

وهنا نقطة أرى أن أُشير إليها وألّا نبتعد عنها، وهي مسألة ترتبط ارتباطاً مباشراً ووثيقاً بهذا المقطع الشريف من الآية، وهو قوله تعالى: **﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾**. لقد بينّا أن الجعل هنا جعل تشريعي، أي أنه سلطة زمنية وروحية للدين والدنيا، لكن هل معنى هذا أن منهج الحكم في الإسلام هو بالجعل، بمعنى هل أن

---

(١) الحشر: ٧.

المنهج الإسلامي قائم على مبنى الشورى، أم على مبنى التعيين؟ هذه الآية الكريمة وآيات أُخر غيرها [١] واضحةٌ في أن الحكم في الإسلام هو عن طريق الجعل. ويعضدُ ذلك الكثير من الأحاديث النبوّية الصحيحة والصريحة [٢].

دليل الشورىٰ غير ناهض

أمّا نظرية الشورى فلا تصمد أمام النقد أبداً؛ ذلك أننا بالرجوع إلى الآيتين الكريمتين اللتين استدلّوا بهما علىٰ الانتخاب سنجدها غريبتين عن المقام، وأنهما ليستا صالحتين للاستدلال عليه:

الآية الأولىٰ: قوله تعالى: **﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾**[٣]، وهي آية نزلت في مدح الأنصار على ما كانوا عليه من مشاورة بينهم في حلّ مشاكلهم. وهذا ما عليه المفسّرون [٤].

الآية الثانية: قوله تعالى: **﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾**[٥]، والكثير من المفسّرين يقول: إن هذه المشاورة ليست لعجز رسولنا الأكرم ﷺ عن معرفة الحلول السليمة والصحيحة؛ لأنه مسدّد بالوحي، وموجّه الوجهة الصحيحة من السماء، والمسدّد بالوحي لا يحتاج إلى مشورة الناس، ولا يفتقر إلى آرائهم وتوجيهاتهم. فغاية ما في الباب إذن أنه أمر مبني على استجلاب مودّتهم، وليس لحاجة إلىٰ

---

(١) كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً﴾ الفرقان: ٣٥، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ الحديد: ٢٦، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ السجدة: ٢٤، وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ العنكبوت: ٢٧.

(٢) كحديث الثقلين، وإرسال أمير المؤمنين عليه السلام بـ﴿بَرَاءَةٌ﴾ خلف أبي بكر، وحديث الدار، وغيرها كثير.

(٣) الشورىٰ: ٣٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٣٦.

(٥) آل عمران: ١٥٩.

رأيهم كما ذكرنا [١].

إذن فليس في الآيتين الكريمتين المارّتين أي دليل ناهض على نظريّة الشورى. وبه نعرف أنه ليس الأمر عبارة عن أن منهج الحكم قد شرّع بهاتين الآيتين، إطلاقاً، فكلّ ما في الأمر أن الله تعالى مدح المسلمين لأنهم يتشاورون في قضاياهم المهمة، أو أنهم إذا حدث عندهم أمرٌ مهم فلهم أن يلجؤوا إلى مسألة الشورى ليعالجوه. وهذا طبعاً كلّه في غياب النصّ عن المنطقة، بمعنى أن المنطقة منطقة فراغ، لكن إذا كان هناك نصّ فلا يجوز لأحدٍ أن يجتهد أو أن يشير؛ لأن النص حكم إلزامي من الله يأخذ برقاب الناس ويلزمهم ويتعبّدهم بأن يؤمنوا به.

إن القرآن الكريم قد حدّد منهج التعيين للإمام وللنبيﷺ؛ وعليه فعند ذلك لا يجوز لأي أحد أن يجتهد مقابل هذا النص؛ لأن الاجتهاد مقابل النص باطل.

أقسام الاجتهاد والنص

إن الاجتهاد إزاء النص يمكن أن يلحظ على نحوين:

الأوّل: أنه اجتهاد في النصّ

فالفقيه المختصّ تارةً يلحظ الاجتهاد على أنه اجتهاد في النصّ، بمعنى أنه يفسّر النصّ باجتهاده، فيؤوّله وفق ما يوصله إليه هذا الاجتهاد، بعد أن يبذل وسعه فيه. وهذا الاجتهاد لا بأس به وممكن الوقوع ومأجورٌ صاحبه إن أخطا.

الثاني هو الاجتهاد مقابل النص

بمعنى أن الإنسان يترك النصّ الواضح الصريح في حكم معيّن ثم يجتهد فيأتي بحكمٍ مغاير. وهو اجتهاد باطل؛ لأنه يعد معاندةً لله جلّ وعلا.

---

(١) فتح القدير ١: ٣٩٣.

فالله تعالى قد عيّن أنبياءه ورسله، وعيّن الأئمّة فقال: ﴿يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾[1]، وكذلك آية المقام. وهذا هو دأب القرآن الكريم في معالجة مثل هذه الأمور، فهو صريح بيّن في عمليّة الجعل، لا في ترك الأمر شورى بين المسلمين.

نقض مبدأ الشورى

إذن فمنهج الإسلام والقرآن قائم على التعيين. وهذا من جهة الأصل النظري في المسألة، أما من ناحية التطبيق فيرد في البين شبهتان:

الأولى: عدم تحقّق نصاب الشورى

وهنا ربما يسأل شخص فيقول: متى طُبّقت الشورى في الإسلام؟ إن الخليفة الأول بايعه في بادئ الأمر اثنان فقط، ثم تتابع الناس وليس في ذلك شورى. والخليفة الثاني عيّنه الخليفة الأول بالتعيين المباشر، فليس هنالك انتخاب أو شورى. أمّا الخليفة الثالث فقد انتخبه ثلاثة أشخاص من أصل ستة. ولا اعتقد أن شخصاً يملك رؤيا واضحة سليمة، أو يملك تفكيراً صحيحاً يصمد أمام النقد ثم يقول: إن هذا هو الشورى بعينها؛ فلا الاثنان اللذان بايعا أبا بكرٍ، ولا الثلاثة الذين انتخبوا عثمان كانوا يمثّلون الأُمّة سيّما أن المسلمين وقتها قد ملؤوا شرق الأرض وغربها.

إننا الآن نرى على أرض الواقع أن الانتخابات في أية دولة ديموقراطية حينما تتمّ فأنهم يستنفرون الناس جميعاً لها ممّن لهم الحقّ القانوني في الانتخاب؛ سواء كانوا رجالاً أو نساءً؛ لينتخبوا هذا الرئيس. فمثلاً إذا كان تعداد شعب عشرين

(١) ص: ٢٦.

مليوناً فإن من ينتخب منهم ربما يبلغ أكثر من النصف، أما أن ينتخب من أصل عشرين مليوناً ثلاثة فليس هذا بانتخابٍ ولا بإجماعٍ ولا بشورى. وهذا أمر بديهي؛ لأن هؤلاء الثلاثة لا يمثّلون الشعب كله.

الثانية: حقّ الترشيح والانتخاب

فالإنسان الذي يعطى حقّ الشورى والانتخاب هنا لا يصلح له؛ وذلك لسببين، هما:

الأول: جهل أغلب العامّة بمصالح الإدارة والحكم ومفاسدهما

ثم إنه لو أن الشعب كلّه انتخب شخصاً ما ليمثله أو ليرأسه، فلنا أن نتساءل: من هو هذا الشعب الذي له هذه الصلاحيّة؟ هل هو هذا الذي يخرج من الصباح فيعمل حتى المساء من أجل رغيفه؟ وهل إن مثل هذا الذي يشغل وقته بالعمل يعرف من هو الصالح والأصلح، والفاسد والأفسد؟ إن الأصلح والأفسد لا يمكن لأحد أن يعرفهما دون أن يلج في قرارة أنفسهما، وليس من موجود يمكن أن يلج في قرارة نفس الإنسان إلّا الذي خلقه وهو الله تعالى؛ ولذا فإننا نقول: إن الأصلح هو الذي يعيّنه الله جلّ وعلا لا الذي ينتخبه الناس.

إن الإنسان سواء كان عالماً أو جاهلاً لا يمكن أن يعرف أين هي المصلحة؛ لأن مسألة الأمانة والخيانة هي من خصائص النفس البشريّة، والنفس البشرية مستغلقةٌ على جميع من في الأرض، فلا يعلم بها إلّا الله جلّ وعلا أو من أنابهُ الله تعالى.

الثاني: شراء الذمم

وفضلاً عن هذا فإن بعضاً من أبناء الطبقة المسحوقة يمكن أن يُشترى صوته لصالح شخص وإن لم يكن هو الأصلح، فطالما اشتريت الأصوات بحفنة من

الدولارات ليصبح بذلك صوت الشعب سلعة للاستهلاك المحلّي، فيباع الإنسان ويشترى وهو لا يعلم. وإذا كان الأمر بهذه الشاكلة، فكيف يُطمأنّ إلى هذا اللون من ألوان تقرير المصير؟

نتيجة المبحث

ومن هذا كلّه نخلص إلى نتيجة صريحة واضحة مؤدّاها أن نظرية الشورى والانتخاب لا تصمد أما النقد العلمي المتين. وعليه فإن الله جلّ وعلا هو الذي يعيّن الأنبياء وأوصياءهم عليهم السلام، أي الأيمّة؛ لأن الأوصياء إمتداد لنبوّة الانبياء، فكل نبي يعيّن امتداده وينصّ عليه. وإذا كان الأنبياء لا ينطقون عن الهوى، فيكون النصّ حينئذٍ منهم على امتدادهم نصّاً من الله تعالى.

نعم يمكن أن يصار إلى الشورى بين الفقهاء في حال غيبة الإمام، وهذا بناء على النظرية المطلقة التي تعطي للفقيه في غيبة الإمام ولاية عامّة أو خاصّة باختلاف آراء الفقهاء حوله. وهذا ليس فيه بأس؛ لأنه لا نصّ حينئذٍ على شخص بعينه حتى يمتنع أن يصار إلى غيره؛ فيكون بالنتيجة اجتهاداً مقابل النصّ. ويتم الأمر بين الفقهاء بأن يجمع الفقهاء على أن ينتخبوا من بينهم الفقيه الأفضل من الناحية العلمية، ومن ناحية الورع والتقوى، ومن ناحية القدرة على التجاوب مع حاجات المجتمع وتجارب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وهذا الأمر في واقعه نصّ، لكن بشكل آخر؛ باعتبار أن هذا الانتخاب لا يخرج عن نظريّة التعيين؛ لأن الفقهاء إنما يطبقون الكلّي على أحد مصاديقه. ففي مثل هذه الحال تكون عندنا مواصفات تؤهّل صاحبها لإدارة الحكم، وهذه المواصفات أو المؤهّلات قد وضعها لنا الإمام عليه السلام، فإذا توفرت في مجموعة من الفقهاء، فحينئذٍ يصار إلى ترشيح الفقيه الأفضل من بينهم.

ونعني بالأفضل منهم من تكون عنده هذه المواصفات بنسبة أكبر من غـيره، فينتخب على أنه الحاكم، وإذا كان الأمر كذلك فهذا يعني أنه تطبيق للنصّ. ومعنى أنه تطبيق للنص أنه استثمار للتعيين المشار إليه؛ وبالنتيجة فإن الفقهاء يطبّقون كلّيّاً على أحد مصاديقه، وهو ليس من الانتخاب بشيء إلّا أنه يتمّ بالآليّة نفسها التي يتم فيها الانتخاب في الدول الديموقراطية في العصور الحديثة.

فمسألة الانتخاب لا تصمد أمام الأدلّة، وليس من العيب أن يولّي المسلمين ذوي الحلّ والعقد فيمثّلوهم بما أنهم يمتلكون النضج العلمي والعقلي الكافيين، مع توفّر شرط العدالة والورع والتقوى والأعلمية؛ إذ أن إلمامهم بهذه الأمور شرط أساس في أهليّتهم لهذا المنصب؛ لأن الإنسان الذي لا يملك هذا الإلمام لا يمكن أن يكون مؤهّلاً لأن يحل فيه. فإن وصل فإنما هو رئيس عصابة أوصلته إلى الحكم بالانتخاب أو بطريقة أُخرى غير مشروعة، وهذا بعيدٌ عن المقاييس والمعايير الصحيحة.

المبحث الخامس: اجتهاد النبي ﷺ ومنطقة الفراغ

إن هناك نزاعاً بين فقهاء المسلمين حول جواز الاجتهاد على النبي ﷺ في منطقة الفراغ وعدمه، ونعني بمنطقة الفراغ مجموعة الأحكام التي لا نصّ فيها من الله تعالى. لكن تعترض هنا مشكلة هو أن الذين يعالجون هذه المسألة هم قمم في العلم وليسوا من العامّة، ومن هذه القمم الغزالي الذي يعدّ قمة فكريّة مفترضاً أن في الدين منطقة فراغ. وفي المقابل هناك من يدّعي بأن الدين ليس فيه منطقة فراغ؛ لأن وجود هذه المنطقة سوف يؤدّي إلى أن ينزل القياس إلى ساحة الاستنباط، وبالتالي فإنه سوف يخلق لنا الكثير من المشاكل.

أدلّة القول بأنه لا منطقة فراغ في التشريع

ويستند هؤلاء القائلون بأنه لا منطقة فراغ في الإسلام بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[1]، وحينما يكون ﴿تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ فهذا يعني أنه ليس هنالك منطقة فراغ أبداً.

وقد عالج المتبنّون لهذا الرأي الأحكام الشرعيّة المستحدثة بأحد أمرين:

الأول: الرجوع إلى العناوين الفقهيّة العامّة

وبعبارة أُخرى إن هناك عناوين عامّة تندرج على جميع المسائل التي لابدّ أن تدخل تحت أحد هذه العناوين. ومن هذا (دخول هذه المسائل تحت عناوين فقهية) ما يسمّى في الوقت الحاضر بمسألة التأمين، ومنها التأمين على البضائع والأموال، فمثلاً حينما يريد شخص أن يشحن بضاعة له من أوروبّا فإنه يؤمّن عليها ضدّ التلف والغرق وما شاكل. فهل هذا المال الذي يدفعه حلال؟ وهل إن التأمين الذي يأخذه على بضاعته عند تعرّضها للتلف حلال؟ إن الفقهاء أجازوا هذا؛ لأنهم أدخلوه تحت أحد الأبواب الفقهية المعروفة سابقاً؛ حيث إن التأمين لم يكن معروفاً سابقاً.

ثم إنهم اختلفوا في الباب الذي يدخل هذا العنوان تحته؛ فبعضهم قال: إنه يدخل تحت باب الهبة، وبعضهم قال: إنه يدخل تحت باب الجعالة، وبعضهم قال: إنه يدخل تحت باب الهبة المعوّضة، وما إلى ذلك من وجوه فقهيّة يرتؤونها. وهذا يعني أن الأبواب الفقهية العامّة يمكن أن تندرج تحتها مسائل شرعيّة حديثة.

---

(١) النحل: ٨٩.

الثاني: الرجوع إلى القواعد والأُصول الفقهيّة

وهناك البعض من الأُمور التي يرجع فيها إلى جملة من القواعد الفقهيّة والأُصوليّة، وبعض الأُصول العمليّة أو الشرعيّة، ومن هذا أن يقول قائل: إنه ليس في زمن النبيﷺ سيارات أو طائرات، فهل يعني هذا أنني يحرم عليّ أن أركب السيارة أو الطائرة؟

والجواب: أن هذا غير معقول أبداً؛ لأننا نرجع في مثل هذه المسائل إلى أصل الإباحة بحيث إننا نقرّر المسألةبأن الشارع المقدّس لو كان يريد تحريمها لكان ينبئنا بأنه سوف يأتي زمان ستصنع فيه الطائرة والسيارة، ثم ينهانا عن ركوبهما، وبما إنه لم يحصل هذا فمعناه أن الشارع المقدّس لم يحرّمها. وهذا يمكن استنباطه من مسألتين:

الأولى: البراءة الشرعية

وهي البراءة التي تعتمد على قوله تعالى: **﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾**[١]، وتستفاد كذلك من جملة أحاديث شريفة[٢]. وهذا ما يعبّر عنه بلغة العصر الحديث «لا جريمة من غير قانون»[٣]، فليس هناك قانون إسلامي يمنع من ركوب السيارة أو الطائرة.

---

(١) الإسراء: ١٥.

(٢) ومنها حديث الرفع، قال رسول اللهﷺ: «رفع عن أُمتي تسعة: الخطأ، والنسيان، وما أُكرهوا عليه، وما لا يطيقون، وما لا يعلمون، وما اضطرّوا إليه، والحسد، والطيرة، والتفكّر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطق بشفة». التوحيد: ٣٥٣ / ٢٤، الخصال: ٤١٧ / ٩.

(٣) وقد مرّ بيان نوع النفي هنا، وأن المراد منه نفي لازم الجريمة في ج ٧ ص١٩٢ / الهامش: ٢ من كتابنا هذا.

الثانية: البراءة العقلية

وهي البراءة التي تبتني على قاعدة «قبح العقاب بلا بيان»[(١)]، أي أن الله تعالى لا يعاقب عبداً على شيء ما لم يبيّن له حرمته ومحظوريّته؛ فالقانون المروري مثلاً لا يصحّ أن يحاسب الناس على مرورهم من نقطة معيّنة بحجّة أن المرور منها ممنوع ما لم يضع يافطة تبيّن ذلك الحظر أو المنع. وعليه فمن حقّ من يمرّ من هذه النقطة ألّا يجيب شرطي المرور إلى تجريمه هذا.

وبهذا فإنه ما لم يكن هناك نصّ على الحرمة وبيانٌ لها، فإن العقاب حينها لا يصحّ؛ باعتبار أنّ الأصل في الأشياء الإباحة، فلو كان هذا حراماً لبيّنه الله تعالى على لسان نبيّه ﷺ. وما لم يحصل هذا فالحكم بالحرمة والقول بها أمران مستبعدان.

الثالث: أنه ﷺ لا ﴿يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى﴾

وكذلك يستدلّ المستندون إلى القول بأنه لا وجود لمنطقة الفراغ في التشريع الإسلامي بقوله عزّ من قائل: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[(٢)].

وقد عالج الغزالي في (المستصفى)[(٣)] هذه المسألة وكذلك غيره حتى من بعض فقهائنا كالمقداد السيوري ـ وهو من أجلّاء فقهائنا ـ في كتابه (كنز العرفان في أحكام القرآن) فينص على أن هناك منطقة فراغ يجوز للنبي أن يجتهد في بعض

---

(١) ويقابل هذا الرأي رأي آخر هو مسلك حقّ بالطاعة القائل بأن أهمّ الأُصول العمليّة هو أصالة اشتغال الذمّة، وأنه أصل يحكم به العقل. ومفاده أن كلّ تكليف يحتمل وجوده ولم يثبت إذن الشارع في ترك التحفّظ تجاهه فهو منجّز، وتشتغل به ذمّة المكلّف. ومردّ ذلك إلى أن حقّ الطاعة للمولى يشمل كل ما ينكشف من التكاليف ولو كان انكشافاً ظنّياً أو احتمالياً. دروس في علم الأصول ١: ١٦٦.

(٢) النجم: ٣ ـ ٤.

(٣) المستصفى: ٣٤٧.

الأُمور الدنيوية فيها فيملأها [١]. وهو بهذا يوافق الغزاليّ وغيره في هذه المسألة.

وفي الواقع أن هناك البعض من القضايا التي لا تدخل تحت عنوان من العناوين العامّة كما في مسألة التأمين، وفي هذه الحال تترك هذه المسائل إلى النبيﷺ يتصرف بها بما يسمى بمنطقة فراغ حيث يعطى الرسولﷺ أو الإمامعليه السلام حرّيّة التحرّك فيها بالشكل الذي يقتضيه الحال، وتتطلّبه الحكمة [٢].

---

(١) مرّ الكلام عليها مفصّلاً في المبحث الخامس من محاضرة (الخلافة في الأرض) من هذا المجلّد.

(٢) قال السيد الشهيد محمد باقر الصدرقدس سره: «إن منطقة الفراغ ليست نقصاً، ولا تدلّ على نقص في الصورة التشريعية، أو إهمال من الشريعة لبعض الوقائع والأحداث، بل إنها تعبّر عن استيعاب الصورة، وقدرة الشريعة على مواكبة العصور المختلفة؛ لأن الشريعة لم تترك منطقة الفراغ بالشكل الذي يعيّن نقصاً أو اهمالاً، وإنما حدّدت للمنطقة أحكامها بشكل يمنح كل حادثة صفتها التشريعية الأصيلة، مع إعطاء ولي الأمر صلاحية منحها صفة تشريعية ثانويّة حسب الظروف. فإحياء الفرد للأرض مثلا عمليّة مباحة تشريعيّاً بطبيعتها، ولولي الأمر حقّ المنع عن ممارستها وفقاً لمقتضيات الظروف.

والدليل على إعطاء ولي الأمر صلاحيات كهذه لملء منطقة الفراغ هو النصّ القرآني الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وحدود منطقة الفراغ التي لها صلاحيات أُولي الأمر، تضم في ضوء هذا النص الكريم كلّ فعل مباح تشريعاً بطبيعته، فأي نشاط وعمل لم يرد نصّ تشريعي يدلّ على حرمته أو وجوبه يسمح لولي الأمر بإعطائه صفة ثانويّة بالمنع عنه أو الأمر به... فألوان النشاط المباحة بطبيعتها في الحياة الاقتصادية هي التي تشكّل منطقة الفراغ.

وفي النصوص المأثورة نماذج عديدة، لاستعمال وليّ الأمر صلاحيّاته في حدود منطقة الفراغ، وهذه النماذج تلقي ضوءاً على طبيعة المنطقة، وأهمّية دورها الإيجابي في تنظيم الحياة الاقتصادية. ولهذا نستعرض فيما يلي قيماً من تلك النماذج مدعّمة بالنصوص:

١ - أن النبيﷺ نهى عن منع فضل الماء والكلأ، فعن الإمام الصادقعليه السلام أنه قال: «قضى رسول اللهﷺ بين أهل المدينة في مشارب النخل أنه لا يمنع فضل ماء وكلاء». وهذا النهي نهي تحريم كما يقتضيه لفظ النهي عرفاً. وإذا جمعنا إلى ذلك رأي جمهور الفقهاء

وهذه المسألة ليس من اليسير مناقشتها في هذه العجالة، لكن من باب الفائدة أشرت إليها استطراداً.

وعليه فالآية واضحة في أن النبي ﷺ والأئمة من بعده أو الأنبياء عليهم السلام مطلقا وأوصياءهم إنما يطبّقون أوامر الله تعالى، لكنهم يملكون بعض الصلاحيّات المقيّدة في بناء هيكل التشريع الإسلامي باجتهاد منهم. وليس معنى هذا إن إعطاء النبي عليه السلام صلاحية مطلقة مما ينتهي به إلى الاستبداد؛ لأن الأنبياء عليهم السلام لا يعرفون الاستبداد؛ ذلك أنهم يعملون بأوامر السماء. فهم يطبّقون ما أمرت به السماء، ولا يقدمون على شيء خلافه، ولا يفعلون شيئاً إلّا إذا أمرتهم السماء به.

ويجب أن نعتقد بأن السماء لا تأمر بشيءٍ فيه إجحاف للعباد؛ فالله تعالى أرحم بعباده من أنفسهم.. كان النبي ﷺ جالساً في يوم من الأيام مع أصحابه،

☚ القائل بأن منع الإنسان غيره من فضل ما يملكه من ماء وكلاء ليس من المحرّمات الأصيلة في الشريعة، كمنع الزوجة نفقتها وشرب الخمر أمكننا أن نستنتج أن النهي من النبي ﷺ صدر عنه بوصفه ولي الأمر. فهو ممارسة لصلاحيّاته في ملء منطقة الفراغ حسب مقتضيات الظروف؛ لأن مجتمع المدينة كان بحاجة شديدة إلى إنماء الثروة الزراعية والحيوانية، فألزمت الدولة الأفراد ببذل ما يفضل من مائهم وكلئهم للآخرين؛ تشجيعاً للثروات الزراعية والحيوانية.

٢ ـ ورد عن النبي ﷺ النهي عن بيع الثمرة قبل نضجها، ففي الحديث عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن الرجل يشتري الثمرة المسمّاة من أرض، فتهلك ثمرة تلك الأرض كلّها، فقال عليه السلام: «قد اختصموا في ذلك إلى رسول الله ﷺ، فكانوا يذكرون ذلك فلما رآهم لا يدعون الخصومة، نهاهم عن ذلك البيع حتى تبلغ الثمرة، ولم يحرمه، ولكنه فعل ذلك من أجل خصومتهم». وفي حديث آخر أن رسول الله ﷺ أحلّ ذلك فاختلفوا، فقال ﷺ: «لا تباع الثمرة حتى يبدو صلاحها». فبيع الثمرة قبل بدْو صلاحها عمليّة مباحة بطبيعتها وقد أباحتها الشريعة الإسلامية بصورة عامة، ولكن النبي ﷺ نهى عن هذا البيع بوصفه وليّ الأمر؛ دفعاً لما يسفر عنه من مفاسد وتناقضات».

فرأىٰ امرأة تحمل طفلها وهي تقبّله وتحنو عليه وتفيض عليه عطفاً ورقّة، فالتفت ﷺ إلىٰ أصحابه قائلاً: «**أترون هذه المرأة، وما تظهره من مدى رحمتها بولدها؟**». قالوا: بلىٰ يا رسول الله. قال ﷺ: «**أطارحة هذه ولدها في النار؟**». قالوا: لا يا رسول الله. قال ﷺ: «**لم؟**». قالوا: لشفقتها. قال: «**الله أرحم بكم منها بولدها**»(١).

وهذا إنما يعني شيئاً واحداً هو أن الله جلّ وعلا وأنبياءه عليهم السلام لا يجحفون عباده حقوقهم، لأن الله تعالى حكيم عادل، والأنبياء عليهم السلام مسدّدون في أفعالهم وأقوالهم. وهذا الأمر مما استقرّ عليه عرف العرفاء؛ فهم يعلمون أن الله تعالى أرحم بهم وأرحم بأولادهم وعوائلهم منهم؛ ولذا فإنهم يضحّون من أجل الله ودينه حتى بأولادهم. ومما يروى في هذا المجال أن ربعي بن خراش أحد الأبرار من بني عبس كان يعيش في الكوفة، وكان اثنان من أولاده قد خرجا يقاتلان الحجّاج مع عبد الرحمن بن الأشعث في حربه عليه، فلما انهزم عبد الرحمن بعد ذلك انهزم معه هذان الولدان، فطلبهما الحجّاج وسأل عنهما فقيل له: أبوهما يعرف مكانهما، وهو رجل لا يكذب، فابعث خلفه واسأله؛ فإنك إن سألته عنهما أجابك.

فأمر الحجّاج باحضاره، وقال له: أين ولداك؟ قال: ما الذي تريده منهما؟ قال: أُريدهما لأمر. قال: إنهما عندي في البيت. فقال له الحجّاج: تقول ذلك وأنت تعلم أني سوف أضرب عنقيهما؟ قال: والله هما أحقر في عيني من أن أعصي الله من أجلهما. فأكبره الحجّاج وقال: والله لا يضرّك الصدق عندي، اذهب وأخبرهما أنهما آمنان(٢).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨: ١٠٣.

(٢) انظر تصحيفات المحدّثين ٢: ٥٣٢.

المبحث السادس: أقسام العبادات في الإسلام

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾، إن هذا المقطع من الآية الشريفة يشتمل على أمور هامةٍ لا بد من ذكر بعضها بمقدار ما يسع له المقام:

الأول: في حقيقة العطف

إن المعروف في اللغة أن العطف يقتضي التغاير بين المعطوف والمعطوف عليه، فحينما يعطف الله تعالى في هذه الآية ﴿إِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ على ﴿فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾، فهل يعني هذا أن هناك تغايراً بين المعطوف عليه هنا؟ أو بعبارة أُخرى: هل إن ﴿إِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ لا يعدّان من ﴿فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾؟

الثاني: أقسام العبادات

إن الذي يظهر أن الخيرات هي عنوان مستقلّ، بمعنى أن هذه الآية الشريفة تريد أن تشير إلى أن هناك ثلاثة أنواع من العبادات في الإسلام ورد ذكرها في هذا المقطع الشريف.

الأولى: العبادة الأخلاقيّة

وبلحاظ هذا التنويع يكون هنالك تغاير، لكن ليس تغايراً في المفهوم، بل هو تغاير في التطبيق، فـ﴿فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ عنوان مستقلّ للعبادات الأخلاقيّة، أما ﴿إِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾، فهو عنوان آخر للعبادات الجسديّة والماليّة، فهما عنوانان: الأوّل للعبادات الجسدية والثاني للعبادات الماليّة، كما سيأتي بيانه. وبهذا اللّحاظ فإن هناك تغايراً في التطبيق، وليس في المفهوم. ومن هنا نجد أن النبي الأكرم ﷺ يقول: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»[١].

(١) الفقيه ٣: ٥٥٥ / ٤٩٠٨، سنن ابن ماجة ١: ٦٣٦ / ١٩٧٧.

وكانﷺ يقول كذلك: «**أكثر عذاب القبر يوم يموت الإنسان هو من سوء الخلق مع العيال**»[١]؛ لأن بعض الناس يتّصف فعلاً بهذا الخلق الذميم، فحينما يرجع إلى أهلِهِ فإنه يصبّ جام غضبه عليهم؛ ليفرغ ما في نفسهِ من كبت وقسوة جرّاء ما يلاقيه من تعقيدات الحياة وضغوطاتها، وما تسبّبه للإنسان من مشاكل نفسية. وهذا في حقيقته سوء خلق مع العيال، فكان النبيﷺ يريد أن يزيل هذا الخلق الذي يتحكّم بطبائع البعض؛ ولذا فإنهﷺ قال: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»؛ لأن الأهل أشبه ما يكونون بالأسرى ولذا يجب أن تحسَن معاملتهم، وألّا يساء إليهم. فكما أن الإنسان يحبّ أن يحسن إليه ولا يساء، فكذلك غيره يحب أن يكون له ذلك، فيحسن إليه ولا يساء.

ثم إن من الخيرات ألّا يؤذي الإنسان جاره، بل الواجب أن يرعى حقوق الجار الأخلاقيّة والاجتماعيّة، فلا يزعجه ولا يسبّه ولا يذمّه، بل فوق هذا يجب عليه أن يتفقّد أحواله في سرّائه وضرائه، وأن يجعل نفسه موضع افتخار؛ وكلّ هذه الأُمور عبادة، أي أنها عبادة أخلاقيّة.

وهذا المفهوم ليس مفهوماً جديداً، بل هو من المفاهيم المتأصّلة في حضارتنا، فحينما نرجع إلى سيرة حاتم الطائي نجده يقول:

ناري ونارُ الجار واحدة ... وإليه قبلي تنزل القدرُ

ما ضرَّ جاراً لي يجاورني ... ألّا يكون لِبابِه سترُ

أعمىٰ إذا ما جارتي خرجت ... حتىٰ يواري جارتي الخدرُ[٢]

---

(١) قريب منه في الاعتقادات: ٥٩.

(٢) شرح نهج البلاغة ٥: ٤٣. أمّا البيت الثالث فقد رواه مع البيت الثاني في ج ١٧: ١٠ لمسكين الدارمي.

وهذا اللون من الخلق الكريم قد أقرّه الإسلام وزاد عليه؛ لأنه وضع قانون حقوق الجار، حتى إن أمير المؤمنين ﵇ كان يقول: «**سمعت رسول الله ﷺ يوصي بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه**»[1].

إذن فعل الخيرات هو الجانب الأخلاقي، وهذا الجانب هو ما يحدّده الشارع المقدس في النهج الخلقي والتفاعل السليم مع المجتمع.

الثانية: العبادة الجسديّة

وفي قوله تعالى: ﴿**إِقَامَ الصَّلَاةِ**﴾ بيانٌ للجانب الروحي والنفسي والعبادة الجسدية. وفي هذا التعبير القرآني: ﴿**إِقَامَ الصَّلَاةِ**﴾، وليس بقوله: (يصلّي) إشارة إلى أن للصلاة روحاً؛ ولذا يجب إقامتها. وهذا النمط من الخطاب أو الأُسلوب في الكلام قد درج عليه أيمّة أهل البيت ﵈، فنحن عندما نزورهم نتلو في الزيارة الشريفة قولهم ﵈: «**أشهد أنك قد أقمت الصلاة**»[2]، ولا نقول: «أشهد أنك قد صلّيت».. أي أنها الصلاة ذات المعنى، وليست الصلاة المفرّغة من محتواها. أما كيف أنها تكونُ صلاة مفرّغة من محتواها فذلك يسيرٌ توضيحه؛ لأن الإنسان حينما يصلّي فالمفروض به أن ينقطع إلى الله، وأن يظل على هذا الانقطاع حتى بعد أن يخرج من المسجد أو بعد يتم صلاته، لكنه حينما يستعجل فراغه من صلاته لأجل أن يستغيب أو لينُمَّ أو ليُعمِل جوارحه فيما حرّم الله، فإنه يكون حينئذٍ قد صلّى صلاة فارغة من أي محتوى؛ لأن المفروض بالصلاة الصحيحة أن تنعكس على أخلاقيّات الإنسان، وعلى عاداته وطباعه، وعلى تعامله مع

---

(١) مسند أحمد ٥: ٢٦٧، فتح الباري ١٠: ٣٧٠، الأمالي (المحاملي): ٣٧٧ / ٤٢٧، وفي الجميع عن أبي امامة.

(٢) مصباح المتهجّد: ٧٢٠ ـ ٧٢١.

المجتمع، وما لم تكن كذلك فهي صلاة بغير معنى.

إذن فعلى كلّ شخص أن يجعل صلاته مرآة ينعكس عليها خلقه؛ لأنها أداة لرفع مستوى الخلق عند الفرد، ولأنها روح المؤمن. ومن هذا نرى أن من مضمون الإسلام هو إقام الصلاة وفعل الخير والتخلّق بالأخلاق الحميدة؛ لأن الصلاة عبادة جسديّة ونفسيّة وروحيّة، وهذه العبادة على هذه المستويات الثلاثة لابدّ أن تسمو بالإنسان إلى مرتبة الكمال.

الثالثة: العبادة المالية

وهي العبادة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾. وفي الإسلام نماذج كثيرة من العبادات المادّيّة أو الماليّة، لكنه قدّمَ هذا الأُنموذج؛ لأن مفهوم الزكاة فيه شعور بالتطهير من الإثم؛ ذلك أن هذا المعنى هو المعنى الحقيقي للكلمة قبل أن تُنقلَ إلى هذه العبادة. فالمسلم حينما يمرض فإنه إن كان غنيّاً فسوف يستشير أحسن الأطباء، ويشتري أرقى أنواع العلاجات من أجل إبراء علته، وإذا رأى مسلماً غيره يتلوّى من الألم وهو لا يملك مالاً لمعالجة نفسه فإن ضميرهُ لابدّ أن يوبّخه ويخزه؛ لأنه يرى هذا الإنسان بحاجة إلى المساعدة. وهذا بطبيعة الحال إذا كان إسلامه حقيقيّاً. فالضميرُ هنا يثور على صاحبه ويؤنّبه ويوبخه حتى يدفعه إلى مساعدة هذا.

لكن لو أن كلّ غني يخرج هذا الحقّ الذي فرضه الله تعالى عليه في أمواله ويعطيها إلى الفقير، فإنه بالنتيجة يجعل عنده قدرة شرائيّة على شراء الدواء وما شاكل، كما أنهم يكونون قد أراحوا ضمائرهم من وخزها وشعورها بالإثم. وكلّ ذلك لأنهم طهّروا أموالهم، فشعروا بالطمأنينة والراحة تسريان في نفوسهم. يقول

الرسول الأكرم ﷺ: «**من أصبح لا يهتمّ بأمور المسلمين فليس منهم**»[١].

فالزكاة وسيلة لتزكية النفس من الشعور بالإثم، ولتزكية المال، ولنمائه؛ لأنها تنمي الثروة بما يطرح الله فيها من بركة. ولهذا السبب نجد أن الله جلّ وعلا قد قدم الأُنموذج الزكوي على الأنموذجات الماليّة الأُخرى.

المبحث السابع: فلسفة العبادة الحقّة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿**وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ**﴾، ومن يمعن النظر هنا يجد أن في هذا المقطع الشريف وثبة خلقيّة رائعة، وهذه الوثبة تتمثّل في أن من يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة فإنه يكون عابداً لله جلّ وعلا، وليس لغريزته. وبعكس هذا من يعبد غرائزه، فبعض المصلين إنما يعبدون غرائزهم وليس الله تعالى؛ ذلك أنهم حينما يقومون ويقعدون، ويركعون ويسجدون فإنهم يحاولون بهذا إرضاء غريزة الأنا أو الأنانية؛ لأنهم يتعبون أنفسهم بهذه العبادة لكي يراهم غيرهم من الناس ويقولوا: إن هؤلاء عابدون مصلّون.

إذن فهؤلاء إنما يعبدون غريزة الأنا، ولم يعبدوا الله تعالى، بخلاف من أشارت إليهم الآية الكريمة، وقررت بأنهم عابدون لله؛ لأن من يعطِ الزكاة وهو يأمل وجه الله جلّ وعلا يكن قد عبد الله، بخلاف من يعطيها وهو ينتظر مدح الناس، فهذا أراد أن يشبع غريزته ويرضيها، وبالتالي فإنه يعبد هذه الغريزة وليس الله جلّ وعلا.

وعليه فإن على الإنسان أن يسمو على غرائزه، وأن يتوجّه بكلّ حركاته وسكناته وأفعاله إلى الله جلّ وعلا راجياً فيها وجهه. وهذا هو فعل الخيرات،

---

(١) الكافي ٢: ١٦٣ / ١، ١٦٤ / ٤ ـ ٥.

وهذه هي العبادة الحقيقيّة. فإذا تحقّق كلّ ذلك من الإنسان فإنه حينئذٍ لا يكون هناك فساد في الأرض؛ لأن الفساد ليس إلّا نتيجة انحراف الإنسان عن العبادات الصحيحة. ومن هنا نعرف أنّ معنى العبادة في القرآن الكريم أشمل وأوسع من المعنى الذي نتصوّره لها، فالقرآن الكريم مثلاً يقول: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾**[(١)]، وهذا يعني أنه ليس المقصود به أن الجنّ والإنس حينما يريدون أن يعبدوا الله ويؤدّوا فرائضه فإن عليهم أن يصلّوا ويصوموا فقط، بل إن الأمر أبعد من ذلك وأوسع؛ لأن خروج الإنسان إلى عمله عبادة، وتكسّبه بالحلال عبادة، ومساعدة المجتمع عبادة، وقضاء حوائج الناس عبادة كذلك.

وبالنتيجة فإن كلّ عمل خير هو عبادة إذا قُصد به وجه الله جلّ وعلا. وبهذا فإن من يفجّر الطاقات الهائلة في جسم الإنسان أو في الأرض وهو يبتغي بذلك مرضاة الله تعالى وخدمة الناس، فإنه إنما يكون في محراب العبادة؛ وذلك لسببين:

الأول: أنه يترفّعُ بنفسه عن التعيّش على الناس، فالتكفّف والتعفّف عما في أيدي الناس، وعدم إراقة ماء الوجه طلباً لحاجة منهم إنما هو عبادة[(٢)].

الثاني: أنه يسعى إلى مصلحة الناس وخدمتهم ومساعدتهم.

ومن هذا نعرف أن الإنسان في كلّ هذه الأُمور حينما يقصد وجه الله تعالى ـ كما ذكرنا ـ فإنه إنما يعبد الله وليس غرائزه أو أنانيته أو الدنيا؛ لأن عبادة الدنيا والمادّة تجعله يركع على الأعتاب التافهة كما حصل من كثير ممن سجدوا

---

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) وقد ورد في الحديث الشريف أنه: «ما أكل ابن آدم طعاماً أفضل من كدّ يده». سير أعلام النبلاء ٢: ٥٧٠.

للملوك والسلاطين، وركعوا عند عتبات أبواب قصورهم ودورهم[1]. وأكثر من هذا نجد أن عبادة المادّة قد توصل الإنسان إلى درجة أنه يريق دم الأنبياء عليهم السلام في سبيلها، كما فعل اليهود حينما قتلوا اثنين وسبعين نبيّاً في يوم واحد من أجل غرائزهم.

وهذا الأمر قد وقع حتى مع قتلة الإمام الحسين عليه السلام؛ فقد حدثنا التاريخ عن أبيات عمر بن سعد التي يقول فيها:

يقولوُن إنَّ اللهَ خَالقُ جَنَّةٍ ... ونارٍ وتعذيبٍ وغلِّ يدينِ

فإنْ صَدَقُوا فيما يقولون إنَّني ... أتوب إلىٰ الرحمنِ من سنتينِ

أأترك ملك الريّ والريّ منيتي ... أم أرجع مأثوماً بقتل حسينِ[2]

وفعلاً قتل العترة الطاهرة، وحملت الرؤوس إلى الطاغية، تقول النوار ابنة مالك بن عقرب زوجة خولي بن يزيد: أقبل خولي برأس الحسين عليه السلام فوضعه تحت إجانة في الدار، ثم دخل البيت فأوى إلى فراشه، فقلت له: ما الخبر؟ قال: جئتك بغنى الدهر؛ هذا رأس الحسين معك في الدار. فقلت له: ويلك، جاء الناس بالذهب والفضة، وجئت برأس ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لا والله لا يجمع رأسي ورأسك بيت أبداً. ثم قمت من فراشي فخرجت إلى الدار، وجلست أنظر، قالت: فوالله ما زلت أنظر إلى نور يسطع مثل العمود من السماء إلى الإجانة، ورأيت

---

(١) قال أحد الأعراب وقد مدح شخصاً فلم ينفحه بشيء، فذهب مدحه وتعبه أدراج الرياح:

سجدنا للقرود رجاء دنيا ... حوتها دوننا أيدي القرودِ

فما ظفرت أناملنا بشيء ... صنعناه سوى ذلّ الخدودِ

محاضرات الأُدباء ١: ٣٧١، ٦٩٠، وفيها: ذلّ السجود.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٤: ١٠٦، اللهوف في قتلى الطفوف: ١٩٣، الفصول المهمة: ١٩١ - ١٩٢، الفتوح ٥: ٩٦، مقتل الحسين (الخوارزمي) ١: ٣٥١.

طيراً بيضاً ترفرف حولها [١].

الجثّة فقد خرجت إليها العقيلة زينب بعد حلول الظلام، حيث هدأت الأصوات، وسكنت الأنفاس:

واعيونك يبو السجّاد	لون يمّك يخلّوني
أحط راسي علىٰ گبرك	وارشّه بدمعة عيوني
واگضي العمر كلّه اهناك	واگلهم لليلوموني
شلّي بالعمر بعدك	شنهو عيشتي بليّاك

* * *

منهو انصدع يا بين صدعي	لهدات تسعر تحت ضلعي
أخبي عن الشمّات دمعي	واضمّ ونّتي حتى على سمعي

واذكرك بنصّ الليل والعِي

منازل كانت نيّرات بأهلها	تولّىٰ عليها غبرة وقتامُ
ألا لا تزان الدار إلّا بأهلها	على الدار من بعد الحسين سلامُ

---

(١) مثير الأحزان: ٦٥ ـ ٦٦: تاريخ الطبري ٤: ٣٤٨.

﴿١٨٢﴾

من الظواهر والسنن الكونيّة في القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

تحتوي هذه الآية الكريمة على مجموعةً من المضامينِ والمباحث سوف أعرض لها إن شاء الله تعالى فيما يلي من أبحاث.

توطئة حول هويّة القرآن الكريم

إن هذه الآية الكريمة تعتبر من الآيات التي تشير إلى بعض السنن الكونيّة والظواهر التي دأب القرآن الكريم على ذكرها. وهذه الظواهر الكونية منها ما يذكره القرآن الكريم عن النباتات أو الكائنات الحيّة عامّة، ومنها ما يذكره عن الكواكب، وغير ذلك من الظواهر الكونيّة، مضافاً إلى ذلك بعض الظواهر الكيميائية أو الفيزيائية. والقرآن الكريم حينما يمرّ بهذه الظواهر فإنه يهدف إلى تحقيق شيء وضعه نصب عينيه، وليس الغرض من هذا أنه (القرآن الكريم) كتاب

---

(١) الأنبياء: ٣٠.

علمي أو مؤلّف في القوانين العلميّة التي تحكم هذا الكون على اختلافها.

إن القرآن الكريم دستور للتربية بالمعنى الشامل للكلمة، والدساتير التي تحكم العلاقات هي مجموعة من النظم والقوانين التي تكون مهمّتها تنظيم العلائق هذه، وبالتالي تربية الناس وفق هذه القوانين والأنظمة. ومن هذا نخرج بنتيجة هي أن الهدف من ذكر القرآن الكريم لبعض هذه الظواهر العلمية هو هدف تربوي وليس الغرض منه حشد النظريات العلميّة الكيميائيّة أو الفيزيائيّة أو الفلكيّة أو ما شاكل.

المبحث الأول: لماذا الأمور العلميّة في القرآن الكريم؟

إذن فاستعراض القرآن الكريم لهذه الأُمور إنما هو في حقيقته أمر تمهيدي، أي أنه يمهّد بالنظرية العلميّة أو الفلكيّة أو الكيميائيّة لأمرٍ هو أكبر وأهمّ وأسمى. وهذا معناه أنه يريد أن يتّخذ من هذه الأُمور معبراً إلى الإيمان بالله تعالى؛ فإنه حينما يضع أيدينا على نظام الكون والمعادلات العلميّة التي تحكمه فإنه إنما يريد منّا أن ننتقل بأذهاننا من دلالة الأثر إلى دلالة المؤثّر، أو الاستدلال بالأثر على المؤثّر. وهذا نتيجته الإيمان بالله جل وعلا حتماً. فكلّ شخص حينما يرى هذا التنظيم الرائع الذي يحكم الكون ثم يعقله، فإنه ـ إن كان ذا فهم وعقل وتدبّر يمكّنه من فهم الحقائق كما هي ـ سيرجع حتماً إلى قانون مشهور هو قانون العلّيّة.

وهذا القانون يولد مع كلّ إنسان، وهو يعني ربط الأسباب بالمسبّبات. وهذا الأمر بديهي موجود عند الإنسان حتى الطفل. فنحن مثلاً نعرف كيف نستطيع أن نبرهن على صحّة العلوم التركيبيّة وذلك بإرجاعها إلى مجموعة من القواعد البديهيّة التي تحكم هذه العلوم. ومن هذا أيضاً نعرف أن العلوم البديهيّة لا تحتاج

إلى علوم مثلها؛ لأن هذا يستلزم التسلسلَ، والتسلسلُ باطل كما أثبته الفلاسفة والحكماء. وعليه فلابدّ من أن تنتهي هذه العلوم إلى جملة من القواعد البديهيّة التي تفسّر لنا جميع العلوم.

وهذه القواعد أو العلوم البديهيّة هي قواعد فطريّة، بمعنى أنها تولد فطريّاً مع الإنسان؛ فالطفل مثلاً حينما يشتري له أهله لعبة، فإنه يتساءلُ عن مصدرها، وعن الكيفية التي صُنعت بها. وكذلك حال من يعيش في الصحراء فإنه حينما يرى شجرةً مغروسة فسوف يتساءل عمّن غرسها، أو إذا رأى جداراً مبنيّاً فسوف يتساءل عمّن بناه؛ لأن هذا مسبَّب، والمسبَّب لابدّ أن يكون له مسبِّب يوجده. وهذا هو الذي نسميه بقانون السببية. وكما قلنا فإن هذا القانون مركوز عند الإنسان في طبعه، وهو أمرٌ مفروغ منه.

القرآن الكريم لا يتعامل مع القوانين الجزئيّة

وعليه فالقرآن الكريم لا يهدف إلى التدخل في الأُمور الجزئيّة للعلوم، بل إنه يستعرض بعض القواعد العلميّة الكلّيّة؛ لأن الأُمور الجزئية خاضعة كافّة للتغيّر والتغيير؛ فكم من قانون علمي نُقض بعد ذلك! وكم من نظرية رُكنت على رفوف الزمن والتاريخ! مع أننا نعرف أنها لم تركن بقانون الجهل، وإنما رُكنت بقانون العلم نفسه. فالعلم هو الذي نسخها وأسماها بهذا الاسم. ومن هذا مسألة الضوء فكان العلماء يعتقدون أنه عبارة عن أمواج كهرومغناطيسية، وقال آخرون: إنه عبارة عن جسيمات صغيرة تنتقل في الفضاء [١].

---

(١) وهي التي تسمى الفوتونات، وهي جسيمات افتراضيّة تفسّر انتقال الضوء في دنيا الأجسام والموادّ. وقد جمع العالم الألماني ماكسويل بلانك بين هاتين النظريّتين فقال: إن

وكذلك هو حال الكثير من القوانين والنظريّات العلميّة على صعيد الطبّ أو الفيزياء أو الكيمياء أو الفلك أو الهندسة وما شاكل، فما نسميه قانوناً اليوم يمكن أن يصبح عرضةً غداً إلى التغيير أو النقد. ومن هذا المنطلق فإننا نقول: إن القرآن الكريم لا يتعامل مع القضايا الجزئيّة ولا يتدخّل فيها، ذلك أنه ليس من وظيفته حشد النظريّات أو القوانين بين طياته. والغرض من ذكر هذه الكلّيّات العلميّة هو أن ينتقل بأذهاننا وأفكارنا إلى الإيمان بوجود الله تعالى؛ لأن الإنسان ما لم يؤمن بوجود الله فلن تحلّ عنده مشكلة الاعتقاد، فهو دائما يسعى سعياً حثيثاً لتفسير جميع الظواهر التي تمرّ به، ولا بد من إرجاعها إلى أصلها ومسبّبها وموجدها.

المبحث الثاني: في طبيعة الاستفهام في الآية

تقول الآية الكريمة: ﴿أَوَلَمْ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وكلمة ﴿يَـرَى﴾ هنا بمعنى يعلم، وبالنتيجة فإن القرآن الكريم يريد أن يوبّخ هؤلاء على عدم تفكّرهم وتدبّرهم بخلق الله والنظر فيه، فالقرآن الكريم يقول لهم: ألم تعلموا أن السماء والأرض كانتا رتقاً[1]. لأن الأمر لو لم يكن كذلك وكان المقصود بـ﴿يَـرَى﴾ المتحقّقة بجارحة العين لكان من الممكن والسهل على المشركين والكفار أن يقولوا: لا، نحن لم نرَ أن السماء والأرض كانتا رتقاً ثم فُتقتا؛ لأننا مذ ولدنا إلى

☚ الضوء يسير في الفراغ على شكل موجات كهرومغناطيسية، ويسير في الوسط المادّي على شكل جسيمات هي الفوتونات، وكان أن توصّل إلى ابتداع ما يسمى بـ«الطبيعة الثنائيّة للضوء»، بمعنى أنه يسلك طبيعتين: إحداهما موجيّة، والأُخرى جسيمية؛ اعتماداً على طبيعة الوسط الذي يسير فيه.

(١) وواضح أن الاستفهام هنا قد خرج عن حقيقته إلى معنىً آخر هو التوبيخ، والتوبيخ قسمان: إبطالي، وإنكاري.

الآن لم نشاهد هذه الظاهرة.

وعمليّة الرتق والفتق هي نظرية تتطرّق إلى تفسير نشوء الكون، وتكوّن المجرات والنجوم والكواكب. وهذه النقطة سوف نمرّ بها في هذا المبحث إن شاء الله تعالى.

وعليه فمن الممكن أن يقول هؤلاء المشركون والكفار: إننا لم نرَ عمليتي الرتق والفتق؛ لأن أعمارهم قصيرة لا تكاد تكون رقماً قياساً إلى عمر الكون. ومن هنا فإننا نقول: إن التوبيخ في هذه الآية الكريمة لا يراد به التوبيخ على عدم الرؤية العينيّة، بل المراد به التوبيخ على عدم الرؤية القلبيّة أو العقلية، أو التوبيخ على عدم التفكّر والتدبّر في خلق السماوات والأرض، وعلى عدم محاولتهم معرفة ذلك؛ لأنهم لم يتدبّروا ولم يتفكّروا ولم يسألوا. فالرؤية البصرية هنا غير واردة مطلقاً، بل المراد هنا الرؤية العلميّة.

وبناءً على هذا يكون تقرير هذا التوبيخ أن هؤلاء ألم ينتهوا إلى الإيمان بالله تعالى المستند إلى العلم بهذه القذرة المطلقة الخلّاقة المبدعة، والسلطنة في خلق هذا العالم، والسيطرة عليه، وإحكام صنعه وتسييره بهذه الدقّة المتناهية؟ إننا نفهم من هذا أن القرآن الكريم يدفعنا إلى العلم، بمعنى أنه يطالب الإنسان بما أنه كائن يمتلك الطاقات الذهنيّة والعلميّة الهائلة، والتي يمكن أن يستثمرها، يطالبه بأن يستثمر هذه الطاقات، وأن يتعلّم وأن يسعى إلى تحقيق الخير والرفاهية للإنسان. فالكون مليء بالدلالات والمعجزات والآيات التي تثبت وجود الله تعالى، والتي تساعد الإنسان لأن يرقى بمستواه، وأن يتعلّم.

إذن فلماذا لا يستغلّ هذه المعلومات التي أودعها الله في الكون في تحقيق هذاالهدف؟ ولماذا يضيع وقته دون أن يسائل نفسه عمّا يفعله وهو يهدر هذا

الوقت الذي عُبر عنه بأنه كحدّ السيف؟ إن المفروض بالإنسان وهو يمتلك هذه الطاقة الذهنيّة الجبّارة، مضافاً إلى ذلك معرفته بما في هذا الكون من عجائب ومعادلات ومعلومات وحقائق ضخمة، ألّا يهدر وقته سيما في هذه الأزمنة التي أصبحت الثقافة فيها متيسّرة للجميع. فكل الناس أصبح بإمكانهم أن يقرؤوا ويكتبوا ويتعلّموا.

ثم إن المعلومات متوفّرة على مستوياتها وأصعدتها كافّة؛ سواء كانت معلومات تناسب مرحلة الطفولة أو تلك التي تناسب مرحلة الصبا والشباب، أو تلك التي تناسب مرحلة النضج العقلي والفكري، وما بعد ذلك من تطوّرٍ وتعقيد. وبهذا نجد أن الإنسان يستطيع أن يتطوّر بمداركه، ويتوسّع بمعلوماته قليلاً قليلاً حتى يصل إلى مرحلة الكمال والنضج الفكريّين، وهي المرحلة التي تؤهّله لأداء رسالته في الحياة.

هذا الحال مع الجاهل، أما مع العالم الذي كان قد قطع شوطاً بعيداً في الدراسة والعلم، فالكلام معه يكون بناءً على تضييعه وقته في توافه الأُمور، وفي ترديد كلمات ولا تسمن ولا تغني من جوع. إن كلّ إنسان يمتلك الآن وسيلةً تعليميةً أو تثقيفيّة سواء كانت كتاباً مطبوعاً أوشيئاً مرئيّاً أو مسموعاً وما إلى ذلك، فلماذا لا يجعل هذه الوسائل الثقافيّة صديقاً له، ويعرض عن الدنيا وتوافهها؟ إن الكتاب أو أية وسيلة تثقيفيّة تعليميّة تضع الدنيا بحذافيرها أمام الإنسان وبين متناول يديه، فلماذا لا يطّلع هذا الإنسان على ما في هذه الكتب والوسائل التثقيفيّة؟ ولماذا لا يركن إلى العلم مبدأً في حياته يصارع به الجهل والتخلّف والظلم والفساد؟

وهنا نقول: إن القرآن الكريم يدفعنا عبر هذه الإشارات إلى هذه الكلّيّات العلميّة والقواعد والنظم العامّة إلى استثمار طاقاتنا العلميّة والعقليّة والذهنيّة في

سبيل الوصول إلى مرحلة النضج والكمال [١]. وهذا يعني أنه يطلب منّا أن نتعرّف على بدايات الكون، وأن علينا أن نقرأ تاريخ هذه العلوم المختصّة بهذا المجال، وأن نقرأ عن هذه الحقائق التي ابتدعتها البشرية وتوصّلت إليها في مسيرتها التطورية. فعلى كلّ إنسان أن يحاول استثمار طاقاته الذهنية في التعلم والتثقف؛ لأن الله تعالى سوف يحاسبه عليها.

ولا يظن إنسان أنه حينما أودع الله تعالى فيه هذه الطاقات والقابليات العقليّة والذهنيّة فإنه أعطاه إياها وتركه دون مراقبة أو محاسبة، لا بل إنه سوف يحاسبه إذا ما عطّلها ولم يستعملها فيما أمره أن يستعملها به [٢]. إن الطاقة الذهنية والعقلية والعلمية هي أهم بكثير وأكبر من الطاقات المادية أو المالية، وإذا كان الله يحاسب إنساناً على إهداره مالاً يملكه وإن كان قليلاً؛ لأنه يكون قد أهدر طاقةً فإنه من باب أولى أن يحاسبه إذا ما أهدر تلك الطاقة الأكبر والأفضل والأهم في حياة الإنسان.

ولو تأمّلنا في هذه المسألة جيّداً لرأينا أن الله تعالى يحاسب الإنسان حتى

---

(١) وهو ما حاول المحاضر إثباته في المبحث السابق.

(٢) وهو ما أكّد عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك». انظر: الأمالي (الطوسي): ٥٢٦، مكارم الأخلاق: ٤٥٩، الدعوات: ١١٣، جامع الخلاف والوفاق: ٢٣٣، وسائل الشيعة ١: ١١٤، مشكاة الأنوار: ٢٩٨، محاسبة النفس: ٨٧، بحار الأنوار ٧٥: ٧٤، ٧٨: ١٧٣، فتح الباري ١١: ٢٠١، المصنف ٨: ١٢٧، الجامع الصغير ١: ١٨٣، كنز العمّال ١٥: ٨٧٩.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين أكتسبه، وفيما أنفقه، وماذا عمل فيما علم» وفي رواية: «عن أربع». انظر: كنز العمّال ١٤: ٣٧١ - ٣٧٢ / ٣٨٩٨٢، ٣٧٩ / ٣٩٠١١ـ٣٩٠١٣.

إذا لم يتلف هذا المال وذلك فيما لو اكتنزه ولم يستثمره في الحياة؛ فإن الله جل وعلا يعتبر هذا الأمر إتلافاً للمال، لأن صاحبه لم يستعمله في تفجير الثروات والطاقات، بل إنه عطّله بعد أن كان بإمكان هذا المقدار من المال أن يشغّل طبقة من الناس أو أن يموّل مشروعاً علمياً طبّياً أو تعليمياً أو ما إلى ذلك. فحينما يكنز الإنسان هذه الأموال أو الطاقات فإنه يكون قد دفن معه هذا المشروع العلمي، أو هذا المشروع التعليمي، أو هذه الحاجة التي ترتكز إليه في حياة الإنسان.

وإذا كان المسألة بهذا التصوّر، فما بالك بمن يعطّل ويهدم الثروة الأعظم وهي العقل والذهن؟ فالله تعالى كما يطالب الإنسان بأن ينزل بطاقته المالية إلى السوق ويأمره بالاستفادة منها فيه وإفادة الآخرين فكذلك يأمره بأن ينزل إلى المجتمع بطاقته الذهنية والعلمية ليستفيد منها الناس ولا أقل من أن يستفيد هو منها لأنه حينما يشغل أمواله أو حينما يشغل عقله وذهنه فإنه يكون قد عاد بمردود إيجابي على نفسه لكن إذا أخفى كل ذلك في الأرض فإنه لن ينتفع بها أحدٌ لا هو ولا غيره، يقول الشريف الرضي :

إني لأعجب للذين تمسّكوا ... بحبائل الدنيا وهنّ رثاثُ

كنزوا الكنوز وأعقلوا شهواتهم ... فالأرض تشبع والبطون غراثُ

أتراهُمُ لم يعلموا أن التقى ... أزوادنا وديارنا الأجداثُ[1]

---

(١) شرح نهج البلاغة ٣: ٣٣٨ ـ ٣٣٩، ومنها:

ما لي إلى الدنيا الدنية حاجة ... فليجن ساحر كيدها النفّاثُ

طلقتها ألفاً لأحسم داءها ... وطلاق من عزم الطلاق ثلاثُ

وثباتها مرهوبة وعداتها ... مكذوبة وحبالها أنكاثُ

أُمّ المصائب لا تزال تروعنا ... منها ذكور حوادث وإناث

فهذه طاقة، وهي طاقةٌ سوف يحاسب عليها، والطاقة العلمية أيضاً سوف يحاسب عليها الإنسان؛ لأنه إذا كان منطوياً على نفسه وماله وعلمه ولا ينفع به الآخرين فلا يشغّل المحتاجين بماله، ولا يزكي علمه بنشره بين الناس فإنه يكون قد عطّل طاقاتٍ كثيرة أعطاه الله إياها، وإنما أعطاه الله إياها لينشرها بين الناس [١].

إذن فمن يملك استعداداً ذهنياً فهو يملك طاقة، بل طاقة كبيرة جداً سوف يحاسبه الله عليها إن لم يستثمرها في سبل الخير وطرق النفع لبني البشرية؛ لأن الله تعالى سوف يحاسبه ويقول له: إنني قد أعطيتك هذا المخ وأعطيتك هذا العقل وأعطيتك هذا الذهن، فلماذا لم تحقق الأمر الذي أعطيتكها من أجله؟ وهل تظن أني إنما أعطيتك إياها عبثاً أو دون أن تستعملها؟

طبعاً هذا مما ينافي الحكمة الإلهية؛ لأن الحكمة الإلهية تقتضي أن يوضع كل شيء في موضعه، وعدم استخدام واستثمار الطاقات العقلية والذهنية، يعني عدم وضع الشيء الصحيح في موضعه، وهذا كما قلنا منافٍ للحكمة الإلهية. والوقت كذلك طاقة فإذا لم يستعمله الإنسان ولم يستثمره لخيره وخير الإنسانية فإن الله سوف يحاسبه عليه [٢].

نعم إن الله لا يكلف مخلوقاً فوق طاقته، فكل إنسان ميسرٌ لما خلق له، فعليه أن يستثمر كل طاقاته المادية والمعنوية بالقدرة التي منحه الله إياها وفي مجالها

---

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «زكاة العلم نشره». غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٢٤.
وقال عليه السلام: «ما أخذ اللّه على أهل الجهل أن يتعلّموا حتى أخذ على أهل العلم أن يُعلّموا».
نهج البلاغة / الحكمة: ٤٧٨.
وقال الباقر عليه السلام: «زكاة العلم أن تعلّمه عباد الله». الكافي ١: ٤١ / ٣.

(٢) كما مرّ قبل قليل من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «اغتنم خمساً قبل خمس...».

وحدودها، والله لا يطالبه بما هو أكثر من ذلك [١].

فريضة طلب العلم

إذن فعلى كل إنسان أن يسعى في طلب العلم، وهو إزاء هذا الطلب يكون مصداقاً لنوعين من أنواع الوجوب: الوجوب الكفائي، وذلك فيما إذا كان في المجتمع من يطلب العلم. والوجوب العيني وهو فيما لم يكن هنالك من يطلبه غيره. بمعنى أن الإنسان حينما يجد نفسه هو المتمكن الوحيد من طلب العلم فإن الوجوب ينحصر به، وحينئذٍ فإذا لم يطلبه فإنه يكون آثماً، أما إذا كان في المجتمع من يستطيع أن يطلبه مثله من غيره فإنه حينئذٍ يصبح عليه واجباً كفائيا، لكن من لوازم الواجب الكفائي أنه إذا لم يطلبوه جميعاً فإنهم يأثمون بما فيهم هو نفسه. فالقرآن الكريم إذن ينبهنا إلى هذه الحقيقة.

المبحث الثالث: في تكليف الكافر بالفروع

وهنا نشير إلى أن هناك نظرية استأثرت بمساحة واسعة من النقاش بين العلماء تتعلق بهذا المقطع من الآية وهو قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وهذه النظرية هي نظرية جواز تكليف الكافر بالفروع وعدمه. بمعنى أن الكافر هل هو مكلف بالصلاة والزكاة والصيام وغيرها من العبادات أم أنه غير مكلف بها؟ وعلماء المسلمين إزاء هذه النظرية كما هو بديهي على قسمين: فبعضهم يقول بعدم وقوع ذلك؛ لأنه يتوجب عليه أولاً أن يُسلم ثم بعد ذلك يكلف بالفروع [٢]. أي أن الكافر يجب عليه أن يكلّف بالأصل وهو الإسلام

---

(١) قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة: ٢٨٦.

(٢) وكما هو مثبت في القاعدة العقلية أن «ثبوت شيء لشيء فرع لثبوت المثبت له». الأسفار ٤: ٣٢٤، منطق المظفّر: ١٦٥.

ـ أي التوحيد والنبوة ـ ثم بعد ذلك يتوجه إليه الخطاب لتكليفه بالفروع.

في حين أن البعض الآخر يقول: إن الكافر مكلفٌ ابتداءً بالفروع؛ لأن الإسلام عبارة عن أصول وفروع، والكافر مكلف بها إجمالاً لا تفصيلاً. وفي الآية الكريمة مورد المقام أن البعض يقول: إن عليه أن يُسلم أولاً ثم يطلب منه معرفة أساس الأرض والكون وخلقهما وما إلى ذلك، أي أنه لا يتوجه إليه هذا الخطاب إلّا بعد إسلامه.

ويرد على هؤلاء بالقول: إن الكافر إنسان، والإنسان عموماً مكلف بطلب المعرفة، وطلبها لا فرق فيه بين أن يكون طالبها مسلماً أو كافراً. والدليل على هذا أن الله تعالى منح الإنسان بغض النظر عن ديانته ومذهبه تلك الطاقات التي تكلمنا عليها في المبحث الأول، أعني الطاقات العلمية والعقلية والذهنية وما إلى ذلك. وبما أن الله تعالى قد منح الإنسان هذه الطاقات فإنه سواءً كان مسلماً أو كافرا مدينٌ بها إلى الله تعالى لا فرق فيه بينهما.

فالله تعالى لم يقصر عطاءه على المسلم؛ لأنه أفاض الوجود على الجميع بلا فرق، وأفاض القابليات عليهم بلا اختلاف من جهة أن الإنسان لا يستطيع أن يحصل على تلك القابليات من ذاته ونفسه بل هي امتنان من الله جلّ وعلا. وكدليل على هذا ينقل أن العالم الألماني المعروف آينشتاين كان قد طلب من مجموعة من الأطباء أن يقوموا بتشريح مخّه بعد وفاته ليروا إن كان يختلف عن أدمغة الناس الآخرين، وفعلاً تم هذا الأمر وبعد التشريح وجد هؤلاء الأطباء أن دماغه لا يختلف من حيث عدد الخلايا عن أدمغة الآخرين، فقد كان فيه العدد المعلوم وجوده في دماغ كل إنسان، وهو (١٤٠) مليار خلية. وكل ما في الأمر أن خلايا الدماغ لا تتجدد كما هو حال الخلايا الأخرى، فالجسم الإنساني كافة ما

عدا الدماغ تتجدد خلاياه بين فترة وأُخرى، فتموت خلايا وتأتي غيرها لتحلّ محلّها، وبعد مرور سبع سنوات يكون الجسم قد تجدد بكامله، أما المخ فلا يتجدد [١].

والسبب في عدم تجدد خلايا الدماغ تلقائياً هو أنها منظومة الخلايا التي ترتبط بسلسلة الذكريات وموارد التأثير والتأثر العلمي والعقلي والذهني والعاطفي، فهنالك الكثير من الأمور يحتاج الإنسان إلى استحضارها ذهنياً بعد سنوات طويلة، فإذا كانت خلاياه تتجدد فهذا يعني أنه لا يستطيع استحضار المعلومات التي تحتويها تلك الخلايا التي تجددت. وهذا الأمر لا يعني أن المخ مركز العقل، لكن غاية ما يمكن أن يقال فيه: إنه عضو العقل وعضو التفكير، أما أن يوجد العقل في داخله فلا.

وأنا في هذا المبحث لا أُريد أن استعرض النظريات التي تفسر مسألة العقل وعلاقته بالإنسان ومنطقة وجوده، لكن أريد أن أُبين وأنبّه إلى أن العقل لا ينبع من هذا الجزء المادي، بل إن هذا الجزء المادي هو عضو التفكير فقط وعضو العقل والتعقل.

رجع

إذن فالله تعالى حينما أعطانا هذا المخ كان من الممكن أن يكون الإنسان شأنه شأن الحيوانات الأخرى التي تمتلك مخّاً ولا تمتلك تفكيراً. ومعلوم أن بعض الحيوانات لها مخٌّ أكبر من مخ الإنسان، ولها المادة النخاعية عينها، لكن هنالك فرق في التركيب، وفي المعادلة التي وضع الله على أساسها مخ الإنسان والتي على

---

(١) وهذا ما يفسّر لنا الضرر الذي يصيب الإنسان نتيجة التلف الذي يصيب خلايا مخّه؛ لأنها لا تتجدّد، وبالتالي فإن تلفها يؤدّي إلى قصور قدراته العقليّة والذهنيّة.

ضوئها منح الله تعالى الإنسان القابلية على التفكير دون أن يكون ذلك للحيوان. وهذه مزية كرم الله تعالى بها الإنسان، وقد أقرها في كتابه الكريم فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[1].

وهنا نعود إلى صلب موضوعنا فنقول: إذا كان الإنسان لا يستخدم هذه المكرمة التي كرمه الله بها ولا يستثمرها ولا يستفيد منها فحينئذٍ يكون حاله حال الحيوانات الأخرى[2]؛ لأنه ما لم يستخدم هذه الطاقة فيكون شأنه شأنها وهمه همها وهو العلف والتقمم أما الإنسان الإنسان فهو الذي يستثمر هذه الطاقات ويستفيد من تلك العطاءات.

المبحث الرابع: في أصل الكون ونشأته

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، إن هناك نظريات عدة في تفسير أصل الكون ولكنها عند العلماء في عصر التنوير ترجع إلى نظريتين اثنتين[3]:

الأولى: نظرية دي ديفون

وتنسب هذه النظرية إلى العالم الفلكي «دي دي فون»، والتي عمقها بعده العالم

---

(١) الإسراء: ٧٠.

(٢) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الأعراف: ١٧٩، وقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ الفرقان: ٤٤.

(٣) لقد ظهرت بعد ذلك عدة نظريات، كنظرية الحالة المستقرة، ونظرية الانفجار الكبير «big bang»، ونظرية الأوتار الفائقة «strings super».

الفلكي جيمس، وتقول هذه النظرية: إن الكون كان مؤلفاً في الأساس من مجموعة من الكواكب ثم تعددت هذه الكواكب عبر انفجار بعضها حينما مر بالقرب منها كوكب ضخم آخر. ويكون هذا الانفجار لاهباً فتنفصل منه ـ أي من الكوكب المنفجر ـ قطعاً لاهبة تبرد فيما بعد مع مرور الوقت بعد ملايين السنين، وإذا بردت تكون حولها طبقة غازية تشكل المحيط أو الغلاف الجوي لذلك الكوكب. وعلى ضوء هذه النظرية يفسر البعض نشوء كواكب المجموعة الشمسية على أنها كتل لاهبة قد انفصلت عن الشمس نتيجة انفجاراتها، ثم بعد ذلك بردت فكونت الكواكب التي تدور حولها والتي اجتذبت حولها كميات من الغاز مكونة بذلك الغلاف الجوي الخاص بها، ثم بعد ذلك تكونت التوابع لهذه الكواكب بالطريقة عينها. حتى إنهم يفسرون نشوء منطقة المحيط الهادي بأنه المكان الذي انفصلت منه الكتلة التي كونت فيما بعد القمر الذي يدور حول الأرض. ومع أن القمر قد انفصل عن الأرض إلا إن خصائصه تختلف عن خصائصها.

كما أن جاذبيتها أكبر من جاذبية القمر بست مرات، وهذا هو السبب الذي كان للأرض لأجله غلاف جوي وليس للقمر ذلك الغلاف. والغلاف الجوي للأرض هو طبقة هوائية سمكها ما يقارب الخمسمئة ميل هي عبارة عن مجموعة من الغازات التي تنتشر في الفضاء الأرضي بعضها على شكل حر وبعضها على شكل مركبات، وبهذا فإن الأرض كانت صالحةً للحياة دون القمر.

ولعل هذا الجزء من هذه النظرية يمكن تطبيقه على هذه الآية الكريمة؛ فإن القمر والأرض كانا رتقاً ثم فتقهما الله. وأنا لا أُريد أن أقول: إن القرآن أتى ليؤكد هذه النظرية، ولكن أُريد أن أقول: إن هذا مورد انطباق، وقد يكون مورد انطباقٍ آخر غيره أصحّ منه. فالآية تنطبق على هذه النظرية ويمكن أن تنطبق على نظرية

أخرى تكون أصح منها.

النظرية الثانية: نظرية عمانوئيل كانت

وتشير هذه النظرية إلى أن الكون كله كان كتلة من الغاز السديمي الملتهب ثم لسبب أو لآخر أخذ هذا الغاز بالتكاثف والانجماد ثم راحت ذراتـه وجـزيئاته تكوّن كتلاً كبيرة، ثم بعد ذلك حينما أخذ هذا الغاز يدور على نفسه مـتكتلاً إلى هذه الكتل الكبيرة راحت تنفصل منه كتلٌ أصغر منها إلى الخارج بفعل قوة الطرد المركزي ومن هذه الكتل المقذوفة إلى الخارج تشكلت الكـواكب، ومـن تـلك الكتل الرئيسة الكبيرة تشكلت النجوم والمجرات. وقد عمق الماركيز لا بـلاس هذه النظرية وتبناها بعد ذلك.

وهذه النظرية يمكن أن تنطبق على الآية وتكون من مـصاديقها؛ لأن جـميع موجودات الكون كانت عبارة عن كتلة غازية ملتحمة ـأي أنها رتق ـ ثم بعد ذلك انفصلت وتفككت، أو انفتقت بحسب التعبير القرآني.

وحال هذه النظرية حال سابقتها من حيث عدم جعلها هي المصداق الوحـيد للآية الكريمة؛ لأن من الممكن أن تأتي نظرية أخرى وتنقضها.

النظريات العلمية في تقدير عمر الأرض

للعلماء عدة نظريات استطاعوا من خلالها وضع تقديرٍ تقريبيٍ لعمر الأرض، ومن هذه النظريات:

الأولى: قياس ملوحة البحار

فبعد أن عرفوا الكتلة الملحية التي زادت خلال سـنة قسـموا عـليها الكـتلة الملحية الكلية للبحار ومنها عرفوا عمر الأرض الذي قدروه بملياري سنة. وهذه

النظرية في تقديرهم عمر الأرض هي بناءً على أن نسبة الأملاح لا تتغير بل إنها ثابتة.

الثانية: نظرية التفاعل الجيولوجي للصخور

فعن طريق دراسة أحوال الصخور والتطور الجيولوجي لسطح الأرض انتهوا إلى نتيجة استطاعوا من خلالها تقدير عمر الأرض.

وتبقى ـ كما قلنا ـ جميع هذه الأرقام تقريبية، وليس فيها تقدير قطعي مئة بالمئة. وليست هذه المحاضرة مورداً للدخول في متاهات العلماء، لكن ما نريد أن نقوله هو أن نشير إلى أن هذه الآية الكريمة تعد مورد انطباق على بعض النظريات التي تفسر نشأة الكون وبدءه وتشكله.

المراد من الفتق والرتق

وقوله تعالى: ﴿**كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا**﴾ يحتمل معنيين:

الأول: اتساع الكون

في هذا المقطع إشارة إلى اتساع الكون؛ لأن هذه الأجزاء المتصلة مع بعضها تم فتقها أي تجزئتها، فهذه الكتلة التي كانت تشكل الكون قد فتتت وجزّئت وأصبحت أجزاء متناثرة متطايرة تتباعد أشلاؤها في أرجاء الكون. ولعل في هذا إشارة أيضاً إلى قوله تعالى: ﴿**وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ**﴾[١]؛ لأن الكون أكبر مما نتصور، وهذه الآية توحي لنا بأن الكون في اتساع مستمر وتمدد دائم كما يذهب إليه بعض المفسرين.

---

(١) الذاريات: ٤٧.

الثاني: الفتق بالسحاب والمطر

فهو الرأي المروي عن حبر الأمة عبد الله بن عباس؛، ومؤدى هـذا الرأي أن السماء التي هي عبارة عن الكواكب أو الفراغ الذي فوق الرأس كان عبارة عـن كتلة متماسكة لا ينفذ منها شيء، فلا يخترقها شيء دخولاً أو خروجاً، ثم فتقه الله بالسحاب والمطر. وبلغة العلم أن بخار الماء لم يكن ليتجمع على سطح الأرض بل إنه يتطاير في الفضاء فلا يتجمع حولها، حالها في ذلك حال القمر لانعدام الجاذبية فيها آنذاك، فكان بدل أن تجذبه إليها يتبدّد إلى الفضاء الخارجي، ثم فـتقها الله بالمطر، فبعد أن أصبحت للأرض جاذبية راح بخار الماء يلتف حولها مكوناً هذه السحب الماطرة وبالتالي فإنها تكون قد فُتقت فنزل منها الماء. وهذا الماء القادم عن طريق الأمطار كان ضرورياً جداً لتفتيت الأرض واختزان المـاء فـيها كـي تكون هناك تربةٌ صالحةٌ للزراعة.

إذن ففتق السماء هو بالمطر، وفتق الأرض هو بالإنبات بعد أن كانت الأرض صخرةً صلبةً قاسيةً لا نبات فيها. فهي رتقٌ أصبحت الآن فتقاً لأن النبات يفتقها ويخرج منها، وبعد أن كانت السماء رتقاً فلا مطر ولا غيره أصـبحت الآن فـتقاً بالمطر الذي ينزل منها. ولذا فإننا حينما نرجع إلى تاريخ العرب نجد أنهم كـانوا يسمون المطر بعلَ الأرض لأنه هو الذي يجعلها تلد هذا النبات بعد أن يلامسها، يقول شاعرهم:

ومـزنة مشـعلة البـارقِ	**تـبكي عـلى الأرض بكـاء العـاشقِ**
تـلقح بـالقطر بـطون الثـرى	**والقـطر بـعل التـربة العـاتقِ** [١]

---

(١) ثمار القلوب ١: ٥١٦.

وهذا يعني أن الله تعالى قد فتق السماء بالمطر، وفتق الأرض بقابليتها على الإنبات، وجعل الصخرة الصمّاء تخرج النبات منها، أي أنه تعالى أودعها تلك القابلية. وهذه القابلية هي عبارة عن وضع هذه العناصر التي اكتشفها العلم فيها والبالغ عددها حتى الآن مئة عنصر واثنين، ولا زال العلم يكتشف منها أعداداً جديدة. وقد ورد في الحديث الشريف: «**ليس من قطرة تقطر إلّا ومعها ملك حتى يضعها موضعها، ولم تنزل من السماء قطرة من مطر إلّا بعدد معدود ووزن معلوم**»[١].

وهذا طبيعي لأن بعضاً من الأمطار تكون ضارةً وقد تسبب الأضرار الكبيرة، ولأنَ كلَ شيءٍ في الكون هو مسبب وخاضع لقانون معين، فإن المطر يكون منه ما هو نافع ومنه ما هو ضار ضمن هذا القانون. ومسألة أن كل شيء خاضع لقانون لااستثناء فيها؛ لأن القول بالصدفة أو العفوية قولٌ لا يعتدّ به، وليس صادراً عن حكيم أو عاقل أو ممّن يمتلك مقومات التفكير العلمي؛ لأن التفكير العلمي يدلنا على أن لكل معلول علة ولكل قانون سبباً: ﴿**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ**﴾[٢]. فكل شيء في الوجود خاضعٌ للدقة والتخطيط والتنظيم.

إذن بناءً على الرأي الثاني من أن الفتق للأرض بالنبات وللسماء بالمطر وأنه تهيئة تكوينية لهما كي يسد الناس حاجاتهم من ذلك فقد أمرنا الله تعالى بأن نستثمر الطاقات البدنية والعقلية التي أودعها فينا، والطاقات الأُخرى التي أودعها في الأرض كي نحقق الثمرة التي من أجلها فتق الله الأرض والسماء. فهو تعالى

---

(١) قرب الأسناد: ٧٣ / ٢٣٥، الكافي ٨: ٢٣٩ ـ ٤٠٩ / ٣٢٦.
(٢) الحجر: ٢١.

أمرنا بالزراعة، وهذا الأمر بها خاصة لأنها صنعة أبينا آدمعليه السلام. ولعلنا لهذا السبب نجد كثيراً من الصحابة يمارسون الزراعة وحفر الأرض واستنباط العيون منها ليستقوا منها لزرعهم وأنعامهم.

نظرية الاستزراع في الإسلام

ولو رجعنا إلى قوانين الإسلام الموضوعة لتنظيم تملك الأراضي وزراعتها واستصلاحها واستعمارها واستثمارها، لوجدنا أنها قوانين لم تسبقها قوانين غيرها؛ لا من حيث العمر الزمني، ولا من حيث محتواها ومضمونها وحداثتها؛ فمن الناحية التاريخية لم يكن هناك قانون يعطي لزارع الأرض ما يعطيه الإسلام ومن ناحية حداثوية نجد أن القوانين الإسلامية في خصوص استصلاح الأراضي هي قوانين حية سيالة تناسب جميع العصور. ولو نظرنا إلى القوانين التي سنّها فقهاء القانون في عصر الذرّة لوجدنا أن ما فيها من قوانين إيجابية في خصوص وضع حلول لقضايا الأرض والزراعة هو موجود في قوانين الإسلام وتشريعاته الاقتصادية.

وربما يظن البعض أن هذه الأنظمة الوضعية وفقهاء القانون في عصر الذرة والفضاء هم السبّاقون إلى سنّ مثل هذه التشريعات والقوانين الخاصة بتنظيم مسائل الأرض والزراعة. وهذا غير صحيح بل إنه يمثل مفارقةً تاريخية لأن الإسلام كما ذكرنا سبق إلى كل هذا. فالشريعة الإسلامية وضعت أُسساً واضحة المعالم لاستثمار الموارد الاقتصادية كافة قبل أن يأتي المتأخرون ويطرحوا نظرياتهم حول توزيع الأرض واستثمارها وما إلى ذلك.

حقيقة القوانين في الدول المتحضرّة

وأُريد هنا أن أُلفت نظر الآخرين إلى أن هذه النظريات التي استحدثت مؤخراً

لتوزيع الأرض هي ليست نظرياتٍ ذاتية بل إنها فرضت عليهم فرضاً من الخارج، ذلك أن الأوضاع التي كانت سائدةً آنذاك حول قضية الأراضي وامتلاكها من ثلة من النبلاء وأصحاب الأموال واستعباد الآخرين جعل الفلاحين يثورون ويضغطون مما أدى إلى التفكير بتغيير القوانين والنظم الزراعية، وتوزيع الأراضي؛ كي تمتص تلك الثروة من نفوس الفلاحين، وفعلا حصل ذلك. إذن فهذه القوانين إذا كانت تتسم بالإنسانية فهي لم تكن ذاتية، بل إنها وليدة ضغط خارجي دفع بفقهاء القانون إلى استحداث هذه القوانين. كما أن ضغط العمال على أصحاب رؤوس الأموال والمصانع جعلهم يفكرون في إعادة توزيع الثروة وإعادة بناء النظام الاقتصادي وهيكلة العمل.

أما الإسلام فحينما وضع هذه القوانين فإنه لم يضعها تحت ضغط من الآخرين؛ إذ لم تمارس عليه الضغط أيةُ قوة خارجية ليشرع مثل هذه التشريعات؛ لأن الإسلام أساساً وضعه الله جل وعلا لمصلحة البشر ولمنفعتهم؛ ولذا فإننا نجد أنه قد انبثق من رحمة الله جل وعلا بالإنسان وبالكون، وليس بضغط خارجي؛ لأن الله جل وعلا هو صاحب القوة المطلقة، وهو صاحب التصرف الوحيد في هذا الكون بأجمعه [1].

فالله جل وعلا أراد الخير للعباد ابتداءً دون أن يكون هناك ضغط وراء هذا التشريع، فوزع الأراضي الزراعية على عباده وفق نظام دقيقٍ يستوعب جميع حاجات الإنسان، وهو توزيع صحيح؛ لأنه على ضوئه قد حُلّت جميع المشاكل الاقتصادية التي كانت سائدةً في المجتمعات آنذاك إبّان الإسلام وقبل الإسلام وبعده.

---

(١) قال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ الأنبياء: ٢٣.

إذن فالقرآن الكريم وضع لهم هذه القوانين وأمرهم بتطبيقها وتطبيق التشريعات الواردة فيه؛ سواء كانت من وجهة نظرٍ تشريعية، أو من وجهة نظرٍ تكوينية. وعليه فإن وضع هذه القوانين لم يكن بدافع من الضغط الخارجي بل إنه بدافع من الرحمة الإلهية بالعباد، وبهذا فإننا نجد أن كل عملية من العمليات الإنتاجية أو الاستهلاكية في الإسلام إنما هي ضمن هذه الأُطر والقوانين التشريعية التي وضعها الله جل وعلا.

وما لم تكن هذه العمليات الإنتاجية أو الإستهلاكية خاضعةً للقوانين الإلهية، فإنها ستدمر المجتمع، وتخلق سوء العلاقات فيما بين أفرادها. ومن هذا مسألة الربا فإن المرابي حينما يأخذ الزيادة على القرض الذي يعطيه فإن هذا الشخص الذي اضطر إلى أخذ القرض سيشعر بأن هذا قد استغله وامتصّ دمه، وبالنتيجة ستنشأ حالة من العداء وسوء العلاقة بينه وبين المرابي؛ لأن هذا الأخير قد قام بعملية ابتزاز واستغلال وانتهاز لحاجة هذا الشخص المقترض. لكن لو أن هذا الشخص المرابي اشتغل بالمضاربة بدل الربا فإنه حينئذٍ يكون قد اشتغل في موردٍ من الموارد المشروعة التي أجازها الله سبحانه وتعالى لنا؛ لأنه حينما يعطي أمواله مضاربة يكون قد شارك الشخص المضارب؛ فمنه الاموال، ومن المضارب الطاقة والجهد والعمل والذهن والتفكير؛ وبالتالي فإنهما حينما يتقاسمان الأرباح حسب النسبة التي يتفقان عليها فإنهما ليسا بخارجين عن الضوابط الشرعية التي أجازها الله جل وعلا لنا.

ودليل هذا أن رأس المال طاقة في نظر الإسلام، أو هو عمل من وجهة نظره كما أن العمل طاقة. ثم إن الإسلام لايعترف بالمال إذا كان من مصدرٍ غير مشروع. ونقصد بالمصدر المشروع: العمل أو الموارد الأُخرى التي أقرها الشرع كالميراث

والجعالة وما شاكل، فما دام هذا المال مأخوذاً بطريقةٍ غير شرعية فهو في نظر الإسلام ليس بمال.

إذن فقوانين السماء شاملة لكل ما يتعامل به أفراد المجتمع، وهي تتسم بسمةِ أنها نابعة من الرحمة الإلهية بعباده، وهذا بخلاف الربا الذي هو أساساً قانون نابع من الحقد أو الضغط أو الاستغلال لحاجات الآخرين وهي أمور كلها مذمومة. وبهذا التقرير نعرف أن عملية توزيع الأراضي في الإسلام هي عملية نابعة من الرحمة الإلهية بالعباد؛ فالأرض من وجهة نظر الإسلام هي وسيلة من وسائل الإنتاج، بل هي وسيلة الإنتاج الأُولى؛ ولذا فإن النسبة الكبرى من ملكية الأرض تعطى إلى الدولة الإسلامية ماعدا نسبة قليلة تمنح للقطاع الخاص.

ولهذه الأهمية الكبرى للأرض أمرنا الله جل وعلا في هذه الآية أن نستثمر الطاقات التي أودعها فيها، فمن يملك قطعة أرض فإن عليه أن يزرعها فإن مرّ عليها فترة ثلاث سنوات دون أن يستغلّها في الزراعة أو يستصلحها فإن الدولة لها الحق في أن تصادرها منه وتعطيها إلى غيره ليستثمرها ويزرعها ليحولها إلى وسيلة إنتاج. وبهذا فإن الأرض تعتبر طاقة. وللقاعدة العامة التي تقول إن: الطاقة يجب ألّا تبقى معطلة، فإن الأرض يجب ألّا تبقى معطّلة بل ينبغي على مالكها أن يستثمرها لما فيه سدّ حاجة البشرية ولما فيه كفاف الإنسان. وبغير ذلك فإن حال الإنسان سيصبح بحيث إنه يسعى وراء لقمة العيش فلا يجدها.

وعلى مر التاريخ كانت الجنبة الزراعية وسيلة من وسائل الضغط التي يمارسها الإنسان ضد أعدائه، وهي بهذا تعتبر وسيلةً استراتيجية. والدليل على هذا أن الكثير من الدول الكبرى المنتجة لبعض أنواع الحبوب كالقمح والرز تقوم بإتلاف الناتج الزائد أو إحراقه حتى لا تهبط أسعاره، بل تبقى مرتفعة وفق قاعدة

العرض والطلب. وهذا في حقيقة الأمر تصرف غير إسلامي؛ لأنه يحارب الدول الفقيرة، فبدل أن تمنح هذه الثروات لهذه الدول الفقيرة يلقي بها أصحابها في البحار أو في المحارق كي ترتفع أسعارها. وبالنتيجة فإن هذه الدول لا تتمكن من شراء هذه الثروات ولا تحصل عليها إلّا بعد أن تركع للظرف السياسي.

وربما يظن البعض أن الطرف المقصر الوحيد في هذه المعادلة هو الدول الكبرى، وهذه نظرة مخطوءة وغير صحيحة؛ لأن الدول الفقيرة هي أيضا طرف في هذه المعادلة وفي هذا التقصير، فهذه الحال التي وصلت إليها بحيث أنها تركع سياسياً للدول الكبرى إنما جاء من تعطيل الطاقات وعدم استثمارها وعدم الاستفادة مما أودع الله في الأرض من خيرات. ولهذا فإن التشريع الإسلامي يحثّ بكل ما أُوتي على استثمار الأرض وزراعتها لدرجة أنه يسلبها ممن لا يستثمرها ويعطيها إلى من يستثمرها.

وللأسف فإن الدول الإسلامية الآن أصبحت دول تابعة من هذه الناحية للدول الكبرى، فهي تأخذ منها قوتها بعد أن ركنت إلى نعمة النفط. ولو لا هذا، ولو أن هذه الدول استثمرت كل الطاقات والخيرات التي أودعها الله تعالى في الأرض لأصبحنا سادة الدنيا، ذلك لأن الله جل وعلا حينما أودع هذه الطاقات في الأرض لم يودعها عبثاً أو لا لأجل هدف، وإنما أودعها لكي تكون هناك أيدٍ عاملة تستثمرها لكي تعود بالنفع على أبناء هذا المجتمع. فالأرض فيها من الخيرات بحيث إنها تعطي مستثمرها من الأرباح ما لا تعطيه إياها أعظم المصارف فحبة قمح واحدة تصبح سنبلة فيها مئات الحبات، وحبة شعير كذلك وغصن من شجر من أشجار الفاكهة يعطي ما شاء الله. فمن من البشر أو من المصارف من تعطيه دولاراً فيعطيك ألفا؟

وينبغي أن نلتفت ولا ننسى أن هذا الجزء الواحد سواء كان حبة أو عملة إنما هو من الله جلّ وعلا أعطاناه وقدّرنا عليه. وتحضرني هنا محاورة جرت بين أعرابي وبين رسول الله ﷺ وهي رواية تعجب قارئها، تقول هذه الرواية: دخل أعرابي علىٰ نبيّنا الأكرم ﷺ، فسأله قائلاً: روحي فداك، من يحاسب الخلق يوم القيامة؟ فقال ﷺ: «**الله تعالى**». فتبسّم الأعرابي، فقال له النبي الأكرم ﷺ: «**أراك تبسّمت**». فقال: لقد فُزنا إذن وربِّ الكعبة. قال: «**كيف؟**». قال: إنه كريم وقد وعدنا الرحمة، والكريم إذا قدر عفا، وإذا أعطى أشبع[1].

فما دام الكريم هو الذي يتولى الحساب فإنه حتماً بمقتضى رحمته سيعطي ويمنح، ولا يكون عطاؤه إلّا رحمة.

أما إذا كان الذي يتولى الحساب كياناً آخر غير الله جل وعلا فحينها ينبغي على الإنسان أن يخاف من لحظة الحساب تلك؛ لأن هذا الإنسان ما لم يكن نبياً أو إماماً معصوماً فإنه سوف يحاسب بظلم، وهو بخلاف اللحظات التي يكون فيها الحساب مع الله جلّ وعلا؛ لأن كل شيء هو فيض من فيوضات رحمته وعطائه، بل كل خيرٍ أنزله إلى هذه الأرض هو فيض من فيوضات رحمته حتى هذه الطاقات التي أودعها في الأرض والنبات، والتي أمرنا بأن نستغلّها أقصى استغلال ونستثمرها أبعد استثمار؛ كي نعود منها بفائدة على أنفسنا وعلى المجتمع.

المبحث الرابع: النظريات في تفسير ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾

والذي يؤيد قول ابن عباس أو رأي أبن عباس هذا قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**﴾[2]، إذ أن هنا مناسبة حكمٍ وموضوع؛ ففتق السماء

---

(١) كنز العمّال ١٤: ٦٢٨ / ٣٩٧٤٩. (٢) الأنبياء: ٣٠.

بالمطر وفتق الأرض بالنبات وفرق عليهما هذا المعنى بالجعل التكويني. وهناك أكثر من نظرية لتفسير هذه الآية منها:

الأولى: أنه النطفة

فالبعض يذهبون إلى أن المقصود بالماء النطفة، ومن باب المقدمة نقول: إن كل علم من العلوم له مصطلحاته واستعمالاته ومفرداته الخاصة به، وما لم يفهم الإنسان تلك المصطلحات أو يطلع عليها فإنه سوف لن يفهم ذلك العلم، كالفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلسفة وما إلى ذلك. والقرآن الكريم شأنه في هذا المجال شأن تلك العلوم؛ إذ أن له مصطلحاتٍ واستعمالاتٍ خاصةً به، من لم يعرفها لا يتمكن من فهم الأُسلوب القرآني أو التعبير القرآني، وقد يحمل اللفظ على ظاهره. ومن هذه الاستعمالات استعمال كلمة الماء، فالماء يقصد بها هنا السائل المنوي أو البروتوبلازم الذي يتكون منه الإنسان والحيوان بل وحتى النبات. ودليل هذا قوله تعالى: : **﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾**[١]، وقوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾**[٢].

إذن فالمقصود غالباً من لفظ الماء في مثل هذه الموارد هو هذه المادة المنوية التي يتكون منها الإنسان والحيوان: **﴿فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾**[٣]، وهذا كما ذكرنا من استعمالات القرآن الكريم واصطلاحاته. إذن قوله تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾** يريد أن يلفت أنظارنا إلى نقطة إبداعٍ هائلة، حينما يمر بها الأغلب الأعم من الناس يمرون وعيونهم معصوبة. ونقطة الإبداع هذه تتمحور حول ماهية النطفة التي هي

---

(١) المرسلات: ٢٠.   (٢) المؤمنون: ١٢ ـ ١٣.

(٣) الطارق: ٥ ـ ٧.

عبارة عن جزء بروتوبلازمي، والبروتوبلازم هو المادة الأساسية التي يتكون منها الإنسان والنبات والحيوان كما ذكرنا.

وعليه ما الذي يريد القرآن الكريم أن يرينا إياه؟ إنه يريد أن يقول: انظروا إلى هذه الأشياء المتساوية كيف خلق الله منها أشياء يختلف بعضها عن بعض فخلق منها النبات وغيره من الكائنات الحية، والنبات يختلف عن غيره من الكائنات الحية والكائنات الحية، بدورها تختلف كل فصيلة منها عن فصيلةٍ أخرى. فالذي استطاع أن يخرج كل هذه الأشياء المختلفة المتنوعة وكل هذه الألوان من الإبداع من مادة واحدة لهو غاية الإبداع وقمته، ففي الأرض الآلاف من الأنواع من النباتات والحيوانات وفصائل الإنسان وما إلى ذلك من الكائنات الحية المرئية وغير المرئية، وكم على ظهر الأرض من خليقةٍ منذ بدئها إلى الآن وليس من شيء يشبه شيئا آخر تماما!

ومن هنا ندرك إبداع الخالق جلّ وعلا فالنطفة ماء واحد متماثل، شكلها واحد وقوامها واحد، ولكن ما يتمخض عنها يختلف بهيئته وشكله وتركيبه وتصميمه وتخطيطه. وهذا الاختلاف هو أمر غريب ويثير الدهشة والعجب، فجميع الأعضاء والجوارح تختلف عن بعضها البعض بين أفراد الفصيلة الواحدة، وفوق هذا فإن في هذه النطفة ما يسمى بالجينات وهي مركبات صغيرة جداً لو وضع الملايين منها على رأس دبوسٍ لوسعها، مع ما لهذه المركبات من دورٍ خطيرٍ في بناء الإنسان؛ لأنها تقوم بنقل الخصائص من الأجداد إلى الأبناء.. من جيل إلى جيل فيضع فيه صفاتٍ معينة وملامح معينة لا يمكن أن تنتقل بغيرها. ومن نتائج هذا أن لكل إنسان جبهة معينة ووجهاً معينا وأنفاً وعيناً وما إلى ذلك، فلا يشبه بها الآخر.

ثم إننا من قوله تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ**﴾[1] نعرف أن إبداعه تعالى لا يقف عند حد، وندرك أن الله تعالى من شيء واحدٍ يخلق ملايين الأشياء، بل أشياء لا تتناهى بأشكالٍ لا تتناهى أيضاً دون أن يشبه بعضها بعضاً. وفي هذا أدل دليل على إبداع الباري جلّ وعلا وحكمته وقدرته. ولو أن إنساناً وقف على حديقة بسيطة أو جنينة صغيرة، ونظر إلىٰ ألوان ورودها الجميلة وأزهارها المتفتّحة عن أكمامها، وكل ذلك يخرج من هذه التربة، ثم لو أنه شغّل فكره وسأل نفسه: هل لهذا التراب القابلية على أن يوجد كلّ هذه الأشكال والألوان، وهذه التخطيطات الهندسيّة والتصاميم الرائعة؟ ولماذا لا يحدث شيء من هذا القبيل أمام أعيننا؟ فهذه الأشكال والأنماط تبهر الإنسان بما فيها من معادلات وتصميمات، ثم إن من ينظر إلى هذا التناظر الهندسي والتقابل والتخطيط الذي يظهر على الأزهار والورود وما ينتجه منها من ألوان وعطور مختلفة يجد أنه كلّه من تربةٍ واحدة، ويسقى بماء واحد: ﴿**وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾[2].

فكل زهرةٍ تحمل عطراً متميزاً مختلفاً عن غيره لهو أدل دليل على قدرة الخالق وإبداعه جل وعلا. فهذا لون من ألوان التقسيم الرائع المتمثل بالسيقان والأوراق والأزهار والجذوع وما إلى ذلك، وكله ينبئ عن إبداع الباري جلّ وعلا وعظمته وحكمته. فهذا الوجه الكريم وتلك اليد المعطاءة لهو أولى بأن يتوجه إليه بالعبودية والطاعة:

---

(١) الإنفطار: ٧ ـ ٨.　(٢) الرعد: ٤.

ربٌّ في وجهك الكريمِ جمالٌ | كلُّ حُسنٍ مِن فيضِهِ مَوهُوبُ
نَمَّ عنهُ سِحرُ الشُّروقِ وروضٌ | عبقريُّ الشَّذىٰ ونَبعٌ صَبيبُ
مَن أنا كي أقولَ أنت وإنِّي | ومَتىٰ صَحَّ بيننا تنسيبُ [1]

فالواقع أن عطاء الله جل وعلا يجده المتلمّس في كل ذرة من ذرات الكون وفي كل مسحة من مسحات الوجود.. عطاء يجليه الإبداع الإلهي وتبرزه جمال تلك الصنعة المحكمة. وهكذا فكل كائن حي مفتقر في وجوده إلى هذه النطفة لأنها هي الأصل بالنسبة له وهذا ما يفسر لنا اهتمام الإسلام بها وسن الكثير من التشريعات بخصوصها بحيث إنه طلب من الإنسان أن يضعها في موضعها الذي أمر الله به.. في وعاء نظيف يستطيع أن يخلق المجتمع الصالح وأن يبني الهيكل العام للمجتمع بشكل سليم.

إن العلماء يقدرون أن في كل قطرةٍ من هذا الماء خمساً وسبعين مليوناً من الحويمنات وهذا يعني ازدياد فرصة الإخصاب. إن الإنسان حينما يخلقه الله عقيماً نجده يسعى إلى أن يبذل كل ما يملك من أجل أن يمنحه العلم ولداً عبر المداخلة الجراحية أو العقاقير الكيمياوية أو ما إلى ذلك؛ لأنه يرى أن الدنيا بغير أبناءٍ هي عالمٌ باهت الألوان لا طعم فيه ولا رونق، في حين أن الله جل وعلا يعطي هذا العطاء الضخم للإنسان. وعليه فإنه تعالى حينما أعطى الإنسان هذا العطاء الضخم أراد منه أن يضعه في الأرحام الطاهرة لا الأرحام الداعرة لأن الأرحام الداعرة؛ سوف تخلق مجتمعاً بائساً محطماً تحكمه الجريمة وتسوده الرذيلة. ولنا أن نتصوّر ما الذي يمكن أن يكون النتاج الذي سوف تعطيه هذه الأرحام

---

(١) ديوان المحاضر ٢: ١٠١.

المنغمسة بالرذيلة، إن هو إلّا كارثة تبسط ظلامها على الإنسانية.

كتب جماعة من بني العبّاس من أصحاب السياسة إلى المأمون يسفّهون رأيه في توليته الإمام الرضا عليه السلام العهد بعده، وإخراجه عنهم إلى بني علي عليه السلام، ويبالغون في تخطئته وسوء رأيه، فكتب إليهم جواباً غليظاً سبّهم فيه ونال من أعراضهم، وقال فيهم من القبائح ما شاء، ثم كتب لهم من جملة ما كتب: وبقي على خاطري أن أُخبركم بأنكم نطف السكارى في أرحام القيان [1]. فماذا يمكن أن نتوقع من نطفةٍ مخمورةٍ توضع في رحمٍ داعر؟ وماذا يمكن أن نخمّن ما الذي يخرج منها؟ قطعاً في الأغلب الأعم أن الذي يتكون من هذه النطفة المخمورة جيل ربما يعشق الجريمة. وفي مثل هذه الحال فإن المجتمع نفسه هو الذي قد جنى على هذا الجيل وحكم عليه بهذا الوضع، فلو أنه ألقاها نطفةً طاهرةً نظيفة في رحمٍ طاهرٍ نظيف لكان الجيل بالأعم الأغلب جيلاً ملتزماً مؤمناً نظيفاً وسليماً. إن من يتولّد من الزنا يقسو عليه المجتمع قسوة فظيعة مع أنه هو الذي جعله كذلك.. هو الذي جنى عليه، فلولا جريمة الآباء لما تحمّل نتائجها الأبناء.

فهذا الإنسان الذي كرمه الله تعالى لا يمكن أن يخلقه ويرميه عبثاً على البشرية، بل إن المجتمع هو الذي يلجئه إلى أن يصبح وجوده كياناً خطراً على البشرية بكاملها، وذلك بالاستهانة بقيمة هذا الماء المقدس الذي خلق الله جلّ وعلا منه الإنسان وجميع الكائنات ليحفظ به الأنواع والأجناس بامتداده. فكل ما في الأمر إن المجتمع جاء إلى هذا الماء ووضعه في لحظة من لحظات العبث البهيمي في غير موضعه، وأراقه بلون من ألوان الشهوة الحيوانية، فنزل بالإنسانية من مرتبتها التي وضعه الله فيها إلى مرتبة البهائم؛ مما فسح المجال للكوارث

(١) كشف الغمّة ٣: ٧٧، وضربه مثلاً في مجمع الأمثال ٢: ٣٥٨.

الأخلاقية وغير الأخلاقية أن تحلّ بها. بل إنه حتى الكوارث الاقتصادية وغيرها يمكن أن تحل بالمجتمع فيما إذا كان يعيش هذا النمط من الحياة البهيمية؛ لأن الله جل وعلا سوف يسخط عليه بكفرانه النعمة. فما من نعمة أعظم من هذه النعمة، ومع ذلك فإن الإنسان يسعى إلى أن يتعامل معها بالطرق المحرمة غير المشروعة؛ ولذا فإن الرواية الشريفة تقول: حين افتتح الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حنيناً قام في المسلمين خطيباً، فقال: **«لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماءه زرع غيره»**(١).

ومن هنا نجد حرص الإسلام في عملية رعاية هذا الماء وتحريض صاحبه بوضعه في المكان المحدد له بالحِلّ، بل إن الإسلام يعتبر حتى ابن الموطوءة بالشبهة ابناً شرعياً للواطئ أو لصاحب الفراش؛ لأنه مالم يعتبره ابنا شرعياً له، وما لم يلحقه به، فإنه يكون قد جعل المجتمع يجني عليه جنايةً كبيرة بتعرضه لاحتقاره وازدرائه إياه برميه بأنه ابن زنا. وبهذا فإنه سيكون كارثة على هذا المجتمع لأنه سيتحول إلى بؤرة فساد ربما يستغل مشاعره المتأججة ضد هذا المجتمع بالانتقام منه.

إن هذا الشخص إذا فتح عينيه على الدنيا ووجد نفسه من غير أب فإنه سوف يحقد على المجتمع لأنه يعتقد بأنه قد جنى عليه جنايةً لا يمكن أن تغتفر حينما أوجده بهذا الشكل غير الطبيعي، فيعبر عن المجتمع بأنه مجتمع نتن، ويعمد إلى الانتقام منه ويعمل بشتى الوسائل على تحقيق ذلك الانتقام. فالذي ينشأ بهذا الشكل ويفكر هذا التفكير حتماً سوف يكون خطراً على المجتمع، وهذا الخطر

---

(١) مسند أحمد ٤: ١٠٨، سنن أبي داود ١: ٤٧٨، السنن الكبرى (البيهقي) ٧: ٤٤٩، ٩: ١٢٤، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٣: ٤٣٦، ٨: ٥٢٣.

أصله ومنشؤه المجتمع نفسه.

وقد أشارت الحوراء زينبعليها السلام إلى هذا المعنى عندما قالت: «قتيل أولاد الأدعياء»[١] بمعنى أن أولاد الأدعياء مملوءون حقداً وغيظاً على أولاد الأنبياء.. أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأرّقهم حقدهم هذا حتى عمدوا إلى قتلهم. وهذا الموضوع موضوع خصب ولا أُريد أن أتوسّع فيه.

الثانية: أنه الماء المعروف

ويذهب بعضٌ آخر من المفسرين إلى أن الماء المقصود في قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**﴾ هو هذا الماء الطبيعي الذي نستعمله والذي تتوقف عليه حياة الموجوداتِ كلها نباتها وحيوآنها، فحياة كل ذي حياة لا تستغني عن الماء مطلقاً؛ لأن الماء يدخل في تركيب كل الكائنات الحية، وبهذا اللحاظ فإن الله جل وعلا جعله مصدراً للحياة. دخل رجل على الإمام الصادقعليه السلام فقال له: إن لكلّ سائل طعماً، فما طعم الماء؟ قالعليه السلام: «**طعمه طعم الحياة**»[٢].

فالإنسان حينما يتذوق السوائل يجد بعضها مراً وبعضها حلواً أو مالحاً أو حامضاً وما شاكل؛ اعتماداً على نوع المركبات التي تدخل فيها، وهي التي تسبب اختلاف الطعوم، أما الماء فليس له من طعمٍ لطعمِ الحلاوةِ أو المرارة أو غير ذلك[٣]. وبهذا فإن الماء لا طعم له، لكن لمّا كان الماءُ مصدراً للحياة وأصلاً لها، ولما كان يدخل في تركيب جميع الكائنات الحية قاطبةً عبّر عنه الإمامعليه السلام بهذا التعبير.

---

(١) مثير الأحزان: ٥٩، بحار الأنوار ٤٥: ١٣٢، وفي ص ٥٩ منه: «قتيل أولاد البغايا».
(٢) الكافي ٦: ٣٨١ / ٧.
(٣) والمحاضر طبعاً يقصد به الماء الطبيعي الذي يُشرب، وليس ماء البحار.

وهذا الجواب يبرز لنا جنبةً علميةً مركزة فيه، وهذا ليس بغريبٍ من الإمام عليه السلام لأن هذه الأجوبة حينما نبحث عن أصلها ومعدنها فإننا نجدهما أصل النبوّة ومعدنها. سُئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرةً عن ريح الولد، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«ريح الولد من ريح الجنة»** [١] لأن أي عطرٍ مهما كان طيبه فإن الإنسان بعد فترةٍ سيملّه بخلاف الولد، فإن الأب أو الأم لا يملّان طيبه؛ ولهذا كان ريحه من ريح الجنّة.

وهذا الكلام علمي، فجواب الإمام الصادق عليه السلام جواب علمي؛ لأنه من هذا النسل ومن هذا المعدن. ولِما للماء من أثر في حفظ الحياة وامتداد النوع جعل الله على سقيه الأجر الكبير، وقد ورد في الحديث: **«من سقىٰ الماء في موضع يوجد فيه الماء كان كمن أعتق رقبة، ومن سقىٰ الماء في موضع لا يوجد فيه الماء كان كمن أحيا نفساً، ومن أحيا نفساً فكأنما أحيا الناس جميعاً»** [٢].

خصوصاً إذا كان هذا الأمر في فلاة. وكان سقي الماء والإيثار به على النفس من خصائص أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما اكتسبوه من خلق كريمٍ منه صلى الله عليه وآله وسلم، ومن ذلك ما يروى من أن أبا جهم بن حذيفة قال: سقط ابن عمّي في واقعة اليرموك فأدركته عند النزع، وأردت أن أسقيه ماء، فلمّا دنوت منه أشار إلى جريح آخر كان إلى جنبه وقال لي: هذا أحوج مني. فذهبت إليه فقال لي: إن هذا الجريح الثالث أحوج مني. فذهبت إلىٰ الثالث فوجدته قد مات، فرجعت إلىٰ الذي قبله فوجدته قد مات أيضاً، فرجعت إلىٰ ابن عمي فوجدته مات أيضاً [٣].

---

(١) روضة الواعظين: ٣٦٩، المعجم الأوسط ٦: ٨٢.

(٢) الكافي ٤: ٥٧ / ٣، الفقيه ٢: ٦٤ / ١٧٢٤، وسائل الشيعة ٩: ٤٧٣ / ١٢٥٢٤ عن الصادق عليه السلام، سنن ابن ماجة ٢: ٨٢٧ / ٢٤٧٤، عن الصادق الأمين صلى الله عليه وآله وسلم.

(٣) نصب الراية ٢: ٣٧٢، تاريخ مدينة دمشق ٣٨: ١٨٠.

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾[١].

وهذا لونٌ من ألوان الإيثار وهو موجود بعينه عند أصحاب الحسين عليه السلام ، وأبرز مصداقٍ على هذا موقف العباس بن أمير المؤمنين عليه السلام عندما نزل إلى الفرات واغترف غرفة من الماء وأدناها إلى فمه حيث قال: لا والله، لا شربت بارد الماء وأبو عبد الله عطشان[٢]، ثم نفض الماء من يده. وكذلك كان هذا حال الكثير من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته، فقد واسوا الحسين عليه السلام وعياله وأطفاله بالعطش وعدم شرب الماء. لقد واجه الحسين عليه السلام العطش وقاساه في كربلاء مع أنه ابن ساقي الماء، فقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يسقي الماء بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو ابن ساقي الماء على الحوض غداً بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً، كما أنه ابن عبد المطلب الذي كان يسقي الحجيج، وهو ابن قصي الذي كان يسقي العرب عندما كانوا يأتون إلى مكة، وهو ابن العباس الذي كانت بيده سقاية الحاج.

إن سقاية الحاج كانت محصورةً ببني هاشم، وهي أمر شُرّفوا به وكانت حكراً عليهم، ولكنه مع ذلك سقط على الأرض صريعاً عطشاناً ظمآناً دون أن يشرب الماء، وقد رمق السماء بطرفه حينها كما تقول الرواية، فعندما جاءه السهم المثلث ووقع في قلبه وقف وهو يقول: **«اللهم بعينك ما نزل بنا»**، ثم أراد أن يستخرجه من أمامه فلم يتمكن، فانحنىٰ علىٰ قربوس السرج فاستخرجه من قفاه، يقول الإمام عليه السلام: **«والله ما خرج السهم حتىٰ أخرج معه من قلب جدي الإمام الحسين عليه السلام»**.

فأخذ من دماء الشهادة فخضّب به وجهه وقال: **«هكذا ألقىٰ الله وأنا مخضوب**

---

(١) الحشر: ٩.

(٢) شرح الأخبار ٣: ١٩٢، بحار الأنوار ٤٥: ٤٠، ينابيع المودة ٣: ٦٨.

بدمي، مغصوب حقي»[١]. ثم رمق السماء بطرفه وقد حال العطش بينه وبين السماء كالدخان[٢].

لقد فعل به بنو أُمية كل هذا وهو ريحانة رسول الله ﷺ:

كربلا لا زلت كرباً وبلا ... ما لقي عندك آل المصطفى
كم على تربك لما صُرّعوا ... من دم سال ومن دمع جرى
وضيوف لفلاة قفرة ... نزلوا فيها على غير قرى
لم يذوقوا الماء حتى اجتمعوا ... بحدا السيف على ورد الردى[٣]

* * *

اللهاشمي الماءُ يحلو ودونَهُ ... ثَوتْ آلُه حَرَّىٰ القُلوب علىٰ الثَّرىٰ
وتهدأُ عينُ الطَّالبيِّ وحولَها ... جفونُ بني مَروان ريَّا من الكَرىٰ

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٥٣. (٢) بحار الأنوار ٤٤: ٢٤٥.
(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٦٧، بحار الأنوار ٤٥: ٢٤٩.

﴿١٨٣﴾

مبدأ توظيف الأموال في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

تتناول هذه الآية الكريمة مجموعةً من الأمور والمباحث سوف أعرض لها على التوالي إن شاء الله تعالى.

المبحث الأول: تكليف الكافر بالفروع

تقول الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهنا قد يسأل سائل عن الوجه في تخصيص النداء بالمؤمن في هذه الآية في إطار تعرضها لهذه الجملة من الأحكام التي تضمنتها، وهذا المقطع يتناول تداول الأموال بالطرق المشروعة. وإذا كان هذا المقطع الشريف من الآية يتناول عملية تداول الأموال في المجتمع،

---

(١) النساء: ٢٩.

فلماذا إذن خصصت هذا النداء بالمؤمنين مع أن في المجتمع جماعات من غيرهم كأهل الذمة وما شاكل؟ وعليه فإن هذا التساؤل يقوم على أساس أن النداء في مثل هذه الحالات ينبغي أن يكون موجهاً إلى الناس جميعاً، إذ أنه في مثل هذه الحالة لا بدّ أن يكون النداء بقول: يا أيها الناس، وليس بقول: يا أيها الذين آمنوا. إن للمذاهب الإسلامية في هذا المقطع من هذه الآية رأيين:

الرأي الأوّل: أن الكافر غير مكلف بالفروع وإن كان مكلفاً بالأُصول، وهذه الآية تتناول جانباً فقهيّاً يختص بالموارد المالية في الإسلام والجوانب الفقهية عادة هي من مسائل الفروع التي يذهبون إلى أن الكافر غير مكلف بها. وبناء على هذا فإنه ما دام غير مكلف لا يتوجّه الخطاب إليه؛ لأن توجيه الخطاب إليه مع عدم تكليفه يكون لغواً أو عبثاً، تنزّه الله وتقدّس عن ذلك.

الرأي الثاني: أن الكافر مكلف بالفروع حاله حال المؤمن فكما أنه مكلفٌ بالأُصول فهو مكلّفٌ بالفروع أي أنهما (الفروع والأُصول) على حدٍّ سواء من الناحية التكليفية بالنسبة للكافر. ومعنى هذا أن الله تبارك وتعالى قد كلّف الكافر بالفروع ابتداءً، وليس تأسيساً على تكليفه بالأُصول، فكما أن الكافر سوف يُسأل غداً يوم القيامة عن الأصول فإنه سوف يُسأل عن الفروع. وإذا كان الأمر كذلك فما وجه تخصيص الخطاب هنا بالمؤمن مع أن الكافر مشمولٌ به؟ فإذا كان الكافر مشمولاً بالخطاب فإن الذي ينبغي في مثل هذه الحال أن يتوجّه إليه، لا أن يسكت عنه ولا يُذكر.

ويجيب هؤلاء على هذا الإشكال بالقول: إن المؤمن أكثر إقبالاً على الله من غيره وأكثرُ طاعةً له وأكثر انتفاعاً بما يأمر به جلّ وعلا؛ ولذا فإن

الخطاب خُصّ به [١].

ولتوضيح هذا المعنى يُضرب مثال بالمطر الذي يبعثه الله رحمةً للناس ـ لا يعنينا هنا المطر الذي ينزل نقمةً عليهم ـ فالمطر إذا كان رحمة فيجب أن ينفع الناس لكنه حينما ينزل فإنما ينزل على أرضٍ سبخة مالحة وعلى أرض خصبة صالحة، فهو في الأرض الخصبة والصالحة للزراعة سوف يفيدها وينفعها وبالتالي تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج، أما إذا نزل على الأرض السبخة فإنه لا ينفعها ولا تنتفع به؛ لأنها ليس فيها القابلية والاستعداد على الإنبات، ومع هذا فإنه لا يمنع من نزول المطر عليها. وكذلك أحكام الله تعالى فإنها تنزل لعامة الناس فتشمل المؤمن والكافر، لكن المؤمن كالأرض الخصبة يستفيد من الأحكام ويستنفع بها، والكافر كالأرض المالحة لا يستفيد منها ولا ينتفع بها بحيث إنه لا يملك أدنى استجابة لها.

إذن فتخصيص الله المؤمنين بالخطاب لأنهم أكثر إقبالاً من غيرهم على الله وعلى أوامره وأكثر انتفاعاً بها، فالكافر لا ينتفع بأوامر السماء البتة.

المبحث الثاني: تداول الأموال في الإسلام

وهنا نرجع إلى موضوع الآية، وهو موضوع هامّ جداً، فهذه الآية الكريمة تريد من المسلمين أن يكون تبادل الأموال بينهم قائماً على الأُسس التي رسمتها السماء، وخاضعاً للقوانين والتشريعات التي سنّتها. وبمعنى آخر أن الله جل وعلا خلق الإنسان ولم يترك له حرية التصرف كما يحبّ؛ لأنه إن كان الأمر كذلك فإن

---

(١) وهذا من باب توجيه الخطابات إلى الفرد الأكمل من المجموع وإن كان المجموع مشمولاً بالخطاب.

الإنسان سوف يؤدي بتصرفاته وقوانينه إلى إحلال الفساد والإفساد في الأرض.
إن قضية الأموال قضية هامة ومربكة جداً؛ لأنها قضية يقوم عليها المجتمع كله، وليس المراد بتبادل الأموال؛ التبادل المادي فقط؛ لأنها مسألة يجب أن يؤخذ بها الجانب الأخلاقي والاجتماعي وذلك على النحو التالي:

أولاً: الجانب الأخلاقي

إن الأموال إذا لم يتم تداولها وفق نمط صحيح أو سليم فإنها سوف تخلق ثغرات في المجتمع، ويتكشف هذا لنا من خلال تكدس الثروة وانحصارها في جانب وانحسارها من جانب آخر. وهذا (تكدس الثروة في طرف معين وعدم توزيعها بشكل عادل) يعني أن هذه المسألة سوف تتمخض عن أعراضٍ مرضيةٍ ضخمة ووخيمة، وكذلك تتمخض عن دعوةٍ إلى إسقاط جانب الكرامة وبيعها في عمليات التداول في السوق، ويترتب على ذلك فناء الشخصية الإسلامية ومحوها واندثارها. إننا نقول هذا لأن الجائع سوف يضطر ـ والمضطر يركب الصعب ـ تحت ضغط الجوع إلى أن يفعل أو يتوجّه إلى فعل الخطر. معلوم أن الجوع لا يكون في المجتمع إلاّ إذا كان هناك سوء توزيع للثروة وتكدسها في جانب وانحسارها عن جانب آخر، بمعنى أن هذه الثروة لم يتم تبادلها بأُسلوبٍ شرعي صحيح، والنتيجة أنها سوف تنتهي إلى عواقب وخيمة.

مفهوم المال

إن المال في التشريع الاقتصادي لا يقصد به النقد فقط؛ لأن النقد وسيلة و وسيط في المعاملة بالأموال، والمال هو كل ما يتموّل به الإنسان، بمعنى أنه ما يصحّ أن يكون متموّلاً، فالسلع والحاجات هي أموال. ولتوضيح هذا المطلب لابد

من ذكر أن كلّ سلعة من السلع لها جهتان من المنفعة:

الجهة الأولى: المنفعة الاستعمالية

وهي المنفعة الغالبة التي صنعت من أجلها السلعة، فالكرسي والبيت والقلم وما شاكل إنما صنعت لأجل أن يقضي به الإنسان حاجاته وأن يستخدمها لأغراضه؛ فالملابس لتقيه البرد والبيت ليسكنه ويأوي إليه والكرسي ليجلس عليه وهكذا. بمعنى أن هذه السلع تسدّ عند الإنسان حاجةً شخصيةً أو اجتماعية. فالحاجة الشخصية هي ما يختص بها الفرد، والحاجة الاجتماعية هي ما تفرضه عليه تقاليد المجتمع؛ كأن تفرض عليه تقاليده أن يلبس عباءة أو بنطالاً أو ماشاكل.

إذن هناك منفعة بايلوجية ومنفعة اجتماعية في كلّ سلعة، وهاتان المنفعتان تندرجان تحت عنوان المنفعة الاستعمالية للسلعة.

الجهة الثانية: المنفعة التبادلية

ونعني بالمنفعة التبادلية: قيمة السلعة عند التبادل، ومثال ذلك مقايضة كيسٍ من القمح بكيسٍ من السكر متساويي الوزن، فهل إن قيمتيهما متساوية أم أن أحدهما أقل من الآخر؟ هذا التساوي أو الفرق بين القيمتين هو ما يسمى بالقيمة التبادلية.

ثم إنه يترتب على المنفعة التبادلية أو القيمة التبادلية للحاجة آثار غيرها، ومن تلك الآثار ما يترتب عليها من حسن التوزيع وسوئه؛ فهذان أمران تترتب عليهما آثار كثيرة ترتبط بهذه المنفعة التبادلية؛ ولذا فإن الله جل وعلا هو الذي تولى تقسيم الثروة وتوزيعها، بمعنى أنه كيف يشتري الإنسان وكيف يبيع، وهل يحق له أن يشتري الشيء الفلاني أو لا يجوز له أن يشتري، وهل يجوز له التعامل عن طريق الربا أو لا يجوز له، وكذلك الاحتكار وما إلى ذلك.

إن هناك الكثير من القوانين التي وضعها الشرع المقدس في عملية توزيع الثروة؛ فمنع من الربا، ومنع من النجش، ومنع من الاحتكار، ومنع من السرقة، كما أنه في المقابل أجاز البيع وأجاز المعاملات الأُخرى التي أمر بها كالمضاربة وما إلى ذلك. ولو أمعنّا النظر في الأساليب التي منع الإسلام منها لوجدنا أنه منع نابعٌ عن حكمة؛ لأن هذه الأساليب تؤدّي إلى تكديس الثروة في جانب وانحسارها عن جانب آخر، مع أنه لم يُبذل إزاءها مجهود أو تعب. وهذا ما يؤدي بدوره إلى أن يترك نمطاً سلبيّاً داخل المجتمع ويخلق لوناً من ألوان سوء العلاقة بين الآخذ والمعطي، وبالنتيجة فإنه يؤدي إلى هدم الأُسس الاجتماعية والنفسية التي من أجلها نظّم الباري جل وعلا توزيع الأموال. إذن فهو الجانب الثاني في مسألة التبادل هو الجانب الاجتماعي.

وعليه فالخطاب القرآني في هذه الآية الكريمة يطالب المؤمنين باعتبارهم متّصفين بهذه الصفة ـ وهي الإيمان ـ بأن يلتزموا بأوامر الله جلّ وعلا ويقول لهم: إنكم قومٌ ارتضيتم الإيمان، والمؤمن لابد أن يؤمن بالوصفة التي أنزلها الله جلّ وعلا لتنظيم المجتمع ككل، وليس أن يصلّوا ويصوموا، وحينما يأتون إلى هذه الجنبة الاقتصادية فإنهم يطرحون قوانين الله وراء ظهورهم، ويعملون بما تقتضيه مصلحتهم هم دون أن ينظروا إلى مصلحة الآخرين.

إن الله جل وعلا قد وضع هذه المنظومة من القواعد والتشريعات والتنظيمات كي يحفظ المجتمع من أن تتهدّم أواصره التي تربط بين أفراده، وهذه المجموعة من النظم لا يتم الهدف من ورائها ولا تتحقق الغاية منها إلّا أن يكون هناك إيمان يؤسسه الفرد المسلم بها، بمعنى أن تكون هناك مؤسسة أخلاقية يحكمها الضمير والشرع والدين داخل نفس كل فرد؛ لأنه كفردٍ مسلم يجب عليه أن يؤمن أن الله

جل وعلا إنما حرم هذا لعلة هو أعلم بها، ولحكمة هو جل وعلا ارتآها، ولا يمكن للإنسان أن يسبر غورها أو يصل إليها، وأنه تعالى كذلك إنما أباح هذا الأمر فلعلة أو لحكمة نحن لا نعلم بها وهو تعالى أعلم بها.

فكل من التحريم والإباحة الهدف منه تنظيم المجتمع وتقنين حياته كي يصبح مجتمعاً محكماً قوياً لا تسيطر عليه سوء العلاقات، ولا تتحكم به الأهواء والغرائز والأطماع.

المبحث الثالث: في أن الأموال هي أموال المجتمع

ولو رجعنا إلى التعبير القرآني لوجدنا أنه يعبر بكلمة ﴿**أَمْوَالَكُمْ**﴾، وهذا يعني بأن الأموال أموال الجماعة، أي أن المال ليس ملكاً لأحدٍ ملكية حقيقية فالمال مال الله جل وعلا خوله الجماعة عامة كي يديروا به شؤونهم. وهذا التعبير البليغ الدقيق إنما يوحي لأصحاب الأموال بأنهم ليسوا مالكين حقيقيين ولا مالكين متفرّدين لهذه الأموال، بل إن في الأموال التي خولهم الله إياها حقوقاً للآخرين من الفقراء والمساكين يجب عليهم أن يخرجوها وأن يعطوها لهم. وهذا هو المفهوم القرآني الإسلامي الصحيح للأموال وتوزيعها وتبادلها، أما أن يصعد أحد الحكام المنبر ويقول: «المال مال الله تعالى، وأنا خليفة الله؛ إن شئت أعطيت، وإن شئت منعت». فهذا ليس من الإسلام في شيء.

وهذه نظرية خطرة جداً على الإسلام؛ لأن الحاكم ليس إلّا شبحاً يستمدّ قوّته من المجموع، فهو لا يمتلك حق التصرف، أي أنه ليس له أن يتصرف بالأموال كيف يشاء وكما يشاء أو كما يمليه عليه هواه وميوله، أصابت رسولنا الأكرم ﷺ يوماً إغفاءة، فلمّا أفاق وجد عنده بضعة دراهم، فقال ﷺ: **«ماذا يقول محمّد**

لو لقي ربّه، وبيده هذه الأساود؟» [١].

فالإسلام يريد أن يفهمنا أن المال مال الجماعة وليس مال أحد، وأن الحاكم وليّ على المال يستمد قوته من الجمهور ويدير هذه الأموال وفق الأُسس الصحيحة القائمة على القوانين والنظم الشرعية، دون أن يكون له حق تملكها. وقد ذكرت فيما مضى في كثير من المحاضرات أنه ليس هناك ملكية حقيقة في الإسلام، وكل ما عندنا هو تمكين للانتفاع أو توظيف اجتماعي للثروة، بمعنى أن الله جلّ وعلا يمكننا من الانتفاع بهذه الأموال التي هي ملكه، ويمكننا من توظيفها لخدمة المجتمع: **﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾** [٢].

ولذا فإنه تعالى أضاف الأموال إلى المجتمع في آية المقام؛ لأن المجتمع هو الذي يصنع الأموال، فهو الذي يزرع الأرض وهو الذي يصنع السلعة ويسوّقها وينتجها ويبيعها وما إلى ذلك، وهو الذي يحوّل بالصناعات التحويلية الأشياء من هيئتها التي كانت عليها إلى هيئتها التي تنتهي إليها بعد التصنيع مستخدماً بذلك الوسائل الإنتاجية التي أنتجها هو أيضاً.

إذن فالمجتمع كله يشترك في إنتاج السلعة من قريبٍ أو من بعيد، وما من شخص في المجتمع إذا كان عاملاً إلّا وله يدٌ في صناعة السلع التي يتم تداولها في

---

(١) لم نعثر عليه، وفي روضة الواعظين: ٤٩٠ ـ ٤٩١، الطبقات الكبرى ٤: ٩٠ ـ ٩١، تاريخ مدينة دمشق ٢١: ٤٥٢ أن سعد بن أبي وقّاص دخل على سلمان المحمّدي يعوده، فبكى سلمان فقال له سعد: ما يبكيك يا أبا عبد الله؟ لقد توفّي رسول الله وهو عنك راضٍ، وسترد الحوض عليه. فقال سلمان: أمّا أنا فلا أبكي جزعاً من الموت، ولا حرصاً على الدنيا، ولكن رسول الله عهد إلينا فقال: «لتكن بلغة أحدكم كزاد الراكب»، وحولي هذه الأساود. ولم يكن حوله سوى أجانة وجفنة ومطهرة.

(٢) الحديد: ٧.

المجتمع، وعليه فإنه بعد هذه العملية الاشتراكية في التصنيع تتم عملية التبادل.

وقد يقول قائل: إنني أملك هذا الثوب، فكيف يمكن أن يقال: إن المجتمع يملكه؟

والجواب أن يُقال: صحيحٌ أن هذا الشخص يملك هذا الثوب، لكن من جعله أهلاً للتملك؟ ثم إن هذا الثوب كيف وصل إليه؟ إننا لو رجعنا إلى الوراء رويداً رويداً وتتبعنا عملية صناعة الثوب لوجدنا أن الفلاّح قد قام بزراعة القطن، وأن هناك عاملاً قام بقطافه، وأن هناك عاملاً آخر قام بصنع المحرات لحراثة الأرض من أجل زراعة القطن، وأن هناك عاملاً غيرهما صنع أداة السقي، وأن هناك عاملاً رابعاً استخرج البترول من البئر ليسيّر مكائن الحراثة والسقي، وهناك عاملاً خامساً قام بتصفية هذا البترول. وعليه فإن هناك مجموعة كبيرة من العمال قد قاموا بتهيئة الأرض للزراعة، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة بذر البذور ومرحلة قطاف القطن ومرحلة تصنيع القطن بآلات صنعها عامل آخر، وهكذا تتوسع الدائرة بشكل كبير من حيث لا يشعر هذا الإنسان.

إذن فهناك شريحة عريضة جداً من المجتمع شاركت في إنتاج هذا الثوب، وهذه المشاركة بشكل أو بآخر تعتبر مشاركةً فعّالة؛ لأنها قد تسبّبت من قريبٍ أو من بعيد في عملية صناعة هذا الثوب الذي يلبسه هذا المعترض. ولبيان هذا نقول: إنه لو لم يكن هنالك هذه الشريحة من العمال التي هيّأت الأرض وهيأت الماء وهيّأت المصنع لصناعة الثوب، فما فائدة النقد الذي يملكه هذا الإنسان وهو لا يجد ثوباً يشتريه به؟ وما فائدة ما يملك وهو لا يجد ما يمكن أن يبادله به؟

نعم، النقد أمر ضروري؛ لأن الإنسان لا يتمكن من أن يشتري السلعة إلّا به، لكن عليه أن يتنبه إلى أن شريحةً عريضةً من المجتمع قد اشتركت بإنتاجها. وعليه

فإن الإنسان لا يمكن أن يسمي هذه الحاجة أنها له فقط، مع أننا لا نسلبه حق الاختصاص بها لأنها تحت تصرفه، أما الجنبةُ المالية فهي للمجتمع عامة.

إذن فحينما يضيف الإسلام الأموال إلى المجتمع فهذا يعني أن الإسلام لا يقول بالملكية الفردية المطلقة، بل بالملكية الفردية المقيدة؛ حيث إنه يرى أن للجماعة حقاً بها؛ لأنه يفترض ألّا يُضَيَّعُ بها جهد الجماعة. ومن هذا المنطلق فإن المفروض بالإنسان أن يتصرف بها تصرفاً لا يفوّت على الجماعة مصلحتهم، ولا يفوّتُ على المجتمع فائدته وثمرته المترتبة على ذلك، بل عليه أن يكون خاضعاً لضوابطها.. الضوابط التي تحفظ للمجتمع حقه وللفرد حقه، وما عدا ذلك فليس من حق الإنسان أن يتصرف كما يحلو له.

المبحث الرابع: في معنى الأكل الوارد في الآية

إن المقصود بالأكل هنا هو ليس الأكل المعتاد أو المعروف بل المقصود به التصرف؛ لأن الأكل نوع من أنواع التصرف، وبما أن الأكل هو أكثر وسائل استهلاك الثروة فلذا عبّر القرآن الكريم عن استهلاكها به؛ لأنه المصداق الأبرز، فاللباس يشتريه الإنسان بفترات متباعدة، والسفر قد يحتاجه الإنسان من فترة إلى أُخرى قد تطول وقد تقصر، أما الطعام فالإنسان يحتاجه في اليوم ما لا يقل عن ثلاث مرات. ولذا فإن الأكل هنا يُقصَدُ به سائر التصرفات التي تؤدي إلى استهلاك الثروة، لكن القرآن الكريم استخدمه لأنه المصداق الأبرز، ولأنه جاري التعبير العرفي؛ إذ أن العرف يلجأ إلى مثل هذه الاستعمالات، فيقال: إن فلاناً أكل مال فلان، بمعنى أنه قد انقض عليه أو انتهبه أو استولى عليه، أي أنه تصرف به لأنه حينما يستولي عليه فلأجل أن يتصرّف به فهو قد أخذها بغير حق. وهذا هو معنى

الأكل الوارد في الآية، وليس المقصود به المضغ وابتلاع الطعام وإيصاله إلى المعدة.

المبحث الخامس: في معنى الباطل الوارد في الآية

وحول هذا المقطع يرسم الفقهاء منظومة القواعد التي يجب أن يتم بموجبها التبادل المالي، فينصّون على أن الآية الكريمة قد حرّمت ثلاثة أصنافٍ أُطلقَ عليها لفظ الباطل، وهي:

الأول: ما لم يبحه الشارع

وذلك مثل السرقة والغصب والربا والاحتكار وما إلى ذلك مما نصّ عليه الشارع المقدس بأنه حرام. فكل ذلك مما ذكرنا ومما لم نذكر مما نص عليه الشارع بأنه حرام هو باطل. ومعنى أنه باطل أن الشارع لابدّ أن يقتصّ من مرتكب ذلك الباطل أو يقيم الحد على فاعل ذلك الجرم، فوضع على السرقة حد قطع اليد بشروط ذكرها الفقهاء في محلها، منها أن يكون المتاع في مكان حريز، وألّا يقل عن ربع دينار، وألّا يكون في عام مجاعة. فإذا تحققت هذه الشروط لزم حينئذٍ قطع اليد.

وربما يقول قائل: إن اليد إذا قطعت ظلماً فإن لها ديةً مقدارها خمسمئة دينارٍ ذهباً، وإن سرقت ربع دينارٍ تقطع، فهذا الأمر فيه مفارقة كبيرة. وقد تنبه لهذا الإشكال أبو العلاء المعري.

والواقع أن هذا اللون من التفكير غريب من بعض الفلاسفة كأبي العلاء؛ لأنه لون يفترض ألّا يوجد إلّا عند البلهاء الذين لا يميزون بين العدل والظلم، فالله تعالى حينما خلق الإنسان خلقه وهو أرحم به من أبويه، لكنه جلّ وعلا مع هذا

يأمر بقطع هذه اليد لأنها قد احترفت السرقة، أو لأنها قد ارتكبت جرم السرقة، وهو مما يؤدي إلى إقلاق المجتمع وإلى عدم استقراره، وإلى ضياع الحقوق واستيلاء من لا يستحقها عليها.

وحينما نقول: إن هذا قد احترف السرقة وهو الذي تقطع يده، فإنما نعني به أنه الرجل الذي يكون عمله السرقة لا الرجل الذي يسرق لأنه جائع، فهذا الرجل إذا جاع واضطر إلى السرقة لأنه لم يكن ليستطيع أن يعمل فيوفر قوت عياله فإنه حيئذٍ لا تقطع يده. وكذا المريض الذي لا يتمكن من شراء العلاج، فهذان مضطرّان مكرهان على فعل السرقة وليسا محترفين لها. إن المحترف يخطط للجريمة ويدرس ظروفها وكيفية ارتكابها وتنفيذها، بمعنى أنه يكون قد وضع مخططا لتنفيذ جريمة السرقة من المكان الذي عزم على سرقته.

وبهذا نرى أن الفقه الجنائي في الإسلام لا يأمر بقطع اليد إلّا بعد دراسة ظروف الجريمة بدقة متناهية؛ كي يصل إلى قرار صحيح في خصوص هذا السارق فيما إذا كان يستحقّ العقوبة وقطع اليد أو لا يستحقها. وهذا يختلف باختلاف المقام؛ فالإنسان ما لم يكن مكرهاً كالمريض والجائع وما إلى ذلك من موارد الاضطرار دون أن يكون محترفاً للسرقة فإنه لا يقطع يد السارق في هذه الحالة. إن المحترف في طبيعة حاله وأمره أنه يعتدي على أموال الناس وحقوقهم وبالتالي فإنه يهدد المجتمع ويحوله إلى فوضى مما يؤدي إلى شلّ حركة التبادل المالي داخله وهو أمر نتيجته أن يصاب المجتمع بالرعب المالي أو الاقتصادي. فالشرع هنا يدخل الميدان حاملاً الحل الذي يقطع دابر هذه الجريمة؛ ليحفظ المجتمع كله وعلاقاته وتبادلاته المالية.

وقد قلنا: ان أبا العلاء المعري قد تنبه لهذا في أبياته الشهيرة فقال:

يـدٌ بـخمسٍ مـئين عسـجدٍ فُـديتْ ... مـا بـالُها قُـطعت فـي ربـع ديـنارِ

تَـحَكُّمٌ مـا لنـا إلّا السكـوتُ له ... وأنْ نـعوذَ بـمولانا مـن النـارِ (١)

فهو يقول: لماذا تقيّم اليد تارةً بخمسمئة دينار وأخرى بربع دينار؟ وكما ذكرنا فإن في هذا الكلام مبالغة واضحة ذلك أن الشارع حينما جعل الدية عـلى اليـد الواحدة نصف دية الإنسان ـ وهي في ذلك حالها حال كل عضو ثنائي في جسد الإنسان كالعين والأُذن وما إلى ذلك ـ فإنه إنما فـعل ذلك لأنـها قُـطعت ظـلماً وعدواناً، وما قطع ظلماً يجب أن يرد لصاحبه الاعتبار. وهذا الأمر لعله جاء لأبي العلاء وهو المعروف بالفلسفة حينما مر بدور التشكيك، لكنه كما ينقل المؤرخون والمترجمون لسيرته أنه قد أقلع عن ذلك فيما بعد ورجع إلى صوابه.

والذي يدقق في سيرة هذا الرجل يجد أنه في أيامه الأخيرة قد أصبح من خيرة المؤمنين، وآثاره التي أبدعها في تلك الفترة تبرهن على ذلك.

إن التعليل الذي ذكرناه حول العلة التي من أجـلها جُـعلت ثـمن اليـد تـارةً خمسمئة دينارٍ ذهباً وتارةً ربع دينارٍ ذهباً قد صاغها الشريف المرتضى ﵀ بقوله:

عـزُّ الأمـانةِ أغـلاها وأرخَـصَها ... ذُلُّ الخـيانةِ فـافهَم حكمةَ البـاري (٢)

---

(١) فقه القرآن ٢: ٣٨٤، لسان الميزان ١: ٢٠٥.

(٢) نسب هذا الرد للسيد المرتضى صاحبُ روضات الجنات: ٧٣، كما في هامش بحار الأنوار ١٠٤: ٩ ـ ١٠، وأضاف إليها بيتاً آخر هو:

عزّ الأمـانة أغـلاها وأرخـصها ... ذلّ الأمانة فافهم حكمة الباري

وفي الهامش نفسه: وأجابه رجل في المجلس:

هـناك مـظلومة غـالي بـقيتها ... وهاهنا ظلمت هانت علىٰ الباري

غير أن المصادر تكاد تجمع علىٰ أن صاحب هذا البيت هو القاضي عبد الوهاب المالكي. انظر: الإقناع في حل ألفاظ أبي الشجاع ٢: ١٩٠، مغني المحتاج ٤: ١٥٨، فتح الباري ١٢: ٨٦.

أي أن اليد واحدة لكن هناك حالتان مختلفتان اختلف فيهما الحكم فهي عندماكانت نظيفة مظلومة غالى خالقها بقيمتها أما بعد أن أصبحت يد غدرٍ وصارت جارحةً موبوءة جعل خالقها قيمتها ربع دينار.

فلسفة العقوبة في الإسلام

إن تدقيق النظر في مسألة العقوبة في الإسلام يظهر لنا بأن جعل قيمة اليد تارةً خمسمئة دينار وتارة ربع دينار ليس تقييماً حقيقياً لها؛ فلا كونها ربع دينار عقوبةً لها، ولا كونها خمسمئة دينارٍ تكريماً لها؛ لأن اليد المبدعة التي تخدم البشرية بما تبتكره من اختراعات وإبداعات، وما تضعه من تصاميم وتخطيطات لا يمكن أن تُقيّم بهذه القيمة التي ربما لا تعدل حرفاً واحداً تكتبه. وكل ما في الأمر أن المسألة مسألةُ ضبطٍ وتقنينٍ لتصرفات بعض الأفراد وإخضاعهم للحق والعدالة والتجاوب الإيجابي مع المجتمع بسنٍّ شريعة العقاب.

إن قيمة الإنسان عند الله أكبر من السماوات والأرض، فلا يمكن أن يكون هذا هو الثمن الذي يناسب هذا الإنسان سيما إذا كان مبدعاً قد خدم المجتمع في استثماره الطاقات والقابليات والقدرات التي أودعها الله تعالى فيه.

الثاني: المعاملات ذات العقود الفاسدة

وهي المعاملات المشتملة على الربا مثلاً، فإذا كانت المعاملة ربوية فإنها تعتبر معاملةً فاسدة، وبالنتيجة فهي غير مشروعة. وما دامت غير مشروعة فإن المال المكتسب عن طريقها يعد مالاً باطلاً لايجوز التصرف فيه. وفي مثل المعاملة الربوية هنالك حكمان: حكم موضوعي، وحكم تكليفي؛ فالحكم الموضوعي هو أن العقد فاسد، والحكم التكليفي أنه تترتب عليه الحرمة. وبناءً على هذا فإن أي

معاملةٍ ربوية لا تنعقد إطلاقاً، بل إنها وإن وقعت بين الطرفين الموجب والقابل فإنها شرعاً تنزلُ منزلة غير الواقعة؛ لأنها تعتبر عقوداً فاسدةً بتحريم الشارع المقدس إياها.

الثالث: ما لا عقد فيه

فكل مالٍ يكتسب من معاملةٍ لم يجرَ فيها العقد الشرعي الذي أمر الله به أو أباحه فهو محرّم ولا يجوز التصرف به، ومن ذلك القمار، فكل مالٍ مكتسب عن طريق القمار فهو باطل. وهذا الأمر يرجع إلى قاعدةٍ عامةٍ هي أن الأصلَ في الأموال الحرمة وهي لا تنتقل من مكان إلى آخر إلّا بناقلٍ شرعي وهذا الناقل هو عبارة عن العقد؛ فإذا لم يكن عقد في البين لم يكن ناقل، وإذا لم يكن ناقل لم يكن المال حلالاً وجائزاً التصرّف فيه.

هذه أُنموذجاتٌ ثلاثة قدمها الفقهاء لنا لبيان معنى الباطل الذي ذكرته هذه الآية الشريفة، وهذه الأُنموذجات عامّة تشمل جميع المعاملات غير المشروعة، وأن تبادل الأموال حتى يكون تبادلاً مشروعاً وصحيحاً ويصّح تملك المال على ضوئه. والتصرف فيه لا بد أن يتم بطرق التبادل المشروعة وهذه الطرق المشروعة، هي الطرق التي أباحها الله تعالى لنا وأجاز لنا التعامل على ضوئها ومن ذلك البيع والشراء والمضاربة وما إلى ذلك.

ثم أن البيع والشراء يجب أن يكونا خاضعين لقوانين وتشريعاتٍ خاصة بهما فصحيح أن أصل المسألة مباح، لكن هذه الإباحة مشروطة بألّا تكون خارج الشريعة الإسلامية، فلو أن البيع تحوّل إلى عملية احتكار فإنه يصبح حراماً، والمال الذي يؤخذ به لا يصحُ تملكه ولا يجوز التصرف فيه. وينص الفقهاء في باب الاحتكار على أن الإمام له حق الاستيلاء على أموال المحتكر وأن ينهبه

العامة أو الناس بعد أن يأمره بعرض هذه السلعة في السوق وبيعها للناس لمن يريد أن يشتري وبعد أن يرفض المحتكر هذا العرض.

فالإمام يأمر المحتكر بأن يعرض السلعة، وما لم يفعل ذلك فإن الإمام سوف يصادر هذه السلع والحاجيات، كان أمير المؤمنين ﷺ يطوف في رحبة الكوفة ويقول: **«من احتكر على المسلمين؛ فإمّا أن أُحرق ما احتكر، أو انهبه العامّة»** [1].

فواقع الأمر أن الاحتكار ونظائره من المعاملات الفاسدة المدمرة لعلائق المجتمع مما يتحكم بقوت المجتمع؛ ولهذا الاعتبار فإن الإسلام لا يعطيه المشروعية مطلقاً وبأي حالٍ من الأحوال، بل إنه يصرح بأن كل عملية تبادل للأموال بهذا النمط تعتبر عمليةً سحتيةً، ويأمر المسلمين أن يعتمدوا في عملياتهم التبادلية طريق الحق وليس الباطل؛ لأن الباطل لا يخلف وراءه إلّا النتائج السيئة.

هناك رواية ظريفة ينقلها المؤرخون حدثت مع المأمون العباسي ولها صلةٌ بهذا الموضوع الذي نحن بصدده، تقول الرواية: كان المأمون إذا قعد للناس يومي الاثنين والخميس يقعد الإمام الرضا ﷺ على يمينه، وفي يوم رفع إلى المأمون أن رجلاً من الصوفية سرق، فأمر بإحضاره، فلما نظر إليه وجده متقشّفاً بين عينيه أثر السجود، فقال: سوأة لهذه الآثار الجميلة وهذا الفعل القبيح تنسب إلى السرقة، مع ما أرى من جميع آثارك وظاهرك. فقال: ذلك اضطراراً لا اختياراً حين منعتني حقي من الخمس والفيء. قال المأمون: وأي حق لك في الخمس والفيء؟ قال: إن الله تعالى قسم الخمس ستة أقسام فقال: **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ**

---

(١) لم نعثر عليه، وفي المحلّى ٩: ٦٥ عن حبيش أنه قال: «أحرق لي علي بن أبي طالب بيادر بالسواد كنت احتكرتها، لو تركها لربحت فيها مثل عطاء الكوفة، وفي المصنّف (ابن أبي شيبة) ٥: ٤٨ أنه عن قيس.

خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾[1]، وقسم الفيء على ستة أسهم فقال: **﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَللهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾**[2]، فمنعتني حقّي وأنا ابن السبيل منقطع بي ومسكين لا أرجع إلى شيء، ومن حملة القرآن. فقال المأمون: أُعطّل حدّاً من حدود الله وحكماً من أحكامه في السارق من أجل أساطيرك هذه؟ فقال الصوفي: ابدأ بنفسك فطهّرها، ثم طهّر غيرك، وأقم حدّ الله عليها.

فالتفت المأمون إلى الإمامعليه السلام وقال له: ما يقول؟ فقالعليه السلام: «**إنه يقول: سرقتَ فسرق**». فغضب المأمون غضباً شديداً، ثم قال للصوفي: والله لأُقطّعنك. فقال الصوفي: أتقطّعني وأنت عبد لي؟ فقال المأمون: ويلك، ومن أين صرت عبداً لك؟ قال: لأن أُمّك اشتريت من مال المسلمين؛ فأنت عبد لمن في المشرق والمغرب حتى يعتقوك، وأنا لم أعتقك.

ثم أكلت الخمس بعد ذلك فلا أعطيت آل الرسولصلى الله عليه وآله وسلم حقّاً، ولا أعطيتني ونظرائي حقّاً.

وأُخرى أن الخبيث لا يطهّر خبيثاً، إنما يطهّره طاهر، ومن في جنبه الحدّ فلا يقيم الحدود على غيره حتى يبدأ بنفسه، أما سمعت الله تعالى يقول: **﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾**[3].

فالتفت المأمون إلى الإمامعليه السلام وقال: ما ترى في أمره؟ فقالعليه السلام: «**﴿قُلْ فَللهِ**

---

(١) الأنفال: ٤١. (٢) الحشر: ٧.

(٣) البقرة: ٤٤.

الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾[١]، وهي التي تبلغ الجاهل فيعلمها بجهله كما يعلمها العالم بعلمه، والدنيا والآخرة قائمتان بالحجّة، وقد احتجّ الرجل بالقرآن».

فأمر المأمون عند ذلك بإطلاق الصوفي، واحتجب عن الناس واشتغل بالإمام عليه السلام حتى سمّه، وقتل الفضل بن سهل وجماعة من الشيعة[٢].

فهو يقول له: أنت لا تستطيع أن تقيم الحدّ عليّ لأسباب ثلاثة:

١ـ أنك سارق مثلي، وقد سرقت حقّي فألجأتني إلى السرقة، ولو أنك لم تسرقني حقّي لما سرقت أنا.

٢ـ وبما أنك سارق فإن يدك نجسة بما سرقت، فلو أن يد السارق ملطخة ونجسة فإنك لا تستطع أن تطهّرها؛ لأن يدك ملطّخة ونجسة مثلها؛ إذ أن الذي يتولّى إقامة الحدود على المجتمع يجب أن يكون طاهراً نظيفاً غير ملوّث. وبعبارةٍ أُخرى أن الإناء أو الثوب النجسين لا يطهران إذا طُهّرا بماء نجس، بل لابدّ من تطهيرهما بماء نظيف.

٣ـ أنك ملك لي، والمملوك لا يقيم الحدّ على السيّد، وإذا كان المسلمون قد أعتقوك فإنما تنازلوا عن حقّهم فيك، وأعتقوا ما يملكون هم دون ما أملك أنا؛ فإني لم أعتقك.

وفعلاً أفحم المأمون جوابُه هذا مع أن المأمون لبقٌ وعالمٌ ومتكلم وكانت هذه الإجابة من الإمام وهذا التأييد لذلك الشخص الذي اقتيد من دواعي دس السم للإمام عليه السلام وقتله كما ذكرنا. والنتيجة أن هذا الشخص قد ألجأته ظروفه إلى السرقة، ومن كان كذلك لا يقام الحد عليه؛ لأنه قد اضطر إليها تحت ضغط الجوع والألم والفقر. ولو كانت الأموال التي تجبى كحقوق شرعية إلى الخليفة أو الحاكم

---

(١) الأنعام: ١٤٩.
(٢) علل الشرائع ١: ٢٤٠ ـ ٢٤١ / ٢.

توزع بشكل صحيح وسليم وفق الضوابط الشرعية لما سرق سارق، ولما زنا زانٍ، ولما قتل قاتل من أجل السرقة.

والمشكلة الأدهى والأمرّ التي تترتب على عدم التوزيع الصحيح للثروة وعدم إعطاء أصحاب الحقوق حقوقهم أن بعضاً من هؤلاء (أصحاب الحقوق) حينما لا يأتيه حقّه، يتوجه بالقذف والتجديف إلى السماء لما كان من إغناء غيره وإفقاره، مع أن هذا لا ينمّ عن فطنةٍ وتعقلٍ وفهم؛ لأن الله تعالى قد خلق الناس وجعل لهم ما في الأرض جميعاً، وهذا الجعل تكويني،ثم أعقبه بنظام تشريعي يضمن حصول كلّ فرد من المجتمع على حقه ونصيبه من هذه الثروات التي أودعها، وتكفل بإيصال كل حق إلى ذيه نصاباً كاملاً غير منقوص. ولهذا فإن الله جلَّ وعلا قد أمرنا بأن نستعمل هذا النظام بحذافيره، وأن نتبعه بدقة حتى لا يكون هناك ميل لشخص على حساب آخر، لكن الذي حصل بعد ذلك هو أننا جئنا وأخذ بعضنا يسرق بعضاً، ويعتدي على الآخرين، ويأكل أحدنا أموال غيره بالباطل.

ولكل هذا فإن الاعتراض يجب ألّا يتوجه إلى السماء بل إلى الناس الذين أساؤا التصرف وأساؤا التطبيق، وابتعدوا عن التشريعات السماوية.

إن ادِّعاء أن في هذه التشريعات تناقضاً لأن النظرية غير التطبيق لهو ادِّعاء فارغ؛ إذ أن منشأ هذه التناقضات هو التطبيق وليس التنظير؛ لأنه كما ذكرنا راجع إلى سوء التطبيق، وسوء التطبيق هذا حتماً سيخلق فجوةً بين عالمي التنظير والتطبيق أو العمل. فلو أن شخصاً عمل بمقتضى قانون السماء ثم وجد فيه نقضاً فله الحق حينذاك أن يعترض وينسب التناقض إليه، أما والحال أنه لا يعمل به ثم ينسب التناقض إليه فهذا هو الجهل المطبق.

إذن فالقرآن الكريم يحذّرنا من أن نأكل أموالنا بالباطل؛ لأن الإنسان حينما

يفرح وهو يسرق المجتمع فإنه سوف يخلق في هذا المجتمع بذرةً تتطور وتنمو لأن تكون كائناً سارقاً، وهذه السرقة سترتد عليه وسيسرق أيضاً. والنتيجة أن العملية التبادلية بين أفراد المجتمع سوف تصبح غير مشروعة وسوف تنتهي إلى نتائج سلبيةٍ لا تحمد عقباها.

إذن فحفظ نظام المجتمع وكرامته وتوفيرها لا يتم إلّا بعملية حفظ التبادل الشرعي للأموال وفق الضوابط الإلهية وسنن السماء، وما عدا ذلك فإن الكرامة سوف تهدر، وسوف لن يبقى للإنسان أي وضع يحفظ له وجوده وآدميته؛ فمن سارقٍ منتهِك، ومن جائعٍ منتهَك، وفي كل الحالات سوف تهدر الكرامة: فالاحتكار والاستغلال والسرقة والربا ووضع اليد على قوت الآخرين كلها عوامل تؤدي إلى تمريغ كرامة الإنسان والإنسانية ككل في التراب.

أثر العامل الذاتي في عملية التشريع

وهكذا نتوصّل إلى أن الوضع الصحيح في عملية التشريع ووضع القوانين هي أن تتم بعيداً عن تدخل الإنسان؛ لأنها إذا تمت بناء على تدخّله أو تحت تأثيره وتأثير رغباته وغرائزه فإنها سوف تتحول إلى قوانين كارثية.

إن المفروض بالإنسان ألّا يتدخل في عملية سن القوانين، بل عليه أن يراقب تطبيقها. وبهذا الشكل لا غير تحفظ كرامة الفرد، أما فيما سواه فإنه سوف يبحث عن رغيف الخبز فلا يجده ولن يحصل عليه إلّا إذا ركع أمام من يملك زمام الأمر، بل ربما يركع ثم لم يحصل على ما يريد، يقول الشاعر:

سجدنا للقرود رجاء دنيا	حوتها دوننا أيدي القرودِ
فما ظفرت أناملنا بشيء	صنعناه سوى ذلّ السجودِ[1]

---

(١) محاضرات الأدباء ١: ٣٧١، وفيه: ذلّ الخدود، ٦٩٠.

إذن فما لم يتم تبادل الثروة بشكل صحيح فإن الإنسان سوف تسحق آدميته وتنتهك كرامته، فكما أن الإنسان جسد فكذلك هو روح وذهن وكرامة، وعليه أن يشبع كل هذه الأشياء.. أن يشبع كرامته فيحفظها، وأن يشبع روحه فيطبق تعاليم الإسلام، وأن يشبع جسده فيحصل على قوته. وكل هذا لا يحصل إلّا بتطبيق قوانين السماء حول التوزيع الصحيح للثروة والتبادل الصحيح لها. إن الجوع النفسي أو الجوع الروحي لا بد من ملئه وسدّه، لكن هذه المرحلة تأتي بعد مرحلة سدّ الجوع الجسدي؛ لأن من لا يملك رغيفاً لا يمكن أن يطالع كتاباً تشتريه له، أو أن ينتفع بموعظة تعظه بها، فلا يمكن أن يغذي فكره مالم يسدّ حاجاته الأوّلية. فالانتباه إلى الأُسس الصحيحة للسير والسلوك لابد أن تكون بعد إشباع الحاجات الأساسية، فحينما يقول الحديث الشريف: **«كاد الفقر أن يكون كفراً»** [1]، فهو إنما يعبر عن هذه الحقيقة المارة؛ ولهذا السبب نجدُ أن القرآن الكريم يشدد على هذا الجانب فيقول: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾**.

المبحث السادس: في معنى التجارة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: **﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً﴾**. وهذا الاستثناء يعني بأن من الطرق المشروعة الاتّجار بالأموال، ولا يعني الاتّجار البيع والشراء؛ إذ أن هذا الأمر هو المعنى المتبادر لأذهان الكثير من لفظ التجارة، وهذا غير صحيح؛ لأن المراد من التجارة هو البيع والشراء وتوظيف الأموال في المعاملات التجارية

---

(١) الكافي ٢ : ٣٠٧ / ٤، الأمالي (الصدوق): ٣٧١ / ٤٦٧، مسند الشهاب ١ : ٣٤٢ / ٥٨٥، ٣٤٣ / ٥٨٦، كتاب الدعاء (الطبراني): ٣٢٠ / ١٠٤٨.

كافة بطرقها المشروعة، وبكل ما يعود على المجتمع بخير، فكل ذلك تجارة. فحينما ينشيء الإنسان معهداً أو جامعةً بما عنده من أموال ثم يُخرّج هذا المعهد أو الجامعة موظفاً فنياً أو مهندساً فإن هذا الأمر أصبح عملية توظيفٍ للأموال؛ لأنه مما يعود على المجتمع بخير. لكن في حقيقة الأمر أن الله جل وعلا حينما خصص التجارة بهذا الذكر لأن المجتمع بشكل عام مدين لهذا اللون من ألوان العمل.

ولفقهاء المسلمين آراء وفتاوى رائعة في خصوص التجارة، فهم يفتون بوجوبها على شخص إذا انحصرت فيه، كما أنهم يوسعون هذه الدائرة إلى كافة الوظائف والأعمال كالطب والهندسة والزراعة والصناعة وما شاكل بمختلف ألوانها وتطبيقاتها، فإذا انحصرت هذه الجوانب أو هذه الفنون العلمية بشخص دون غيره وجبت عليه وجوباً عينياً. وإن توسعت الدائرة لتشمل أكثر من شخص أصبح الوجوب كفائياً يسقط عن الآخرين بقيام من فيه الكفاية، ويؤثم الجميع حينما يتركونه. وكل ذلك لأنه مما يعود بالخير على المجتمع الذي هو بأمس الحاجة إلى هذا الجانب. فلتقصيرهم في تحقيق هذا الجانب أصبح في الأمر إثم عليهم، وفي حال سقوطه عن البعض الآخر إذا قام من فيه الكفاية أصبح مستحبّاً على من سقط عنهم فيما إذا كان فيه توسيع دائرة الرزق والتوسعة على العيال والأهل وذوي النفقة وتحقيقٌ لرفاهية المجتمع.

والواجب العيني يساوي عدد أفراده فلو أن أمراً لا يتم تحققه إلا بمئة فردٍ من أفراد المجتمع وكان في المجتمع مئة فرد لهم القابلية على تحقيق هذا الأمر أصبح واجباً عينياً على كل واحد منهم؛ فإن قام به بعضهم أثِمَ المتبقون من هذه المئة؛ لأن المجتمع بحاجة إلى جهد هذا الكادر، وما لم يقم به فإنه يكون قد فرّط بطاقة وقابلية وقدرة أعطاهم الله إياها. وبالنتيجة فإنهم سوف يحاسبون على تفريطهم

بهذه الطاقات والقدرات، فإن من غير الممكن أن تبقى حاجات المجتمع معطلة، بل لابدّ من سدّها كاملةً.

إذن التجارة جانب مهم من جوانب سد الحاجات عند المجتمع، وقد بارك الله فيها ولصاحبها؛ ولهذا نجد أن النبي الأكرم ﷺ يقول: «**الرزق عشرة أجزاء، تسعة أجزاء في التجارة، وواحد في غيره**»[١].

المبحث السابع: في شروط العقد

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿**عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ**﴾، فما المقصود بالتراضي هنا؟ الرضا أحد شروط لعقد، والعقد باطل ما لم يكن عن رضا بين المتعاقدين. وهذا ما يعبر عنه الأُصوليون بقولهم: «إن المشروط عدم عند عدم شرطه»[٢].، ولو طبّقنا هذا على موضوعنا لرأينا أن العقد المشروط بالرضا ما لم يتوفّر فيه الرضا فإنه عقد فاسدٌ وباطل؛ لأن الشرط قد تخلّف في هذا الباب.

والإسلام هنا إنما يحكم ببطلان العقد؛ لأنه يعتز بكرامة الإنسان.. الكرامة التي ستهدر وستسحق إذا كان العقد بالإكراه وليس عن تراضٍ. فيجب على الإنسان أن يعمل أو أن يقوم بجميع عقوده ومعاملاته وهو تحت تأثير حالة الرضا، فهو ما لم يكن راضياً فإنه لايملك خياراً في العمل الذي يقوم به. وبمعنىً آخر إنه يصبحُ تابعاً ومستعبداً، وهو بخلاف المستأجر على فعل شيء. فالنجار حينما يكون صاحب خيارٍ في عمله فإنه يستطيع أن يعمل السلعة التي يريدها أو التي يطلبها منه صاحبها، وإذا لم يستطع أن يقوم بهذا العمل أو أنه يجد نفسه أنه بهذا العمل لا

---

(١) الكافي ٥: ٣١٨ - ٣١٩ / ٥٩، الفقيه ٣: ١٩٢ / ٣٧٢٢.

(٢) انظر: مبادئ الوصول: ٩٨، المجموع شرح المهذّب ٤: ٧٣.

يستطيع أن يُقوّت عائلته فإنه بإمكانه ـ ما دام يملك خياراً ـ أن ينتقل منه إلى عمل آخر، أو أن يذهب إلى مكان آخر ليعمل العمل نفسه أو غيره.

وبهذا التقريب نخرج بنتيجة هي أن الإكراه يكون على أنماط؛ فحينما تنحصر فرصة العمل عند شخصٍ فإنه سيفرض شروطه على العامل، وسيضطره إلى قبول شروطه لانعدام فرص العمل عند غيره. وحينما يفرض عليه شروطه يفرض عليه أجراً زهيداً لا يكفيه ولا يسدّ حاجات عائلته.

فهذا نمط من الإكراه يقع فيه العامل [1]. ولو تأملنا عبارات الفقهاء في الاقتصاد الإسلامي عندما يمرون بهذا المقطع من الآية الكريمة فإننا نجدهم يوسعون دائرة الحكم فيه إلى حد توفير الحالة التي تحقق للإنسان الاختيار في جميع ممارساته، وفي مختلف الأعمال التي يقوم بها، وبأي شكل من الأشكال؛ لأن العامل إذا أكره بأي نمط من أنماط الإكراه فإن العقد حينئذٍ يعتبر باطلاً؛ لأن الغاية من هذا التقنين هو الحفاظ على كرامة الإنسان. إن الإسلام الحنيف والشرع المقدس لا يريدان للإنسان أن يتحول إلى سلعة أو إلى آلة يحركها أرباب العمل وأصحاب الأموال ليحققوا بها أهواءهم وأطماعهم ومصالحهم وإراداتهم كيفما يشاؤون وأنى يشاؤون؛ لأنه بهذا سوف يصبح إنساناً فاقد الإرادة.

ولو نظرنا في الروايات لوجدنا أن هناك حديثاً قدسيّاً يروى عن الله جلَّ وعلا يقول فيه: **«ثلاثة أنا بريء منهم يوم القيامة: رجل أُعطي بي ثم غدر، ورجل باع حرّاً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فبخسه حقّه»** [2]. فمن يبخس الأجير أجره وينقصه حقه يتبرأ الله جل وعلا منه، بل إنه تعالى يصبح خصمه. ونحن نعلم كيف

---

(١) هو الإكراه بالتسبيب، وهو ما يقابل الإكراه بالمباشرة.

(٢) المغني ٤: ٣٠٢، الشرح الكبير ٤: ١٤.

ينتهي الأمر بمن يصبح الله خصمه وبريئاً منه.

إذن فالقرآن الكريم يحرص كثيراً على توفير آدمية الإنسان وتحصيلها ولهذا فإنه قرر ذلك بقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾.

المبحث الثامن: عاقبة التبادل غير المشروع

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾، وربما يستغرب البعض فيقول: ما هو النظم بين هذا المقطع من آية المقام والمقاطع السابقة؟ أو بمعنىً آخر ما هي العلاقة التي تربط بين هذا المقطع المتعلق بالقتل وبين المقاطع السابقة المتعلقة بتنظيم الجانب الاقتصادي بحياة المجتمع؟

والجواب على هذا السؤال: أن يقال: إن من لا يفهم معاريض القرآن وأساليبه، ومن يحمل الألفاظ القرآنية على ظواهرها وهي تحتمل معاني أخر فإنه حتماً سوف يشكل هذا الإشكال ويسأل هذا السؤال؛ لأنه لا يتمكن من فهم المعنى الصحيح المراد من هذا اللفظ بعينه أو من أي لفظ آخر ذكر في القرآن الكريم، لكنه لو فهم أن المراد بالقتل هنا ليس القتل الحقيقي بل إنه كناية عن تدهور العلائق الاجتماعية والروابط الأُسروية التي تربط أبناء الأُسرة المسلمة باعتبار أن أبناء المجتمع المسلم أسرة واحدة[1]. فهذا التدهور هو أشبه شيء بالقتل لما له من عواقب وخيمة وأضرار جسيمة تلحق بالمجتمع وبأفراده.

إذن المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ هو ما سيؤول إليه حال

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين فيما بينهم كمثل البنيان يمسك بعضه بعضاً ويشدّ بعضه بعضاً». عوالي اللآلي ١: ٣٧٧ / ١٠٧، وقال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى». مسند أحمد ٤: ٢٧٠.

المجتمع بسبب عدم تطبيق الأوامر الإلهية والشرائع السماوية، أو إنه ربما يكون بالتسبيب؛ ذلك أن القتل لا يكون بسفك الدماء فقط، بل إنه أحياناً يكون بإجاعة الشخص، فحينما توزع الثروة عشوائياً وحينما تتكدس عند شريحة معينة من المجتمع صغيرة في حين أن هناك شريحة كبيرة منه يقتلها الجوع فإنه يمكن أن يقال: إن هذه الشريحة الغنية أو الثرية الموسرة قد قتلت تلك الشريحة الفقيرة. وهذا بسبب سوء توزيع الثروة وسوء التداول المالي.

وبمعنىً آخر لو أن هناك شخصاً متخوماً وهناك شخصاً محروما، فهذا الشخص المحروم حينما يمرض هو أو يمرض أحد أبناء عائلته ثم لا يستطيع أن يعالجه بأن يشري له الدواء أو يجري له المداخلة الجراحية أو أن يسافر به إلى البلاد المتطوّرة فيما لو استلزمت حالته تلك هذا الأمر، ثم يرى نفسه أو المريض من أسرته يتلوّى من الألم دون أن يستطيع فعل شيء له، ويظل يراقبه حتى يموت فإن المجتمع يكون قد قتله شر قتلة. وهذا قتل بعدم توفير العلاج، وكما قلنا: هناك قتل بالجوع، فكم من شخص يخجل ويستحي أن يمد يده إلى الناس مع ما عنده من حاجة؛ لأن كرامته تأبى عليه أن يمدها وهو لا يملك غير مرتب لا يسد حاجته من الطعام؟ فمثل هذا حينما يموت وهو مريض بمرضٍ لسوء التغذية أو نقصها فإن المجتمع أيضاً يكون قد قتله.

والمجتمع قد يقتل الإنسان نفسياً فحينما يكون راتبه متكفلاً بحاجاته الأولية من طعام وشراب لكنه لا يملك ما يدخره ليوسع به على عياله في أيام الأعياد والمناسبات، ثم يرى ابن جاره الثري وهو يلبس أحسن اللباس ويأكل ما يشتهي فإنه سيتحسّر، وربما مات حسرةً وألماً؛ لأنه لا يمتلك إلّا ما يشتري به الرغيف. وحينما ينظر ابنه إلى ابن جاره فإنه سوف يستشعر الحزن في عيني وقلب ولده،

فيعتصره الألم وتضنيه الحسرة وتذهب به الآلام كل مذهب؛ وبهذا يكون قد قتله نفسياً.

وهل القتل إلّا بهذه الكيفية؟ فالقتل ليس بالسيف أو بالسلاح فقط بل إن له صوراً كثيرة؛ ولهذا فإن القرآن الكريم ينهى الناس عن أن يقتلوا أنفسهم من أجل هذا الحطام الزائل؛ لأن الإنسان ثمين جداً على المشرّع الأقدس، فلا يريد له أن ينتهي به الأمر من أجل هذا الحطام إلى أن يقتل بعض الناس بعضاً.

فالسرقة أحياناً تؤدي إلى القتل، وتبادل الأموال بالباطل عن طريق القمار قد يفضي إلى القتل. واستيلاء الإنسان على الأموال عن طريق الاحتكار قد يفضي إلى القتل وهذا كله يؤدي إلى حصول الفساد الذي سيحكم المجتمع ويسيطر عليه؛ لأنه يؤدي بالنتيجة إلى بلاء مبرمٍ يحكم خيوطه الظلامية على نفوس الناس وعلاقاتهم ببعضهم. ولذا فإن الشارع المقدس يسعى جاهداً إلى أن يدفع الناس ليأخذوا الدرهم من موضعه ويضعوه في موضعه.

والمتتبع لسيرة الناس على مر التاريخ سوف يجد أن هناك الكثير من الشواهد التاريخية على هذا، بل حتى على مستوى الواقع المعاش، فكلّ عاقل يعرف أنه إذا لم توضع الأموال في موضعها الصحيح فإنه حينئذٍ سيحدث قتلٌ وقتالٌ في المجتمع، وسيحدث انهيارٌ للنظام الاجتماعي وتفكك في الإسرة الإسلامية الواحدة، سيما إذا انتقل ذلك إلى الموائد الخضراء التي أصبحت اليوم لوناً من ألوان التقدم الحضاري ونمطاً من أنماط ألعاب الأثرياء الذين يحكمون هذا العالم ويعتبرون القمار سلوكاً حضارياً.

والمصيبة الأدهى والكارثة الأعظم والجانب الأمرّ في قضية الموائد الخضراء أن البعض من الناس لا يملك المال، ومع ذلك نجده يعود بعد عمل يومٍ طويل

وجهدٍ وكدّ عتيد يحمل أجره على ما بذل من جهدٍ طوال النهار ويسعى به إلى الجلوس على تلك الموائد الموبوءة بدل أن يحضر بها طعاماً أو لباساً أو دواءً لنفسه أو لعياله. وهذا يعني أنه سوف يحوّل عائلته إلى مؤسسة مأساوية لما سيحدث فيها من جوع وتشريدٍ للأطفال وتفكيكٍ لأواصر العناصر التي تكونها، وبالتالي سوف تنهدم هذه الأسرة وتنهار انهياراً كلياً.

وحينما نرجع إلى آراء الفقهاء حول تحديد الإطار الذي يتضمن تحريم الميسر والقمار، فإننا نجدهم يوسعونه إلى تحريم حتى لعب الصبيان بالجوز؛ معللين ذلك بأنه سوف يكون أداة لتدريب هؤلاء الصبيان على لعب القمار مستقبلاً، أي أنهم سوف يتدرّبون قليلاً قليلاً حتى يصبحوا محترفي هذه اللعبة البشعة المحرمة، وسوف ينتقل الأمر بهؤلاء الأطفال من كون لعبهم بهذا الجوز إلى اللعب بأدوات القمار المتطوّرة الأخرى والكسب الحرام. وهكذا نجدهم يغلقون هذا الباب إغلاقاً كاملاً لا نافذة فيه؛ لأنه ذريعة لصنع الشرّ وإيجاده. وهذا مثله مثل شرب الخمر؛ فإن الفقهاء يحرمونه وإن كان جرعةً صغيرة في الحالات الطارئة من أجل الاستشفاء؛ لأن هذا المستشفي بها ربما يتذوقها ويعجب بها ويعتاد عليها ويصل به الأمر إلى أن يمارس هذا الشرب حتى يصل إلى حد الإدمان، ويقع في المحذور.

إذن هذه الذريعة يجب غلقها لأنها حينما تكون مفتوحة فإنها حتما سوف تؤدي إلى الفساد، وهذه هي العلة التي من أجلها حرّم الفقهاء اللعب بأدوات القمار وآلاته حتى وإن لم يكن لغرض الرهن وما شابه، وإنما لغرض اللهو والأُنس، فإنهم حرّموه. وعليه فاللاعب بالنرد عاصٍ والمتلهي به عاصٍ. وأود أن أُشير هنا إلى أن للإمام الشافعي رأياً يبيح به التلهي بالقمار دون اللعب بِرِهان[1]، وهذا ما

(١) عنه في الخلاف ٦: ٣٠٤ / المسألة: ٥٣، المغني ١٢: ٣٦، الشرح الكبير ١٢: ٤٥، ولم

تخالفه فيه جميع المذاهب الإسلامية التي تحرّمه مطلقاً؛ سواءً كان عن رهن، أو كان للتلهي. •

ومن يحرّم اللعب حتى على اللاهي فإنه يحرم السلام عليه.

وربما يلتمس عذرٌ للإمام الشافعي بأنه يعلّله بكونه لا يؤدي إلى الفساد، ويبقى مجرد عملية قتلٍ للوقت. والفقهاء يحرمونه لأنه يؤدي إلى تدرّب اللاعب واحترافه واعتياده عليه، كما أنه أيضا يؤدّي إلى قتل الوقت وهدره، والإنسان مسؤول عنه غداً[1]. وهؤلاء الفقهاء يقولون: إن للوقت ثمناً، واللهو ليس بثمنٍ للوقت، وما لم يكن ثمناً صحيحاً فهو باطل، والباطل يجب أن يتنزه الإنسان المسلم عنه؛ لأن المسلم يجب أن ينفق وقته فيما يعود عليه أو على مجتمعه بالنفع. وعليه فحينما يعقب الله جل وعلا تقنين تداول المال في سوق المسلمين بالنهي عن القتل؛ فلأن الفقر وعدم التداول الصحيح يؤدي إلى القتل أو أنه يراد به الصور الأُخرى من صور القتل التي ذكرناها سابقاً، فكل ما يفضي إلى النزاع ربما انتهى إلى القتل؛ لأنه سوف يحدث هزةً في المجتمع أو مأساة فيه.

المبحث التاسع: موارد الرحمة الإلهية

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمَاً﴾؛ ليُعلم أنه ليس هنالك أدنى شك في أن الله تعالى أرحم بعباده من عباده أنفسهم بأنفسهم، فهو تعالى منبع الرحمة وفيض العطف والرأفة، أما بنو الإنسان فإنهم لا يقتصر الأمر عندهم على ألّا يرأف بعضهم ببعض ولا يعطف بعضهم على بعض ولا يحنو بعضهم على بعض

• ينقلاه عنه بشرط ألّا يلهي اللاعب به عن صلاته.

(١) قد مرّ في محاضرة (من الظواهر والسنن الكونيّة في القرآن الكريم) قوله ﷺ: «اغتنم خمساً قبل خمس...».

بل إن الأمر عندهم يتعدى ذلك إلى أن يبغي بعضهم على بعض، قام أحد الشعراء منشداً في وجود معاوية بن أبي سفيان إبان حكمه وكان جائعاً، وكانت السلطات قد صادرت أرضه وما يملك، فقال منشداً:

معاويَ إننا بشرٌ فأسجِحْ ... فلسنا بالجبالِ ولا الحديدِ
أكلتم أرضَنا فجردتموها ... فهل من قائمٍ أو من حصيدِ
ذروا جورَ الإمارةِ واستقيموا ... وتأميراً على الناس العبيدِ
فهبنا أُمّةً ذهبت ضياعاً ... يزيدُ أميرُها وأبو يزيدِ
أتطمعُ في الخلافةِ إذ هلكنا ... وليس لنا ولا لك من خلودِ
وأعطونا السويّةَ لا تزرْكم ... جنودٌ مردفاتٌ بالجنودِ[١]

فهذا الشاعر يخاطب معاوية ويقول له: إنكم قد سلبتمونا كل شيء ولم تتركوا لنا قائماً أو حصيداً، وقد فعلتم هذا مع المسلمين جميعاً إلّا من سار في ركابكم. والحقيقة إن هذه الأسباب هي الدوافع الحقيقية لقيام ثورة الطف المباركة، لا أنها لما يذهب إليه البعض من كونها عداءً قديماً مستحكماً بين الهاشميين والأُمويين، أو ما يعلّلها به البعض فيقول: إنها قضيةٌ شخصيةٌ بين الإمام الحسين عليه السلام وبين يزيد بن معاوية بسبب أُرينب[٢].

فهذان التعليلان هما في الحقيقة تعليلان أبلهان، أو يتعمد أصحابهما الإساءة إلى الإمام الحسين عليه السلام بشخصه أو بحركته؛ فالحسين عليه السلام سيد شباب أهل الجنة، فلا يخرج ثائراً ويريق الدماء من أجل قضية من هذا النمط، إنه لا يسفك دماً إلّا من أجل قضية كبرى وهدفٍ أعلى ومصلحة سامية ارتآها حفاظاً على هذا الدين

---

(١) الأبيات لعقيبة الأسدي. تاريخ مدينة دمشق ٢٦: ٤٧.

(٢) وهي قصّة مشهورة طويلة، انظر الإمامة والسياسة: ١٦٦ ـ ١٧٣.

وتشييداً له، وبناءً لأُسسه، والحفاظ على ثورته ونهضته التي بدأها من قبلُ جدّه الأكرم رسول اللهﷺ.

وهكذا نهضعليه السلام للمسألة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والأخلاقية؛ ولهذا فقد أقبلعليه السلام بجيشه وأنصاره، ومن خرج معه من صحابته، وانتهى به الأمر إلى أن يقف بوجه الباطل مع كثرته لأنه رأى أن الأموال تهين الكرامات، وأن الكرامات قد اعتدي عليها.

وهذه واقعة الحرة بين أيدينا، فقد قتل فيها عشرات الآلاف بما فيهم سبعمئة صحابي من حملة القرآن بعد أن أرسل إليهم يزيد حملةً لملاحقة عبد الله بن الزبير حيث قتله في الكعبة وأراق الدماء فيها بعد ثلاث سنين من قتل الإمام الحسينعليه السلام، ثم عرّج بذلك الجيش إلى الحرّة فقضى على الانتفاضة الإسلامية التي وقعت فيها ضد حكم يزيد وظلمه.

إن الإمام الحسينعليه السلام كان عارفاً عالماً بمزاج يزيد وبشخصه وبتوجهه الجاهلي وبنمطه العدائي للإسلام، وهو الذي رُبي عند أخواله النصارى ولهذا فإننا لا زلنا نسمع صوت الإمام الحسينعليه السلام مجلجلاً منذ يوم الطف حتى هذا اليوم، بل وإلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها، فقد وقف السبط الشهيدعليه السلام يوم ذاك يخطب في القوم قائلاً: **«تباً لكم أيتها الجماعة وترحاً، أحين استصرختمونا ولهين، فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، واحتطبتم علينا ناراً اقتدحناها لعدوّنا وعدوكم، فكنتم بذلك ألباً لأعدائكم علىٰ أوليائكم من غير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم؟ فهلا ـ لكم الويلات ـ تركتمونا والسيف مشيم، والجأش طامن، والرأي لما يستحصف! ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبا، وتداعيتم عليها كتهافت الفراش، فسحقاً لكم يا عبيد الأمّة وشذّاذ**

الأحزاب ونبذة الكتاب، أعنا تتخاذلون، وهؤلاء تنصرون؟ أجل والله غدر قديم وشجت عليه أُصولكم، وتآزرت عليه فروعكم، فكنتم بذلك أخبث ثمرة؛ شجىً للناظر وأكلة للغاصب. ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلة، وهيهات منّا مأخذ الذلّة يأبىٰ الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت ونفوس أبية وأُنوف حمية من أن نؤثر طاعة اللئام علىٰ مصارع الكرام».

فما كان جوابهم إلّا أن رموه بالسهام، وطعنوه بالسيوف والرماح، وإلّا أن ملؤوا جسمه الشريف جراحاتٍ وسهاماً وقسيّاً؛ مما اضطرّه إلى أن يرجع وهو يتمثّل بأبيات فروة بن مسيك المرادي:

«فإن نـهزِم فـهزّامون قدماً	**وان نُـهزم فـغير مُـهزَّمينا**
ومـا إن طـبّنا جُـبن ولكـن	**مـنايانا ودولةُ آخـرينا**
إذا مـا المـوتُ رفّـع عـن أُناس	**كَـلاكِـلَهُ أنـاخ بِـآخَرينا**
فأَفـنىٰ ذلكـم سَـرَواتِ قـومي	**كـما أفـنىٰ القُـرونَ الأوَّليـنا**
فـقُل للشّـامِتين بِـنا أَفِـيقُوا	**سَيلقَىٰ الشّـامِتُونَ كَما لَـقِينا»[1]**

وبعد أن بقي عليه السلام في ميدان القتال وحيداً فريداً يقلّب طرفه بين أصحابه وأنصاره وهم صرعى بين يديه، يناديهم فلا يجيبونه، ويستصرخهم فلا ينصرونه، رمق السماء بطرفه الشريف وقال: **«اللهم إني زاحف بهذه الأُسرة علىٰ قلّة العدد وخذلان الناصرِ».**

ثم ألحّت عليه السهام حتى سقط (صلوات الله وسلامه على جدّه وعليه) عن

---

(١) الاحتجاج ٢: ٢٥، بحار الأنوار ٤٥: ٨٣.

ظهر جواده، وجسده الشريف ينزف دماً عبيطاً، فأقبلت إليه أُخته الحوراء زينب عليها السلام تندبه:

نــــايم يــــخو زيـنب يـواعــي ... مَـــا هــــيّجنك هــــالنواعـــي

* * *

تَــــريبَ المُــحَيَّا تــظن السَّــماء ... بأنَّ عــــلىٰ الأَرض كــــيوانَـــها

غـــريباً أرىٰ يـــا غَــريبَ الدِّيــار ... تــــوسّد خَــــدّاه كُـــثبانَها[1]

---

(١) ديوان السيد حيدر الحلي: ١٠٨.

﴿١٨٤﴾

لهو الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: أسلوب الخطابات القرآنية

يلجأ القرآن الكريم في كثير من الأحيان إلى استعمال أُسلوب غير مباشر في خطاباته وبيان مراداته؛ فهو تارةً يطرحُ الحكم والعقاب معه بشكلٍ مباشر بينٍ وواضح، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى الله وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[2]، فهذا أُسلوب مباشر لأنه يعتمد على طرح الموضوع وذكر الحكم بعده. وفي أحيانٍ أخرى يبتعد القرآن الكريم عن مواجهة الجماعة مواجهةً مباشرة، والسبب في ذلك هو أن هؤلاء الذين نزل الخطاب بخصوصهم لا يعدلون شيئاً؛ لأنهم يعصون الله ما أمرهم. فهؤلاء لضآلة شأنهم ولصغر حجمهم يأنف القرآن الكريم من توجيه خطاباته

---

(١) لقمان: ٦.

(٢) الزمر: ٦٠.

إليهم إلّا إذا كانت هناك مناسبة أُخرى أو أسباب أُخرى تغلّبُ طرف هذا الخطاب فيتجه حينئذٍ.

فالقرآن الكريم يرى أن البعض من الناس يستحقُ أن يقدح فيه وأن يُوَجّه إليه السبُّ والقذف لكن العلاج القرآني لمثل هؤلاء يختلف باختلاف المقام أو باختلاف صفات الموضوع، فمثلاً نراه تارةً يستخدم الشدّة وتارةً يلجأ إلى اللين باعتبارهِ علاجاً أفضل مع البعض. بمعنى أن هناك من لا ينفع معه إلّا الشدة، وهناك من ينفع معه اللين، وقف أحد الشاميّين ـ ممّن ضُلّلوا وأُعطوا صورة مغلوطة عن أهل البيت وربّوا على بغضهم والحقد عليهم ـ في طريق الإمام الحسن، فلمّا جاء قال الشامي: هل هذا هو الحسن بن علي؟ فقيل: نعم. فقال خذوني إليه. فلما جاءه قال له: أنت ابن أبي تراب؟ قال: **«نعم»**. فراح يشتمه، فلم يردّ عليه الإمام وتركه حتىٰ ارتوى، ثم قال له: **«أحسبك غريباً؟»**. قال: نعم. قال: **«هلمّ بنا إلىٰ الدار، فإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت فقيراً أعطيناك، وإن كنت محتاجاً واسيناك»**. فالتفت إلىٰ الإمام قائلاً: لقد دخلت إلىٰ المدينة وليس علىٰ وجه الأرض أحد أبغض إليَّ منك ومن أبيك، وسوف أخرج وليس أحد عليها أحبّ إلي منك ومن أبيك.

فالإمام لم يواجه هذا الرجل باللين خوفاً منه أو ضعفاً أمامه، ولكنه نمط الأخلاق النبوية التي لا يتسم بها إلّا أهل الدين، والتي لا تكون إلّا من شيمٍ الأنبياء وأبناء الأنبياء وأخلاقهم وصفاتهم التي خلّقهم الله بها. وهنا يلتفت الإمام لأصحابه قائلاً: «**أفرأيتم قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾**[1]...»[2].

---

(١) فصلت: ٣٤.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٧٨.

وهذا يعني أن هناك نمطاً من الناس يصلحه الخلق الكريم لا القوة أو الشدة؛ وعليه فإن على الإنسان أن يفكر فيما يقوم به قبل أن يُقدم على عملٍ ما.. عليه أن يرى أي منهجٍ يستعمل مع هذا الموضوع كي يتمكن من الوصول إلى النتيجة بأقصر الطرق وأقربها وأحسنها وأسلمها، ورحم الله القائل:

ووضع الندى في موضع السيف بالعدى مضرّ كوضع السيف في موضع الندى

فلكلّ مقامٍ مقال، ولكلّ حالةٍ حال، وهذا يعني أن الإنسان العارف الحكيم لابدّ أن يتنبّه إلى الأُسلوب الصحيح الذي سوف يخدم هدفه الذي يسعى وراء تحقيقه.. الأُسلوب الصحيح الذي يوصله إلى ذلك الهدف بأقصر وقتٍ.. الأسلوب الذي يجب عليه أن يتّبعه فيحصدَ منه أكبر قدرٍ من النتائج الإيجابية في عملية تحقيق الهدف المشروع.

إذن فالقرآن الكريم حينما لم يواجه هؤلاء في هذا الموضع، بل استعمل أسلوباً فيه نوعٌ من الالتفاف لأنه يرى أن هؤلاء لا ينفعهم ولا يجدي معهم شيء سوى هذه الطريقة؛ لأنه تعالى أعلم بحقائق الناس وطبائعهم وما ينفعهم وما يضرهم وما يصلحهم وما لا يصلحهم.

المبحث الثاني: المراد من ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾

تقول الآية الكريمة: **﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾**، فالآية الكريمة تتكلّم عن شريحة من الناس، وللمفسرين حول هذه الشريحة رأيان: فبعض المفسرين يقولون: إنها بخصوص شريحة معينة من الناس، وبعضهم يقولون: إنها على إطلاقاتها. ثم انقسم هؤلاء المفسرون حول معنى اللهو الوارد في الآية إلى قسمين:

الأوّل: أنه الغناء

والواقع أن موضوع الغناء ليس بمورد أخذٍ ورد بين المذاهب الإسلامية، فجمهور فقهاء المسلمين يقولون بحرمته لكن بعضاً منهم يقول: إن هناك لوناً منه محرماً وآخر غير محرم. إذن فنحن حينما نتكلم عن هذا الموضوع فإنما نتكلم على مستوى المذاهب الإسلامية كلها، وليس على مستوى المذهب الإمامي فقط. وهذا الموضوع لا تؤخذ الحرمةُ فيه لذاتِه، بل لما يعقب مجالسه من انحلال، وما تستلزمه من دوافع انحلالية تهدم المجتمع.

وهذا الأمر قد ابتليت به الإنسانية؛ لأن العامةَ ليسوا فقط هم من يمارسونه، فإن الخلفاء الذين يدّعون بأنهم قادة المسلمين وأيمتهم كانت مجالسهم عامرةً بهذا اللون من ألوان اللهو. إن هذا الخليفة يصلي بالمسلمين جماعة، والمفروض به أن يأمرهم بالمعروف والخير وينهاهم عن المنكر والشر، لكننا حينما نمر بسيرة الخلفاء الأمويين أو العباسيين ـ ممن يسمى خليفةً ظلماً ـ نجد أن هذا اللون من ألوان اللهو المحرم مستشرٍ عندهم إلى درجة أنه كان يسيطر على كل حواسهم وأعمالهم.

ومن حق أي متتبع أن يستغرب كيف يمكن الجمع بين أعمال هؤلاء المحرمة، وبين القول بعدالتهم كما عند بعض المسلمين؛ فمن ذلك أن هشام بن عبد الملك كان يبعث خلف حماد ليلاً ليحمل إليه في مركبٍ فارهٍ ويعطيه أجوراً ضخمة للسفر وللتوسعة على حاله حتى يصل إليه ليجده جالساً على رخامٍ مطعمٍ بالذهب وبين يديه الغلمان والأرائك والجواري؛ ليسألهُ عن بيت شعرٍ قد غنّاه أحدهم في مجلسه، تقول الرواية: إن حماداً الراوية كان في جامع الرصافة فإذا شرطيان قد وقفا عليه وقالا: يا حماد أجب الأمير يوسف بن عمر الثقفي، وكان والياً على العراق. قال: فصرت إلى يوسف بن عمر وهو في الإيوان الأحمر، فسلمت عليه

فرد علي السلام ورمى إلي كتاباً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. من هشام إلى يوسف بن عمر، أما بعد: فإذا قرأت كتابي هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به من غير ترويع، وادفع له خمسمئة دينار وجملاً مهرياً يسير عليه إلى دمشق.

يقول: فأخذت الدنانير ونظرت فإذا جمل مرحول فركبته وسرت حتى وافيت دمشق في اثنتي عشرة ليلة، فنزلت على باب هشام واستأذنت فأذن لي، فدخلت عليه في دار قوراء مفروشة بالرخام وبين كل رخامتين قضيب ذهب وحيطانه كذلك، وهشام جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب خز حمر وقد تضمخ بالمسك والعنبر، وبين يديه مسك مفتوت في أواني ذهب يقلبه بيده فتفوح رائحته، فسلمت عليه فرد علي السلام واستدناني فدنوت حتى قبلت رجله، فإذا جاريتان لم أرَ مثلهما قط، في أذن كل جارية حلقتان فيهما لؤلؤتان تتقدان، فقال: كيف أنت يا حماد؟ وكيف حالك؟ فقلت: بخير فقال: أتدري فيم بعثت إليك؟ قلت: لا. قال: بعثت بسبب بيت خطر ببالي لا أعرف قائله. قلت: وما هو؟ قال:

ودعوا بالصبوح يوماً فجاءت ... قينة في يمينها إبريقُ

فقلت: يقوله عدي بن زيد العبادي في قصيدة. قال: أنشدنيها. فأنشدته:

بكر العاذلون في وضح الصبـ ... ـح يقولون لي أما تستفيقُ

ويلومون فيك يا ابنة عبد الـ ... ـله والقلب عندكم موهوقُ

لست أدري إذ أكثروا العذل فيها ... أعدوّ يلومني أم صديقُ

حتى انتهيت فيها إلى قوله:

ودعوا بالصبوح يوماً فجاءت ... قينة في يمينها إبريقُ

قدّمته على عقار كعين الـ ... ـديك صفّى سلافها الراووقُ

مزّة قبل مزجها فإذا ما ... مزجت لذّ طعمها من يذوقُ

وطـــفا فـــوقها فـقاقيع كـاليا قـوت حـمر يـزينها التـصفيقُ
ثـم كـان المـزاج مـاء سـحاب لاصـــرى آجـن ولا مـطروقُ

فطرب هشام، ثم قال: أحسنت يا حماد، ثم قال: اسقيه يا جارية. فسقتني شربتين فذهب ثلثا عقلي، فقلت: إن سقيت الثالثة افتضحت. ثم قال: سل حوائجك كائنة ما كانت. قلت: إحدى الجاريتين. قال: هما لك بما عليهما من حلي وحلل.

ثم قال للأُولى: اسقيه. فسقتني شربة سقطت معها، فلم أعقل حتى أصبحت فإذا أنا بالجاريتين عند رأسي وإذا خادم يقدم عشرة خدم مع كل واحد بدرة، فقال: أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول لك: خذ هذه فانتفع بها في شأنك. فأخذتها والجاريتين ،وأقمت عنده مدة فوصلني بمئة ألف درهم، فانصرفت من عنده وأنا أيسر خلق الله تعالى [1].

وهي قصة ينقلها أكثر المؤرّخين، وهنا مثار الاستغراب والتعجب؛ لأن الخليفة يجب أن يكون اهتمامه منصبّاً على خدمة الإسلام والمسلمين ورعاية شؤونهم والنظر في أمورهم والسهر على تحقيق العدل فيهم وبينهم، لكننا نجد أن اهتمام الخليفة هنا منصبٌ على بيت شعرٍ غنّاه أحدهم عنده ثم أراد أن يعرف منشده. فهذا الخليفة بدلا من أن يبعث بركبٍ ليتعرف أحوال الناس أو ليحرس أرواحهم وأموالهم نجده يبعث بركبٍ ليحضرَ له شخصاً يخبره عمن غنّاه بيتاً من الشعر.

وهذا نمطٌ واحد، وهناك أنماطٌ أخرى كثيرة لا يمكن حصرها أو ذكرها في هذه المحاضرة، وهي أنماط تشير إلى أن الخلفاء الأمويين والعباسيين كان عندهم

---

(١) الأغاني ٦: ٨٥، ٨٦، ١٠١، الفرج بعد الشدّة ٢: ٣٥٣ ـ ٣٥٥، تاريخ مدينة دمشق ١٥: ١٥١ ـ ١٥٢، وفيات الأعيان ٢: ٢٠٧ ـ ٢٠٩، الوافي بالوفيات ١٣: ٨٥ ـ ٨٧.

هذا الحس من اللامسؤولية؛ فكل خليفةٍ ـ كما تحدثنا كتب التاريخ عن ذلك ـ كان يهتم بلون من ألوان الغناء والمغنين كالرشيد وغيره ممن سبقه أو ممن جاء بعده.
فالوليد كان ممن ينغمس في هذه المجالس، وقد دخل عليه ابن عائشة فغناه:

إنـي رأيت صـبيحة النـحرِ ... حـوراً نـعين عـزيمة الصـبرِ

مـثل الكـواكب فـي مـطالعها ... عـند العشـاء أطـفن بـالبدرِ

وخرجت أبغي الأجر محتسباً ... فـرجـعت مـوفوراً مـن الوزرِ

فقال له الوليد: أحسنت والله، أعد بحق عبد شمس. فأعاد فقال: أحسنت والله، بحق أمية أعد. فأعاد فجعل يتخطى من أب إلى أب ويأمره بالإعادة حتى بلغ نفسه، فقال: أعد بحياتي. فأعاد فقام إلى ابن عائشة فأكبّ عليه ولم يُبقِ عضواً من أعضائه إلّا قبله، وأهوى إلى عورته فجعل ابن عائشة يضمها بين فخذيه، فقال الوليد: والله لا زلت حتى أقبلها. فقبّلها وقال: وا طرباه وا طرباه، ونزع ثيابه فألقاها على ابن عائشة وبقي مجرداً إلى أن أتوه بثياب غيرها، ودعا له بألف دينار فدفعت إليه وحمله على بغلة وقال: اركبها على بساطي وانصرف فقد تركتني على أحرّ من جمر الغضا[1].

---

(١) الكنى والألقاب ١: ٣٤٦، مروج الذهب ٣: ٢٣٩.
وهو القائل:

تـلعّب بـالخلافة هـاشمي ... بـلا وحـي أتـاه ولا كـتابِ

فـقل لله يـمنعني طـعامي ... وقـل لله يـمنعني شـرابـي

مروج الذهب ٣: ٢٤٠.
وهو الذي مزّق المصحف الشريف، ذلك أنه تفاءل يوماً في المصحف فخرج له قوله عز وجل: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ إبراهيم: ١٥. فمزّق المصحف وأنشأ يقول:

أتـوعد كـل جـبار عـنيد ... فـها أنـا ذاك جـبار عـنيدُ

إذا ما جـئت ربك يـوم حشـر ... فـقل يـا رب مـزقني الولـيد

فهذا خليفةٌ ومع ذلك يقبل كل عضوٍ في هذا المغني حتى أعضاءه التناسلية، فهل هو خليفة شرعي؟ وهل هذه منزلة رسول الله عندهم؛ لأنهم يدّعون خلافته؟ إن هؤلاء قد شوّهوا الإسلام وشوّهوا تعاليمه، وأردوا أن يرجعوا به إلى عصر الجاهلية المقيتة. فهذا الخليفة سوف يقصد المسجد بعد ساعةٍ أو أقل لصلاة الفجر ـ لأنه يكون قد أحيا ليله بالغناء واللهو والسهر ـ ليصلي بهم، فكيف يصلي بالمسلمين؟ وكيف يمكن أن يلتقي هذا النمط من التصرف غير الشرعي، بل والمحرم مع هذه المسؤولية التي يقوم بها هذا الشخص؟

ونحن حينما نتكلم عن هذا فإننا نتكلم عن موضوعٍ يكاد يلتقي عليه جمهور مؤرخي المسلمين، فهؤلاء الذين يدّعون أنهم خلفاء يصل بهم الأمر أنهم يستهزئون بالأولياء بحيث إنهم يطلبون منهم القيام بهذا العمل، ومن هذا ما فعله المتوكل مع الإمام الهادي، فقد سُعي إلى المتوكل به، وقيل له: إن في منزله كتباً وسلاحاً من شيعته من أهل قمّ، وإنه عازم على الوثوب على الدولة. فبعث إليه جماعة من الأتراك، فهجموا على داره ليلاً، فلم يجدوا فيها شيئاً، ووجدوه في بيت مغلق عليه، وعليه مدرعة من صوف، وهو جالس على الرمل والحصى وهو متوجه إلى الله تعالى يتلو آيات من القرآن. فحمل على حاله تلك إلى المتوكّل وقالوا له: لم نجد في بيته شيئاً ووجدناه يقرأ القرآن مستقبل القبلة، ووجدنا عنده هذه البدرة.

وكان المتوكل جالساً في مجلس الشرب والكأس في يده، فلما رآه هابه وعظمه وأجلسه إلى جانبه، وناوله الكأس التي كانت في يده فقال: «**والله ما خامر**

☚ فلم يلبث إلّا أياماً حتى قتل شرّ قتلة، وصلب رأسه على قصره، ثم على سور بلده. المصدر نفسه، الجامع لأحكام القرآن ٩: ٣٥٠.

لحمي ودمي قط، فاعفني». فأعفاه، ثم قال: ما هذه البدرة؟ قال عليه السلام: **«أهدتنيها أمّك؛ فقد أصابك خرّاج فسألتني علاجاً له، فقلت لها: علاجه كذا وكذا. فشفيت به»**. فقال له: أرنيها. فأراه إياها، فوجد ختم أمّه لا زال عليها. ثم قال: أنشدني شعراً. فقال عليه السلام: **«إني قليل الرواية للشعر»**. فقال: لابدّ من ذلك. فأنشده عليه السلام:

«باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غلب الرجال فلم تنفعهم القللُ

واستنزلوا بعد عز من معاقلهم ... وأسكنوا حفراً يا بئسما نزلوا

ناداهُمُ صارخ من بعد دفنهِمُ ... أين الأساور والتيجان والحللُ

أين الوجوه التي كانت منعّمة ... من دونها تضرب الأستار والكللُ

فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتلُ

قد طالما أكلوا دهراً وقد شربوا ... وأصبحوا اليوم بعد الأكل قد أُكلوا»

فبكى المتوكل حتى بلت لحيته دموع عينيه، وبكى الحاضرون، ودفع له عليه السلام أربعة آلاف دينار، ثم رده إلى منزله مكرما [1].

وعلى كل حالٍ فإن هؤلاء كانوا يحيون هذه المجالس، وكانت قصورهم عامرةً بها حتى الصباح، بل ربما توافي أحدهم منيته وهو في هذا المجلس كما كان حال المتوكل حيث إن لحمه اختلط مع كؤوس الخمرة، ومات بين أحضان البغايا [2].

فهذا اللون هو لهو الحديث؛ لأنه يجعل صاحبه يملأ سمعه به دون سمع أصوات

---

(١) كنز الفوائد: ١٥٩، بحار الأنوار ٥٠: ٢١١ ـ ٢١٢، تاريخ الإسلام ١٨: ١٩٩ ـ ٢٠٠، الوافي بالوفيات ٢٢: ٤٨ ـ ٤٨.

(٢) بحار الأنوار ٥: ١٩٢ ـ ١٩٤ / ٩، ٩٢: ٢٣٤ ـ ٢٣٦ / ٣٠، ثمار القلوب (الثعالبي) ١: ١٩١ ـ ١٩٠. قال أحمد بن إبراهيم الأسدي:

هكذا فلتكن منايا الكرام ... بين ناي ومزمر ومدامِ

بين كأسين أروتاه جميعاً ... كأس لذّاته وكأس الحمامِ

الصالحين. كما أنه كلما كانت ألفاظه بذيئة كلما حملت سامعها على التردي في الهاوية. ومن هذا إن هناك من يدّعي أنه من الفقهاء وهو ليس بفقيه، ولا يمكن أن يطلق عليه هذا الاسم، نجده يطلق الفتاوى على عواهنها دون معرفةٍ بمأخذها ومدركها؛ فقد كان فقهاء المسلمين يقضون أعمارهم في الدرس والبحث والمتابعة حتى يتمكنوا من أن يستنبطوا حكماً شرعياً أو يصلوا إلى فتوى معينة.

وهذه القابلية لا تأتي بسهولة لأنها تستغرق غالب عمر الإنسان حتى إن الشهادات العليا الأكاديمية تعد أمام هذا الكم الهائل من الدراسة شيئاً لا قيمة له. لقد سمعت اليوم الشيخ الشعراوي يفتي بحرمة نقل عضوٍ من جسد الإنسان إلى إنسان آخر، وقد تناقلت الصحف ووسائل الإعلام هذه الفتوى، وهو يدّعي في فتواه هذه أن في هذا العمل نوعاً من الانتحار؛ لأنه يعتبره إزهاق روح، مع أن الواقع خلاف هذا؛ فالانتحار إزهاق للروح وليس في نقل العضو هذا إلى جسد آخر إزهاق لها بل ربما كان فيه حياة لذلك الشخص الذي يحتاج كلية أو أي شيء آخر تتوقف عليه حياته. ثم إن للإنسان سلطنةً على نفسه، وهو حينما يتبرع بعضوٍ من أعضائه شريطة ألّا يؤدي إلى تلف حياته أو إلى موته يكون قد استخدم حدود هذه السلطنة؛ لأنه مسلط على جسده. ومع هذا نجد مثل هذه الفتوى التي تسخر لها وسائل الإعلام فتناقلتها على جميع مستوياتها.

إن هذا الأمر يجب أن يترك إلى الأزهريين.. إلى شيخ الأزهر مثلاً لأن هذا عمله وهو اختصاصه والمتوجه له.

على أية حال فليس معنى أن الإنسان حينما يدرس فترة وجيزة يصبح مفتياً أو من حقه أن يفتي؛ لأن الفتوى تنم عن فهم الدليل وعن القابلية والقدرة على استنباطها منه، فهي قابلية على تفريعٍ من أصل، وهذا لا يمكن أن يقوم به إلاّ ذوو

الاختصاص. وهذا مثله مثل من لم يدرس الطب ثم يقف في الشارع ويروح يصف للناس أنواع العلاجات لأمراضهم دون أن يكون قد عرف خواصّها ومنافعها ومضارّها، فهذا حتماً سوف يؤدي إلى هلاك هؤلاء. فالفقه مثل هذا، بل وأخطر منه، فلا يجوز لأي إنسان أن يفتي ما لم يتمكن من أن يصل إلى مرحلة الإفتاء.

وحينما يقول القرآن الكريم: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] فهو إنما يعني بهم الفقهاء الذين لهم القابلية على استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها، وهذا لا يتم إلّا بعد معرفة علوم كثيرة يستطيع من خلالها أن يعرف معاريض كلام القرآن وكلام السنة المطهرة. فالإفتاء من المسائل الخطرة على أصحابها؛ لأنها تتعلق بحياة المجتمع ككل.

إذن فموضوع الغناء هو موضوع شبه مفروغٍ منه بين جمهور فقهاء المسلمين سيما إذا كانت كلماته منحطةً.

ماهيّة الغناء

إن الغناء يتركب عادةً من شيئين:

الأول: المادة. ويراد بها الكلمات المغناة، وهي الكلمات التي توضع لهذا الغرض.

الثاني: الصورة التي يراها الإنسان أثناء ممارسة هذا اللون من اللهو. فبعض الفقهاء يرى أن الصوت ما لم يكن فيه ترجيع، وكان في مدح الرسول ﷺ مثلاً فإنه لا حرمة فيه، ومن ذلك قصائد المدح المغناة التي تمتدح الرسول ﷺ وغيره من الأولياء.

---

(١) النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧.

وهذا الموضوع شائك ومعقد من هذه الناحية، ولا أُريد أن أخوض به في هذه المحاضرة؛ لأنها لا تتسع له، لكن أُريد أن أُبين هنا أن بعض المفسرين يحمل لهو الحديث على هذا اللون من ألوان اللهو وهو الغناء.

وللحقيقة نقول: إن الآية الكريمة بعيدةً كل البعد عن هذا الوجه إلّا أن يثبت عن المعصومين﵈، فإذا ثبت ذلك عنهم وجب الأخذ به؛ لأنه كلام صادر عن معصوم، وهو بذلك يصبح نصاً.

الثاني: أنه الزنا

ويذهب إلى هذا الرأي المراغي في تفسيره حيث إنه يقول: إن المقصود هنا هو النضر بن الحارث، فهذا كان يشتري الجواري المسبيات اللائي يجاء بهن من أفريقيا أو الخزر أو النبط أو من جهات أُخرى من مختلف الجنسيات، ثم يأمرهن بمعاشرة المسلمين ليصرفهم عن دينهم، وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلّا انطلق به إلى قينته فيقول: أطعميه واسقيه وغنّيه. ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه، فنزلت هذه الآية الكريمة [1].

بمعنى أنه كان يعمد إلى استغلال الجانب الجنسي في هذا المجال، فهو يستزلّ هؤلاء ويبعدهم عن الله وعن الدين بهذا الطريق. وقد استعمل هذا الأُسلوب كثيراً ضدّ المراكز الدينية حيث يقوم أصحاب هذا الأسلوب القائمون عليه لإنزال الناس إلى بؤرة الرذيلة عن طريق الخمر والفجور، وهذا يهدف من ورائه إذابة الجماعة؛ لأن المراكز الدينية تشكل عنصر خطر على الظلم والظالمين. يقول العلائلي: كان يزيد يستأجر المغنين والمخنثين ويبعثهم إلى مدينة رسول اللهﷺ؛ لأنها تعتبر مهد الإشعاع الإسلامي ومنطلق النور المحمدي الإلهي، ولأنها مهبط الوحي ومنطلق

---

(١) المصدر غير متوفّر لدينا، انظر روح المعاني ٢١: ٦٧.

الروح الإسلامية. وهي بهذا تشكل عنصر خطر عليه، فأراد أن يذوبها بهذا الأسلوب.

ولو رجعنا إلى كتاب (الأغاني) أو إلى كتب المؤرخين الآخرين فإننا نلاحظ أن هؤلاء قد حولوها إلى مدينة أُخرى غريبة عن الإسلام؛ فبدلاً من أن تسمع صوت الصحابة في الليل وهم يقرؤون القرآن أو يعمرون مسجد الرسول ﷺ بأصوات الدعاء فإننا نجد فيها أصوات المغنين وغيرهم.. هذه المدينة الطيبة التي تعبق بعطر الوحي، يقول أحد الشعراء:

طيبةٌ يا شذى البساتين طِيباً	**يا هديلَ المُرَجِّعِ الأُغرودِ**
يا رُؤَى جبرئيل والنور والأنـ	**ـغام في نظرة الكتاب المجيدِ**
يا عطاء القرآن يصنع دنيا الـ	**ـحبّ في أُمّة من الجلمودِ**

فالمدينة هي ليالي القدر الكريمة، وهي رؤى جبرائيل والنور، وهي مهد القرآن، لكننا نجد كل ذلك بفضل من يتسمون خلفاء قد تحول إلى لهوٍ ومجالس أنس وطرب وخمور وما إلى ذلك مما يصحبه من ألفاظٍ نابيةٍ ممجوجة؛ فنجدها تعجّ بالمغنين من أمثال ابن أبي العرجاء والعرجي وعشراتٍ غيرهما.

إن هؤلاء حاولوا أن يطمسوا معالم المدينة المنورة، وأن يذوبوا المناعة التي كانت تمتاز بها.

إذن فالنضر بن الحارث كان يمارس هذا الدور مع المسلمين في ذلك الوقت فكان يأمر جواريه بأن يخضبن أكفهن بالحناء ويتغنين بهجاء النبي ﷺ وشتمه، وكان من أمره أنه خرج لقتال النبي ﷺ في سرية من السرايا فجاؤوا به أسيراً إلى النبي ﷺ فقدموه بين يديه ليضرب عنقه فقال له: يامحمد، استبقني للصبية والعائلة. فقال له ﷺ: **«إن استبقيتك لهم، فهل ترجع عمّا أنت فيه؟»**. فقال: نعم.

فعفا عنه رسولنا الأكرم ﷺ وأطلق سراحه، لكنه لم يحفظ العهد، بل عاد بأشدّ ممّا كان، وراح يمارس طريقته تلك بشكل أكبر، ثم جيء به أسيراً مرّة ثانية في معركة بدر، فأدخلوه على رسول الله ﷺ، فقال له: **ألم أعفُ عنك؟**». فقال: استبقني للصبية. فرفض ﷺ ذلك ثم أمر به فقتل.

إن البعض من الناس يظن أن الناس مغفلون ويستطيع أن يخدعهم، وهذا في واقع أمره هو المغفل، لقد أصبحت عند الرسول الأكرم ﷺ خلفية واضحة عن النضر هذا من خلال عفوه الأول عنه وعودته إلى ما كان عليه، ولهذا فإن الرسول ﷺ لم يعفُ عنه في الثانية، وكان النضر هذا من أشد المغفلين؛ لأنه ظن أنه يستطيع أن يخدع الرسول الأكرم ﷺ.

وقد كتبت أُخته قتيلة أو ابنته إلى النبي ﷺ قبل إسلامها أبياتاً من الشعر رائعةً هزت النبي ﷺ، وهي قطعة من الشعر فيها نصوعٌ وأداء مباشر وجاء في هذه الأبيات:

يا راكباً إن الأثيل مظنّة	من صبح خامسة وأنت موفّقُ
أبلغ به ميتاً فإن تحيّة	ما إن تزال بها النجائب تخفقُ
مني إليه وعبرة مسفوحة	جادت بواكفها وأُخرى تخنقُ
هل يسمعن النضر إن ناديته	بل كيف تسمع ميتاً لا ينطقُ
ظلّت سيوف بني أبيه تنوشه	لله أرحام هناك تشقّقُ
صبراً يقاد إلى المنيّة متعباً	رسف المقيّد وهو عانٍ موثقُ
أمحمد ولدتك صنو نجيبة	من قومها والفحل فحل معرقُ
ما كان ضرّك لو مننت وربما	منّ الفتى وهو المغيظ المحنقُ
النضر أقرب من أسرت قرابة	وأحقّهم إن كان عتق يعتقُ

فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك تألّم كثيراً وبكى حتى اخضلّت بالدموع لحيته وقال: «**لو بلغني شعرها قبل أن أقتله لعفوت عنه**»[1].

و الأثيل: منطقة وقعت فيها حادثةُ قتل النضر. فهي تقول هنا: أيها الراكب المسافر إذا وصلت الأثيل بعد خمسة أيامٍ فإني أتمنى لك التوفيق والسلامة.

وهنا قد يقول قائل: إذا كان هذا قد أجرم جرماً يستحق عليه العقاب وقد أُوقع هذا العقاب عليه، فكيف يمكن أن يطلقه النبي ﷺ لو وصله شعر أُخته قبل قتله؟

والجواب أن هذا ليس بعيب، وهو إشكال يدخل ضمن نزاعٍ واقع بين المسلمين أو بين متكلّمي المسلمين حول وجوب الوفاء بالوعد والوعيد على الله جل وعلا، بمعنى أن الله جل وعلا هل يجب عليه أن يفي بالوعد والوعيد على حدٍ سواء؟ فإذا وعد بالجنة أو أوعد بالنار فهل يجب عليه فعل ذلك مع من وعده أو من أوعده؟ الأكثر منهم يقول: إن عليه الوفاء بالوعد دون الوفاء بالوعيد لأن خُلف الوعد عيبٌ وخُلف الوعيد ليس بعيب؛ فحينما يعد الله الإنسان الجنة ثم لم يعطه الجَنّة فإن هذا أمرٌ معيب، لكن حينما يوعدهُ النار ثم لم يدخله فيه لرحمة منه تعالى تتداركه فإن هذا ليس بعيب بل هو الإنعام بعينه. فعدم الوفاء بالوعيد هو نعمة وليس عيباً حتى يُذَم.

والنبي ﷺ يترجم القرآن ويترجم أفعال السماء، فحينما يريد أن يعفو عن هذا وإن كان مستحقا للقتل فإن هذا يعتبر نعمة وليس بعيبٍ أبدا.

إذن فهذا المفسر يذهب إلى أن لهو الحديث هو الفاحشة التي كان يشيعها النضر بين المسلمين عن طريق هؤلاء الفتيات وعن طريق شتم النبي ﷺ حتى يبعدن

---

(١) الاستيعاب ٤: ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ / ٤٠٧٠، شرح نهج البلاغة ١٤: ١٧١، أحكام القرآن ٤: ١٣٢، الجامع لأحكام القرآن ٨: ٥٩، الثقات ١: ١٤٤.

الناس عن طريق الإسلام.

الثالث: أنه البِدَعُ والخرافات والضلالات

وهذا هو رأي أغلب المفسرين؛ وعليه فإن المقصود بلهو الحديث في الآية الكريمة هو ما يلهي الناس عن الإسلام من السخرية به وبالقرآن وبالدين عن طريق الضلالات والخرافات والبدع والآراء والأهواء المضلّة التي ينتحلها البعض ليطمس معالم هذا الدين. وهذا يقع على عدّة أنماط، منها:

النمط الأول: السخريةُ من وجود الجنة

وذلك أن يقول قائل: أين هي الجنّة التي تتكلمون عنها وتصفونها كما يصفها القرآن بقوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]، ثم يضحك ساخراً ليُضحك الذين من حوله ساخرين من هذه الحقيقة. وهؤلاء الذين يسخرون هم في حقيقتهم أجهل الجُهّال؛ لأن هؤلاء لا يفهمون معاريض الكلام العربي، ولا استئناس لهم باستعمالات القرآن واستخداماته، فالقرآن الكريم حينما يستعمل لفظ السماوات والأرض فإنه يقصد بها هذه المجموعة الشمسية التي نعيش فيها، فالسماء هو كل ما سما الإنسان أي علاه، والأرض هي كل ما وطئه بقدمه. وبالرجوع إلى معطيات العلم الحديث نجد أن الإنسان قد اكتشف أكثر من ثلاثة وثلاثين مليون مجموعة نجمية، ونحن لا نعلم من هذه العوالم البعيدة شيئاً، بل إننا نجهل حتى مجموعتنا الشمسية. فالقرآن حينما يقول: (عرضها السماوات والأرض) فإنه يقصد هذه المجموعة وليس ذلك الكون الذي هو أوسع من هذه المجموعة.. هو عالم فسيح مترامي الأطراف، مستمر التوسع. فيمكن

---

(١) آل عمران: ١٣٣.

للجنة بهذا أن تُوجد على أيةِ مجموعة أُخرى من هذه الملايين منها. إذن فلا وجه ولا مورد لهذا التساؤل الجاهل.

النمط الثاني: السخرية من إعادة الخلق

وهو أن يقول بعضٌ منهم: كيف يمكن لهذا الإنسان الذي بعد أن يُدفنَ بفترةٍ وجيزةٍ ويصبحُ تراباً، أن يخرج ويرجع إنساناً كما كان ؟ وهذا أيضاً سؤالٌ ناتجٌ عن جهلٍ وعدم معرفة؛ لأن النطفة التي يتكون منها الإنسان ما هي إلّا عبارة عن تراب؛ لأنها جزءٌ متكوّن من مادة غذائية، والغذاء إما حيوان وإما نبات، وكلاهما أصلهما التراب، فالنبات من الأرض يمتص معادنها ويمتص أملاحها ويمتص مركباتها ثم يأكله الإنسان وتتكون منه النطفة. فإذن هذه النطفة هي عبارة عن تراب لكنها بعد ذلك تحولت وأصبحت كائناً بشرياً كاملاً عاقلاً متحركاً مريداً.

وبهذا يتّضح أنه إذن لا وجه لهذا الإشكال؛ لأن صاحبه لعدم تمكنه من الربط بين هذه المراحل يُعدّ جاهلاً، بل إنه لا يستحقُ حتى الردّ عليه. إذن فالنقطة الأُولى التي انطلق منها الإنسان هي التراب. ولذا فإنه يرجع إلى التراب والدليل على هذا أن الآية الكريمة قد عقبت ذلك بالقول: **﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾**. والقرآن الكريم يُحاجّ هؤلاء بقوله: **﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾**[1]، فهؤلاء قد خلقناهم أولاً من تراب، فكيف يمكن أن يعقلوا أننا نعجز عن إعادتهم بعد أن خلقناهم؟ كما أنه يلجأُ إلى أساليب أخرى للتدليل على قدرة الله جل وعلا على خلقهم وإعادتهم، ومن ذلك قوله تعالى: **﴿أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ**

---

(١) ق: ١٥.

وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾[١] وكذلك قوله: **﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾**[٢].

وتحضرني هنا حادثة وقعت بين مؤمن الطاق وبين أحدهم[٣]، فقد جاءه يوماً فقال له: أُريد أن تقرضني شيئاً من المال. فقال له: ليس عندي الآن. فقال له: أنت تخشى ألّا أُسدّدها لك، أعطني وسوف أُعطيكها في اليوم الذي تقولون بأننا سنرجع فيه.. في الرجعة. فقال له: حسناً سأُعطيك، لكن بشرط أن تضمن لي ألّا تُمسخ قرداً[٤].

فهذا لونٌ من السخرية بالعقائد وهو بالنتيجة سخرية بالدين. ولو رجعنا إلى المؤلفات التي كُتبت في مطلع القرن العشرين لوجدنا فيها سخريةً كثيرة بأمور العقائد والدين، فهي تصف الدين بأنه مشروع رجعي، وأن التعاليم الدينية هي مسائل خرافيةٌ رجعيةٌ تنتشر بين المجتمع وتسبب ضياعه وتخلفه؛ لأنها تعود به إلى الوراء. أما الآن فإننا نجد أن هناك جديةً في معالجة مثل هذه الأمور الدينية، وقد انتهى ذلك التوجه المعارض والساخر من الدين بنسبةٍ كبيرة؛ لأن العلم يميل إلى أن الكون لا يمكن أن يكون قد وُجِد عبثاً أو صدفةً من غير أن تكون هناك قوةٌ مريدةٌ حكيمةٌ توجهه، وهي قوةٌ عاقلةٌ ومدبرة.

وبهذا فقد اختلفت النظرة إلى الرسالات السماوية وإلى الديانات، فبعد أن كانت هذه الديانات تلقى الهزء والسخرية من هؤلاء نجد أن هذه الموجة قد انحسرت الآن بفضل الاكتشافات العلمية الأخيرة.

---

(١) يس: ٨١. (٢) الحجر: ٩٥.

(٣) هو أبو حنيفة.

(٤) الاحتجاج ٢: ١٤٨، تاريخ بغداد ١٣: ٤١١.

النمط الثالث: السخرية من الرسول ﷺ

فهؤلاء مثلاً يسخرون من الرسول الأكرم ﷺ ويقولون بأنه ليس له من شغلٍ سوى كثرة الزواج وسفك الدماء، ففي كل يوم له حرب أو غزوة أو سرية. وهذا لون آخر من ألوان الجهل لقائله ولمصدقه. ودليل جهل صاحب هذا القول أو المعتقد به أنه لو كان النبي ﷺ ممن يبحث عن اللذائذ لما تزوج من نساء بعضهن تتجاوز أعمارهن الخمسين أو الستين عاماً، فمثل هذه المرأة لا يمكن أن تحصل معها تلك اللذة. إذن فلا بد أن تكون هناك أهداف أخرى وراء هذا الزواج غير تلك اللذة المنحطة؛ وهذه الأهداف تارة تكون اجتماعية، وتارة تكون سياسية، وتارة تكون دينية من أجل خدمة الإسلام وتوثيق مصالحه ووجوده.

النمط الرابع: سخرية أبي جهل وابن الزبعرى من القرآن الكريم

ومن أنماط السخرية أيضا أنه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿**أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ**﴾[1] سمعت قريش هذه الآية فقالت: ما نعرف هذه الشجرة؟ فقال ابن الزبعرى: الزقوم بكلام البربر ـ وفي رواية اليمن ـ التمر والزبد. فقال أبو جهل لجاريته: يا جارية، زقّمينا. فأتته الجارية بتمر وزبد، فقال لأصحابه: تزقّموا بهذا الذي يخوّفكم به محمد، فيزعم أن النار تنبت الشجرة، والنار تحرق الشجرة. فأنزل الله سبحانه: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ**﴾[2]، أي المشركين[3].

إن أبا جهل كان في مجيئه ورواحه يسخر من النبي ﷺ ويضحك الجالسين

---

(١) الصافات: ٦٢. (٢) الصافات: ٦٣.

(٣) مجمع البيان ٨: ٣٠٩، الجامع لأحكام القرآن ١٥: ٨٥.

ويدفعهم إلى السخرية منه أيضاً. ومن مظاهر سخريته أنهم نحروا جزوراً وبقي فرثه، فأمر جاريته بأن تلقي الفرث على رسولنا الأكرم عند تمام سجوده، وروي أنه قال: ألا رجل يقوم إلى هذا القدر يلقيه على محمد؟ فقام شخص هو أشقى القوم، وهو عقبة بن أبي معيط، وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبي ، فاستمرّ ساجداً حتى جاءته فاطمة الزهراء بعد ان أُخبرت فألقته عنه، ثم أتمّ صلاته[1].

واستمر استهزاء أبي جهلٍ ومن معه به حتى نزل عليه قوله تعالى: **﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾**[2]، وفعلاً كفاه الله شرهم بأن قتلوا جميعهم يوم بدر، فقد قتل أبو جهل والوليد بن عقبة بن أبي معيط والوليد وعتبة وشيبة ومن حذا حذوهم وسار بسيرتهم في السخرية والاستهزاء بهذا الدين وبصاحبه الكريم .

المبحث الثاني: النبل النبوي الكريم

فكان الرسول يمسح ما عليه من الفرث والدم، وكان بدلاً من أن يواجه هذا الموقف بالتشنج نجده يواجهه بالعفو، فقد كان يرفع رأسه الشريف إلى السماء ويقول: **«اللهم رفقاً بهم؛ إنهم جهلاء»**.

وهذا درس خلقي كبير أراد النبي أن يضربه للناس كافة، وأن يعلمهم على انتهاج هذا الخلق النبوي وهذا التسامح الإنساني، لقد كان هذا التصرف منه مثلاً سامياً وخلقاً نبيلاً عظيماً؛ ولذا فإن الله جل وعلا كافأه على نبله هذا بأن كفاه شرهم وانتقم له منهم؛ لأنهم كانوا يشبعون رسول الله استهزاء وسخريةً، في

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٢: ٤٣٧، المعجم الأوسط ١: ٢٣٢، إمتاع الأسماع ١٤: ٣٣١، السيرة الحلبيّة ١: ٢٨٩، ٤٧٧.

(٢) الحجر: ٩٥.

حين أنه كان يشبعهم عطفاً ورحمة وعفواً.

وهذه السيرة العطرة ليست بغريبة على الرسول الأكرم ﷺ؛ لأنها سيرة العظماء والمصلحين؛ فالمصلح يجب ألا يكون من خلقه الحقد أو سرعة الغضب والانتقام، بل لا بد أن يكون كريماً نبيلاً حليماً عافياً عمن يسيء إليه. لقد كان ﷺ بدلاً من أن يتطلع إلى أن يحقد على هؤلاء كان يتطلع إلى أن يزيح هموم أُمّته وما يعترض هذا الدين من عقبات؛ ولذا فإنه ﷺ قال: «**ما أوذي نبي مثل ما أوذيت**»[1]. وهذا هو شأن العظماء والمصلحين:

وليس كريم القوم من يحمل الحقدا

ولذا فإننا لا نستغرب مطلقاً مثل هذا الخلق الكريم من أهل بيت النبي ﷺ؛ لأنهم قد اغتذوا بهذا الخلق الكريم منه وقد ورثوا هذا النبل وهذه العظمة مع اللبن الذي ارتضعوه. ومن ذلك ما نجده من سيرة أبي عبد الله عليه السلام يوم الطف، فقد تعامل بنبلٍ عظيمٍ يشبه ذلك النبل الذي تعامل به جده ﷺ مع قريش. يقول المؤرخون: وقف الإمام الحسين عليه السلام ودموعه تتقاطر على خدّيه، فتسأله أُخته الحوراء زينب عليها السلام: «لم تبكي؟». فيقول: «**أبكي لهذا الجيش الذي سيدخل النار من أجلي**»[2].

فهو عليه السلام يبكي على هذا الرعيل الكبير المضلَّل لأنهم سيدخلون النار بسببه ذلك أنهم حينما يسيئون إليه أو يقتلونه فإنما يقتلون الإسلام والنبوة والخلافة الإلهية، وبالتالي فإنهم بذلك يستحقون العقاب:

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٢، التفسير الكبير ٤: ١٧٥.

(٢) وهو القائل لابن سعد: «أكره أن تدخل النار بسببي». انظر بحار الأنوار ٤٥: ١٠، تاريخ مدينة دمشق (ترجمة الإمام الحسين عليه السلام): ٢٤٥، مقتل الحسين (الخوارزمي): ٢: ٦٠٢.

يـقَّمتُ يـومَك كـالظِّماء بـهذه الـ — ـصَّحراء تَـلتَمِسُ الغَـدِيرَ وُرودا
فـرأيـتُك العِـملاقَ جِـيداً مُـتلَعاً — يـنعَىٰ عـلىٰ الأقـزامِ تُـهطِع جِـيدا
ورأيتُك الفِكرَ الحَصيفَ يشُـقُّ أسـ — ـتارَ الغُـيوبِ ويَستَشِفُّ بَـعيدا
وعـلمت أنك نـائل مـاتبتغي — حـتماً وإن يكُ شـلْوُك المـقدودا
فـاذا أراق اليـومَ زاكـيةَ الدِّمـا — فـغداً سـترفَعُها الشعوبُ بُـنُودا
ورأيـتُك النـفسَ الكَـبيرةَ لم تَكُنْ — حـتَّىٰ عـلىٰ مـن قـاتلوك حَـقودا

وهذا هو المعنى عينه الذي صدحت به زينب الكبرى عليها السلام في مـجلس يـزيد حينما راحت تبكته وتخطئه وتهول من فعلته، فقد بيّنت له أن هذه الدمـاء التـي أراقـها سـوف تـجعله هـو المـقهور، وسـتبقى الدمـاء هـي القـاهرة، فـقالت: «أظننت يا يزيد حيث أخذت عـلينا أقـطار الأرض وآفـاق السـماء فأصـبحنا نساق بين يديك كما تساق الأُسـارى أن بـنا عـلى الله هـواناً، وأن ذلك لعـظم خطرك عنده وجليل قدرك لديه، فشمخت بأنفك، ونظرت فـي عـطفك جـذلان مسروراً حين رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور لك متّسقة؟ فمهلاً مهلاً، لا تطِش جهلاً، أنسيت قوله تبارك وتعالىٰ: **﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُـمْلِي لَـهُمْ خَـيْرٌ لأنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِـيَزْدَادُوا إِثْـماً وَلَـهُمْ عَـذَابٌ مُـهِينٌ﴾**[1]؟ أمـن العـدل يـابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك وسوقك بنات رسول الله صلى الله عليه وآله سبايا قد هـتكت ستورهن؟»[2].

وبالفعل فإن الإنسان حينما يدخل الشام الآن ويبحث عن ضـريح مـؤسس الدولة الأُموية فإنه لن يجد سوى خربةٍ تنعب فيها البوم وتصيح فـيها الغـربان،

(١) آل عمران: ١٧٨.
(٢) الاحتجاج ٢: ٣٥، اللهوف في قتلىٰ الطفوف: ١٠٦، بحار الأنوار ٤٥: ١٣٤، ١٥٨.

لا يقرب منها أحد إلّا ويذمّها ويذمّ صاحبها[1]، لكن حينما يريد أن يبحث عن ضريح سبيّة آل عبد المطلب.. سبية الرسالة فإنه سيجد قبةً شماء تناطح السحاب تنتزع عواطف الناس من شرق الأرض وغربها، فتتهاوى عليها القلوب وتتهاوى عليها العواطف وتقبل عليها الأفئدة طائعةً.



(١) يقول الشاعر السوري محمد مجذوب في قصيدة بعنوان (علىٰ قبر معاوية):

أَأَبَا يـزيدَ وتـلكَ حِكـمةُ خـالقٍ ... ماذا أقـولُ وبَـابُ سَـمعِكَ مُـوصَدُ
أيـنَ القُـصُورُ أَبَا يـزيدَ ولهـوُها ... والصَّـافناتُ وزَهـوُها والسُّـؤدَدُ
أيـنَ الدهـاءُ نـحرتَ عِـزَّتَهُ علىٰ ... أعـتابِ دنـياً سِـحرُها لا يَـنفَدُ
هـذا ضـريحُك لو شـعرتَ بـبُؤسِهِ ... لأسـالَ مـدمَعَك المَـصيرُ الأسـودُ
كُـتَلٌ مـنَ التُّـربِ المُـهين بـخِربةٍ ... سَكِـرَ الذُّبـابُ بـها فَـراحَ يُـعربِدُ
خَـفِيتْ مـعالِمُها علىٰ سُكَّـانِها ... فَكَأنَّـها فـي مَـجهلٍ لا يُـقصَدُ
ومَشىٰ بها ركبُ البِـلىٰ فـجدارُهـا ... عانٍ يَكادُ مـن الضَّـراعـةِ يسـجُدُ
قُم وارمُـقِ النَّـجفَ الأغـرَّ بـنظرَةٍ ... يـرتدُّ طَـرفُكَ وهـوَ بَـاكٍ أرمَـدُ
تِـلكَ العـظامُ أعـزَّ ربُّك شأنَـها ... فـتكادُ لولا خـوفُ ربِّك تُـعبَدُ
أبـداً تُـباكِـرُها الوفـودُ يَـحثُّها ... مـن كـلِّ صَـوبٍ شَـوقُها المُـتَوقِّدُ
نـازعتَها الدنـيا فـفُزتَ بـورِدِها ... ثُـمَّ انـطوىٰ كـالحُلْمِ ذاكَ المَـورِدُ
وَسعَت إلىٰ الأُخرىٰ فأصبحَ ذِكرُها ... في الخَـالدينَ وعَـطفُ ربِّكَ أَخـلَدُ

﴿١٨٥﴾

السيدة مريم ابنة عمران عليها السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [١].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: التغليب في كلام العرب

تتناول هذه الآية الكريمة جملةً من الأحداث التي وقعت قبل الإسلام كما هو واضح، تقول الآية الكريمة: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، وبالرجوع إلى كتب الآثار والتاريخ التي تُعنى بالأحداث قبل الإسلام نجد فيها أن هناك رجلاً من بني إسرائيل اسمه قافور، وكان عنده ابنتان.. إحداهما اسمها حنة، والأُخرى اسمها إيشاع، فتزوجت حنة من عمران الذي أولدها مريم عليها السلام، وتزوجت إيشاع من زكريا عليه السلام الذي أولدها يحيى عليه السلام. ومن هذا نعرف أن مريم ويحيى عليهما السلام هما ابنا

(١) آل عمران: ٣٧.

خالة. وحينما كانت مريمﷺ حملاً في بطن أمها نذرت الأم أنها إن وضعت حملها فستجعلهُ خادماً للمعبد، ومعلوم أن الذي يتولى خدمة المعبد هو رجلٌ وليس امرأة، وعندهم أن المرأة لا تصلحُ لخدمة المعابد لسببين حسب الظاهر:

الأول: المكانة الاجتماعية للمرأة

ففي تلك الحقبة من التاريخ كان يُنظر إلى المرأة اجتماعياً على أن مكانتها أدنى من مكانة الرجل، فهي في مركزٍ متدنّ جداً بالنسبة إلى مركز الرجل. وكانت هذه النظرة عند مختلف الشعوب وليست عند شعبٍ دون آخر، فالدنيا كلها كانت قائمةً على هذا الأساس، وهو أن المرأة في موضع أدنى من موضع الرجل، فهم ينزلون بها عن مستواه، ويعزون ذلك إلى جملة من الفروق النفسية أو الجسدية التي يتصورونها هي التي تحدد المكانة. فهؤلاء يرون أن الرجل بما له من خواص جسدية وعقلية تختلف عن تلك الخواص الجسدية والعقلية عند المرأة لابد أن يكون مركزه أعلى من مركزها.

والسبب في هذا أنهم حينما يرجعون إلى هذه الفوارق لايعتبرون هذا تصنيفاً وإنما يعتبرونه تفضيلاً. ولتوضيح الفكرة نقول: إن السفينة مثلاً تتكون من محرك ودفة وشراع وما إلى ذلك، وكل جزءٍ من هذه الأجزاء له وظيفته التي تساهم في عملية سير السفينة، فلا يمكن أن يحل أحد هذه الأجزاء محلّ الجزء الآخر، لكن هل إن هذا الاختلاف في الوظائف مثلاً يعتبر سبباً لتفضيل أحد هذه الأجزاء على غيره؟ طبعاً هذا لا يمكن أن يكون؛ لأن لكل جزء منها وظيفته التي تسيّر السفينة، لكن حينما نقسّم هذه الأجزاء فإنما نقسمها لأجل التفصيل والتصنيف لا لأجل التفضيل؛ فلا يقال مثلاً: إن محرك السفينة أفضل من الشراع أو أن الدفة أفضل من المحرك وهكذا.

وكذلك الأمر بين الذكر والأُنثى فكل له وظيفته التي يؤديها في الحياة؛ فإن الله عز وجل أراد إدامة النسل وإمداد الحياة بهذا الكائن، وهذا لا يتحقق في المجتمع إلا إذا كان هناك وظائف معينة يؤديها الرجل ووظائف معينة تؤديها المرأة. فالنسل لا يمكن أن يأتي إلّا من ذكرٍ وأُنثى، فإذا كانت المرأة قد أعطيت خواص معينة تكون عبرها هي التي تحمل فهذا لا يعني أن الرجل أفضل منها؛ لأن المسألة قائمة على أساس توزيع الوظائف وليست قائمةً على أساس التفضيل؛ لما تقتضيه الوظيفة ولما تقتضيه حالة إمداد الحياة بالنوع واستمرار النسل.

فهذه الفروق التي توجد بينهما لا يمكن أن تكون سبباً لتفضيل أحدهما على الآخر، بل إن قضية إمداد النسل اقتضت وجودهما كي يؤدي كل منهما وظيفته التي أُنيطت به في الحياة.

إذن فالفروق التي يضعها العلماء في مختلف الأبعاد؛ سواء كانت جسدية أو نفسية أو عقلية أو اجتماعية أو ما إلى ذلك تتضافر بمجموعها فيما بينها لتهيئة المرأة كي تؤدي دورها، ولتهيئة الرجل كي يؤدي دوره ووظيفته. إذن فالمسألة ليست فيها تفضيل أبداً، فحينما تكون المرأة غزيرة العاطفة فهذا يعني أن عندها لمسات من الحنان والعطف والرقة أكثر من الرجل الذي يمتاز بأنه أكثر صلابة، فهل يعني هذا أننا ننتزع من صفة الصلابة صفة تفضيلٍ ونقول: إن المرأة رخوة لا تصلح للحياة، وإن الرجل هو الذي يصلح لها؛ لأن عنده صلابة يواجه بها مشاكل الحياة بحزم وحسم؟ وهل يصح هذا اللون من التقييم ؟

طبعاً لا، لأن المرأة المفروض بها أن تحمل وتلد وتربي أبناءها وهذه الوظيفة تحتاج إلى تناغمٍ مع الطفل وتواصلٍ معه، وهما لا يحصلان إلّا إذا كان هنالك

غزارة في العاطفة والحنان والرقة والعطف.. الأُمور التي ستسكبها على أبنائها في عملية الإعداد والتربية. فالطفل في مرحلة من المراحل هو في أمسّ الحاجة إلى الحنان وإلى العطف؛ ولهذا فإن الأُم تكون أكثر عاطفةً وأغزر رأفةً وحناناً من الرجل. وهذا أيضاً لا يمكن أن يعتبر مورد تفضيل للمرأة على الرجل لأنها تمتلك هذه الجوانب الهامة والضرورية في مسألة التعامل مع الطفل دون أن يمتلكها الرجل.

وعليه فهذا التقييم غير صحيح؛ لأنه لا ينظر إلى الجانب التنظيمي للحياة، فالأب يُترك له من الطفل الجانب التنظيمي فيها والجانب العقلي فيضع يده على مشاكل الحياة ومشاكل الأسرة ومفارقاتها، والأُم يترك لها الجانب التربوي والجانب الإعدادي له، حيث إنها تعدّه بما أوتيت من عاطفة وحنان بأن يكون مستقيماً ومستوياً غير مختلٍ نفسياً مما يؤدي به إلى ألّا يكون إنساناً طبيعياً أو إنساناً سوياً من الناحية النفسية.

إذن لا يمكن أن يعتبر هذا الجانب من موارد التفضيل بين الرجل والمرأة فلكل خواصه ولكل وظائفه التي يقوم بها، فلا العاطفة الغزيرة عند الأم تحطُّ من منزلتها أمام الرجل، ولا قلتها عند الرجل تحط من منزلته أمامها. فالمسألة مسألة تنظيم وتقسيم وتفصيل؛ لأن الحياة صممت لأن تبنى على هذا التفاوت.

لكن الملاحظ أن بعض المجتمعات الجاهلة عمدت لأن تعتبر هذا التفاوت منقصةً، وبالنتيجة فإنها تحط من مكانة المرأة أمام الرجل. بل إن بعض الحضارات كانت ترى أن المرأة لا تملك روح إنسان حتى إنه في فرنسا مثلاً قد اعترفوا بأن للمرأة روح إنسان منذ عهد قريب؛ لأنهم سابقاً كانوا يرون أنها قد خُلِقت لخدمة الرجل، وهذا الإحساس أو هذا الشعور وهذه النظرة كانت عند الأوربيين إلى قبل

ثلاثمئة سنة تقريباً. فإذا كانت الحضارات الضخمة كالحضارة الأوروپية تـقف هذاالموقف السلبي من المرأة فما بالك ببعض الشعوب المتخلّفة؟ ومـن ذلك أن العرب مثلاً كانوا يُخرجون المرأة إذا جاءها الحيض خارج الخباء، ولا يتناولون طعامها، لكن حينما جاء الإسلام كرّمها وأعطاها مكانتها اللائقة. ومع كل هذا نجد أن أعداء الإسلام يحاولون خلق هوةٍ بين المرأة وبين الإسلام مصورين للمرأة أن الإسلام قد ظلمها وبخسها حقها، ولم يعطها مجالاً لأن تأخذ حريتها كاملةً فـي لباسها وحركاتها وما إلى ذلك، ولم يعطها حق الطلاق بيدها.

وفي خصوص مسألة الطلاق نحن ذكرنا قبل قليل أن المرأة لديها غزارة فـي العاطفة وهذه الغزارة العاطفية تجعلها تتأثر بسرعة، فإذا كان حق الطلاق بيدها فإن ذلك يعرض الأسرة إلى الانهيار لأنها بفعل عاطفتها ستكون سـريعة التـأثر وسريعة الانفعال؛ مما يؤدي بها إلى أن توقع هذا الحق دون تروٍّ ودون نظر. ومعنى كثرة حالات الطلاق في المجتمع أننا نحصل على جيل بعيد عن الاستقرار النفسي تماما؛ لأنه سوف يعيش متأرجحاً بين الأبوين اللذين افترقا وبالتالي فإن حالته النفسية سوف تنهار وربما يتعرض إلى الأمراض العصابية، أما إذا نشأ الجيل بين أبوين مستقرّين متفاهمين فإنه سوف ينشأ سويّاً سليماً؛ لأن الصراع والتناحر بين الأبوين سوف ينعكس سلبيّاً على الطفل فينشأ كافراً بـالإنسانية تـماماً. وهـذه المسألة على أية حال طويلة ولا أريد أن أخوض فيها وأستطرد حتى تطغى على صلب الموضوع.

إذن هؤلاء لم يكونوا يعطون للمرأة هذه المكانة التي يعطونها للرجل، وبالتالي فهي لا تصلح لأن تكون خادمةً في المعبد؛ لأنها من ناحية اجتماعيةٍ أدنى مـن الرجل.

الثاني: الطبيعة البايلوجية للمرأة

فهؤلاء يقولون: إن المرأة تمر بها أيام يأتيها الحيض وهو ما يعرف بالعادة الشهرية، وإذا جاءتها هذه العادة فهي سوف تكون غير طاهرة وبالتالي فإنها لا تصلح لخدمة المعبد. ثم إن المرأة إذا تزوجت سيأتيها دورٌ آخر هو دور النفاس، كما أنها تمر بأدوار الاستحاضة وما إلى ذلك وكل هذه الأمور تجعلها غير طاهرة، وبالتالي فإنها تدنس المعبد إذا دخلته. وهذا يعني أنها لا تصلح بالمرة لخدمة المعبد لهذا السبب.

ولهذه الأسباب كان الناس لا يرون أن للمرأة الحق في خدمة المعبد، ولهذا فإن حنة حينما وضعت مولودها وكان أنثى أصيبت بخيبة أمل؛ لأنها كانت تأمل أن يكون مولوداً ذكراً تجعله في خدمة هذا المعبد. وهذه الآية الكريمة تبين لنا أن الله جل وعلا تقبلها منها بقبول حسن وإن كانت امرأة، وهذا يعني أن الله جل وعلا قد سمح لها بأن تتولى خدمة المعبد مع كونها امرأة؛ لأنها ستكون طاهرة. وحول هذا المفهوم (أنها عليها السلام طاهرة) يختلف العلماء فينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول يرون أنها لم تكن ترى دماً؛ ولذا فإنها قد عُبّرَ عنها بالبتول. فالبتول: التي لا ترى الدم أو هي الطاهرة، وهذا يعني أنها لم تكن تمر بها العادة الشهرية التي تمر بها النساء الأخريات. ولهذا السبب فإن الله جل وعلا قد تقبلها ورضي لها أن تكون خادمةً في المعبد.

القسم الثاني يقولون: إنها سميت بتولاً لأنها كانت في غاية النظافة والطهارة، وإن الدم الذي كانت تراه قليل بحيث إنه لا يقدح في استمرارها بخدمة المعبد. بمعنى أنها كانت ترى الدم لكنها كانت فترات قليلة لا تقدح في قيامها بخدمة المعبد.

على أية حال فإن المهم أن نذكر أن الله جل وعلا قد قبلها ورضي لها أن تتولى خدمة المعبد على الرغم من كونها أنثى. وهذا الاختيار السماوي والرضا الإلهي فيه درسٌ كبيرٌ لهؤلاء؛ لأن فيه بياناً لأهل الأرض بأن الأُنوثة والذكورة لا يقفان حائلاً دون أن يبلغ الإنسان الهدف الذي يريده أو دون أن يتحلّى بمزايا تؤهله لأن يتقدم على غيره، فالأُنوثة لا يمكن أن تكون عائقاً لأن ترتقي المرأة في مدارج الكمال. ونحن نعرف ونقرأ في تاريخنا عن نماذج من النساء كن على مستوى أعلى من مستوى الكثير من الرجال، وهذا ما يزخر به تاريخنا. يقول أحد الأدباء:

فلو كان النساءُ كمثلِ هذي	لفضّلت النساءُ على الرجالِ
فما التأنيثُ لاسمِ الشمسِ عيبٌ	ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ[١]

فالواقع أن الشمس تبقى شمساً وإن كانت مؤنثة والهلال يظل هلالاً وإن كان مذكراً، وكم من امرأة لو أردنا أن نضعها في ميدان المقايسة والمقابلة إزاء بعض الرجال فنجد أنه لا نسبة لهم إزاءها. فالمرأة إذن مؤهلة للقيام بجانب من جوانب الحياة وكذلك الرجل مؤهل للقيام بهذا الجانب، وهذه الآية الكريمة تشير إلى هذا المعنى وتؤكد لهم أن هذا المشهور بينهم لا أصل له ولا وجه أبداً، وهو في هذا المجال حاله حال الكثير من النظريات المخطوءة التي يعتقد بها البعض من قبيل «العقل السليم في الجسم السليم»، والحال أن الكثير من ذوي الأجسامِ السقيمة العليلة هم أشهر العلماء والكثير من ذوي الأجسام الطويلة العريضة والقوى الشديدة هم مجانين أو جُهّال.

إذن ليس كل مشهورٍ صحيحاً، وليس كل مشهورٍ ينبغي علينا أن نتعبّد به.

---

(١) شجرة طوبى ١: ٢٤٩.

علىٰ أية حال فالواجب الذي ينبغي على كل إنسان أن يراه بعين العقل والإنصاف وأن يعتقد به هو أن للمرأة ميدانها الذي تعمل فيه وللرجل ميدانه الذي يعمل فيه. وقد وضع الله جل وعلا لكل منهما ضوابط معينة تحدد مجال تحركهما هذا وتحدد وظائفهما التي ينبغي عليهما أن يقوما بها. فما يأباه طبع هؤلاء لم يكن موضع رضا وقبول من الله جل وعلا؛ ولذا فإن الله سبحانه وتعالى تقبّل مريم عليها السلام بقبولٍ حسن.

المبحث الثاني: في معنى النبات الحسن

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً﴾، وللمفسّرين في النبات الحسن عدّة آراءٍ منها:

الأول : أنه زيادة النمو

ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن الله جل وعلا قد جعلها تنمو في الشهر ما تنموه غيرها من النساء في السنة، بمعنى أنها تنمو بسرعةٍ أكبر وبشكل أفضل من بنات جنسها. وهذا الرأي في حقيقة الأمر لا يشكل أي فضيلةٍ لها لأنه ليس فيه ميزة تميزها عن غيرها بشكل مطلق؛ ذلك أن ما تصل إليه بسنة يمكن أن تصل إليه بثلاثين سنة.

الثاني: أنه الطهر

ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن مريم عليها السلام قد بنيت وربيت على الطهر والعفاف والصون والحفاظ. ويرى أصحاب هذا الرأي أنها ما بلغت التاسعة من عمرها حتى راحت تصوم نهارها وتقوم ليلها حتى بلغت حداً غلبت معه الأحبار والعباد بالعبادة.

الثالث: أنه طريق الله جلّ وعلا

فأصحاب هذا الرأي يذهبون إلى أن الله جل وعلا بتقبّله إياها قد وضعها على طريقهِ، بمعنى أنه أعطاها سيادة نساء عالمها، فهي عليها السلام سيدة نساء ذلك الزمان. فهي بهذه المؤهلات استحقت أن تكون سيدة. ولولا هذه المرجحات لكان إعطاؤها السيادة ترجيحاً بلا مرجح، والترجيح بغير مرجح غير مقبولٍ أبداً. وهذا هو السبب الذي من أجله يتساءل الناس في كل زمانٍ ومكان حول كل شخصٍ يملك حق السيادة عليه بأي شكل من أشكال الملكية وبأي صورةٍ من صور الوصول إلى الحكم، فإن هؤلاء حتما سيتساءلون فيما بينهم عن المزايا والمرجحات التي جعلت من هذا الشخص متميزاً عنهم وسيداً عليهم. وهذه المرجحات تارةً تكون علماً وتارةً تكون شرعيةً اجتماعية كالانتخابات وما شاكلها وتارةً تكون حِلماً[١].

فمن يملك حلماً يملك سعة صدرٍ تمكنّه من احتواء ردود أفعال الناس وغضبهم وانفعالاتهم، ويمكنه من قيادتهم. وليُعلم أن أهم صفات الرئيس هي سعة الصدر، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«آلة الرئاسة سعة الصدر»**[٢].

إذن حينما تصبح السيدة العذراء سيدة نساء عالمها فإنها حتماً تكون قد امتلكت مؤهلات جعلتها صاحبة حقٍ في هذه السيادة، وحينما نقول: سيدة نساء عالمها لأننا نعتقد أنها ليست سيدة نساء العالمين، فسيدة نساء العالمين هي السيدة فاطمة الزهراء (سلام الله عليها). يروي المحب الطبري في (ذخائر

---

(١) يقول الشاعر:

بحلمٍ وبذلٍ ساد في قومه الفتى ... وكونك إياه عليك عسيرُ

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ١٨، ٧٠، خصائص الأئمّة عليهم السلام: ١١٠.

العقبى) [١] وغيره [٢] عن عمران بن حصين أنه قال: عاد رسول الله ﷺ فاطمة الزهراء عليها السلام في وجع لها، فقال لها: **«يا بنيّة، كيف تجدينك؟»**. فقالت عليها السلام: **«إني لوجعة، وإنه ليزيدني وجعاً أن ليس لي طعام آكله»**. فقال ﷺ: **«أما ترضين إنك سيّدة نساء العالمين؟»**. فقالت عليها السلام: **«يا أبة، فأين مريم بنت عمران؟»**. فقال ﷺ: **«تلك سيّدة نساء عالمها، وأنت سيّدة نساء عالمك. أما وقد زوّجتك سيّداً في الدنيا وسيّداً في الآخرة»**.

وهذا المعنى يرويه مسلم أيضاً في صحيحه في باب (منزلة بنت النبي ﷺ)، ويتناوله البخاري أيضاً والطبري وعشرات المصادر من غيرهم. فالزهراء (سلام الله عليها) يعبر عنها أبوها النبي الأكرم ﷺ بأنها سيدة نساء العالمين مطلقاً، لكنه يعبر عن مريم عليها السلام بأنها سيدة نساء عالمها.

مؤهلات السيادة

إذن هناك جملة من المؤهلات والمرجحات التي اقتضت السيادة لمريم عليها السلام على نساء عالمها، ومن هذه الميزات العقل والحكمة واللياقة والعبادة والتقرب إلى الله جل وعلا. ولهذا السبب فإننا نجد أن القرآن الكريم في هذه الآية المباركة يعبر عنها بقوله: **﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً﴾**، بمعنى أنه لو لا هذه المؤهلات لم ينبتها الله جل وعلا ذلك النبات الحسن ولم يتقبلها، لكنها لما امتلكت جملة المؤهلات هذه بما عندها من إصرار ورغبة في العبادة وحفظ

---

(١) ذخائر العقبى: ٤٣.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٠٥، الاستيعاب ٤: ١٨٩٥، سير أعلام النبلاء ٢: ١٢٦، تاريخ الإسلام ٣: ٤٥ ـ ٤٦، الإصابة ٨: ١٠٢، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٥٦، فتح الباري ٧: ١٠١، نظم درر السمطين: ١٧٩ ـ ١٨٠.

النفس والعفاف جعل الله عز وجل ذلك لها مكافأة.

المبحث الثالث: في كفالة زكريا عليه السلام

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: **﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً﴾**، و**﴿وَكَفَّلَهَا﴾** يعني جعل زكريا عليه السلام كفيلاً لها. وهذا يعني أنها عليها السلام حينما ترعرعت أفرد لها النبي زكريا عليه السلام بيتاً للعبادة لا يرقى إليه أحدٌ غيرها وغيره. ولعل هذا يرجع إلى قطع الإشاعات التي يمكن أن يروجها الناس ضد مريم عليها السلام، ولكنها (سلام الله عليها) لم تسلم من هذه الإشاعات ولا من الدعايات التي روجوها ضدها، فلما ولدت النبي عيسى عليه السلام اتهموها بالانحراف والخطيئة وارتكاب الفاحشة. ومسألة اتهامها: وهذه هي سنة الحياة التي يجب الانتباه إليها، وهي سنة تمثل خلقاً منحطاً يتصف به البعض، مع أن المفروض أن الإنسان يجب أن يكون عنده لسان عفيف وضمير عفيف، وتفكير عفيف فلا يعتدي على الناس ولا يتهمهم زوراً وبهتاناً، بل إن الأنبياء عليهم السلام أنفسهم لم يسلموا من هذا، يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: **«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»**[1].

فالمسلم يجب أن يكون عفّ اليد وعفّ اللسان وعفّ الضمير وعفّ الخلق حتى يسلم الجميع منه. والواقع أن الكثير من الناس لم يسلم حتى الله تعالى منهم، فهؤلاء يرون أن الله جل وعلا حينما أفقرهم قد ظلمهم، وأنه تعالى حينما أمرضهم قد ظلمهم. فالذي نريد أن نخلص إليه هو أن اتهام الآخرين وظلمهم لم يسلم منه أحد على امتداد تاريخ البشرية.

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١٦٧، المحاسن ١: ٢٨٥ / ٤٢٦، الكافي ٢: ٢٣٤ / ١٢، مسند أحمد بن حنبل ٢: ١٦٣، وغيرها كثير، صحيح البخاري ١: ٨ وغيرها كثير، صحيح مسلم ١: ٤٨ وغيرها كثير.

إذن فالسيدة العذراء مريم عليها السلام لم تسلم من هذه التهم أو من هذه السنة الحياتية أبداً؛ ولذا فإنها عليها السلام عندما حملت بروح الله عيسى عليه السلام وولدته من غير أبٍ كثرت الأقاويل بين الناس ضدها، وتفشت الإشاعات وانتشرت الدعايات التي راح النبي زكريا عليه السلام جهد إمكانه يحاول إبعاد مريم عنها ودفعها عن هذا الجو بما كان يعلمه مما سيحدث لها؛ ولذا فإنه قد بنى لها بيتاً تعتزلُ فيه الناس جميعاً لا يصل إليها أحدٌ سواه؛ لأن الأجواء التي تتصف بهذه الصفات الذميمة هي أجواء موبوءة. وفي مثل هذه الأجواء ينبغي على الإنسان أن يبعد نفسه عن مواضع الظن والتهمة، يقول الحديث الشريف: «**رحم الله امرأ جبّ الغيبة عن نفسه**»[1]، كان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في بعض الليالي يمشي ومعه عمّته صفيّة بنت عبد المطلب، فمرّ بعض الصحابة من ورائه وهو يحدّثها، فقال صلى الله عليه وآله وسلم لهم: «**قفوا، إن هذه عمتي صفية**».

إذن فكل منّا قد مرت به تجارب مرة.. تجارب ربما تضني البعض، لكن الذي ينبغي على كل من تمر به مثل هذه التجارب أن ينتزع منها العبر والعظات؛ لأن هذه هي الطبيعة الإنسانية المبتنية على سوء الظن بالآخرين والتشكيك بهم وبتصرفاتهم والإساءة إليهم وإن كان بعض الأدباء يذهب الى النقيض من هذا، فيرى أن الكرامة أحياناً تأتي إلى الإنسان من خلال كلام الناس وإساءتهم إليه فيقول:

عِداي لهم فضلٌ عليّ ومنّةٌ ... فلا أبعدَ الرحمٰنُ عني الأعاديا

هُمُ بحثوا عن زلّتي فاجتنبتها ... وهم نافسوني فارتقيت المعاليا[2]

ويقول أبو تمام:

---

(١) كشف الخفاء ١: ٤٢٦ / ٧.

(٢) البيتان لأبي حيان الأندلسي. الكنىٰ والألقاب ١: ٦١.

وإذا أرادَ الله نَشْــرَ فــضيلةٍ طُــويت أتــاحَ لهــا لســانَ حســودِ
لولا اشــتعالُ النــار فــيما جــاورتْ ما كان يُعرَفُ طيبُ عَرف العــودِ[1]

وهذا لا يخلو من الصحة والصواب، بل ربما هو كذلك، فالمعدن الطيب يصمد أمام النقد ولا يمكن أن يخشى عليه بخلاف المعدن الخسيس الذي تحرقه النار.

إذن فقوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ يعني أن النبي زكريا عليه السلام قد أصبح كفيلاً لها. وفي الفعل كفّلها دلالة على اختيار إلهي في المسألة؛ لأن بني إسرائيل كلهم أرادوا أن يكفلوها لأنها كانت يتيمة كما أنها ابنة أحدٍ من رؤسائهم وكبارهم؛ ولذا فإن زكريا عليه السلام أمرهم بأن يقترعوا لتحديد هوية الذي سوف يكفلها. وفعلاً اقترعوا فوقعت القرعة عليه فأخذها وربّاها. فـ(كفّلها) يعني وضعها عند زكريا وفي كفالته؛ لما يملكه من مؤهلات تجعله أفضل من غيره للقيام بهذا الواجب ولتعاهد هذه الطاهرة والعناية بها. وكان زكريا عليه السلام إذا صعد إليها ليوصل إليها الطعام فإنه يجد عندها منه كفايتها، بل إنه يجد عندها فاكهة الشتاء في فصل الصيف مضافاً إلى فاكهة الصيف، وفاكهة الصيف في فصل الشتاء مضافاً إلى فاكهة الشتاء، مضافاً إلى ذلك ألوان أُخرى من الطعام فيستغرب ويقول لها: ﴿أَنَّى لَكِ هَذَا﴾، فتقول له: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

كرامة مريم عليها السلام

وهذه النقطة يثار حولها صراع ونزاع، وهذا الصراع يبتني على أنه هل يجوز أن تحصل مثل هذه الكرامة أو مثل هذه المعجزة لغير الأنبياء عليهم السلام ؟ إن الأنبياء بما عندهم من صلة بالسماء يمكن أن يحدث لهم هذا بل الكثير من المعجزات، أما

---

(١) شرح نهج البلاغة ١: ٣١٦.

مريمعليها السلام فليست بنبي ولا مبعوث، إذن فكيف يأتيها مثل هذا؟ وهذا في واقع الأمر تصور مخطوء ونزاع ليس في محلّه؛ لأن هؤلاء يستكثرون على مثل مريمعليها السلام أن يبعث لها طعاماً من عند الله جل وعلا مع أن مجيء الطعام إليها ليس أكثر إعجازاً من حملها من غير زوج. ولهذا فإننا نجد أن بعض المفسرين يميلون إلى أن هذا الطعام كان يأتيها من هدايا بعض المحسنين وليس نازلاً إليها من السماء [١].

على أية حال فإن هذه الكرامة وهذه المعجزة ليست بحجم معجزة أن تلد من غير زوج، وعليه فإنه لا يستبعد أن يكون طعاماً نازلاً من السماء. ومسألة خلق الإنسان من أحد الأبوين لازال البعض يعترض عليها؛ لأنه يعتبر أن الطريقة الطبيعية للنسل والولادة هي وجود زوجين. وهذا أيضاً تصورٌ مخطوءٌ حول المسألة لأسبابٍ عدةٍ منها أن الله جلَّ وعلا قادرٌ مختار وليس موجباً، فهو يخلق ما يشاء كيف يشاء ومتى يشاء. وإذا كان كذلك فإنه كما جعل الشكل الطبيعي للنسل والولادة عن طريق زوجين فإنه يمكن أن يجعل الولادة من أحد الأبوين دون الآخر أو أن يجعلها من غير أبوين أصلاً كما حصل مع آدمعليه السلام. وهذا بالفعل موجودٌ ويؤكد عليه العلماء، فهنالك بعض النباتات والحيوانات التي تتكاثر من دون أبوين معاً بل من أبٍ واحدٍ فقط. وهذا يعني أن دعوى انحصار طرق الخلق بهذا الشكل السائد هي دعوى غير صحيحة لأنها قد اخترمت بما حدثنا عنه القرآن الكريم وبما أثبته العلماء حول بعض أنواع النباتات والحيوانات التي تولد من أبٍ واحدٍ سواءً كان هذا الأبُ الذكر أو الأُنثى.

ثم إن قضية خلق عيسىعليه السلام ليس أعجب من قضية خلق آدمعليه السلام، يقول تعالى:

---

(١) مع أن هؤلاء المحسنين لايمكن أن يحصلوا على فاكهة الصيف في الشتاء وعلى فاكهة الشتاء في الصيف إن صحّت الرواية.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[١].

إذن فطبيعة الخلق غير منحصرة بطريقة واحدة، وبهذا ينتفي وجه الاستغراب عند هؤلاء حول الكيفية أو الطريقة والوسيلة التي يأتي بها طعام السيدة العذراء عليها السلام من السماء، فالله جلَّ وعلا قد أكرمها بهذه الكرامة وفضّلها بهذا التفضيل.

المبحث الرابع: كيفية الرزق

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: **﴿إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾**، وفي هذا المقطع الشريف من هذه الآية الكريمة ثلاثة أوجه:

الأول: أنه الرزق غير المحتسب

بمعنى أن هذا المقطع الشريف يريد أن يبين للناس بأن ما اعتادوا عليه من أن الرزق منحصرٌ بالطرق الطبيعية كأن يعمل الإنسان أو يكتسب بأي صورةٍ من صور الكسب هو اعتقاد غير صحيح؛ لأن السماء يمكن أن تبعث برزقٍ غير محتسب من غير عمل. إذن فهذا المقطع الشريف يبين بأن الرزق لا يكون دائماً عن طريق العمل. ولعل هذا ما يؤكده أن هناك دعاء يستحب أن يدعو به الإنسان دائماً إذا حصل على نعمة وهو أن يقول: «**اللهم هذا منك، ومن محمد رسولك، اللهم فلك الحمد**»[٢].

وهو دعاءٌ معروف، يروى أن أحدهم دُعي إلى وليمة فلما أكل رفع يديه إلى السماء ودعا بهذا الدعاء فقال له صاحب الطعام: ما هذا الذي تقوله؟ أنا الذي جاء باللحم من فلان وبالخبز من فلان وبالسمن من فلان، فما دخل الله ونبيه في

(١) آل عمران: ٥٩.

(٢) الكافي ٦: ٢٩٦ / ٢٢، كنز الفوائد: ١٩٦.

المسألة إذن؟ وهذا الرجل في واقع الحال هو مسكين لا يعرف أنه مجرد واسطة بين الرازق الحقيقي وهو الله جل وعلا؛ وبين المرزوق وهو الإنسان الذي أكل هذا الطعام؛ ذلك أن من هيأ له هذه المواد هو الله جلَّ وعلا لأنه تعالى هو الذي هيأ له القدرة على العمل ومنحه القابلية على الحركة، وهو الذي أعطاه القابلية العقلية على التفكير والعمل.

والإنسان المنصف عندما يرجع إلى أسباب الرزق البعيدة والقريبة يجدها كلها من الله تعالى، وهذا هو معنى الدعاء المار، لكن هؤلاء المساكين تنصرف أنظارهم إلى الأسباب القريبة دون أن ينظروا إلى الأسباب البعيدة.

إذن فالله جل وعلا قد يلغي كل هذه الشكليات المعروفة في عملية الرزق، ويمنح إنساناً رزقاً من غير سعيٍ وعمل، أي يرزقه مباشرةً دون تدخل، دون أن تكون هنالك أسباب الرزق.

الثاني: أنه الرزق المجرّد عن القابليات المعنوية

بمعنى أن هذا المقطع الشريف يريد أن يبين للناس بأن الله جل وعلا يعطي الرزق ليس بالشكل الطبيعي المألوف المعروف لدى الناس من خلال حساباتهم وطرقهم المادية، بل إنه تعالى يمكن أن يجعل الرزق بعيداً عن تلك الحسابات التي يعتبرها هؤلاء حسابات لصيقة بالرزق ومشروطاً بها. فلا يمكن أن يظن أحدٌ أن فلاناً حصل على رزقه لأنه كان عبقرياً أو لأنه يملك عقليةً كبيرة، أو أنه ذو مركز اجتماعي، فكل هذه الأمور ليس لها دور بارزٌ في عملية الرزق. والواقع أننا نجد أن إنساناً مغفلاً لا يعقل من حياته ووجوده ودنياه شيئاً لكنه يُرزق، بل والأنكى من هذا أننا نجدُ شخصاً ذكياً لكنه لا يجد رغيفاً من الخبز يأكله ولا يجدُ دثاراً من الصوف يلتحف به، مع أنه ربما كان يملك شهادةٍ

علميةٍ رفيعة المستوى.

إذن فمسألة الحسابات التي يربطها الناس بالرزق هي مسألة غير مطردة وغير صحيحة في كل حال، وهي ليست بفاعلةٍ في حسابات الله عز وجل الذي يرزق من يشاء بغير حسابٍ سواءً كان عن طريق أسبابٍ قريبةٍ أو أسبابٍ بعيدة.

الثالث: أنه الرزق الذي لا منَّ فيه

إن الإنسان حينما يرزق إنساناً غيره فهو يرجو من ورائه أجراً؛ سواءً كان دنيوياً أو أخروياً، أي إنه يهدف من ورائه إلى ما هو أبعد من هذا الرزق، أما الله جلَّ وعلا فإنه حينما يرزق فإنما يرزق من غير أن ينتظر جزاء أو مكافأةً عليه من أحد. فهو تعالى يرزق من يشاء بغير حساب؛ لأنه لا يريد ولا ينتظر أجراً على هذا الرزق، أو هو كما يقول الدعاء الشريف: **«يا من أعطىٰ من سأله، ويا من أعطىٰ من لم يسأله ولم يعرفه تحنّناً منه ورحمة»**[1].

الرأي الرابع: أنه رزقٌ لا حدّ له

يذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن هذا الرزق الذي هو بغير حساب هو رزقٌ من غير حد، فإذا أعطى الله جل وعلا فإنه لا يعطي بقدر معين، وهذا كنايةٌ عن كثرة العطاء وجزالته.

المبحث الخامس: أوجه الشبه بين العذراء والزهراء عليهما السلام

من خلال تتبعنا لسيرة السيدة الزهراء عليها السلام فإننا نجد أن هناك نقاط شبه بينها وبين السيدة العذراء عليها السلام ومن تلك النقاط نذكر التالي:

---

(١) مصباح المتهجّد: ٣٥٣، الصحيفة السجاديّة: ٥٧٥، الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٢١١.

الأولى: نزول الرزق عليهما من السماء

يروي المؤرّخون والمفسّرون ـ ومنهم إسماعيل حقّي في تفسيره (روح البيان)، وهو من أبناء المذاهب الإسلاميّة الأُخرى ـ فيقولون: مرّ على المسلمين عامُ جدب، فأرسلت فاطمة الزهراء عليها السلام إلى أبيها رسول الله ﷺ لحماً مشويّاً ورغيفي خبز، فعجب رسول الله ﷺ من هذا الطعام؛ لأنه يعلم أن بيوته خالية منه، حتى إن إحدى زوجاته ﷺ كانت تقول: يمر علينا أحياناً أربعون يوماً لا نأكل فيها إلّا الأسودين (أي التمر والماء)، تقول الرواية: وكان رسول الله ﷺ قد أقام أياماً لم يطعم طعاماً، حتى شقّ ذلك عليه، فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً، فأتى فاطمة فقال لها: «**يا بنية، هل عندك شيء آكله؛ فإني جائع؟**». فقالت لا والله. فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم، فأخذته منها ووضعته في جفنة لها وقالت: «**والله، لأوثرن بهذا رسول الله ﷺ على نفسي ومن عندي**». وكانوا جميعاً محتاجين إلى شبعة طعام، فقد كان علي عليه السلام أصبح ساغباً، فسأل فاطمة عليها السلام طعاماً فقالت: «**ما كانت إلّا ما أطعمتك منذ يومين، آثرتك به على نفسي وعلى الحسن والحسين**». فقال عليه السلام: «**ألّا أعلمتني فآتيكم بشيء؟**». فقالت عليها السلام: «**يا أبا الحسن، إني لأستحي من إلهي أن أُكلّفك ما لا تقدر عليه**».

فلمّا أرسلت فاطمة عليها السلام ما أرسلت، عجب ثم جاء ﷺ حتى دخل على فاطمة عليها السلام وهي في مصلّاها، فوجد خلفها جفنة تفور دخاناً، فأخرجت فاطمة الجفنة فوضعتها بين يديه، فسألها ﷺ قائلاً: «**أنى لك هذا؟**». فقالت: «**هو من فضل الله ورزقه إن الله يرزق من يشاء بغير حساب**». فاستعبر النبي ﷺ باكياً وقال: «**الحمد لله الذي لم يمتني حتى رأيت في ابنتي ما رأى زكريّا لمريم، كان إذا**

دخل عليها وجد عندها رزقاً فيقول لها: يا مريم أنى لك هذا؟ فتقول: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب» [١].

الثانية: أنها عليها السلام رُزقت جفنةً من السماء ببركة دُعائها

يروي المحب الطبري في (ذخائر العقبى) ويذكرها السيد محسن الأمين بأسانيد متعددة في الجزء الخامس من (أعيان الشيعة) وهو الجزء المختصّ بالزهراء عليها السلام يقول: دخل أمير المؤمنين عليه السلام ذات يوم على فاطمة الزهراء عليها السلام فقال: **«يا فاطمة، هل عندك من شيء تغذّينيه؟»**. قالت عليها السلام: **«لا والذي أكرم أبي بالنبوّة ما أصبح عندي شيء أُغذّيكه، ولا أكلنا بعدك شيئاً، ولا كان لنا شيء بعدك منذ يومين إلّا شيء أُوثرك به على بطني وعلى ابنيّ هذين»**. فقال عليه السلام: **«يا فاطمة، ألّا أعلمتيني حتى أبغيكم شيئاً؟»**. قالت: **«إني أستحي من الله أن أُكلّفك ما لا تقدر عليه»**.

فخرج من عندها واثقاً بالله، فاستقرض ديناراً فبينا كان يريد أن يبتاع لأهله ما يصلح لهم، إذ عرض له المقداد ـ وكان يوماً شديد الحر ـ وقد لوحته الشمس من فوقه وآذته من تحته، فلما رآه عليه السلام أنكره، فقال: **«يا مقداد ما أزعجك من رحلك هذه الساعة؟»**. قال: يا أبا حسن، خلّ سبيلي، ولا تسألني عما ورائي. فقال عليه السلام: **«لا يحل لك أن تكتمني حالك»**. قال: أما إذا أبيت، فوالذي أكرم محمداً بالنبوّة ما أزعجني من رحلي إلّا الجهد، ولقد تركت أهلي يبكون جوعاً، فلما سمعت بكاء العيال لم تحملني الأرض، فخرجت مغموماً راكباً رأسي فهذه حالي.

---

(١) الأمالي (الطوسي): ٦١٤ – ٦١٥ / ١٢٧١، ٦١٧ – ٦١٨ / ١٢٧٤، مناقب آل أبي طالب ١: ٣٥٠، ٣: ١١٧، ١٣٥، تخريج الأحاديث والآثار (الزيلعي) ١: ١٨٤، قال: ورواه أبو يعلى، تفسير البيضاوي ٢: ٣٥ – ٣٥، تفسير أبي السعود ٢: ٣٠ – ٣١، الدرّ المنثور ٢: ٢٠.

وفعلاً فإننا نجد عندنا في الفقه الاجتماعي تحميلاً للجماعة مسؤولية الفرد إذا جاع، أي أن الفقه الاجتماعي الإسلامي يحمل الجماعة مسؤولية كل فردٍ من أفراد المجتمع إذا أصابه العوز. صحيح أنه يضع النفقات على ذوي القرابة فيقسمها إلى نفقات واجبة ونفقات مستحبة، لكن هذا لا يعني أنه أعفى المجتمع من الشعور بالمسؤولية بل إنه اعتبر المجتمع مسؤولاً عن أفراده؛ لأن هؤلاء الأفراد هم أجزاء داخل النسيج الاجتماعي (١)، وهو ما يسمى بالتكافل الاجتماعي.

وبهذا اللحاظ فإن المشرع الإسلامي يمنح الإنسان الجائع الحق في أن يأكل ما يكفيه ويسد رمقه من طعامٍ من يملك الطعام دون أن يكون لصاحب الطعامِ الحق في أن يمنعه عن ذلك إذا ما توقفت حياته عليه، بل وأكثر من هذا أنه إذا مانعه وتقاتلا ثم جرح الجائع صاحبَ المال فإن الإسلام لا يحمله مسؤولية الجرح، وإذا قتلهُ فإنه لا يحمله مسؤولية القتل.

وفعلاً فقد تأثّر الإمام عليه السلام بمعاناته، وهملت عيناه بالبكاء حتى بلت دموعه لحيته ثم قال: «**أحلف بالذي حلفت به ما أزعجني غير الذي أزعجك، ولقد اقترضت ديناراً فهاكه أُوثرك به على نفسي**».

فدفع له الدينار ورجع حتى دخل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فصلى الظهر والعصر والمغرب، فلما قضى النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلاة المغرب، مرّ بعلي عليه السلام في الصفّ الأول فناداه، فلبّاه وسار خلفه حتى لحقه عند باب المسجد، فقال صلى الله عليه وآله وسلم « **يا أبا الحسن،**

---

(١) يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «كلّكم راعٍ، وكلّكم مسؤول عن رعيّته فالإمام راعٍ وهو مسؤول عن رعيّته، والرجل في أهله راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيّتها، والخادم في مال سيّده راعٍ وهو مسؤول عن رعيّته، والرجل في مال أبيه راعٍ وهو مسؤول عن رعيته؛ وكلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيته». عوالي اللآلي ١: ١٢٩ / ٢، مسند أحمد ٢: ٥، ٥٤، ١١١، ١٢١.

هل عندك شيء تعشّينا به؟ ».

فأطرق عليه السلام لا يحير جواباً حياء من النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه يعرف الحال التي خرج عليها، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « **إما أن تقول: لا، فننصرف عنك، أو نعم فنجيء معك** ». فقال عليه السلام له: « **حبّاً وتكريماً، اذهب بنا** ».

وكأن الله سبحانه وتعالى قد أوحى إلى نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم أن تعشّ عندهم، فأخذ صلى الله عليه وآله وسلم بيده، فانطلقا حتى دخلا على فاطمة عليها السلام في مصلّاها، وكانت خلفها جفنة تفور دخاناً، فلما سمعت كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم خرجت من المصلّى فسلّمت عليه، وكانت أعزّ الناس عليه، فردّ عليها السلام، ومسح بيده على رأسها، وقال: « **كيف أمسيت عشّينا غفر الله لك، وقد فعل** ». فأخذت الجفنة فوضعتها بين يديه، فلما نظر أمير المؤمنين عليه السلام ذلك، وشمّ ريحه رمى فاطمة ببصره رمياً شحيحاً، فقالت: « **ما أشحّ نظرك وأشدّه، سبحان الله! هل أذنبت فيما بيني وبينك ما أستوجب به السخطة** ». قال عليه السلام: « **وأي ذنب أعظم من ذنب أصبتيه اليوم، أليس عهدي بك اليوم وأنت تحلفين بالله مجتهدة ما طعمت طعاماً يومين؟** ».

فنظرت إلى السماء فقالت: « **إلهي يعلم ما في سمائه، ويعلم ما في أرضه أني لم أقل إلّا حقاً** ». قال عليه السلام: « **فأنى لك هذا الذي لم أرَ مثله، ولم أشمّ مثل رائحته، ولم آكل أطيب منه؟** ». فوضع النبي صلى الله عليه وآله وسلم كفّه المباركة بين كتفي أمير المؤمنين عليه السلام ثم هزّها وقال: « **يا علي هذا ثواب الدينار، وهذا جزاء الدينار. هذا من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** ».

ثم استعبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم باكياً وقال: « الحمد لله الذي لم يخرجكما من الدنيا حتى يجريك في المجرى الذي أجرى فيه زكريا، ويجريك يا فاطمة في المجرى الذي أجرى فيه مريم: ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا**

رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾...» [١].

والحقيقة أن الباحث من خلال تتبعه لمواقف الرسول الأكرم مع ابنته فاطمة يرى أنه كان يتولى تربيتها بمنهج غايةٍ في الدقة والسمو والرفعة، ومن هذا أنه حينما تمر بالناس أزمة فإنه كان في بعض الحالات يعطيها وفي بعض الحالات يأمرها بأن تتحلى بالصبر. فهو لم يكن ليتأخر عنها في حالٍ من الأحوال، لكنه إنما يتأخر في بعض الحالات؛ لأنه يريد أن يسلحها بالأخلاق الكريمة، ويريد منها أن تتحلى بالصبر، ومن ذلك ما يرويه المؤرخون من أنها اشتدّ بها الجوع يوماً، فلم تجد بالبيت طعاماً، فقال لها أمير المومنين: **«اذهبي إلى رسول الله وسليه شيئاً من الطعام لأنني بلغني أنه جيء له بسهمه من الغنيمة، وأنت عزيزته ولا يمنعك»**. فذهبت الزهراء إلى أبيها، فلما نظر إليها وإلى ما بوجهها من أثر الجوع قال: **«ما وراءك يا فاطمة؟»**. قالت: **«يا أبة قد ألح عليّ الجوع»**. فقال لها: **«إن شئت أعطيتك أعنُزاً أو أُعلمك خمس كلمات علمنيها جبرئيل آنفاً، أيهما أحبّ إليك؟»**. قالت: **«لا والله يا أبه، أحبّ إليّ أن تعلمني هذه الكلمات»**. قال: **«قولي: اللهم يا أوّل الأوّلين، ويا آخر الآخرين، ويا ذا القوّة المتين، ويا راحم المساكين، ويا أرحم الراحمين، أسألك رحمتك»**. فخرجت ووجهها يتهلّل بشراً [٢].

فبلغت بما أولاها من عنايةٍ ورعايةٍ حداً لا يوصل إليه من مكارم الأخلاق والدليل على هذا أنه دخل عليها يوماً ليودّعها؛ فقد كان إذا أراد السفر سلّم على من أراد التسليم عليه من أهله، ثم يكون آخر من يسلم عليه

---

(١) ذخائر العقبى: ٤٥ ـ ٤٧.

(٢) انظر كتاب الدعاء (الطبراني) ٣١٩، وقريب منه في الدعوات (الراوندي): ٤٨، بحار الأنوار ٤٣: ١٥٣ / ١٠، ٩٠: ٢٧٢ / ٣.

فاطمة عليها السلام، فيكون توجّهه إلى سفره من بيتها، وإذا رجع بدأ بها، وكان أمير المؤمنين عليه السلام قد أصاب شيئاً من الغنيمة، فدفعه إلى فاطمة، ثم خرج، فاشترت سوارين من فضّة وعلّقت على بابها ستراً، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله دخل المسجد، فتوجه نحو بيت فاطمة عليها السلام كما كان يصنع، فقامت إليه فرحة، فنظر صلى الله عليه وآله فإذا في يدها سواران من فضة وإذا على بابها ستر، فقعد صلى الله عليه وآله حيث ينظر إليها، فبكت وحزنت وقالت: **«ما صنع هذا أبي قبلها»**. فدعت الحسنين عليهما السلام ونزعت الستر من بابها، وخلعت السوارين من يدها، ثم دفعت السوارين إلى أحدهما والستر إلى الآخر، ثم قالت لهما: **«انطلقا إلى أبي فأقرئاه السلام، وقولا له: ما أحدثنا بعدك غير هذا، فما شأنك به؟»**.

فجاءاه وأبلغاه ذلك، فقبّلهما صلى الله عليه وآله، والتزمهما وأقعد كل واحد منهما على فخذه، ثم أمر بذينك السوارين فكسرا، فجعلهما قطعاً قطعاً، ثم دعا أهل الصفّة ولم يكن لهم منازل ولا أموال، فقسمه بينهم قطعاً، ثم جعل يدعو الرجل منهم العاري الذي لا يستتر بشيء، وكان ذلك الستر طويلاً وليس له عرض، فجعل يؤزر الرجل، فإذا التقى عليه قطعه حتى قسمه بينهم أُزراً، ثم قال صلى الله عليه وآله: **«رحم الله فاطمة؛ ليكسونّها الله بهذا الستر من كسوة الجنة، وليحلّينها بهذين السوارين من حلية الجنة»** (١).

وروي أنه صلى الله عليه وآله قال: **«فعلت لله أبوها، فعلت لله أبوها، فعلت لله أبوها»**.

وهذا وأمثاله مظاهر جلية لما كان يوليهِ إياها من عنايةٍ فائقة ورعايةٍ خاصة وتربيةٍ ساميةٍ عالية، وبما كان يغدقه عليها من حنانه وعطفه وأخلاقهِ وصفاته. لقد

---

(١) مكارم الأخلاق: ٩٤ ـ ٩٥، بحار الأنوار ٨٥: ٩٣ ـ ٩٤ / ٦٢، مسند أحمد ٢: ٢١، صحيح البخاري ٣: ١٤١، سنن أبي داود ٢: ٢٧٨، صحيح ابن حبّان ٢: ٤٧٠، ٤: ٢٦٦.

كان ﷺ يتعاهدها بكل ما يمكن له أن يتعاهدها به فكان لا يمر على المحراب صباحاً وهو ذاهب إلىٰ صلاة الفجر حتى يمرّ ببيتهاﷺ، فيقول: **«الصلاة يا أهل البيت، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[١]»**[٢].

فتخرج إليه فاطمة.

فكان ﷺ يملأ هذه الدار غبطة وحناناً ورأفةً ورحمة، وكان كثيراً ما يضع رأسه علىٰ جبينها، ويشبعها لثماً وتقبيلاً، ويقول: **«إني أشم فيها ريح الجنة»**[٣].

وكان ﷺ يقف على هذا الباب ويقول: **«باب فاطمة بابي، وحجابها حجابي»**[٤].

فكانت هذه الدار ملتقى فاطمة وأبيها ﷺ ليسكب على روحها من حنانه ودفئه وخلقه ونبله، ونحن من هذا المنبر نقول له: يا رسول الله، لقد مرت بهذه الدار ساعات من الألم والحزن، بل ساعات كلها ألم وحزن حينما رجع أمير المؤمنين من دفن فاطمة ووجد مكانها خالياً، فراح يجول في وسط الدار وإلى جانبه ولداه النبطان الحسنان:

ما لي وقفت علىٰ القبورِ مسلماً	**قبرَ الحبيبِ فلم يردَّ جوابي**
أحبيبُ مالك لا تردّ جوابَنا	**أنسيت بعدي خلّة الأحبابِ**
قال الحبيب وكيف لي بجوابكم	**وأنا رهين جنادل وترابِ**[٥]

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) مسند أحمد ٣: ٢٥٩، ٢٨٥، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣١، شواهد التنزيل ٢: ١٩، سير أعلام النبلاء ٢: ١٣٣، ١٣٤، تهذيب الكمال ٣٥: ٢٥٠.

(٣) علل الشرائع ١: ١٨٣ / ١، بحار الأنوار ٤٣: ٥ / ٤.

(٤) بحار الأنوار ٢٢: ٤٧٧.

(٥) ديوان الإمام علي: ٤٠، بحار الأنوار ٤٣: ٢١٧.

﴿١٨٦﴾

خلافة الرسول ﷺ: الأزمة والحقيقة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: موضوع الوصية في الإسلام

هذه الآية الكريمة تتوجّه باللوم والعتاب للمهاجرين والأنصار في واقعة أُحد، وتفهمهم بأن النبي ﷺ إذا قُتل[٢]، فليس لهم أن ينفكّوا عن رسالته؛ لأن الأمر يتعلق برسالة إلهية عامة وثابتة وليس بأمر شخصي يحيا زمناً ثم يفارق الدنيا إلى حيث الرفيق الأعلى. فالأشخاص سيموتون مهما طال بهم الدهر ومهما عُمّروا، أما الرسالات فعلى العكس من ذلك، سيّما إذا كانت رسالة حق أو رسالة سماء فهي ستعيش وتخلد أبد الدهر. وعليه فإن عليهم أن يجعلوا ارتباطهم بالرسالة أولاً وآخراً؛ مات صاحبها أو عاش بين ظهرانيهم؛ فالرسالة لا يمكن أن تموت. فالآية الكريمة نبهت إلى هذا المعنى.

---

(١) آل عمران: ١٤٤.

(٢) بعد أن نادى الشيطان: إن محمداً قد مات. فهربوا.

ومن الثابت عندنا أن النبي ﷺ وهو يستعد للقاء الله تعالى كان قد خطط لكل شيء يتعلق بمصير الرسالة والدين، ولذا فإنه ﷺ قد خرج من الدنيا وقد أكمل كل شيء يتعلق بالإسلام، ولم يترك وراءه ثغرة في هذا الباب. وهنا نقطتان ينبغي الإشارة إليها، هما:

النقطة الأولى: تربّص أعداء الإسلام الدوائر به

إننا نعرف أن في القرآن الكريم سورةً كاملة في خصوص المنافقين، وهي السورة التي أنزلها الله جلّ وعلا وفضح فيها نوايا المنافقين وتوجّهاتهم وأفعالهم وأمانيهم. هذا فضلاً عن الآيات القرآنية الكريمة المبثوثة في مطاوي سوره الشريفة، فهناك الكثير من الآيات المنتشرة في القرآن الكريم والموزعة على سوره والتي تعالج مفهوم المنافقين، وتفضح أفعالهم وتفضح نواياهم.

إذن فهناك الكثير من المنافقين، وهناك الكثير من مسلمة الفتح الذين ألجأهم الخوف أو بريق الذهب أو الحصول على الغنائم إلى الدخول في الإسلام وهم ليسوا معتقدين فيه اعتقاداً صحيحا. فهؤلاء كانوا يطلبون الدنيا عبر الانتماء إلى هذا الدين، وهم الذين عبّر عنهم القرآن الكريم بقوله: **﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾**[١].

ثم إن هناك جماعة أخرى هي جماعة المتربصين بالنبي ﷺ الدوائر من أمثال أبي سفيان وجماعته وهم الذين كانوا يتربصون بالنبي ﷺ متى يقضي أو متى يُفعل به شيء حتى ينقضوا على هذا الإسلام، وكان هؤلاء وأولئك الذين أسلموا

(١) الشورى: ٢٠.

طلباً للدنيا وللمنزلة ولبريق الذهب يمثلون طبقةً كبيرة، وفعلاً كان لهم تأثير كبير بحيث إنهم بمجرد أن توفّي النبيﷺ وكان أمير المؤمنينعليه السلام جالساً في بيت النبي وكانعليه السلام منشغلاً بإعداد النبيﷺ الذي تركه المسلمون مسجىً دون أن ينشغلوا بتجهيزه وتكفينه ودفنه ولذا كانعليه السلام منشغلاً بتجهيزه وتكفينه ودفنه؛ وإذا بصارخ بباب الدار بعد مؤتمر السقيفة مباشرةً وكان صاحب الصوت يصرخ: أيتولّى هذا الأمر ضئيل تيم؟ أين الأذلّان عليّ والعباس؟

فخرج الإمام عليّعليه السلام إليه وإذا به أبو سفيان، فقال له: **«ما الذي تريده؟»**. فقال له: أيتولّى هذا الأمر فلان وأنت جالس؟ أتريد أن أملأ لك المدينة خيلاً؟ أبا حسن ابسط يدك حتى أبايعك. إنني على استعداد كامل أن أملأ المدينة الآن بالخيل والرجال لينصروك ضد من تولى الخلافة بعد النبيﷺ فالتفت إليه الإمامعليه السلام وزجره قائلاً: **«أبا سفيان، أجاهليةٌ بعد إسلام؟ إنك والله ما أردت بهذا إلّا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت بالإسلام شرّاً. لا حاجة لنا في نصيحتك»**.

فكأن لسان حال الإمامعليه السلام: وهل أنا غائب عنك وعما تريده؟ إنني أعرفك حق المعرفة فأنت أنت الذي تريد أن تفعل ما تفعل بهذا الدين ولا أرى إلّا إنك تريد أن تعيد إلينا هبل لتنصبه على ظهر الكعبة، ثم قال له الإمامعليه السلام: أخرج فلا حاجة لنا بخيلك فخرج وهو يتمثّل بشعر المتلمّس:

إن الهوان حمار الأهل يعرفه ... والحرّ ينكره والرسلة الأجدُ

ولا يقيم على ضيم يراد به ... إلّا الأذلّان عيرُ الحي والوتدُ

هذا على الخسف معكوس برمّته ... وذا يشجّ فلا يبكي له أحدُ[1]

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٤٤٩.

فهذا وأمثاله يريدون أن ينتهزوا أول فرصة تسنح لهم حتى يعودوا بالناس إلى الجاهلية ويطمسوا معالم الإسلام وينصبوا هبل على قبر النبي ﷺ، ولذا فإن الإمام عليه السلام بحكمته ونظرته الثاقبة لم يكن ليغفل عن أفعاله أو لتخفى عليه نوايا مثله؛ ولذا فقد طُرد من المدينة المنورة.

إذن فالمنافقون والمؤلفة قلوبهم ومسلمة الفتح والمتربصون بالنبي الدوائر كلّ هؤلاء كانوا يمثلون خطراً داهماً ضدّ الإسلام، وممكن أن ينقضوا عليه في أية لحظة من اللحظات، وكل هذه المجاميع التي يصح التعبير عنها بأنها لم يدخل الإسلام قلوبها كانت متوثبةً للهجوم على الإسلام والقضاء عليه. فكل هذا الوجود الخطر على الإسلام المتمثل بهذه الشرائح التي تريد أن تقضي على الإسلام، ويخرج النبي ﷺ من الدنيا دون أن يستخلف على هذا الدين وأهل هذا الدين وأتباع هذا الدين من يقوم بشؤونهم، ويضع حدّاً لمثل هؤلاء المنافقين؟ إن هذا لا يصح أن يفعله حتى الإنسان العادي فكيف بالإنسان الرسالي.. بحامل الرسالة وحامل نبوءة السماء؟ وإن القول بأن النبي ﷺ لم يعين إطلاقاً لهذا الأمر ولم يستخلف أحداً هو أشبه شيءٍ بالقول بأن الإسلام لم يكن. إذن فهذا الفرض لا يمكن أن نقبله بأي حالٍ من الأحوال أبداً، وبهذا فإن هذا الفرض يُطرح من الحسابات؛ لأنه غير صحيح.

النقطة الثانية: خلافة الرسول الأكرم ﷺ

بما أن الإسلام عبارة عن منظومة من التعاليم والأحكام، فممّا لا شك فيه أن النبي الأكرم ﷺ قد أكمله، فالقرآن الكريم نزل على مدى ثلاث وعشرين سنة، وعلى المساحة التي تشمل كل سورة فإنه قد تضمن الأحكام الشرعية التي تتعلق بالأفراد والمجتمع كافّة. ثم إن السنّة النبوية المطهرة تكفلت بشرح الغامض من

القرآن الكريم وتبيان مالم يبينه لنا في آياته الكريمة. وحينئذٍ لم يبقَ إلّا أمر إعداد الأُمة لمواصلة طريقها ومسيرتها على منهج الإسلام والقرآن بعد موته ﷺ.

وبتعبير آخر: الوسيلة التي تجعل النبي ﷺ يعيش من بعد موته والتحاقه بالرفيق الأعلى. وهذا أمر طبيعي جداً؛ إذ أنه لا يمكن بطبيعة الحال أن تخلو الأرض من خليفة يمثّل الرسول الأكرم ﷺ؛ لأن هذا معناه أن تموت هذه الرسالة بمجرد موت النبي ﷺ. فلابد إذن من استمرار هذه الرسالة، وهذا معناه أنه لا بد من إيجاد الامتداد الطبيعي والإلهي لحمل هذه الرسالة المقدسة من بعد النبي ﷺ.

إذن فلا بد من وجود زعامة تتولّى الحفاظ على الإسلام ورعاية قوانينه وأحكامه، وكذلك تتولى مسؤولية القيام بشرح الأحكام وتنفيذها. فهناك افتراضات لابد من استقرائها لمعرفة ما الذي تحقق منها وما الذي لم يتحقق، وهذه الافتراضات يمكن حصرها بالتالي:

الفرض الأوّل: أن النبي ﷺ مات ولم يوصِ

وهذا الفرض يذهب إليه طائفة كبيرة من المسلمين الآن، لكن لنرَ إن كان هذا الفرض ممكناً أم لا. ونحن بطبيعة الحال نقولها جازمين وبشكل حازم وحاسم لا يقبل الردّ: إنه فرض غير ممكن وغير وارد؛ لأننا نعرف أن النبي ﷺ لم يكن يخرج من المدينة لأمر ما من أُموره إلا واستخلف عليها من يقوم مقامه وإن قصرت مدة غيابه عنها [1]. فما خرج في غزوة من غزواته ولا في سفرٍ من أسفارهِ إلا واستخلف عليها من ينوب عنه فيها ليدير شؤونها وشؤون الدولة وأهلها.

---

(١) لقد ذكرنا ذلك مفصّلا في ج ٢ ص ١٩٨ / الهامش: ٢ من كتابنا هذا.

استخلاف أمير المؤمنين عليه السلام على المدينة

وفي غزوة تبوك خلّف عليها أمير المؤمنين عليه السلام، وهي الغزوة الوحيدة التي تخلّف فيها عليه السلام عن القتال مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكان تخلّفه عليه السلام عنها بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث استدعاه صلى الله عليه وآله وسلم وبينّ له أنه لا ينبغي أن يغيب في هذه الغزوة بالذات إلّا وهو مكانه، فلابدّ من استخلافه فيها لأمر كان صلى الله عليه وآله وسلم يرى عاقبته. ثم قال له: **«أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبيّ بعدي؟»**[١].

وممّا يُستغرب له أشدّ الاستغراب أن هذا النصّ الصريح وهذا الفعل الصريح لا يعتبره المؤرخون المسلمون وغير المؤرخين منهم دليلاً على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، لكن لمجرّد أن يمرض الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيعجز عن الصلاة بالمسلمين فيقدموا واحداً يصلّي بهم يُعدّ هذا دليلاً كافياً في النصّ عليه، وقالوا: لقد رضيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم لديننا، فكيف لا نرضاه لدنيانا؟[٢].

إننا لا نريد أن نبخس أحداً حقه أبداً سيّما إذا كان من الصحابة، لكننا في الوقت نفسه نقول: إن النصوص إمّا أن تكون لها تلك المعطيات، أي أن أقوال الرسول إما أن تكون في كل حال نصّاً يجب التعبد به والانقياد له أو لا، أما أن تكون تارةً كذلك وتارةً ليست كذلك حسب ما تمليه الرغبات والأهواء فهذا أمرٌ بعيدٌ عن

---

(١) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٣ ـ ١٤، صحيح مسلم ٧: ١٢٠، الجامع الصحيح ٥: ٣٠٢ / ٣٨٠٨، ٣٠٤ / ٣٨١٣ ـ ٣٨١٤، السنن الكبرىٰ (النَّسائي) ٥: ٤٤ / ٨١٣٨ ـ ٨١٤٣، فتح الباري ٧: ٦٠

(٢) فهذا التصرّف الوحيد يصلح أن يكون دليلاً على صحة خلافته وإمامته، أما تصرّفات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الكثيرة التي ملأت بطون الكتب من مثل الحديث المارّ، وحديث «هو نفسي» وكذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «هو خليفتي من بعدي» فلا تصلح دليلاً على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، إن هذا لهو العجب العجاب.

الموضوعية بعداً شاسعاً، وليس هو من المنهج العلمي في شيء.

على أية حال فنحن نتساءل هنا حول ما إذا كان الرسول ﷺ قد خرج من الدنيا ولم يوصِ مع ما كان يفعله من استخلاف أحد صحابته على عاصمة الدولة الإسلامية عند غيابه عنها [1]. إن هذا ما لا يجوز تصوره في حق الرسول ﷺ؛ لأنه ﷺ أعلم بأحكام الله تعالى الذي أوجب الوصية في مربض شاة، فكيف لا يعرف الرسول ﷺ وجوب الوصية في كيان دولة كامل ينطوي على جميع الجوانب الحيوية في الدولة من اقتصاد وإدارة وسياسة وعلاقات. ثم أليس القرآن الكريم يقول: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾[2]؟ والخير هو المال، والمال هو كل ما يتموّل به الإنسان، بمعنى أنه ما يصحّ أن يكون متموّلاً ويقتنى، فالسلع والحاجات هي أموال حتى وإن كان شاةً واحدة، فمازالت يُتمول بها فهي مال.

أي أن الله جل وعلا يفرض على الإنسان ألّا يخرج من الدنيا حتى يوصي ولو بهذه الشاة. وإذا كان الإسلام يعطي للوصية هذه الأهمية الكبرى بخصوص الشاة أو ما هو أدنى منها ثمناً، فكيف هو الحال بأمةٍ بأكملها، وبمصير أُمة، وبمستقبل أُمة، وبوجود أُمة، سيّما أننا إذا علمنا أن المسلمين بلغوا في عصر النبي ﷺ عشرات الآلاف، ثم بعد جيل النبي بدأت تصبح مئات الآلاف، وبعد جيل الخلفاء أصبحت الأمة الإسلامية بالملايين. وهكذا أصبحت تتنامى وتكثر فهل من المعقول أن

---

(١) مع أن الخليفتين أبا بكر وعمر أنفسهما قد أوصيا؛ فأوصى أبو بكر لعمر، وأوصى عمر لواحد من ستّة: وجعل كفّة عبد الرحمن هي الراجحة إذا تساوى الطرفان؛ لما في الأمر من ضرورة وأهمية ارتأياها، فكيف بالرسول ﷺ وهو أعلم الجميع وأحكمهم، بل لا وجه للتفاضل لانعدام جهة الاشتراك؟.

(٢) البقرة: ١٨٠.

يترك النبي ﷺ هذه الأمة دون وصية وهو حامل رسالةٍ تأمر بالوصية ولو بشاة؟ إن هذا لا يمكن قبوله ولا يمكن تصوره أبداً.

وقد يقول قائل: إن المسلمين في ذلك الوقت كان يكفيهم القرآن، وكان يكفيهم الصحابة.

والجواب: صحيح أن يقال: إن القرآن فيه تبيان كل شيء[1] وأنه **﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾**[2] لكن الواقع يقول بأن القرآن الكريم يحتاج إلى القائم عليه ليفسرَ ويبين معانيه وليوضح الغرض والمراد منه، فهو يحتاج إلى من يشرحه.

والدليل على هذا الكلام كما ذكرت قبل فترةٍ وجيزة في إحدى محاضراتي هو أنه ليست هنالك آية في القرآن الكريم لا نجد فيها خلافاً بين المفسرين، فكل آية متنازعٌ فيها وفي معانيها وفي مدلولاتها، فمن غير الممكن واقعاً أن يكون هناك إجماع بين المفسرين على معنىً معين ما لم يقف الرسول ﷺ أو القائم مقامه في هذا المجال وفي هذه الرسالة ليبينا للناس ويقولا لهم: هذا هو المعنى المراد من الآية الكريمة.

بل إن هذا الأمر يتعدى المبهمات ليصل حتى إلى الأمور الواضحة وذلك كما في قوله تعالى: **﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً﴾**[3]، فالقرآن الكريم يقول: إن فترة الحمل والفصال سنتان ونصف لكن بعض المسلمين يقول بأنه سنتان، وبعضهم يقول بأنه أربع سنين، وبعضهم يقول بأنه عشر سنين، وبعضهم يقول بأنه عشرون سنة. وهذا اختلاف بين العلماء بيّن في تحديد فترتي الحمل والرضاعة مع نصّ القرآن الكريم على تحديدهما.

---

(١) قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ النحل: ٨٩.
(٢) الأنعام: ٣٨. (٣) الأحقاف: ١٥.

إذن فنحن في مقام العمل والتطبيق إلى أي رأي من الآراء يجب علينا أن نرجع؟ وهكذا هو الحال في مختلف الجوانب القرآنية، فما من جانب قرآني إلّا وبين المسلمين فيه خلاف واختلاف في تفسيره وبيان المراد منه. وعليه فلا يمكن توحيد رأي المسلمين برأي واحد حول منظور واحد أو حول آية واحدة، ولا يمكن أن يتم هذا إلّا إذا نصّ عليه النبي ﷺ أو من أنابه النبي عنه فيقول: إن هذا المعنى هو المتعين وهو المراد من هذه الآية الكريمة.

الفرض الثاني: نظرية الوصاية للأُمة

وينص هذا الفرض على أن النبي ﷺ قد أوصى وَلكن لا لشخص بعينه بل للأمة بكاملها.. أوصى للأمة بأجمعها، بمعنى أن النبي ﷺ ترك مسألة إدارة شؤون المسلمين واختيار خليفة له إلى الأُمة ليتشاوروا فيما بينهم لانتخابه واستخلافه. وإزاء هذا الفرض فإن لنا أن نوجه بضعة أسئلة إلى الفقه الإسلامي وإلى التاريخ الإسلامي لنطلب منهما أن يفسرا لنا بعض الإشكالات التي تعترضنا أمام هذا الفرض، فنطلب منهما تفسيرات وشروحاً وإجابات لهذه الأسئلة:

السؤال الأول: الدليل على نظرية الشورى

وهنا نسأل التاريخ والفقه الإسلاميين فنقول: ما هو الدليل على أن الأمر كان شورى؟ ومتى عُمل بالشورى في تاريخ المسلمين؟ طبعاً سوف يستدل هنا في هذا المقام على أمر الشورى بآيتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[1].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[2].

---

(١) الشورى: ٣٨. (٢) آل عمران: ١٥٩.

الرد على الاستدلال بالآية الأولى

وللإجابة والرد على هذا الاستدلال نقول بخصوص قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ فإن جميع المفسرين يقولون بأن هذه الآية هي في مقام مدح الأنصار[1]؛ لأن هؤلاء كانوا إذا نزل بأحدهم أمر أو حصل له شيء مشكل فإنه لا يستبد برأيه فيه ولا يحاول بأن يحله من نفسه بل إنه يرجع إلى إخوانه وأصحابه فيشاورهم ويستضيء بآرائهم ويستنير بمشورتهم على حل مشكلته. فكان الأنصاري يطرح مشكلته أمام أصحابه ويتداولون هذه المشكلة فإذا أقروا حلاًّ معيناً عمل به وإن لم يقروه تركه، وبهذا فإنهم كانوا يعملون بمبدأ العقل الجماعي.. العقلية الجماعية التي كانت تسدد كثيراً من الآراء التي يمكن ألّا تصيب فيما إذا كانت آراء شخصية بعيدة عن الشورى.

وبناء على هذا فلا يمكن توجيه الآية إلّا بهذه الصورة وهي أن الأنصار مدحهم القرآن الكريم؛ لأنهم يحلون مشاكلهم بمبدأ التشاور والتداول في هذه المشاكل ليصلوا إلى الحلول المناسبة فيقروها. وبما أن الخلافة الإسلامية أمر مهم فإن المسلمين عمدوا إلى إيجاد حل له عن طريق مبدأ الشورى، فهذا هو أقرب الطرق وأيسرها لتقريب الاستدلال بهذه الآية على مبدأ الخلافة.

وهذا الكلام إنما يتم ويعتبر صحيحاً فيما لو لم يكن هنالك نص من السماء على خلاف الشورى، فلو لم يكن هنالك نص فإن الشورى تبقى هي الحل، أما مع وجود النص من السماء على شخص بعينه بأنه هو الخليفة بعد النبي فإن هذا الكلام وهذا الاستدلال يعتبران ساقطين عن الاعتبار؛ لأنه لا شورى ولا اجتهادَ في مقابل النصوص السماوية. وإن شاء الله تعالى سوف أُبين من خلال البحث ما هو

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٣٦.

المراد من النصوص التي لا يجوز الاجتهاد إزاءها.

ومن هذا نخلص إلى أن هذه الآية الكريمة نزلت في خصوص مدح الأنصار ولا علاقة لها من قريبٍ أو من بعيد بالحكم ونظرية الحكم وتحديد الحاكم الشرعي أو الخليفة الشرعي بعد الرسول ﷺ.

الردّ على الاستدلال بالآية الثانية

وأما في خصوص قوله تعالى: وشاورهم في الأمر فإن المفسرين ينصون على أن الله جل وعلا إنما أمر نبيه ﷺ بمشاورة المسلمين لعدة أسباب منها:

السبب الأوّل: استجلاب مودّة الصحابة

أي أنه ﷺ حينما يخاطبهم في الأمور المهمة ويسألهم حول بعض المسائل المصيرية التي تهمّ الإسلام والدولة وتمس الوجود فإنه بذلك يكون قد وضع حجر الأساس لانقيادهم ولتقبلهم، ولإشعارهم بأنهم ذوو مكانة عنده أو ذوو أهمية لديه. إذن فهذا السبب هو استجلاب مودة هؤلاء كيلا ينفروا من الإسلام وكيلا يتّهموا الرسول ﷺ بأنه يستبد بالرأي لوحده [١].

السبب الثاني: استبيان الناصح من غير الناصح

ذلك أن الرسول ﷺ بما يعرفه من حلول وما يعرفه من دسائس عند البعض من الشرائح التي انتسبت إلى الإسلام والتي مرّ ذكرها فإن هؤلاء من خلال مشورتهم ومن خلال إشارتهم على الرسول ﷺ يتّضح منهم الناصح لله تعالى ولرسوله ﷺ وللإسلام من الذي يريد أن يكيده.

السبب الثالث: تعليم المسلمين حسن المشورة

أي أنه ﷺ يريد أن يقول للمسلمين جميعاً بأنكم ـ كما أني أشاوركم بأموري

---

(١) فتح القدير ١: ٣٩٣.

وأمور الدولة ـ عليكم أن تتشاوروا فيما بينكم في أموركم ولحل مشاكلكم وقضاياكم التي تعلق.

إذن فهذه الآية أيضاً لا علاقة لها من قريبٍ أو من بعيد في قضية الإدارة وقضية الحكم والخلافة بعد النبي ﷺ.

وهذه تفاسير المسلمين بين أيدينا وهي تفاسير يبلغ عدّها المئة والخمسين تفسيراً أو أكثر، وكلها لا تنصّ على أن لهذه الآية علاقة بمبدأ الحكم والإدارة في الإسلام، وكذلك السنة النبوية فإنها تخلو من النصوص التي لها علاقة بمبدأ الشورى حول الحكم في الإسلام بعد النبي ﷺ، فليس هنالك من حديث في السنة النبوية المطهرة يأمر المسلمين بأن ينتخبوا لهم خليفةً شرعياً من بعده عن طريق الشورى.

لكن لو تنزّلنا وقلنا: إن في القرآن آيات وفي السنة النبوية أحاديث وروايات تنصّ وتأمر بمبدأ الشورى حول قضية الخلافة والحكم في الإسلام، فهنا لنا أن نتساءل: ما هي معالم الشورى؟ وما هي حدودها؟ وهل امتثل الصحابة أمر الشورى أم لم يمتثلوه؟ إن الشورى تعني التداول، يعني أن هناك جماعة كبيرة من المسلمين تمثل المسلمين جميعهم تتداول فيما بينها لتقرير مصير الأُمة، أو لإيجاد حل لهذه المشكلة. ولو رجعنا إلى قضية السقيفة لوجدنا أن الذين انطلقوا من السقيفة وقد بايعوا كانوا اثنين فقط. وتنص الرواية على أن هذين جاءا بالخليفة، وكانوا كما تنص الرواية يخبطون الناس خبطاً بالسيوف ويأمرون الناس والمسلمين بمبايعته حتى بايعوا له[1]. وهذان الاثنان اللذان بايعا الخليفة هما عمر ابن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، فهل هذه هي الشورى التي تضع حلاًّ لمشكلة

(١) قريب منه في تاريخ الطبري ٢: ٤٥٩.

تتعلق بمصير الأمة ووجودها؟ وهل مجلس الشورى الذي ينعقد يـنعقد بـاثنين فقط؟ ولنفرض أن مجلس الشورى قد انعقد باثنين ثم تزايـد وأصـبح عشـرين رجلاً، وأن هذا هو أمر مشروع فلماذا إذن نصّ الخليفة الأول على شخصٍ مـن بعده بعينه ولم يجعل الأمر شورى بين المسلمين؟ فقد قال قولته الشهيرة: إني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب. فدخل عليه أحد المسلمين وقال له: ماذا تقول لله غداً؟ قال: أقول له: إني استخلفت عليهم خيرهم[1]. وهذه الرواية يرويها أبناء المذاهب الإسلامية الأُخرىٰ.

وبناء عليه فأين مبدأ الشورى؟ ثم كان الأمر مع الخليفة الثاني وقد خرج عن الطريقين فلم يعمل بالتعيين كما عمل أبو بكرٍ ولم يعمل بالشورى كما فُعل مع أبي بكرٍ؛ فقد عمد إلى ستةٍ أوصى إليهم بأن تكون الخلافة في أحدهم بعد أن يـتفقوا عليه، ثم أمرهم بأنه لو انقسم هؤلاء الستة إلى قسمين متساويين فإن عـليهم أن يرجّحوا كفة الجماعة التي فيها عبد الرحمن بن عوف، وهكذا فإن الجماعة التي اختارت عثمان بن عفان كان فيها عبد الرحمن بن عوف، وفعلاً تمت البيعة لعثمان ابن عفان.

إذن فهل هذا الأمر من الشورى بشيء؟ وأيـن مـوقع الشـورى مـن النـص والتطبيق؟ وبناء على هذه التفسيرات وبناء على هذه الوقائع يتّضح ما هو المراد

---

(١) السنن الكبرى (البيهقي) ٨: ١٤٩، شرح نهج البـلاغة ١: ١٦٥، الطـبقات الكـبرى ٢: ٢٧٤، الثقات (ابن حبّان) ٢: ٢؛ وفيه: رفع أبو بكر يديه وقال: اللهم إني قد وليته بغير أمر نبيك.

وهنا نقول: إن كان الأمر شورى، فما الضرورة لهذا القول؟ وإن كان هذا القول نـابعاً عـن إحساس أبي بكر بالمسؤولية، وتوقّع الخوف أو المكروه من أجله؛ كما توحيه عبارة «بغير أمر نبيك» فهذا يعني أن في الأمر تعدّياً على خليفة شرعي بعينه.

من الشورى. ثم إن هذا الذي يدّعي دعوى الشورى دون أن يكون هنالك عنده دليل ناهض يعضده ينبغي عليه أن يخجل من نفسه وأن يحترم مخّه وهو يطلق مثل هذه الدعوى التي لا دليل عليها ولا أساس لها بناء على ما بينّا من ردود ونقوضٍ على أدلّتها.

على أية حال فالنبي ﷺ لم يعتمد نظرية الشورى إطلاقاً، وكذلك الإسلام لم يعتمد نظرية الشورى أيضاً، ومن غير المعقول أن يكِل النبي ﷺ هذا الأمر (أمر الشورى) إلى الأمة، والأمة إلى الآن لم تصل إلى المستوى المطلوب في حمل رسالة القرآن.

وربما يقول قائل: إن هذه الدعوى دعوى خطرة وهي تمس الأُمة كلها.

والجواب: أن هذه الدعوى صحيحة ودليل صحتها هو بالرجوع إلى الأدلة والحقائق التاريخية التي مر بها المسلمون، ومن ذلك واقعة أُحد التي خالف المسلمون فيها قول الرسول طمعاً في الغنيمة مع أن الرسول أمرهم بألّا يبارحوا أماكنهم التي وضعهم فيها وفق خطته العسكرية للمعركة، ولكنهم مع ذلك خالفوا طلباً للغنيمة فكان ما كان من أمر هزيمة المسلمين وفرارهم عنه ﷺ. وكذلك الحال في يوم موت الرسول ﷺ وفيما كان الرسول ﷺ يحتضر أمرهم بأن يأتوه بدواة وقرطاس كي يكتب لهم كتاباً يحقق وجودهم ويثبتهم، لكنهم رفضوا.

ونحن لا نريد أن نقول: إن بعض المسلمين قال: إنه يهجر، لكننا نقول بما تقوله الروايات عند المذاهب الإسلامية من أن أحد المسلمين قال فيها: قد غلب عليه الوجع [1] ومعنى غلب عليه الوجع أن كلامه ليس كلام شخص متّزن، وعليه فإنه لا

---

(١) مسند أحمد ١: ٣٣٦، صحيح البخاري ٧: ٩، صحيح مسلم ٥: ٧٦.

قيمة له. أليس هؤلاء هم الذين كانوا المسلمين في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؟ وهل يتّهم المسلم الرسولَ الذي لا ينطق عن الهوى بأنه قد غلب عليه الوجع؟ بمعنى أن كلامه كلام مريض وليس كلام رجل متّزن في كامل قواه العقلية، وأن كلامه ليس بحجة فلا تأتوه بقرطاسٍ ودواة ولا تطيعوا ما أمركم به. فإذا كان هذا حال المسلمين والنبي حيٌّ بينهم.. والنبي لم يزل بين ظهرانيهم، فما هو الحال فيما إذا كان الأمر بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنهم؟

الردّ على الشورى بقول أبي بكر وعمر

ونحن حينما نرجع إلى الفقه الإسلامي عند المذاهب الإسلامية الأخرى وإلى كتب التاريخ والسير فإننا سنجد أن الخليفة الثاني قد فرق في العطاء بين المسلمين، ومن هؤلاء المؤلفة قلوبهم الذين نصت عليهم الآية في إعطائهم الزكاة، وهؤلاء المؤلفة قلوبهم كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يعطيهم شيئاً من الزكاة بقوله تعالىٰ: **﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ... وَالمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾**[1]؛ ليستميلهم إلى الإسلام، وحينما جاء الخليفة الثاني منع الزكاة عنهم وقال: إن الإسلام إنما فرض لهؤلاء سهماً؛ لأنه في أول أمره كان ضعيفاً، أما الآن وقد قوي فلا حاجة له بهم. ولمّا قيل له في ذلك بأنه إنما يخالف النص، أجابهم بأنه يسترشد بروح النصّ.

فإذا كان الخليفة الثاني يرى منع الزكاة عن هؤلاء لأنهم لا يمكن أن يكونوا بمستوى المسلم الصحيح أو الحقيقي، فكيف يمكن أن يوكل أمر الأمة إلى المسلمين وفيهم من هو من المؤلفة قلوبهم، وفيهم من هو من المتربصين وما إلى ذلك؟ وسوف أروي هنا رواية وقعت أو حادثة حدثت بين الخليفة الثاني وبين

---

(١) التوبة: ٦٠.

عبد الله بن عباس ﷺ وهي واحدة من الحوادث التي وقعت بينهما، تقول الرواية التي تنقل هذه الحادثة: دخل عبد الله بن عباس ﷺ المسجد النبوي فوجد الخليفة الثاني وحولة مجموعة من الشعراء وقد تساءلوا فيما بينهم، فسأل أحد الجالسين قائلاً: أي الناس أشعر؟ فقال له عمر بن الخطاب: أنا لا أعرف في الشعر، وهذا ابن بجدتها قد جاءكم (يعني عبد الله بن عباس)، فاسألوه. فلما دخل عبد الله بن عباس وجلس إلى جانب الخليفة الثاني التفت إليه عمر بن الخطاب وقال له: يابن عبّاس، هل لك إلى أن تخبرنا عن أي الناس أشعر؟ فقال ابن عباس: أشعر الناس زهير بن أبي سلمى حيث يقول في مدح قوم من غطفان يقال لهم بنو سنان:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم	قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
قوم أبوهم سنان حين تنسبهم	طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
إنس إذا أمنوا جن إذا فزعوا	مرزّؤون بهاليل إذا جهدوا
محسّدون على ما كان من نعم	لا ينزع الله منهم ما له حسدوا

فقال عمر: والله لقد أحسن، وما أرى هذا المدح يصلح إلّا لهذا البيت من هاشم لقرابتهم من رسول الله ﷺ. ثم قال: يابن عبّاس، أتدري ما منع الناس عنكم؟ قال: لا. قال: لكني أدري. قال: ما هو؟ قال: كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوّة والخلافة فتجفخوا جفخاً وتنفخوا نفخاً، فنظرت قريش لنفسها فاختارت، ووفقت فأصابت. فقال ابن عباس: أيميط أمير المؤمنين عني غضبه فيسمع؟ قال: قل ما تشاء. قال:

أما قولك: إن قريشاً كرهت، فإن الله تعالى قال لقوم: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾**[1] أي أنك جعلت المناط في أحكام الله تعالى وأوامره هو

(١) محمد: ٩.

كراهة قومنا وعدم كراهتهم، فلو كره قومنا نزول القرآن الكريم فهل يترك الله تعالى إنزاله؟ ولو أن قومنا كرهوا نزول الوحي والإسلام ـ كما حصل بالفعل ـ فهل يترك الله تعالى أمره ويمتنع عن إنزاله على الرسول الأكرم ﷺ؟ والحاصل أنه لو أراد الله تعالى شيئاً وكرهته قريش فهل نتركه طاعة لقريش ومعصية لله؟

وأما قولك: إنا كنا نجخف ـ أي يصبح عندهم كبرياء وتضخّم ـ فلو جخفنا بالخلافة جخفنا بالقرابة، ولكنا قوم أخلاقنا مشتقّة من خلق رسول الله ﷺ الذي قال الله تعالى فيه: **﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾**(١)، وقال له: **﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾**(٢).

وأمّا قولك: فإن قريشاً نظرت لنفسها فاختارت ـ ولنلاحظ التعبير هنا وهو (قريشاً اختارت)، بمعنى أن المسلمين جميعاً لم يختاروا بل إن الذي اختار هو قريش فقط، وهم جزء من المسلمين وليسوا كلهم، فهناك الأنصار وهناك القبائل العربيّة المسلمة من غير قريش، فإن كان الأمر متعلّقاً بكون قريش قبيلة النبي فبنو هاشم أهل بيت النبي ﷺ؛ ولذا فإن أمير المؤمنين عليه السلام لمّا بلغه احتجاج أهل السقيفة بهذا قال عليه السلام: **«احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة»**(٣)؛ لأنهم أقرباء نبيّنا الأكرم ﷺ وخاصّته وأبناؤه، وغيرهم من قريش أبعد عنه منهم، وهذا هو تعبير الخليفة الثاني نفسه ـ فليس من حقّ قريش أن تختار لنفسها، ذلك أن الله تعالى يقول: **﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**(٤)، وقد علمت أن الله اختار من خلقه لذلك من اختار. أي أن الله تعالى

(١) القلم: ٤. (٢) الشعراء: ٢١٥.

(٣) نهج البلاغة / الكلام: ٦٧.

(٤) القصص: ٦٨، أي أنه تعالى جعل كل اختيار خلاف اختياره جلّ وعلا شركاً.

اختار وقضى ولم يترك الأمر هملاً أو دون أن ينزل فيه حكماً.

وأما قولك: ووفقت فأصابت، فليس الأمركذلك؛ لأن الذي يختار خلاف ما اختار الله تعالى لم يوفّق، فلو نظرت قريش من حيث نظر الله لها لوفقت وأصابت.

ثم نفض ابن عباس ثيابه وقام، فقال عمر: على رسلك يابن عباس، أبت قلوبكم يا بني هاشم إلّا غشّاً في أمر قريش لا يزول، وحقداً عليها لا يحول. فقال ابن عباس: مهلاً، لا تنسب هاشماً إلى الغشّ؛ فإن قلوبهم من قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي طهّره الله وزكّاه، وهم أهل البيت الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾[1].

وأما قولك: حقداً، فكيف لا يحقد من غصب حقّه ويراه في يد غيره؟ فقال عمر: أمّا أنت يابن عباس، فقد بلغني عنك كلام أكره أن أُخبرك به، فتزول منزلتك عندي. قال: وما هو؟ أخبرني به؛ فإن يكُ باطلاً فمثلي أماط الباطل عن نفسه، وإن يكُ حقّاً فإن منزلتي عندك لا تزول به. قال: بلغني أنك لا تزال تقول: أُخذ هذا الأمر منك حسداً وظلماً. قال:

أما قولك: حسداً، فقد حسد إبليس آدم فأخرجه من الجنة، فنحن بنو آدم المحسود.

وأما قولك: ظلماً، فأمير المؤمنين يعلم صاحب الحقّ من هو. ثم قال: ألم تحتجّ العرب على العجم بحقّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واحتجّت قريش على سائر العرب بحق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من سائر قريش. فقال له عمر: قم الآن فارجع إلى منزلك.

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

فقام، فلما ولّى هتف به الخليفة عمر: أيها المنصرف، إني على ما كان منك لراعٍ حقّك. فالتفت إليه ابن عباس وقال: إن لي عليك وعلى كلّ المسلمين حقّاً برسول الله ﷺ، فمن حفظه فحقّ نفسه حفظ، ومن أضاعه فحقّ نفسه أضاع. ثم مضى (١).

أي أن الخليفة الثاني كأنما استشعر أن المدح هذا إذا كان لا يليق إلا ببني هاشم وهم أهل له فلماذا إذن ذهبت الخلافة عنهم، فكأنما أجاب عن إشكالٍ مضمر. وعبد الله بن عباس قد أمسك بزمام المبادرة بعد أن قال له الخليفة الثاني ما قال، فهو لم يكن بالذي تفوت عليه مثلُ هذه الأمور ولذا فإنه احتج عليه بما احتج.

على أية حال فإننا حينما نلاحظ المحاورة نجد فيها أن قريشاً قد اختارت وليس المسلمون هم من اختار، وموضع الشاهد هنا أنه يقول له: قريشٌ اختارت ونحن اخترنا ولم يستدل عليه أو على مدّعاه بمبدأ الشورى بل إنه استدل عليه أو نسب هذا الفعل إلى اختيار قريش خاصة دون أن يكون للمسلمين عامة. ولو أن هناك نظرية واضحة المعالم للشورى لاحتجّ بها الخليفة عليه وقال له: على رسلك فإننا إنما تشاورنا في الأمر واخترنا أبا بكرٍ في تلك الحادثة؛ وعليه فلا وجه لادعائكم الأمر دوننا؛ لأننا قد أثبتناه للخليفة الأول بحقّ الشورى، وهو حقّ مأمور به. وبما أن الخليفة الثاني لم يحتج بهذا بل احتج باختيار قريش فهذا يدل على أن مبدأ الشورى لم يكن معمولاً به، وعلى أن الشورى لم تكن منظورة في اختيار الخليفة الأول.

ثم إنه ليس هنالك من صحابي احتج للخلافة ولصحتها ولصحة إعطائها لأبي

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ٥٢ ـ ٥٥، مناقب أهل البيت عليهم السلام : ٤٥٣ ـ ٤٥٤.

بكرٍ بمبدأ الشورى، بل إن الخليفة الأول نفسه لم يحتج في السقيفة بمبدأ الشورى فلم يقل أنا جئت بالشورى بل إنه قال: نحن أهل بيت النبي محمد وعشيرته ولا ينازعنا سلطان محمد إلّا ظالم. فهذا كل احتجاجه، وليس فيه إشارة إلى مسألة الشورى، فلا الخليفة الأول ولا الخليفة الثاني يحتجّان بالشورى في مسألة الخلافة واستخلاف الرسول بل إن الخليفة الأول يحتجّ بقرابة النبي التي عبر عنها الإمام علي عليه السلام بأنهم احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة، واحتج الخليفة الثاني باختيار قريش وليس هنالك من ذكرٍ مطلقاً لقضية الشورى.

ولهذا فإن الأنصار رفضوا هذا القول وهذا المبدأ حتى إنهم وصل بهم الأمر إلى أن يقولوا: منّا أمير ومنكم أمير، فقام عمر بن الخطاب وقال: والله لا ينازع عشيرة محمد في سلطانه إلّا ظالم[1]. ورُفضَ «مبدأ منّا أمير ومنكم أمير».

إذن مبدأ الشورى لم يحتج به أيّ صحابيٍ في صدر الإسلام حول صحة الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا القرآن الكريم بين أيدينا وهذه السنة النبوية المطهرة أيضاً بين أيدينا دون أن نجد فيهما ما يشير إلى هذا المبدأ أو هذه النظرية في خصوص تعيين الخليفة بعد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. فمن أين انبثقت نظرية الشورى؟ وبهذا فإننا نغلق باب القول بمبدأ الشورى أو بنظرية الشورى لأنها نظرية لا أساس لها في الإسلام، ولم يحتجّ بها أو يستدل بها صحابيّ سواءً كان الخليفة نفسه أو أحد الصحابة الآخرين في كل احتجاجاتهم ومناقشاتهم.

الفرض الثالث: النصّ

ووفق هذا الرأي فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أوصى بالخلافة من بعده لشخص معيَّن،

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٤٥٧، الكامل في التاريخ ٢: ٣٣٠.

وأن النصوص والروايات النبوية الشريفة قد نصت على هذا الأمر. وهذه النصوص (لحسن حظّنا) تملأ كتب الحديث والسير والتاريخ، وإنما قلنا: لحسن حظنا، لأننا نعرف ما هو التاريخ ومن الذي كتب التاريخ وما الذي حصل في التاريخ.. التاريخ الذي يقول عن النبي ﷺ: إنه قد غلبه الوجع حينما قال لهم **«ايتوني بدواة وقرطاس أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً»**[١].

المبحث الثاني: نماذج من محاولات تشويه التاريخ

فهذا التاريخ الذي يحمل حقداً على هذا البيت النبوي لا يمكن أن يحفظ لنا هذا الأمر، لكن الله شاء ـ وهذا كما قلنا من حسن حظنا ـ أن يكون في التاريخ أو في الكتب الأُخرى إشارات أو ذكر لهذا الأمر.

فهذا التاريخ مشبع بالتزوير، وسنضرب على هذا عدّة نماذج:

الأنموذج الأوّل: نسبة كلمة «غلبه الوجع» لأمير المؤمنين عليه السلام

إنّنا حينما نرجع إلى كتاب (حياة محمّد) لتوفيق الحكيم نجده يذكر أن هذه الكلمة (غلبه الوجع أو إنه ليهجر) قد ذكرها عمر وعلي. هكذا ينص توفيق الحكيم حول هذه الواقعة، وهل من المعقول أن يقولها علي بن أبي طالب الذي انتقل الرسول الأكرم ﷺ إلى الرفيق الأعلى ورأسه على صدره؟ إن هذا هو المستحيل بعينه لكن هذا الكاتب كأنما كبرت عليه الكلمة أن تُنسب للخليفة الثاني وحده فحاول أن يخفف وطأتها بنسبتها إلى عليٍّ عليه السلام معه، وهذا هو التاريخ الذي نتكلم عنه، إنه تاريخ مشوه مزور يحاول فيه البعض طمس الحقائق وتشويه الصور الواضحة للوصول إلى مآرب يرتؤونها.

---

(١) مسند أحمد ١: ٣٥٥، صحيح البخاري ١: ٣٦، ٧: ٩، صحيح مسلم ٥: ٧٥ ـ ٧٦.

الأنموذج الثاني: فرية أنّ السجّاد عليه السلام يلعب بالشطرنج

ينقل الدميري في كتابه (حياة الحيوان الكبرى) أن الإمام الشافعي يجيز اللعب بالشطرنج ولا يرى به بأساً إلّا وقت الصلاة، فإنه لا يجيزه بمعنى إنه لا يجيزه إذا حل وقت الصلاة. فإذا أدى المسلم صلاته فحينئذٍ لا بأس عليه في أن يلعب، وحينما ينتقل بعد ذلك الدميري إلى نقل موقف الإمام زين العابدين عليه السلام من مسألة اللعب بالشطرنج، فإننا نجده يقول: وكان زين العابدين يلعب بالشطرنج[1].

وقصد الدميري هنا هو عين قصد الحكيم هناك فهو لا يريد أن يقع اللوم على عاتق الشافعي وحده فأراد أن يشرك معه أحداً في هذا، ولم يجد أمامه غير زين العابدين عليه السلام؛ لأنه من هذا البيت الذي نسب توفيق الحكيم إلى أحد أفراده كلمةً قالها عمر بحق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. أي أنه يريد أن يجد مبرّراً لفتوى الشافعي ولم يجد أمامه سوى زين العابدين وسيد الساجدين عليه السلام الذي قيل ما قيل فيه وبحقه من علماء المسلمين.

وهكذا نرى أن تاريخاً مثل هذا لا يمكن أن يحفظ لنا نصوصاً يمكن أن يستدل بها في المقام على نظرية النص أو على حقيقة النص، لكن مع ذلك ولمشيئة الله جلَّ وعلا فإننا نجد أن التاريخ قد حفظ لنا نصوصاً كثيرة في هذا المجال مبثوثة ومنتشرة في كتب التاريخ والسير والحديث، ومن هذه النصوص ما يرويه أبو ذر رضي الله عنه بقوله: والذي بعث محمداً بالحق نبياً لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آخذاً بيد عليٍ عليه السلام في جانب الكعبة وهو يقول له: **«يا علي حربك حربي وسلمك سلمي»**[2].

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ٢: ٦٢ ـ ٦٣.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٤، المناقب (الخوارزمي): ١٩٩، وقاله له بهذا المعنىٰ أحاديث كثيرة، انظر الحاوي للفتاوي ٢: ٤٤.

ويقول له عليه السلام: **«من أحبك ختم الله له بالأمن والإيمان، ومن أبغضك فليس له نصيب من الإسلام»**[(١)]، ويقول له عليه السلام: **«أخي ووزيري وناصري وخليفتي من بعدي»**[(٢)].

وليس هذا الأمر مقتصراً على النصوص الحديثية بل إنه تجاوزها إلى النصوص الأدبية أيضاً التي عاصر أصحابها النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ فهناك الكثير من النصوص الأدبية التي قيلت في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتي تعبر عن الإمام علي عليه السلام بأنه الوصي والخليفة من بعد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم[(٣)]. وهناك نصوص أُخرى قيلت بعد وفاة الرسول في حادثة السقيفة ومنها نص شعري قاله عبد الله بن أبي سفيان بن الحرث بن عبد المطلب حيث يقول:

وإن ولي الأمر بعد محمد ... علي وفي كلّ المواطن صاحبُه

وصي رسول الله حقّاً وصنوه ... وأول من صلّى ومن لان جانبُه[(٤)]

هذا وهناك الكثير من النصوص غيره تثبت هذا الأمر لأمير المؤمنين عليه السلام.

الأنموذج الثالث: فرية عبد الله بن سبأ

ومع كل هذا يأتي التاريخ النتن الذي يقول بأن عبد الله بن سبأ هو صاحب

---

(١) مسند أبي يعلىٰ ١: ٤٠٣ / ٥٢٨، المعجم الكبير ١٢: ٣٢١، كنز العمال ١١: ٦١١ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٥٩ / ٣٦٤٩١، وقال: قال البوصيري: رواته ثقات.

(٢) ورد هذا الحديث عن الصادق الأمين صلى الله عليه وآله وسلم في حق أمير المؤمنين عليه السلام بصيغ كثيرة ومناسبات عدّة، انظر: الكافي ١: ٣٢١ / ٧، الأمالي (الصدوق): ٣٥٤ / ٤٣٢، السنن الكبرىٰ (النسائي) ٥: ١٢٦ / ٨٤٥١، المعجم الكبير ١٢: ٣٢١.

(٣) كنص حسان بن ثابت الذي يقول فيه:

يناديهمُ يوم الغدير نبيُّهم ... بخمٍّ وأسمِعْ بالنبي مناديا

مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (الكوفي) ١: ١١٩، مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٣٠.

(٤) شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٣١.

نظرية الوصاية إلى الشيعة أو إلى علي أبن أبي طالب لأن عبد الله بن سبأ هو مؤسس المذهب الشيعي.

حقيقة عبد الله بن سبأ

وهذا الأمر يمكن الرد عليه من عدة جوانب:

الجانب الأول: أن عبد الله بن سبأ هو شخصية وهمية غير حقيقية ولا وجود لها.

الجانب الثاني: أنه على فرض وجوده فإن الذين يثبتون وجوده فإنهم يثبتونه في زمانٍ متأخرٍ على وجود المذهب الشيعي، كما أنه نشأ في العراق وليس في المدينة المنورة وفي خلافة علي ابن أبي طالب أما هذه الأبيات المارة لسفيان ابن الحرث ابن عبد المطلب فإنها قيلت في الحجاز وليس في العراق وبعد وفاة النبي مباشرة أي قبل وجود عبد الله بن سبأ وقبل خلافة علي بن أبي طالب بما يقارب الثلاثين عاماً، فهل إن عبد الله بن أبي سفيان بن الحرث تنبأ بهذه الأبيات قبل أن يُخلق عبد الله بن سبأ؟ إن هذا أمر غير معقول.

وكذلك النصوص الأدبية التي وقعت في حرب صفين، النصوص التي كانت تصف الإمام علياً بأنه وصي رسول الله وخليفته، فيقول الوليد بن جابر بن ظالم الطائي:

شدّوا فداء لكُمْ أُمّي وأبْ ... فإنما الأمر غدا لمن غلبْ

هذا ابن عمّ المصطفى والمنتجبْ ... تنميه للعلياء سادات العربْ

ليس بموصوم إذا نص النسبْ ... أول من صلّى وصام واقتربْ[1]

وكذلك غيره من الشعراء الذين يستعرضون هذه النصوص أو هذه الحقائق التي تصفه بأنه الخليفة والوصي بعد رسول الله. وكل هذه النصوص قبل أن

(١) شرح نهج البلاغة ١٦ : ١٢٩.

يخلق عبد الله بن سبأ الموهوم في مخيّلات وأذهان مزوري التاريخ والحاقدين على أهل هذا البيتعليهم السلام. وهؤلاء الذين يدّعون وجوده يقولون: إن عبد الله بن سبأ هذا هو الذي حرّك أهل مصر للثورة على الخليفة الثالث، وهو الذي حرّك أبا ذر، وهو الذي حرّك أهل الكوفة، وهو الذي زرع فيهم قضية الوصاية إلى الشيعة وإلى علي بن أبي طالبعليه السلام.

وحينما نطّلع أكثر على ما يكتبه هؤلاء عن عبد الله بن سبأ فإننا نستطيع أن نصفه بأنهم يكتبون عن عقل الكتروني ضخم موجود في مكان ما من هذا العالم ويمد أذرعته وسيطرته على العالم كله فيحركه أنى شاء وكيف شاء. وهذا طبعاً راجعٌ إلى تلك العقليات التافهة التي خلقته في مخيلتها وحاولت أن تصبه في كتب التاريخ. وقد أجاد الدكتور طه حسين حينما عبّر عنه بقوله: لقد ادّخره خصوم الشيعة للشيعة [1]، أي أنه كيان وهمي وخيال غير موجود ادّخره خصوم الشيعة

---

(١) قد ذكر الدكتور طه حسين هذه الأُسطورة السبئيّة، حيث إنه استعرض الصورة التي رسمت لابن سبأ أولاً، ثم سخّف هذه الفكرة بعد تحليل دقيق، وانتهى به إلى القول بأن عبد الله بن سبأ شخصيّة وهميّة خلقها خصوم الشيعة، ثم دعم رأيه بالأُمور التالية:
١ - أن كل المؤرّخين والثقات لم يشيروا إلى قصّة عبد الله بن سبأ، ولم يذكروا عنها شيئاً.
٢ - أن المصدر الوحيد عنه هو سيف بن عمر، وهو رجل معلوم الكذب ومقطوع بأنه وضّاع.
٣ - أن الأُمور التي أُسندت إلى عبد الله بن سبأ تستلزم معجزات خارقة لفرد عادي، كما تستلزم أن يكون المسلمون الذين خدعهم عبد الله بن سبأ وسخّرهم لمآربه، وهم ينفّذون أهدافه بدون اعتراض بأنهم في منتهى والسخف.
٤ - عدم وجود تفسير مقنع لسكوت عثمان وعمّاله عنه مع ضربهم لغيره من المعارضين كمحمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر وعمّار وغيرهم.
٥ - عدم وجود أثر لابن سبأ ولجماعته في واقعة صفّين وفي حرب النهروان.
ولهذا قال: إن عبد الله بن سبأ شخص ادّخره خصوم الشيعة للشيعة، ولا وجود له في الخارج.

....

☚ الفتنة الكبرى ١ : ١٣١.

وقد ورد في سيف بن عمر راوي الأُكذوبة قدح كثير نذكر منه على سبيل المثال :

١ ـ يقول ابن حبان: كان سيف بن عمر يروي الموضوعات ، وقالوا: إنه كان يضع الحديث، واتّهم بالزندقة . كتاب المجروحين ١ : ٣٤٥.

٢ ـ كما يقول عنه الحاكم النيسابوري: اتهم سيف بالزندقة، وهو بالرواية ساقط . عنه في تاريخ الإسلام ١١ : ١٦٢ .

٣ ـ وقال عنه ابن معين: ضعيف . تاريخ ابن معين ١ : ٣٣٦ / ٢٢٦٢ .

٤ ـ وقال عنه: متروك . مجمع الزوائد ١٠ : ٢١.

٥ ـ ونقل الذهبي في كاشفه عنه تضعيفه له: الكاشف في معرفة من له رواية في كتب الستة ١ : ٤٧٦ / ٢٢٢٤ .

٦ ـ وقال عنه: يروي عن خلق كثير مجهولين . ميزان الاعتدال ٢: ٢٥٥ / ٣٦٣٧ .

٧ ـ وقال: ضعيف . الأوائل : ٨١.

٨ ـ وقال عنه النسائي صاحب (السنن): ضعيف . الضعفاء والمتروكين ١٨٧ / ٢٥٦ .

٩ ـ وقال عنه العقيلي: ضعيف . ضعفاء العقيلي ٢: ١٧٥ / ٦٩٤ .

١٠ ـ وقال عنه ابن عدي : ضعيف . الكامل في ضعفاء الرجال ٣: ٤٣٥ / ٨٥١.

١١ ـ وقال عنه الطبراني: ضعيف . الأوائل : ٨١.

١٢ ـ وقال عنه الرازي: ضعيف . الجرح والتعديل ٤: ٢٧٨ / ١١٩٨ .

١٣ ـ وقال سبط ابن العجمي: كان يضع الحديث ، اتهم بالزندقة . الكشف الحثيث : ١٣١ / ١٣٥ .

١٤ ـ وقال عنه أبو نعيم: متهم في دينه ، مرمي بالزندقة ، ساقط الحديث ، لا شيء . الضعفاء : ٩١ / ٩٥.

١٥ ـ وقال عنه الهيثمي: ضعيف . مجمع الزوائد ١ : ١٥٢ ، ٤: ١٥١ .

الركيزة الثانية: السري بن يحيى، كما يسميه الطبري، وهو ليس بالسري بن يحيى الثقة، لأن السري بن يحيى الثقة يكون زمانه أقدم من الطبري، فقد توفي سنة (١٩٧) هـ في حين أن الطبري قد ولد سنة (٢٢٤) هـ. فالفرق بينهما سبعة وخمسون عاماً . ولا يوجد عند الرواة سري بن يحيى غيره ؛ ولذلك يفترض أهل الجرح والتعديل أن السري الذي يروي عنه الطبري يجب أن يكون واحداً من اثنين، كل منهما كذّاب وهما: السري بن إسماعيل

للشيعة ليحاربوهم به.

الأنموذج الرابع: فرية أنّ «المولى» تعني ابن العم

إذن فالواقع أن وصاية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأمير المؤمنين عليه السلام ثابتة معلومة وقد وقف بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعلن عنها أكثر من مرّة ويصدح قائلاً: **«من كنت مولاه فهذا علي مولاه»**[1].

ومعنى **«أنا أولى بكم من أنفسكم»** أن لي حق التصرف بأموالكم وبأنفسكم وفق الضوابط الشرعية والسلطة الممنوحة من السماء. وهذه الولاية التي هي لي أنا أُعطيها لعلي بن أبي طالب عليه السلام في حين أن التاريخ المزور يأتي ليقول: إن الرسول أخذ بيد عليٍ في ذلك الموقف الشديد الحرارة وفي ذلك الجمع الغفير والجماعة العظيمة ليقول لهم: إن علي بن أبي طالب هو ابن عمي؛ لأن من معاني المولى هو ابن العم[2]. وما دام الخصم يأخذ النصوص بهذه الكيفية وبهذه الصورة وبهذا الفهم الساذج السطحي، فما الفائدة من سرد النصوص التاريخية الكثيرة له؟

وأُحب أن أُؤكد بأن علي بن أبي طالب عليه السلام في غنىً عن كثيرٍ من النصوص،

☚ الهمداني الكوفي، والسري بن عاصم الهمداني نزيل بغداد المتوفى سنة (٢٥٨)هـ، والذي أدرك ابن جرير الطبري وعاصره أكثر من ثلاثين عاماً. وكل من هذين قد كذّبه أهل الحديث، فقد اتهموهما بالوضع، كما فعل ابن حجر في (تهذيب التهذيب)، و(لسان الميزان، والذهبي في (ميزان الاعتدال)، والجوزي في (تذكرة الموضوعات)، وغيرهم. وقد ذكر النقاد للطبري سبعمائة حديث وحديثاً واحداً، وهذه الأحاديث تغطي زمن الخلفاء الثلاثة، وأسانيد هذه الروايات كلها عن السري الكذاب وعن شعيب المجهول، وعن سيف الوضاع المتهم بالزندقة.

(١) مسند أحمد ١: ٨٤ وغيرها، ٤: ٢٨١ وغيرها، ٥: ٣٤٧ وغيرها، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٢٩٧، سنن ابن ماجة ١: ٤٥، وغيرها كثير.

(٢) لسان العرب ١٥: ٤٠٨ ـ ولي.

بمعنى أننا لا نريد أن نزكّي علي بن أبي طالب لأنه قد وردت بحقه الفضيلةُ الكذائية أو الحديث الكذائي، بل إننا نريد أن نستقرئه بعيداً عن كل النصوص وعارياً عن الفضائل التي قيلت بحقه وهو أهل لها، فنأخذه مجرداً عن كل تلك الأقوال التي قيلت فيه والفضائل التي وردت بحقه، ثم لنرى هل هو يستحق أن يكون في المنزلة التي وُضع فيها أو لا يستحق أن يكون. وهذا معناه أن كل تلك الفضائل والأحاديث التي وردت بحقه هي إنما وردت لأنه أهل لأن ترد فيه، لا أنه وضع في هذه المكانة لأن هذه الأحاديث قد وردت فيه.

وهذا يدفع بنا إلى أن نأخذ علي بن أبي طالب كياناً مسلماً مجرداً عن الخصوصيات الأُخرى كافة، ثم نقارنه بالكيانات الإسلامية الأُخرى مجردة أيضاً عن تلك الخصائص، ثم لنرى من هو الأفضل منهم ومن هو الأحق بأمر هذه الأمة. وبعد هذا التجريد هل يمكن أن يقال: إننا يمكن أن نجدَ ندّاً لعلي؟ طبعاً لا. وكما قلنا فإن هذا الأمر مأخوذٌ مجرداً عن كل الخصوصيات بغض النظر عن كوني شيعياً وكونك شيعياً وما إلى ذلك [١]. وعليه فإننا لا يمكن أن نجد له من يمكن أن يقارعه علماً أو حلماً أو شجاعةً أو كرماً وقدماً في الإسلام وأصالةً وكفاحاً عن المسلمين، إننا لن نحتاج إلى النصوص بهذا المجال في شيء لأن النصوص لا يمكن أن تزيد علياً شيئاً مادام هو في تلك المكانة التي أهلتهُ لها خصائصه الكريمة وصفاته الشريفة:

غالى يسارٌ واستخفَّ يمينُ ... بك يا لكهنك لا يكاد يبينُ
تُجفى وتُعبد والضغائن تغتلي ... والدهر يقسو تارةً ويلينُ

---

(١) ولذا فقد كتب فيه حتى أهل السنة، بل وحتى المسيحيّون كما فعل جورج جرداق، والشاعر بولس سلامة صاحب (ملحمة الغدير).

وتـــظلّ أنت كـما عــهدتُك نـغمة لـلآن لم يـــــرقَ لهـــا تـــلحينُ
فـــرأيت أن أرويك مـــحض روايـــة للــــناس لا صـــور ولا تـــلوينُ
فـــلأنت أروع إذ تكـــون مـــجرّداً ولقـــد يـــضرّ بـــرائـع تـثمينُ
ولقد يضيق الشكـل عـن مضمونه ويـــضيع داخـل شكله المضمونُ
إنـــي أتـــيتك أجـتليك وأبـتغي ورداً فـــعندك للـــعطاش مـعينُ
وأغـضّ عـن طـرفي أمـام شـوامـخ وقـــع الزمـــان وأسّـــهن مـتينُ
وأراك أكـــبر مـن حـديث خـلافة يســـتامها مـــروان أو هـــارونُ
لك بـــالنفوس إمــامةٌ فـيهون لو عـصفت بك الشـورى أو التـعيينُ
فـدع المـعاول تـزبئرّ قساوةً وضــــراوةً إن البـــناء مــــتينُ

إذن فدراسة أمير المؤمنين ﷺ دراسة موضوعية بعيدة حتى عن النصوص توصل الدارس والباحث إلى أنه مِلاك الفضائل والصفات الحميدة بما له من سابقةٍ في الإسلام، وكفاحٍ عنه وعن دين السماء وعن رسول السماء. ومع كل هذا فإن من يُرد نصوصاً في هذا الخصوص فإن بين أيدينا العشرات من المصادر والكم الهائل من النصوص التي تتناول صفات هذا الرجل وفضائله الحميدة، يروي الدارقطني والسمعاني في (فضائل الصحابة) عن عائشة أنها قالت: والله لقد وضعه رسول الله ﷺ إلى جانبه وأخذ يدنيه إليه.

وهذه الخصيصة لم تكن لتفارقَ علياً ﷺ في منزلته من رسول الله ﷺ؛ ولذا فإنه حتى في اللحظات الأخيرة من الحياة الشريفة للرسول الأكرم ﷺ نجد أمير المؤمنين ﷺ يفارقه، ونجده ﷺ يصف تلك اللحظات بقوله: **«ولقد وسدتك في ملحودة قبرك، وفاضت روحك بين صدري ونحري»**[1].

(١) الأمالي (الطوسي): ٦٠٢ / ١٢٤٤.

وهذا النص الشريف وغيره يثبت أن علي بن أبي طالب عليه السلام لم يكن بالذي يفارق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلاً ولا نهاراً.

والنصوص التي وردت في هذا الخصوص هي نصوص صريحة لا تحتمل معنىً آخر غير هذا الذي يتبادر إلى ذهن قارئها منه، فهل من المعقول أن يعتبر توكيل الخليفة الأول بالصلاة بالمسلمين نيابةً عن الرسول مدركاً وحجةً ودليلاً على صحة إمامته، ولا يمكن أن تعتبر كل هذه الفضائل والروايات والأفعال التي قالها وقام بها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم دليلاً على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام [1]؟ ومن ذلك قضية نزول براءة حيث أخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم الآيات ودفعها إلى أبي بكرٍ وأمره بأن يتلوها على المشركين، فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا بكر بأن يبلّغها، ثم أتبعه أمير المؤمنين عليه السلام، فلما كان ببعض الطريق هبط جبرئيل عليه السلام فقال: «**يا محمد لا يبلغن رسالتك إلا رجل منك**». فأرسل أمير المؤمنين عليه السلام خلفه، وأركبه العضباء (ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)، فرجع أبو بكر وقال: يا رسول الله، أشيء نزل من السماء؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**نعم**».

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا أبا بكر ليقرأها على أهل مكة، ثم دعاني صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أدرك أبا بكر، فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه فاقرأه على أهل مكة. فلحقته فأخذت الكتاب منه، ورجع أبو بكر فقال: يا رسول الله نزل فيّ شيء؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: لا ولكنه جبرئيل جاءني فقال: لن يؤدّي عنك إلاّ أنت أو رجل منك**» [2].

---

(١) فاستخلفه صلى الله عليه وآله وسلم على المدينة، واستخلفه في فراشه ليلة الهجرة، وأنابه عنه في كثير من الأمور في السرايا وفي غيرها، مضافاً إلى ذلك جميع ما قال بحقّه من فضائل.

(٢) سنن الدارمي ٢: ٦٧ ـ ٦٦، السنن الكبرى (النسائي) ٥: ٢٤٧ ـ ٢٤٨، مناقب أهل البيت عليهم السلام (الشيرواني): ٤٦٠ ـ ٤٦١.

وفعلاً أخذ علي بن أبي طالب عليه السلام الآيات من صدر سورة براءة وتلاها على المشركين.

وهناك الكثير الكثير من الفضائل التي تُروى بحق علي بن أبي طالب عليه السلام لا يتسع المقام لذكرها ويضيق الوقت عن أن يسعها. وكل هذا لا يعده البعض دليلاً على صحة إمامته مع أنهم يعدون صلاة ركعاتٍ بالناس دليلاً ومسوغاً للخلافة والإمامة. إن هذا لهو مورد العجب وعين العجب، فهذه الركعات اعتبرت نصاً على إمامة أبي بكر وكل تلك الصفات والوصايا والأفعال لا يمكن أن تعتبر نصاً مع أنها تزخر بها كتب المذاهب الإسلامية الأُخرى!

خلاصة الموضوع

إذن فالنبي الأكرم ﷺ لم يخرج من الدنيا حتى وضع الأمر في نصابه وحتى أوصى إلى من يلي الأمر من بعده وعيّنَ خليفته وأكملَ رسالة السماء وأتم نعمة الدين على المسلمين، وهكذا خرج رسول الله ﷺ من الدنيا إلى لقاء ربه جلَّ وعلا وهو مثلوج الفؤاد بما أتم من نعمة هذا الدين وأكمل رسالة السماء. أما أن المسلمين لم يأخذوا بهذا النص ولم يعملوا به فهذا أمر يرجع إليهم ويرجع إلى تاريخهم ويرجع إلى أهوائهم التي ساقتهم في هذا المجال.

وما إن توفي الرسول الأكرم ﷺ حتى بات أهل هذا البيت كما يعبر عنهم الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «**لما قبض رسول الله ﷺ بات آل محمد عليهم السلام بأطول ليلة، حتى ظنّوا أن لا سماء تظلّهم، ولا أرض تقلّهم؛ لان رسول الله ﷺ وتر الأقربين والأبعدين في الله. فبينا هم كذلك إذ أتاهم آتٍ لا يرونه ويسمعون كلامه، فقال: السلام عليكم أهل البيت، ورحمة الله وبركاته؛ إن في الله عزاء من كل مصيبة، ونجاة من كل هلكة، ودركاً لما فات. ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ**

أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [١]. إن الله اختاركم وفضلكم وطهركم، وجعلكم أهل بيت نبيه، واستودعكم علمه، وأورثكم كتابه، وجعلكم تابوت علمه وعصا عزّه، وضرب لكم مثلاً من نوره، وعصمكم من الزلل وآمنكم من الفتن...» [٢].

وهنا أحب أن أُؤكد على أن المجتمع المكي لم يكن يعامل النبي الأكرم ﷺ على أساسٍ من النبوة.. على أنه رسول السماء، وعلى أنه حامل دين الله جلَّ وعلا وعلى أنه منفّذ الوحي في الأرض. والدليل على هذا أن فتح مكة كان في السنة العاشرة للهجرة حيث دخل الرسول الأكرم ﷺ مكة فاتحاً، وأمر العباس وقال له: **«مر أبا سفيان فليقف ولينظر إلى كتائب المسلمين حينما تمر عليه»**. وفعلاً بعد أن مرّت عليه الكتائب التفت أبو سفيان إلى العباس وقال له: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً. فقال له العباس رضي الله عنه: ويلك إنها النبوة وليست الملك [٣].

أي أن هذا الرجل لم يعرف النبوة ولم يؤمن بالله طرفة عينٍ أبداً؛ لأنه لم يدخل الإسلام إلّا خوفاً من القتل، وإلّا قبيل رحلة الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى بفترة قليلة. وعليه فمثل هذا لا يمكن أن يؤمن بالله إيماناً حقيقياً، وبالتالي فهو لا ينظر إلى الرسول ﷺ على أنه نبي بل على أنه ملك استطاع أن يحكم الناس بقوته. فمثل هذا المجتمع الذي خلفه النبي ﷺ وراءه كان ينظر إلى علي على أنه هو الذي وتر الأبعد والأقرب وليس النبي؛ لأنهم يرون أن علياً هو الذي فعل هذا؛ ولهذا فإنهم يحملون علياً عليه السلام المسؤولية الجنائية ـ إن صح التعبير ـ عن هؤلاء

---

(١) آل عمران: ١٨٥. (٢) الكافي ١: ٤٤٤ ـ ٤٤٦ / ١٩.

(٣) مجمع الزوائد ٦: ١٦٤، ١٧٠، المعجم الصغير ٢، ٧٥، المعجم الكبير ٧، ٧٦، ٢٣: ٤٣٥، وغيرها كثير.

الذين قتلهم في معارك المسلمين ضد الكفر والشرك والنفاق.

وهؤلاء لم يكتفوا بهذا القدر بل إنهم وسّعوا دائـرة المسـؤولية الجـنائية مـن شخص علي عليه السلام إلى كلّ أبناء البيت النبوي المطهر، فما هي إلّا هنيهة حتى أصبح بيت النبي ﷺ عرضةً للهجوم وما هو الأمر إلّا بين عشية وضحاها حتى تنتهك حرمة البيت النبوي. يقول عبد الفتاح في أحدِ فصوله: وهل وضع على الألسـن عقال أن تتكلم عن نارٍ وضعت على بيت فاطمة؟ وهذا ما أكده الشـاعر حـافظ إبراهيم بقوله:

وقـــولة لعـــلي قـــالها عـــمر ... أكـــرم بســامعها أنـــعم بـــملقيه

حـــرّقت دارك لا أُبــقي عــليك بـــها ... ما لم تبايع وبنت المصطفى فيها[1]

وإذا بهذا البيت الذي كان يقف عليه النبي ﷺ كل يـومٍ عـند صـلاة الفـجر وينادي: «**الصلاة يا أهل البيت، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَـنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْـلَ الْـبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾**[2]...»[3]. ويستمر على هذا سـتة أشـهر لا يـبارحـهم حـتى يخرجوا إلى الصلاة، وإذا به بين عشيةٍ وضحاها يصبح عرضةً لنيران القوم، فقد التهمت ألسنتها تلك الدار التي عاش فيها الرسول الأكرم ﷺ، وإذا بتلك الباب التي يقول عنها الرسول الأكرم ﷺ: «**باب فاطمة بابي وبيتها بيتي، فمن هتكه فقد هتك حجاب الله**»[4]، تضطرم فيها النار ويدخل القوم عنوة إلى بيت الرسول الأكرم ﷺ، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**كانت جدتي الزهراء في معاصمها**».

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم ١: ٧٥. (٢) الأحزاب: ٣٣.

(٣) مسند أحمد ٣: ٢٥٩، ٢٨٥، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣١، شواهد التنزيل ٢: ١٩، سير أعلام النبلاء ٢: ١٣٣، ١٣٤، تهذيب الكمال ٣٥: ٢٥٠.

(٤) بحار الأنوار ٢٢: ٤٧٧.

وهي صورة طبيعية ينفي فيها الإمام كل المبالغات، ويصور هؤلاء القوم حينما عاجلوها في الدخول عليها إلى دارها، وكان أمير المؤمنين داخل الدار بيده القرآن يريد أن يتم نسخه، وكانت الزهراء كما نقل الإمام الصادق عليه السلام في معاصمها، أي في ثيابها ولم يكن عليها رداء فاستترت من القوم وراء الباب؛ لأنهم عاجلوها بالدخول ولم تكن تستطيع أن تجد شيئاً لتضعه عليها، وحينما تدافع الجمع دخولاً إلى الدار وهي خلف الباب تسبب ذلك الجمع بالضغط على الباب فكان أن سقط جنينها وسقطت على الأرض مغمىً عليها، وعندها خرج أمير المؤمنين عليه السلام فرأى الجمع الغفير الحاشد الذي توجّه به إلى المسجد. وفي هذه الأثناء فتحت السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام عينيها فوجدت نفسها في فراشها وابنتها زينب قربها، فو الله ما قالت: كسر ضلعي، ولا قالت: سقط جنيني، ولا قالت: الألم الذي يخالجها بل إنها أول ما فتحت عينيها سألت ابنتها زينب عليها السلام قائلةً: **«بنية أين أبوك؟»**.

وهذا أول سؤال ينطق به لسانها بعد صحوها من إغمائتها. قالت: أماه لقد أُخرج من الدار، فخرجت مولاتنا الزهراء عليها السلام تقوم ويقعدها الألم وتمشي قليلاً وتجلس لتستريح وكانت قد أخذت بيد الحسن والحسين بعد أن وضعت شيئاً على رأسها والدم ينزف منها وهي تنادي: **«خلّوا عن ابن عمي وإلّا لأكشف للدعاء رأسي»**. فالتفت الناس فإذا بهم يرون فاطمة الزهراء عليها السلام فراح يحث بعضهم بعضاً على الرجوع عن هذا الجمع الذي جاء لأجل علي، فالتفت الخليفة الثاني إلى غلامه وقال له: ويحك أرجعها، أما ترى كيف أنها أرجعت الناس عنّا؟ فرجع إليها قنفذ وجعل يجلدها بسوطه الذي راح يتلوى على كتفيها، فأدارت وجهها إلى قبر أبيها:

بويه الوغد عمداً ضربني ومن سطرته للگاع ذبني

من الناس ما واحد حشمني

قالت : «**والله لا أرجع**». فرجع إليها خالد وجعل يضربها بمقبض سيفه فأبت أن ترجع وتابعت أمير المؤمنين عليه السلام إلى المسجد وصاح الناس بالرجلين : خلياه لها. فأطلقا علياً عليه السلام ، فأقبل إليها وقال لها : «**كيف أنت؟**». فقالت له: «**كيف أنت يا بن عم رسول الله؟ فإني إن كنتَ بخير كنتُ بخير معك وإن كنتَ بشرٍ كنتُ بشرٍّ معك**».

وقبل ذلك بادر إليها سلمان المحمدي رضي الله عنه قائلاً: يا ابنة رسول الله لقد بعث الله أباك رحمةً للعالمين فلا تكوني سبباً في هلاك هذه الأمة. فقالت: «**يا عم أخذوا حقّنا فصبرت ، وكسروا ضلعي فصبرت ، ثم يريدون أن ييتموا أولادي! فوالله لا أرجع حتى أرى علي بن أبي طالب معي**».

ولكنها اضطرت للتراجع بعد ذلك رضوخاً لطلب أمير المؤمنين عليه السلام دون أن تتمكّن من نسيان لوعتها ، وبقيت على هذه الحال حتى وافت ربّها في جنان الخلد مع أبيها ﷺ راضية مرضيّة :

بأبي التي ماتت وما ماتت مكارمها السنيةْ

دفنت وبين ضلوعها آثار ضرب الأصبحية[1]

---

(١) الأصبحية: سياط تنسب إلىٰ ذي أصبح، ملك من ملوك حمير. لسان العرب ٢: ٥٠٧ ـ صبح، ٣: ٤٩٢ ـ ربذ.

﴿١٨٧﴾

ذكر الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

مقدمة حول التغيير وعامل الزمن

لقد شكل مجيء الإسلام نقلةً نوعيةً ضخمةً وهائلة في تاريخ البشرية، لأنه قام بنقل المجتمع العربي وغيره من المجتمعات الأخرى من مستوى الجاهلية إلى وضعٍ جديدٍ مشرق، وارتقى بالمجتمع الجاهلي من بؤرة الظلام إلى حيث نور الشمس. والإسلام بهذا يُعتبر نقطةً فاصلة في حياة الإنسان وفي تاريخ البشرية، فالانتقال إلى حالة جديدة نعبر عنها بالمجتمع الإسلامي هو في حقيقته فتح أبوابٍ مشرعةٍ كثيرةٍ على دنيا جديدة تلائم متطلّبات كلّ عصر وزمان.

ويتمركز الإعجاز في هذا المجال حول محورٍ واحدٍ هو أن الجاهلية امتدّت

---

(١) البقرة: ٢٠٠.

لفترةٍ طويلةٍ من الزمن بلغت الخمسمئة سنة أو أكثر، وفي هذا المسح الزمنى رُبي العديد من الأجيال، وتوارث الناس على مدى تلك الفترة الطويلة أفكارهم وعقائدهم وعاداتهم وأخلاقياتهم خلفاً عن سلف، وهي موروثات أصبح من العسير السيطرة عليها أو إزالتها من نفوس الناس بعد أن تشبعت بها.

ويجب أن ندخل في حساباتنا ونحن نعالج هذه الفترة، والتغيير الذي طرأ فيها على يد معلم البشرية الأولﷺ هو أن الذي رُبي لفترة طويلة على معتقدٍ معيّن وتربّى فيه وتشبع به فإنه ليس من السهل انتزاع ذلك الموروث منه وتغييره عنده بسهوله، بل إن هذا الأمر يحتاج إلى أشبه ما يكون بعملية جراحية لاستئصال تلك العقائد وزرع عقائد جديدة مكانها. إن موروثاً اجتماعياً أو عقيدياً متغلغلاً في نفس الإنسان يصعب، بل يعسر، بل يستحيل أن يُؤثر عليه وأن يغيّر بين عشيةٍ وضحاها فيجعل الإنسان يغير من طباعه وأخلاقه وصفاته.

إذن فعامل الزمن عاملٌ مهم هنا، ويجب أن يلعب دوره في هذه العملية الانتقالية؛ لأنه لا يمكن للإنسان أن يغير ما في أنفس الناس إذا أراد أن ينتقل بهم من حالة إلى حالةٍ أخرى مضادة أو مناقضة من غير أن يلحظ عامل الزمن الطويل. وحتى مع وجود هذا العامل فإن الرواسب الجاهلية تظل تلعب دورها في سلوكيات الناس، فهنالك الكثير من الناس ممّن لا يزال يعيش في ذهنه وممارساته الكثيرَ الكثيرَ من أفكار الجاهلية وموروثاتها.

المبحث الأول: سبب النزول

وهنا تأتي هذه الآية الكريمة لتعالج هذا الجانب عند الإنسان فالعرب سابقاً كانوا إذا أرادوا أن يطوفوا بالبيت ويكملوا مناسكهم فإنهم يأتون إلى منى ويقفون بينه وبين الجبل ليلقوا خطبهم وقصائدهم وما يريد كل شخص منهم أن يظهره

للآخرين؛ لأنهم كانوا يعتبرون هذا المكان ساحةً للخطابة، فكل من نظم قصيدةً يمدح فيها آباءه، وكل من أنشأ خطبة يمدح بها أسلافه يأتي إلى هذا المكان ليعلنها على الملأ. وفوق كل هذا فإنهم كانوا يتنافرون بالحماسة والسماحة وحماية الجار، ويفتخرون بها وبغيرها من المثل التي كانت سائدةً آنذاك عندهم. ويستمرّ هذا المؤتمر لمدّة يومين أو ثلاثة أيام قبل أن ينفضّ.

إذن فبهذا اللون من المفاخرات كان العرب يقضّون أيام التشريق، وهذا المعنى بقيت منه رواسب في نفوس البعض حتى بعد مجيء الإسلام وبعد أن أكرمهم الله تعالى به، فلم يترك البعض هذا المنحى، فكانوا عندما ينتهون من الحج يشعرون برغبةٍ ملحّة بممارسة تلك العادة الجاهلية السابقة من الفخر بالآباء والأجداد ومآثرهم وشجاعتهم وما كانوا عليه من عادات وطبائع وتقاليد، فكانوا يأتون إلى هذا الموضع ويتنادمون بالأشعار وغيرها من ذكر العرب ومفاخرهم. وكان هذا هو السبب في نزول هذه الآية الكريمة [١].

وبعد أن عرفنا السبب في النزول نرجع إلى مضامين الآية الكريمة لنتناولها واحداً واحداً إن شاء الله تعالى.

المبحث الثاني: لا تفاخر إلّا بالله

فالآية الكريمة تنبه المسلمين إلى أنهم الآن في بيت الله جلّ وعلا وبين يديه، وإذا كانوا كذلك فإن الواجب عليهم ألّا يشرّقوا أو يغرِّبوا وألّا يذهبوا يميناً أو شمالا أو إلى أي اتجاه آخر، بل الواجب عليهم أن يكون وقوفهم ووجودهم مكرّساً لله جلَّ وعلا وحده ولعبادته، وألّا يكون هنالك مفاخرة بالآباء والأجداد

---

(١) مجمع البيان ٢: ٥٠، الجامع لأحكام القرآن ٢: ٤٣٢.

بل تكون المفاخرة بالله وبالإسلام وبالدين الجديد؛ وذلك للأسباب التالية:

الأول: أن المفاخرة بالآباء محدودة وباطلة

فالتفاخر بهم باطل ـ سيّما إذا كانوا مشركين ـ وكذلك محدودة، أما التفاخر بالله جلَّ وعلا فهو تفاخر غير محدود؛ لأنه تعالى غير محدود، ولأن عطاءه غير محدود ولأن نعمه غير محدودة [1]. فالإنسان قد يفتخر بأبيه بأنه يمتلك جفنة من الطعام يطعم بها الناس أو أنه عنده سيفٌ يقاتل به، لكننا لو رجعنا إلى ما عند الله جلَّ وعلا من موائد ونعم وإلى ما أمرت به الشريعة إزاء ذلك لوجدنا مُثلاً وقيماً تبعث حقاً على الفخر والاعتزاز؛ ذلك أننا نجد الصدق والأمانة والتضحية وغير ذلك.

الثاني: أن مفاخر الآباء مؤقتة

فمفاخرهم قصيرة الأجل؛ ذلك أننا حينما نرجع إلى الحق والواقع نجد أن كل شخص يفتخر بآبائه فإنه إنما يفتخر بشيء زائلٍ وفانٍ، فهي مؤقتة وذات زمن قصير لا تتجاوز المقدار الزمني الذي سيعيشه الإنسان، أما عطاء الله جلَّ وعلا،

---

(١) كما افتخر أمير المؤمنين عليه السلام على العباس بن عبد المطلب رحمه الله وطلحة بن شيبة، بعد أن افتخرا عليه، فقال طلحة: أنا صاحب البيت، بيدي مفتاحه، ولو أشاء بتّ في المسجد؛ فأنا أفضل من علي. وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، ولو أشاء بتّ في المسجد؛ فأنا أفضل من علي. فقال عليه السلام «ما أدري ما تقولان، لقد صلّيت ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد». وفي رواية أنه عليه السلام قال: «لكنني أسلمت وآمنت بالله ورسوله وجاهدت في سبيل الله قبلكما، فلي في ذلك من الحظّ ما ليس لكما». فأنزل الله تعالى قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ التوبة: ١٩.

شرح الأخبار ١: ٣٢٤ – ٣٢٥، العمدة: ١٩٣، فتح الباري ٣: ٣٩٣.

وما أعد من نعيم في الآخرة فإنه مستمر دائم مادام الزمن.

الثالث: أن مفاخرهم مصدرها الله جلَّ وعلا

ذلك أن كل فضيلة أو كل شيء يستحق أن يُفتخر به عند الإنسان فهو من الله جلَّ وعلا؛ لأن الإنسان حينما يُخلق عنده طبع الكرم أو الشجاعة فإنما هو من عطاء الله جلَّ وعلا. إذن فالإنسان ليس من طبعه الذاتي الكرم أو الشجاعة بل إنه طبع مكتسبٌ أعطاه الله إياه في حين أن عطاء الله جل وعلا نابع من ذاته؛ لأن ذاتـه الأقدس مصدر الكمال ومصدر الخير [١].

إذن فالقرآن الكريم ينبّه هؤلاء المسلمين إلى أنهم يعيشون في رحاب الله جلَّ وعلا وأنهم يعيشون بين يدي رحمة الله سبحانه وتعالى، وإذا كان الأمر كذلك فما وجه الافتخار بالآباء؟ إن من يستحق أن يُفتخر به هو الذي وهب هذه النعم وهو الذي مكّن الإنسان من أن يصل إلى هذا المكان. والذي يستحق أن يفتخر به هو الذي يقف الإنسان بين يديه في كل لحظةٍ يستمطر عطاءه ونعمه وفيوضاته. فعلى المسلمين حينما ينتهوا من الحجّ وفق المنظور القرآني في هذه الآية الكريمة أن يسعوا إلى ذكر الله جلَّ وعلا وترك هذه الحالة من المفاخرة والمنابزة والمنافرة، بل عليهم التوجه بمجامع قلوبهم ونفوسهم وعقولهم إلى الله وذكره وشكره على ما أنعم وعلى ما أعطى وعلى ما يسر لهم من بلوغ هذه المكانة وهذا المكان.

---

(١) كما أن ما يفتخر به الإنسان من صفات آبائه أو فضائلهم إنما هو بما تفضّل الله به عليهم، أي أن أُصول الأشياء التي جعلت مورد الفخر والافتخار لهذا الإنسان وبه هي من الله جل وعلا، وليست من الإنسان فالله جل وعلا هو الذي منحه القوة ومنحه المال ومنحه الوسائل التي جعلته يصبح بهذا المثال الذي استحقّ أن يفتخر به. وعليه فإن كل ما يمكن أن يُفتخر به لإنسان لا يصحّ الافتخار به إلّا لله جل وعلا؛ لأنه مصدر تلك النعم، ولأنه واهب أصول النعم التي أنعم بها على الإنسان.

وإذا كان الأمر كما يريده هؤلاء إذن فما هي الحاجة إلى أن يُبعثَ نبيٌّ لتغيير هذه العادات؟ إن أساس رسالة الأنبياء (سلام الله تعالى عليهم) هي تغيير المجتمعات والقضاء على العقائد والعادات الوثنية والجاهلية عندهم ورفعهم إلى مستوى عبادة الله جلَّ وعلا، فإذا كان الإنسان المسلم لا يزال يعيش تلك العادات وتلك المعتقدات وتلك الموروثات بشكلٍ أو بآخر، فإنه بفعلِهِ هذا يكون قد نفى الحكمة من بعثة الأنبياء عليهم السلام. فالنبي ليس له من همّ سوى أن يسلخ هؤلاء من أجواء الجاهلية التي يعيشون فيها وأن يضعهم في أجواء قريبة من السماء.. أجواء تربيهم تربية صحيحة سليمة. وهذا هو هدف هذه الآية الكريمة.

المبحث الثالث: في معنى المناسك

تقول الآية الكريمة: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾ وللمفسرين في المناسك رأيان:

الرأي الأول: النحر

والمقصود هنا هو أن يؤتى بالنحيرة فتذبح. ويبدو من هذا المعنى أن الذكر يطلق حتّىٰ علىٰ الأفعال، مع أننا نعرف أن الذكر هو عبارة عن ألفاظ معينة يقولها الإنسان كالدعاء والصلاة. فمعنى (فلان يذكر الله) أنه يسبّح الله ويدعوه ويقرأ القرآن، لكن هنالك فريق كبير من المفسرين يقولون: إن المراد بالمناسك هو ذبح الهدي [1]. وهذا المعنى موجود في آيات أُخر مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [2].

---

(١) انظر: التبيان ٢: ١٧٠، تفسير الثعلبي ٢: ١١٤، معاني القرآن ١: ١٤١، الجامع لأحكام القرآن ٢: ٤٣٢.

(٢) آل عمران: ١٩١.

ومن هنا نجد أن بعض الفقهاء يميلون إلى أن كل عمل يمارسه الإنسان إذا كان في خط الله وفي مضمار اكتساب الأجر والثواب وفعل الحلال فهو ذكر لله تعالى؛ سواءً كان الإنسان مضطجعاً أو قائماً أو قاعداً، وفي أي حالٍ كان. فالنوم ذكر لله جلَّ وعلا إذا كان في خطّه؛ ومن هذا ما إذا كان هناك عامل ينام خلف جهاز يشغّله لخدمة الناس [1] فعمله هذا ذكر لله إذا كان هدفه حلالاً وفيه مصلحة لعياله وللمجتمع. وهكذا نعرف أن بعض الأعمال تسمى ذكراً، والذبح عملٌ فهو ذكرٌ لله لكنه إنما يكون ذكرا لله جلَّ وعلا إذا وضع في طريق الله سبحانه وتعالى بأن ينتفع بلحمه ويستفيد منه الفقراء من الأمة الإسلامية.

وعليه فإن الذي ينبغي على المتصدين لهذه الأمور ألّا يدعوا هذه الآلاف من النحائر منتشرة على وجه الصعيد يأكلها التراب وتفسّخها الجراثيم، فالواجب هنا هو أن يستفاد منها بأن تجمد أو تعلب وتمنح للدول الإسلامية الفقيرة. لقد كان المسلمون في الزمان الماضي يدفنون هذا الهدي في الأرض لكثرته ولعدم تمكنهم من الاستفادة منه، وهذا في حقيقته ضياع لمالية ضخمة، وهو أمر لا يقره الإسلام أبداً؛ لأن الإسلام لا يسمح بإهدار طاقة مالية أو جسدية أو ذهنيّة وعقليّة، وإنما يريد توظيفها للصالح العام، ولخدمة المجتمع.

هذا فيما يخص المنتجات الأولية من الهدي وهو اللحوم أما المنتجات الثانوية فينبغي ألّا تخرج عن هذا الإطار كذلك، فينبغي أن تستغل الجلود والأصواف والأحشاء وما إلى ذلك من كل ما يمكن الاستفادة منه في سبيل إيصال نفعها إلى فقراء المسلمين.

---

(١) ومنه نوم الصائم، قال رسولنا الأكرم ﷺ: «نوم الصائم عبادة، ونفسه تسبيح». الكافي ٤: ٦٤ / ١٢، ثواب الأعمال: ٥١، تفسير الثعلبي ٢: ٧٠، الدرّ المنثور ١: ١٨٠.

إذن فإذا وضعت النحائر في خط الله جلَّ وعلا ـ أي صُرفت للجياع والمستحقين من الفقراء من المسلمين ـ فهذا هو ذكر لله جلَّ وعلا، شريطة ألّا يُنظر إلى المسلم على أنه يجب أن يكون من المذهب الفلاني، وألّا يكون من أبناء المذهب الفلاني بل يجب أن يعطى المسلم بغض النظر عن هويته ومذهبه وقوميته وانتماءاته الاجتماعية وما إلى ذلك.

الرأي الثاني: أنها أعمال الحجّ

وهي الأعمال التي يقوم الحاج بها في فريضة الحج كالإحرام، والخروج إلى عرفات، والوقوف بمنًى والمزدلفة وما إلى ذلك. فالقرآن الكريم ينبه المسلمين إلى أن الذي ينبغي عليهم بعد أن ينتهوا من كل أعمال هذه الفريضة المقدسة أن يشكروا الله جلَّ وعلا على ما هداهم؛ لأن إتمام فريضة الحج يعتبر إنجازاً مهما وضخماً يستحق أن يشكر الله عليه؛ كونه وظيفةً لا يستطيع أن يؤديها كل مسلم. وشكر الله جل وعلا يكون بدعائه والتضرع إليه، والطلبِ منه التوفيقَ إلى المزيد من عبادته وطاعته، وأن يدعوه قائلاً: إنني في رحابك فاغفر لي وارحمني. وبناء على هذا الرأي فإن المناسك هنا تُحمل على ظاهرها.

المبحث الرابع: في المقصود من الذكر

وحيث إن الآية الكريمة في مقام الإرشاد، فهي توجّه المسلمين بعد أداء هذه المناسك وبعد الانتهاء من هذه الفريضة إلى معنىً آخر؛ لأنها قد روّضتهم جسدياً بتحملهم الأتعاب والأوصال، وبتعرضهم إلى الحر أو البرد أو المرض وما إلى ذلك. وهذا تأهيل بدني للإنسان أما الروح فلا بد من أن تؤهل وأن تُبنى وأن تغذى بشيءٍ آخر وهو الدعاء المأمور به في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ﴾. إذن فتربية

الروح تتم عن طريق تدريبها على الدعاء وجعلها تستشعر القيم الأخلاقية الموجودة في المجتمع، وأهم هذه القيم الأخلاقية إلغاء الفوارق بين الطبقات.

وهذه المشكلة (الفوارق الطبقية) لازالت إلى الآن تعيش في أذهان الكثير من الناس فهنالك الكثير منهم ممن يتصورون أن دمهم هو من فصيلة خاصة أفضل وأنقى وأحسن من دماء الناس التي تنتمي إلى فصائل أخرى، فيرون أن دمهم الأزرق أفضل من دم الناس الأحمر. كما أن هنالك نمطاً من الناس يتعالى عن الجلوس مع نمطٍ آخر منهم. وهذه الحالة الأخلاقية التي تؤكد عليها الآية الكريمة هي من أهم القيم التي حاولت أن تتناولها، وأن تضع لها علاجاً يتمثل بإلغاء الشعور الطبقي بين الناس.

كما أن من الدروس الأخلاقية التي يعطيها الحج إضافة إلى ضرورة إلغاء الشعور الطبقي وضرورة الشعور بالمساواة هو شعور الإنسان بتفاهة الحياة، أي أن على الإنسان أن يشعر بأن الحياة لا قيمة لها حتى وإن كان مكلّلاً بالذهب، فكل حاجٍ يخرج إلى الله جل وعلا مخلفاً وراءه ما يملك من عقارات وأطيان وجواهر وذهب ولا يرتدي إلّا خرقةً يأتزر بها تاركاً خلفه جميع المميزات التي كان يُنظر إليه عبرها في الحياة الدنيا قبل أن يتوجه إلى الحج فكأنما هو يجيء عارياً. وهذا يغذي الروح بشعورٍ رفيعٍ وعالٍ جداً وهو أن الإنسان كما دخل الدنيا عارياً فإنه سيخرج عارياً من كل شيء إلّا من خرقة بيضاء يُلف بها جسده وهو كفنه.

ولهذا الشعور بطبيعة الحال تأثيرٌ كبيرٌ على النفس لأنها سوف تستشعر أن جميع لذائذ الحياة الدنيا التي مر بها الإنسان والتي انغمس فيها هي لذائذ وهميةٌ زائلة، جاء ملك الموت إلى النبي نوح عليه السلام ليقبض روحه، فقال: «**يا أطول الأنبياء عمراً، كيف وجدت الدنيا؟**». وكان عنده عليه السلام دار لها بابان، فدخل من أحدهما

وخرج من الآخر، وقال: «**هكذا وجدتها**»[(١)].

وهكذا نرى أن جميع ما في الدنيا يتصرّم وينتهي ويزول ولا يبقى للإنسان سوى ذكره وعمله، فكل ما يمارس الإنسان في الحياة من لذائذ هي في الحقيقة ليست بلذائذ وإنما هي دفع آلام فاللذة هي اللذة التي لا تزول، وهذه اللذة بما أنها تزول فهي ليست بلذة حقيقية وإنما هي دفع ألم.

وحال لذات الدنيا بهذا الاعتبار يختلف عن حال اللذات التي أعدها الله جلّ وعلا لعباده في الجنّة وفي الدنيا. وقد قدّم لنا أُنموذجاً في الدنيا من اللذة التي لا تزول ومنها لذة العلم فالإنسان حينما يمارس معالجة مسألةٍ علمية أو نظريةٍ فإنه يكتنزها في ذهنه ويشعر معها بلذة لا حدود لها حتى بعد أن يضع لها الحلول؛ لأنه حينئذٍ سوف يستشعر بتلك اللذة كلّما تذكرها. وهذا الحال يستمر معه حتى يموت؛ لأنه يظل يفخر بما قدم من مكسبٍ علمي في حين أن اللذة التي يستشعرها الإنسان وهو يسكن بيته أو وهو يتزوج زوجةً جميلة أو وهو يمتلك وسيلة نقلٍ حديثة فإنه سرعان ما يملها أو سرعان ما يزول أثرها بزوالها فيزول أثر لذة البيت بتقادمه، وتزول لذة الزواج من الزوجة الجميلة بتقدمها في السن.

وكذلك الحال مع جميع اللذائذ المادية التي يقوم بها الإنسان في حياته وهذا كما قلنا يختلف عن اللذائذ الروحية التي منها لذة العلم، بل إن اللذات المادية ربما تتحول إلى ألم ـ ولهذا فإننا قلنا: إن اللذّة الدنيوية ليست بلذّة حقيقية، وإنما هي دفع ألم ـ لأن من يبني بيتاً ويسكنه ثم بعد ذلك يتركه إلى وارثه فإنه سوف يخرج من الدنيا وعينه ملؤها الحسرة والألم على هذا الذي سوف يخلفه قبل أن يستمتع

---

(١) تفسير السمعاني ٤: ١٧١ ـ ١٧٢.

به طويلا فتأخذه الحسرة، ويأخذه الندم، يأخذه الألم.

وهذه الصورة المؤلمة يذكرها حبّة العرني عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث ينقل أنه كان يخرج إلىٰ الجبّانة، فيطيل النظر ويقول: **«يا أهل التربة، يا أهل الغربة، يا أهل الوحدة، يا أهل الوحشة، أنتم لنا فرط سابق، ونحن لكم تبع لاحق. أمّا الدور فقد سكنت، وأمّا الأزواج فقد نكحت، وأما الأموال فقد قسمت. هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم؟»**[1].

المبحث الخامس: تشبيه الذكر بذكر الآباء

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: **﴿فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾**، فالآية الكريمة هنا تأمر المسلمين بأن يذكروا الله جل وعلا كما يذكرون آباءهم أو بذكرٍ هو أشد من ذكرهم آباءهم، وهذا يرجع إلى أسباب عدّة نذكر منها ثلاثاً:

السبب الأول: تعلّق الإنسان بوالديه

إن القرآن الكريم يذكّرنا هنا بأن الإنسان عندما يولد يولد معه شعور الاستعانة بالوالدين، أي أنه شعورٌ فطري، فالطفل عندما يريد حاجةً فإنه ينادي أُمّه أو أباه، كما أنه يستنجد بهما دون غيرهما فيما إذا تعرّض إلىٰ أذى. وعليه فالآية الكريمة تقول لهؤلاء: إنكم كما تفزعون إلى آبائكم فافزعوا إلى الله جلَّ وعلا، ذلك أن الله جلَّ وعلا قادرٌ على أن يلبّي جميع مطالبكم وهو ما لم يكن لآبائكم؛ لأنهم ذوو قدرة محدودة وإمكانية غير مبسوطة.

وإذا كان الأب أو الأمّ بهذا اللون من القدرة والإمكانيّة، وأنتم تفزعون إليهما فإن الله جلّ وعلا صاحبَ القدرة غير المحدودة والإمكانيّة المبسوطة على

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ١٣٠.

مخلوقاته كافة أولى بأن تفزعوا إليه، وأن تلجؤوا إليه، وأن تتوجّهوا إليه كلما ألمّ بكم أمر.

وهنا نقطة ينبغي الالتفات إليها وهي كما أن الأب لا يلبي بعض الطلبات لابنه فإن الله جلَّ وعلا كذلك لا يلبي بعض الطلبات لعبده وإن اختلف المناط؛ فإن عدم تلبية الأب لحاجة ابنه إنما هو لعجزٍ عنده أما عدم تلبية بعض الطلبات من الله جلَّ وعلا لعباده إنما هو لحكمة يرتئيها ولعلة يراها، فالله جلَّ وعلا لا يستجيب بعض الطلبات إما لأن الحكمة تقتضي تأخير الدعاء مثلاً أو تقتضي عدم تحققه، أو أن الدعاء من أصله دعاء غير مشروع كأن يقف إنسان في أحد مشاعر الحج ويدعو على أخيه الإنسان بالمرض أو الموت أو الانتقام وما إلى ذلك.

فهذا اللون من الدعاء مما لا شك فيه أنه لا يمكن أن يستجاب؛ لأنه في غير ما أمر الله جلَّ وعلا. ينقل عن أحد رؤساء القبائل أنه كان يطوف بالكعبة ويرفع رأسه إلى السماء ويقول: ربي انتقم لي من آل فلان هذه الليلة. وهذا النوع من الدعاء لا يمكن أن يستجيبه الله جلَّ وعلا، كما أن هذا اللون من الدعاء موجود عند كثيرٍ من الناس، والدعاء به لا يعني أن الله جلَّ وعلا سوف يلبيه أو سوف يحقق هذه المطالب. فالكثير من الطلبات يراها الفرد أشياء مشروعة لكنها في الحقيقة ليست مشروعة، وهو إنما يراها مشروعة لأنها لا تتعارض مع مصالحه بل تتماشى معها وإنما لم تستجب ولم تتحقق لأنها ترتبط بمانع من الموانع التي توضع إزاء الدعاء [1].

فالإنسان لا يمكن أن يعرف المصلحة الكامنة وراء استجابة الدعاء، أو وراء

---

(١) وقد ورد في الدعاء الشريف: «اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء». مصباح المتهجّد: ٥٧٢ / ٦٨١، فهذا من الموانع.

عدم استجابته[1]، يُروى أن الشيباني ـ وكان أحد الزهّاد ـ قال لإبراهيم بن أدهم: لا تظن أن منع الله عنك عطاءه نقمة، بل هو نعمة، لأنه ما منعك لبخل، وإنما منعك مراعاة لمصلحة لك. أي أن الله جلَّ وعلا إذا منع فإنما يمنع لمصلحة، وهذا المنع هو في حقيقته نعمة.

إذن فأول سبب يذكره المفسّرون في هذا المعنى هو أن القرآن الكريم يذّكر المسلمين بأن يفزعوا إلى الله جلّ وعلا كما يفزعون إلى آباءهم.

السبب الثاني: دفاع الإنسان عن آبائه

فالآية الكريمة تنبه هنا إلى أن الإنسان حينما يذكر أباه فربما يكون هنالك من يرد عليه فيقدح بآبائه مما يحدو بالأول إلى أن يدافع عن آبائه؛ لأنه يرى بدفاعه عنهم دفاعاً عن نفسه وذوداً عن كرامته وشرفه. ولهذا فإن الآية الكريمة تؤكد على هذا المعنى فتقول لهم: كما تدافعون عن آبائكم فدافعوا عن الله وعن دينه وعن رسوله وعن البيت الحرام.

وهذا المقطع الشريف يتناول موضوعاً حساساً ومهماً جداً يعيشه الكثير من المسلمين وهو أن بعض المسلمين حينما يتعرض إلى إهانة شخصية فإنه يندفع ويثور ويقاتل دفاعاً عن نفسه أو عن كرامته أما إذا كانت القضية ذات علاقة بالدين فإنه حينئذٍ سوف لن يثور، بل يقف مكتوف اليدين أمامها وكأنه لا علاقة له بها ولا لصوق له بالدين. والأدهى من هذا والأمرّ أن البعض منهم يشعرك بأنه يتعامل مع الدين على أنه من أرخص الأشياء التي يتعامل معها.

إذن فالله تعالى يريد من عباده أن يدافعوا عن دينهم لأن الأُمور المادية إذا

---

(١) وكذلك ورد في الدعاء الشريف: «ولعلّ الذي أبطأ عنّي هو خير لي؛ لعلمك بعاقبة الأُمور». مصباح المتهجّد: ٥٦٤ / ٦٦١، ٥٧٩ / ٦٩٠، فهذا من الموانع.

ذهبت فربما ترجع سواءً دافع عنها الإنسان أم لم يدافع، أما الدين فإنه إذا ذهب فليس هنالك من ثمن له، وليس هنالك من ثمنٍ يعوضه [١]. فالدين لا يمكن أن يكون هنالك ثمنٌ يوازيه أو يعادله. والله تعالى هنا إنما يربط الأسباب بمسبباتها، ويأمر المسلمين بالدفاع عن دينهم وعقيدتهم ومبادئهم، ووطنهم وأخلاقهم كما يدافعون عن آبائهم، فإن لم يفعلوا، فلا فائدة حينئذٍ من وجودهم.

وهذا الجانب هو في الحقيقة جانب مهم تركز الآية الكريمة عليه وتحث المسلمين على تبنيه لأنه لجوء وتسليمٌ إلى الله جلَّ وعلا. والرسول ﷺ قد أوصل المسلمين إلى هذه الحالة من الالتجاء والتسليم إلى الله جلَّ وعلا والانقياد والخضوع له ولأوامر رسوله ﷺ حتى أصبحوا أطوع له من بنانه، ولعل هذا هو السبب الذي جعل البعض من الناس يتساءل عن الأسباب والمؤهلات والعوامل التي مكنت النبي الأكرم ﷺ من أن يكتسح قدراً كبيراً من العالم بحفنة من العرب كانوا يعيشون في الجزيرة، وأن ينصب لواءه على (٢٤ ٪) من مساحة الكرة الأرضية في فترة قصيرة ووجيزة.

إن هذا الإنجاز الرائع والعظيم الذي حققه النبي ﷺ لم يحققه إلا بعد أن حقق إنجازاً رائعاً وهائلاً مماثلاً له على صعيد النفس البشرية، فقد غير النفس البشرية وصنع إنساناً جديداً يعتقد بالله إلهاً وبمحمدٍ نبياً وبأنه يجب عليه أن يمتثل لأوامر الله وأوامر رسوله.. صنع إنساناً وسلّحه بأعظم سلاحٍ وهو الإيمان والانخراط في سلسلة المدافعين عن هذا الدين. وسلاح الامتثال والخضوع والامتثال والانقياد إلى الله جلَّ وعلا هو سلاح يعد من أعظم الأسلحة ولا يمكن

---

(١) ينقل عن غاندي قوله: «إنك قد تسمل عيني فلا تقتلني، وإنك قد تجدع أنفي فلا تقتلني، ولكنك حينما تنتزع مني الإيمان تكون قد قتلتني في الحال.

أن ينفع معه سلاح آخر:

أيـها المستعير ألف سلاح لأعـاديك أيـن مـا تستعيرُ

هزّك الذعر لا الحديد ولا النـا ر وعبءٌ على المدىٰ المذعورُ

فالمسألة إذن ليست حمل سلاح مادي وإنـما هـو سـلاح عـقيدي مـعنوي:

قـومٌ إذا نـودوا لدفـع مُـلِمَّةٍ والقـوم بـين مُـدَعَّسٍ ومُكَـردَسِ

لبسـوا القلوبَ على الدُّروعِ وأقبلوا يـتهافتون عـلى ذهـاب الأَنـفُسِ(١)

فهؤلاء حملوا قلوبهم على دروعهم، أي أنهم أدّرعوا بعقائدهم قبل أن يتقلدوا سيوفهم. فالإنسان إذا جُرد من العقيدة كان هو والميت سواء؛ لأنه كما أن الميت لا يستطيع أن يصنع دنيا وأن يخلق مجتمعاً كذلك هذا المجرد عن العقيدة؛ ذلك أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً سوى مصلحة نفسه. وهـؤلاء الذيـن كـانوا مـع الرسـول الأكرم ﷺ يحملون عقيدةً ضخمة وهي العقيدة التـي صـنعت الحـياة ومـنحت الوجود وجهه المشـرق ولذا كـانت هـذه العـقيدة تـعتبر بـحق مـثار التـعجب والاستغراب.

والدليل على أن من لا يملك عقيدة لا يستطع أن يصنع دنيا هو أن العقيدة حينما تخلى عنها الإنسان المسلم في الوقت الحاضر فإنه تـحول إلى قشـر مسـلم لا مضمون عنده ولا معنى. إن الكثير من الطلبة الذين يعيشون في العصر الحـاضر ممن درسوا في الجامعات أو الدراسات العليا حينما يُسألون عن مسألة في مجال تخصصهم فإنهم ربما يجيبون السائل؛ ذلك أنهم يملكون البعض من المعلومات في مجال تخصصهم، لكنهم ـ ببالغ الأسف ـ حينما يُسألون عن مسألة تخصّ مضمون

---

(١) عمدة الطالب: ٣٥٦، اللهوف في قتلى الطفوف: ٧٧.

الإسلام أو التاريخ الإسلامي السياسي أو الجغرافي، أو في العقائد الإسلامية وما إلى ذلك مما يتعلق بالقرآن والحديث فإنهم لا يكادون يفقهون شيئاً في هذا المجال، مع أنهم أشخاص مسلمون.

وهذا في واقع الأمر منحىً خطر جداً في مسيرة الحضارة الإسلامية؛ لأن أبناء الإسلام هؤلاء يتخلّون عن الإسلام.

إذن فقوله تعالى: ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ إنما يحفّز المسلمين ويحثّهم على أن أحدهم لابدّ أن يستضري ويستأسد للدفاع عن دينه كما يدافع عن آبائه وأجداده، يقول أحد الشعراء:

إن الذي سمك السماء بنى لنا ... بيتاً دعائمه أعزّ وأطولُ
بيتاً زرارة محتبٍ بفنائه ... ومجاشع وأبو الفوارس نهشلُ
فادفع بكفّك إن أردت بناءنا ... ثهلان ذا الهضبات هل يتحلحلُ (١)

وهذا يعبّر عن توجّه مأساوي؛ لأنه يدافع فيه عن بيته وأُسرته دون أن يحمل نفسه مسؤولية الدفاع عن قضاياه الدينية والعقيدية والمصيرية، فهو يقول: إن الله يعرف تكليفه وعليه فإنه هو الذي يتولى أمر حماية دينه دوننا. وتروى في المقام قصة طريفة هي أن أحد الأساتذة كان يأمر طلابه بأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، وكان يلاحظ أن أحد تلامذته لا يهتم لهذا الأمر ولا يتعبّد بهذا الفرع من فروع الدين، فقال له: ألا ترى المنكر سائداً والأوضاع الفاسدة مسيطرةً على الناس؟ فأجاب الطالب نعم، لكن ما الذي ينبغي علينا أن نفعله؟ لا شأن لنا بهذا.

فتركه الأُستاذ، وذات يومٍ خرج هذا التلميذ ومعه مجموعة من أصحابه فجاء

---

(١) الأبيات للفرزدق. معجم البلدان ٢: ٨٨.

جماعة من السفهاء يهرولون نحوهم فضربه أحدهم واعتدى عليه بالقول والفعل، وهنا أحس هذا الطالب بضرورة التغيير، فقال: الآن أصبح الجهاد واجباً. بمعنى إنه حينما تعَرض للأذى بشخصه قرر أن الجهاد قد وجب، أما حينما كان المجتمع كله معَرَّضاً للخطر والأذى فلم يكن هذا الأمر ليعنيه.

وهذا الأمر يمثّل إحدى المفارقات التي يعيشها مجتمعنا الحالي، وهي مفارقات عجيبة؛ ذلك أنه لا أحد من هؤلاء يكلف نفسه عناء التفكير والدفاع عن الآخرين.

السبب الثالث: اعتقادهم بأنها تقرّب إلى الله

إن العرب في ذلك الوقت حينما كانوا يذكرون مفاخر آبائهم على الناس فإنهم كانوا يعتقدون أنهم بفعلهم هذا سيتقربون إلى الله لأن باعتقادهم أن ذكر مفاخر الآباء من الوسائل المقربة إليه تعالى، جيء بسبايا طيّئ إلى المدينة فأُدخلوا على النبي الأكرم ﷺ، وكان فيهم سفّانة بنت حاتم الطائي، فلما أُدخلت عليه قالت: أي محمد، مات الوالد، وغاب الوافد؛ فإن رأيت أن تخلّي عني ولا تشمت بي الأعداء، أو أحياء العرب، فإني ابنة سيد قوم، وإن أبي كان يحبّ مكارم الأخلاق، وكان يطعم الجائع، ويفكّ العاني، ويكسو العاري، وما أتاه طالب حاجة إلّا ردّه بها. فقال النبي الأكرم ﷺ: «**يا جارية، هذه صفات المؤمنين حقّاً، لو كان أبوك مسلماً لترحّمنا عليه**». ثم قال ﷺ: «**خلّوا عنها كرامة لأبيها؛ فإن أباها كان يحبّ مكارم الأخلاق، والله تعالى يحبّ مكارم الأخلاق**». فقالت: أنا ومن معي؟ قال ﷺ: «**أطلقوا من معها كرامة لها**»[1].

---

(١) شجرة طوبى ٢: ٤٠٠، كنز العمّال ٣: ٦٦٣ – ٦٦٥ / ٨٣٩٩.

فهذه خصلةٌ شريفةٌ وكريمة لكنه لم يكن يقصد بها وجه الله تعالى؛ لأنه كان يعيش ضمن حضارةٍ معينةٍ تفتخر بأن هذا يشكّل مجداً شخصيّاً، وأنه يعود على ذات الإنسان نفسه، فإن هذا الإنسان يريد أن يبني ذاته ومجده حتى يذكره ذاكرٌ من بعده ولم يكن يقصد بهذا الفعل وجه الله تعالى أو ما يقرب إلى الله تعالى.

مقرّبات إلى الله لم يقصد بها وجهه

إننا نرى في الدنيا أن هناك الكثير من الناس ممن خدم البشرية وقدّم لها الكثير من الوسائل التي رقت بها من عالم الجهل إلى عالم العلم والنور، ولا شك أن هؤلاء قد خدموا البشرية خدمةً كبيرة، فالذي اخترع الطائرة أراح الناس من عناء سفرٍ ربما يثقل كواهل الكثير منهم سيَّما إذا بعدت شقة السفر، وكذلك الحال مع الوسائل الأُخرى التي يستخدمها المجتمع بحيث إنها تجعله يعيش في حالة من الرفاهية والرقي والسعادة كالكهرباء أو الوقود أو الاتصالات وما إلى ذلك. ومثل هؤلاء الذين قاموا بكل هذه الإنجازات مع أنها تخدم البشرية لكن هل من الممكن أن هؤلاء يحصلون على ثواب الله تعالى على ما قاموا به؟

والجواب أنهم لا يحصلون على هذا الثواب وإنما يحصلون على جزاء دنيوي كالمد في العمر أو انتشار الذكر الحسن أو الحصول على الأموال، وما إلى ذلك من الأُجور الدنيوية، أما الأجر الأُخروي فإنهم لا يمكن لهم أن يحصلوا عليه؛ لأنه أجرٌ مرتبطٌ بالعمل العبادي الذي هو أمر توقيفي. بمعنى أنه لا يقبل ولا يؤجر عليه صاحبه إلّا إذا قصد به وجه الله تعالى والقربة إليه. فإذا راعى هؤلاء في عمل ما وجه الله تعالى، فمن الممكن أن يحصلوا على الثواب فيما يقومون به من أعمال تخدم البشرية. أما إذا لم يقصدوا فيه وجه الله جل وعلا فهؤلاء من قبيل قول

سفانة للنبي الأكرمﷺ: إن أبي كان يحبّ مكارم الأخلاق، وكان يطعم الجائع، ويفكّ العاني، ويكسو العاري، وما أتاه طالب حاجة إلّا ردّه بها، فهل يقرّبه ذلك إلى الله؟ فقال لها النبي الأكرمﷺ: **«يا جارية، هذه صفات المؤمنين حقّاً، لو كان أبوك مسلماً لترحّمنا عليه»**.

إذن فهؤلاء كانوا يظنّون أن مفاخر آبائهم مما تقربهم (أي تقرب آباءهم) إلى الله جلَّ وعلا ولذا فإنهم يعمدون إلى ذكرها في أيام الحج؛ لأنها تقرّبهم إلى الله جلَّ وعلا. ولذا فإننا نجد أن القرآن ينبههم إلى ألّا يرجعوا إلى ذكر آبائهم لأنها ليست بالوسيلة المقربة إلى الله تعالى، بل إن الوسيلة التي تقرب إليه جلَّ وعلا هي الذكر والعبادة والتسبيح وما إلى ذلك من الأُمور التي تربط الإنسان بربه جلَّ وعلا. فكلّ هذا ممّا يمكن أن يؤجر الإنسان عليه.

الوجه في تخصيص الذكر بالآباء دون الأمّهات

وهنا نقطة يثيرها البعض وهي: لماذا قال تعالى: ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾، ولم يقل كذكركم أمهاتكم، مع أن الطفل يتعلق بأمه أكثر من أبيه؟ إن القرآن الكريم لا يقر العرب على حضارتهم الجاهلية التي كانوا يعطون فيها للأُمّ دوراً ثانوياً في حين أن الدور الأساسي كانوا يعطونه للأب لكنه تعامل مع هذا الأمر الواقع الذي لا مهرب منه، فهؤلاء لم يكونوا ليذكروا أمهاتهم بشيء بل إنهم كانوا يذكرون آباءهم فقط، وهذه حقيقة لا مفرّ منها، ولذا فإن القرآن الكريم تعامل معهم على هذا الأساس.

وربما يقول قائل: إن هذا المفهوم الذي تحاولون تخطئته (وهو تفضيل الرجل على المرأة) موجود حتى في حضارة الإسلام؛ لأننا نجد القران الكريم يقول:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾[١].

وهذا في واقع الأمر مغالطةٌ ومحاولةٌ لتغييب الحقائق؛ لأن القوامة هنا لا تعني تسليط الرجل على المرأة، فهذا مفهوم مخطوء وتصور غير صحيح للقوامة بل إن المقصود بها ضمان نظام الأسرة وتثبيتها ودرء الانحدار والتفكك عنها لأن من المعلوم أن الزعامة إذا تعددت تمزق الأفراد الذين ينضوون تحتها، فإذا تعددت الزعامة في الأسرة تمزقت الأسرة وفسدت التربية. إذن هذا المفهوم مخطوء لأن الأب هو الذي يصارع الحياة ويخرج للأسواق والمجتمعات، ويختلط مع ألوان وأطياف كثيرة من المجتمع، ممّا يؤدّي به إلى أن تعركه الحياة، ويستطيع أن يتعامل معها بما منحه الله من قوة وتغليب عقلٍ على العاطفة ليفكر ويتمكن من كسب قوته وقوت عياله.

فالرجل يستطيع أن يتعرف على النقائص والثغرات التي تكون في العمل كما أنه يتمكن من أن يقدم لابنه التربية والمتابعة داخل المنزل وخارجه بدقّة أكثر؛ ولهذا السبب أُعطيت القوامة له.

هذا هو واقع المرأة في الإسلام، وهو واقعٌ يختلف اختلافاً جذرياً عن واقعها عند العرب قبل الإسلام في الجاهلية؛ لأنهم كانوا يعطونها دوراً ثانوياً، ويعتبرونها مجرّد وعاءٍ يحمل الأولاد ولا أثر لها في تحديد جنس الوليد. وهو تصورٌ لم يرتضِه الإسلام لها؛ ولذا فإنه ما إن جاء حتى حارب هذا التصور وحاول تغييره بأن أعطاها منزلةً أكبر من منزلة الأب؛ ففقهاء المسلمين حينما يعالجون مسألة تعارض إرادتي الأب والأم بخصوص ابنهما فإنهم يقولون: إذا أمكن بأن نجمع بين هاتين الإرادتين فبها وإن لم نتمكن من الجمع فبعضهم يقول بالتساقط بمعنى

---

(١) النساء: ٣٤.

أنه لا يجب على الابن الأخذ برأي أحدهما . وبعضهم يقول بتقديم قول الأُمّ على قول الأب؛ لأن تأثير الأم على الولد أكثر ولأنها بذلت مجهوداً أكبر في تربيته وفي إعداده والسهر عليه وعلى راحته.

وفي كلا هذين الرأيين نجد أن الإسلام يتعامل مع المرأة إما على ضوء أنها مساويةٌ للرجل بحيث إن رأيها يسقط مع رأي الرجل، أو على أساس أن رأيها مقدمٌ على رأي الرجل. كما أن الإسلام قد وضع الجنة تحت أقدامها.

وعليه فعدم ذكر المشرع الإسلامي الأُمّ هنا ليس ناشئاً عن إغفال دورها، وإنما كان يعالج قضيةً واقعةً كان هؤلاء يعيشونها وهي أنهم لم يكونوا يذكرون أُمّهاتهم، بل إنهم كانوا يذكرون آباءهم فقط؛ ولذا فإننا نجدهم حينما يريدون أن يفتخروا فإن أحدهم يقول: أنا ابن أبي، فلا يأتي بذكرٍ لأُمّه أبداً، ولا يقول: أنا ابن أُمّي. كما أنهم كانوا إذا أرادوا أن يهينوا شخصاً فإنهم ينادونه أو ينسبونه لأمه فيقولون له: يابن فلانة.

وهذا واقع كان يعيشه الناس في ذلك الوقت، وكان على القرآن الكريم أن يتعامل مع هذا الواقع بالشكل الذي كان عليه أُولئك الناس في ذلك الوقت، وإلّا فإن الإسلام لم يكن ليفرق بين الرجل والمرأة في هذا المجال، كما أن المشرع الإسلامي لا يريد أن يقرّهم على هذا التوجّه وعلى هذا المنحى وعلى هذا الفهم لكنه إنما تعامل كما قلنا مع واقعٍ كانوا يعيشونه.

المبحث السادس: في طلب الدنيا

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: **﴿فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾**، وهذا المقطع الشريف من الآية الكريمة يشير إلى أن البعض من الناس كانوا

يطلبون الأُمور الدنيوية، وهنالك احتمالان حول هذا المقطع الشريف من الآية الكريمة:

الأول: أن المراد بهم الكفرة

ذلك أن هؤلاء كانوا لا يؤمنون بالمعاد ولا بالحشر ولا بالنشور، فهم يقولون: **﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾**(١)، فالإنسان من منظور هؤلاء كان يمثل حالةً من الانتقال من هذه الحياة إلى التراب ثم بعدها يتحول إلى ترابٍ ويتلاشى كأن لم يكن، ثم يذهب إلى حيث لا رجعة دون أن يكون هنالك اعتقادٌ عندهم بالحياة بعد الموت، وبالبعث والنشور، والحساب والعقاب، والجزاء وما إلى ذلك. ومع كل هذا فإن هؤلاء حينما يرجعون من منى يطلبون من الله جلَّ وعلا أن يرزقهم، ويسألونه أن يعطيهم إبلاً وبقراً وعبيداً، وأن يمطر السماء عليهم، وما إلى ذلك من الأُمور الدنيويّة التي لا تنتهي دون أن يكون للدعاء بالاستغفار والتوبة والحشر مع الصالحين والجنّة نصيب من طلباتهم؛ ذلك أنهم لم يكونوا يؤمنوا بالحشر، جاء أُميّة يوماً إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وهو يحمل عظماً بالياً متفتّتاً، وقال له: يا محمد، أتزعم أن اللّه يبعث هذا؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**نعم، ويبعثك ويدخلك في النار**». فأنزل الله تعالى هذه الآية: **﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾**(٢)...(٣).

فهؤلاء لم تكن طلباتهم الدنيوية لتنتهي؛ لأنهم لم يكونوا يؤمنون بحياة بعد الموت كي يدعوا الله طلباً لها.

---

(١) المؤمنون: ٣٧. (٢) يس: ٧٩.
(٣) مجمع البيان ٨: ٢٩٠، أسباب نزول الآيات: ٢٤٦.

الثاني: أنهم المسلمون

وبناء على هذا الرأي فإن المسلمين المقصودين بهذا المقطع صنفان:

الأول: ذوو الهمة المحدودة

فهذا الصنف نجد أنه لا تعدو مطالبه بيئته التي يعيش فيها، فهي تقتصر على الأشياء المعدودة التي تقع تحت متناول حواسه دون أن يمدّ النظر إلى ما هو أبعد منها، يقول المؤرخون: نزل رسول الله ﷺ على رجل بالطائف قبل الإسلام فأكرمه، فلما أن بعثه الله تعالى إلى الناس قيل للرجل: أتدري من الذي أرسله الله عزّ وجل إلى الناس؟ قال: لا. فقالوا له: هو محمد بن عبد الله يتيم أبي طالب، وهو الذي كان نزل بك بالطائف يوم كذا وكذا فأكرمته.

فقدم الرجل على رسول الله ﷺ فسلم عليه وأسلم، ثم قال له: أتعرفني يا رسول الله؟ قال: «**ومن أنت؟**». قال: أنا رب المنزل الذي نزلت به بالطائف في الجاهلية يوم كذا و كذا فأكرمتك. فقال ﷺ له: «**مرحباً بك، سل حاجتك**». فقال: أسألك مئتي شاة برعاتها.

فهذا لا يظن الحياة إلّا إنها عبارة عن مجموعة من الشياه التي يمكن أن يحصل عليها أو يمتلكها، ولا تمتد همته إلى ما هو أبعد من هذا المقياس:

وتطير النسور في زحمة النجـ ـم وفي عشه البغاث يطير

أي أن مثل هؤلاء مثل العصفور الذي يطير في عشه وليس له جناح أو قوة على مصارعة الجو بمعنى أنه ذو همةٍ محدودة، وهنا أمر له رسول الله ﷺ بما سأل، ثم قال لأصحابه: «**ما كان على هذا الرجل أن يسألني سؤال عجوز بني إسرائيل لموسى عليه السلام بما سأل**». فقالوا: وما سألت عجوز بني إسرائيل موسى عليه السلام؟ فقال ﷺ: «**إن الله عزّ ذكره أوحى إلى موسى أن احمل عظام يوسف من مصر قبل**

أن تخرج منها إلى الأرض المقدّسة بالشام، فسأل موسى عليه السلام عن قبر يوسف عليه السلام، فجاءه شيخ فقال: إن كان أحد يعرف قبره ففلانة. فأرسل موسى عليه السلام إليها، فلما جاءته قال: تعلمين موضع قبر يوسف عليه السلام؟ قالت: نعم قال: فدلّيني عليه ولك ما سألت. قالت: لا أدلّك عليه إلّا بحكمي. قال: فلك الجنة. قالت: لا، إلّا بحكمي عليك. فأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: لا يكبر عليك أن تجعل لها حكمها. فقال لها موسى عليه السلام فلك حكمك. قالت: فإن حكمي أن أكون معك في درجتك التي تكون فيها يوم القيامة في الجنّة». ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«ما كان على هذا لو سألني ما سألت عجوز بني إسرائيل؟»**[1].

فهذه هي الهمة العالية والنظر البعيد الذي يجب أن يكون عليه الإنسان. إذن فبعض المسلمين له نظرة ضيقة؛ لأنه لا يمكن أن يتجاوز حدود تفكيره الذي وضعه فيها؛ ولهذا فإنه يقول: أُريد ولداً، وأُريد بيتاً، وأُريد مالاً.

الثاني: ذوو الهمة البعيدة لكن للعاجلة

فهنالك البعض من المسلمين ممن لهم همة عاليةٌ بعيدة لكنهم لا يلجؤون إلى هذه الهمة، بل إنهم يريدون الشيء المستعجل: **﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾**[2]، **﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾**[3]. فلسان حال هذا يقول: إنني أهمّ بالدنيا وأريدها، وأما ما بعد ذلك فلا علاقة لي به. ولذا فإنه لا يسأل الله أن يدرأ عنه مخاطر الآخرة بل إنه يدعوه، أن يدرأ عنه مخاطر الدنيا، وأن يعطيه ما في الدنيا.

إن الذي ينبغي على المسلم أن يدعوَ به هو الاستغفار وطلب الآخرة؛ لأن الدنيا

---

(١) الكافي ٨: ١٥٥ - ١٥٦ / ١٤٤، مسند أبي يعلى ١٣: ٢٣٥ - ٢٣٧ / ٧٢٥٤.
(٢) القيامة: ٢٠ ـ ٢١.
(٣) الإنسان: ٢٧.

ستنتهي بعد فترةٍ محدودة بالعمر طال أو قصر، وانتهاء الدنيا وذهابها غير منوط بالفقر والغنى، وبالشبع والجوع، أو بالعري والاكتساء، وما إلى ذلك؛ فسواء كان هذا الإنسان غنياً ثرياً ثراءً فاحشاً أو فقيراً مدقعاً، فإنه سيغادر هذه الدنيا وستنتهي بانتهاء أجله وعمره. وحينما تحلّ ساعة الموت فكأنه لم يذق من أطايب الطعام، ولم يلبس من فاخر اللباس، ولم يجلس في مراتب الكبار أو العظماء؛ فالموت لا يفرق بين من يأكل الطعام الطيّب ومن لا يأكله، وبين من يجلس في قصرٍ وبين من يجلس في كوخ. فكل هذه الاعتبارات تتلاشى وتلغى في نظر ملك الموت، فيخرج الإنسان من هذه الحياة بالجلدة التي دخل فيها الحياة.

إن هذه الأُمور لا أهمية لها، والمسألة المهمة هي مسألة وفود الإنسان على الله تعالى، ووقوفه بين يديه، حيث الخلود؛ فمنهم من يُخَلّد في الجنة، ومنهم من يُخَلَّد في النار، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«لو كانت الدنيا ذهباً، والآخرة خزفاً، لأخذت خزف الآخرة على ذهب الدنيا؛ فإنه خزف باقٍ، وذهب الدنيا فانٍ، فكيف والآخرة ذهب باقٍ والدنيا خزف فانٍ؟»** [1].

إن الدنيا وإن يحصل عليها الإنسان فإنه لا يحصل عليها إلّا بعد أن يُذلَّ نفسه وإلّا بعد أن يذبح كرامته على أعتابها، فالدرهم فيها لا يحصل عليه الإنسان إلّا بعد أن يعطي مقابله جزءاً من روحه ومن جسمه ومن كرامته ومن تفكيره، أما الآخرةُ فهي كما وصف الله تعالى: **﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** [2]، **﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾** [3]؛ ذلك أن عطاء الله جلَّ وعلا غير محدود،

---

(١) شجرة طوبى ٢: ٤٢٢، التفسير الكبير ٢٧: ٦٨ ـ ٦٩، ونسبه لبعض العارفين، المستطرف في كل فنّ مستظرف ٢: ٥٩٧ ونسبه لابن عياض.

(٢) البقرة: ٢٥.

(٣) محمد: ١٥.

وبغير منٍّ ولا حدٍ ولا عد. فالنفوس الضعيفة تلتذّ بالعاجلة وتترك الآجلة: **﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾**، يروي المؤرخون أن النبي ﷺ دخل على مريض فقال له: **«ما شأنك؟»**. قال: صليت بنا صلاة المغرب، فقرأت القارعة، فقلت: اللهم إن كان لي عندك ذنب تريد أن تعذّبني به في الآخرة، فعجّل ذلك في الدنيا. فصرت كما ترى. فقال ﷺ: **«بئسما قلت، ألا قلت: ربّنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار؟»**. ثم دعا له حتى أفاق [1].

فالنبي يريد أن ينبهه وينبه من يستمع إليه إلى أنه لا يسأل محدوداً عطاؤه، وإنما يسأل ذا عطاء غير محدود، فيعطي بغير حد: **«ويا من أعطىٰ من سأله ويا من أعطىٰ من لم يسأله ولم يعرفه تحنّناً منه ورحمة»** [2].

إذن فالآية الكريمة تقرر أن البعض من الناس لا تكون همهم إلّا هماً مقصورةً على هذه الأيام التي يعيشونها وإلّا على الأشياء التي يعايشونها، دون أن يمتدّ بهم الأمر إلى ما وراء ذلك: **﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾** [3]، فهؤلاء ينسون أن هناك حياةً بعد هذه الحياة، وأن الآخرة سوف يهلك من ليس له نصيبٌ فيها؛ ذلك أنه سيفدُ على الله جلَّ وعلا، وحينما يفد عليه فيجب عليه أن يحمل معه زاده؛ فإن لم يقدم شيئاً من هذا الزاد فإنه هالك لا محالة. أما من يفد عليه تعالى وقد قدّمَ بين يديه زاده من التقوى فإن هذا هو السعيد الذي يستحقّ مغفرة الله ورضوانه وجنته؛ لأنه يقدّم بين يديه عطاءه الذي وهبه في سبيل الله، فيكون له بساط مجد وغطاء ثناء بما أنفق وقدّمَ

---

(١) الدعوات: ١١٤ ـ ١١٥ / ٢٦٢، بحار الأنوار ٧٨: ١٧٤.

(٢) مصباح المتهجّد: ٣٥٣، الصحيفة السجاديّة: ٥٧٥، الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٢١١.

(٣) البقرة: ٢٠٠.

لله وفي سبيله وفي سبيل دينه.

وأبرز هؤلاء الشهداء الذين يفدون على الله جلَّ وعلا وقد قدّموا أنفسهم قرابين له ولدينه ولعقيدته، وفي طليعة هؤلاء الشهداء السبط المخلّد سيد الشهداء وسيد شباب أهل الجنّة الإمام أبو عبد الله الحسين‏عليه السلام الذي قدّم الضحايا إلى الله جل وعلا، وقدّم بين يديه عطاءً لا حدود له. وكل تلك التضحيات وكل أولئك الضحايا كان‏عليه السلام يريد بهم الوجه الكريم ولم يقدمها لانتزاع مجد دنيوي، أو لطلب منصب دنيوي أو كرسي زائل لا يدوم.. لقد كان يؤمن بأنه إنما يقدّم كل تلك التضحيات والضحايا قرابين ينشد بها وجه الله تعالى:

يا أبا الطفّ وازدهى بالضحايا ... من أديم الطفوف روض خضيلُ

ثـلّة من صحابة وشقيق ... ورضيع مطوّق وشبولُ

والشباب النضير جفّ فغابت ... طلعة حلوة ووجه جميلُ

وتمشَّيتَ تَستبينُ الضَّحايا ... وزواكي الدماءِ منها تَسيلُ

ومشتْ في شفاهِك الغرِّ نَجوى ... نَمَّ عنها التسبيحُ والتَّهليلُ

لك عُتبى يا رب إن كان يُرضيـ ... ـك فهذا إلى رضاك قليلُ

وسجى الليلُ والرِّجالُ ضَحايا ... والنِّساءُ المخدراتُ ذهولُ

وبقايا مُخَيَّمٍ من رَمادٍ ... وعليلٌ مُصَفَّدٌ وكُبولُ

ودمٌ شاطىء الفرات سيبقى الـ ... دهرَ يرويه والرُّبَى والنَّخيلُ[1]

نعم إن هذه المصارع لا شك أنها تركت في نفسه الشريفة أثراً، لكنه كان يحتسبها عند الله جل وعلا، مع أن بعضها قد أوجع قلبه أكثر من غيره، ومن ذلك مصرع طفلٌ له لم يتجاوز عمره الستة أشهر حيث إنه‏عليه السلام أمسكه بيديه الشريفتين

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٤٢.

وقدّمه إلى أعداء الله وقال لهم: **«لقد جفّ ثدي أُمّه من اللبن، فإن خفتم أن أشرب من الماء فخذوه بأيديكم واسقوه جرعة من الماء»**(١).

فرجع عليه السلام حاملاً إياه على يديه، وهو يرفرف كالطير المذبوح. وحينما امتلأت يده من دمه رمىٰ بها إلى السماء وقال: **«اللهم لا يكن أهون عليك من فصيل ناقة صالح»**(٢).

ثم عاد به إلى أُمّه قائلاً: **«رباب خذي إليك ولدك مذبوحاً»**:

ولو تــراه حــاملاً طـفله   رأيت بـدراً يـحمل الفـرقدا
مُـخضّباً مـن فـيض أوداجـه   ألبسه سهم الردى مجسدا(٣)

يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«لقد كان طفل جدي الحسين في قماطه لما أحسّ بحرارة السهم، فانتزع يديه من القماط واعتنق رقبة والده وجعل يرفرف كالطير المذبوح»**.

فتناولته أُمّه، ودخلت إلى الخيمة باكية واحسيناه.



---

(١) شجرة طوبىٰ ١: ٣٠.

(٢) لم نعثر عليه عند مصرع الطفل الرضيع، لكن ورد هذا الدعاء عند مصرعه عليه السلام حيث إنه عليه السلام جعل يأخذ الدم من نحره فيرميه إلى السماء، ولا يرجع منه شيء. مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٧.

(٣) المجسد: الثوب الملامس للجسد، يريد: أن السهم ألبسه ثوباً من دم. انظر المعجم الوسيط: ١٢٢ ـ جسد.

﴿١٨٨﴾

المهدي عليه السلام ضرورة دينيّة يفرضها الواقع

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِـي الأَرْضِ وَنَـجْعَلَهُمْ أَئِـمَّةً وَنَـجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: فضيلة ليلة النصف من شعبان

تزدحم في هذه الليلة المباركة الكريمة ثلاث مناسبات:

المناسبة الأولى: إشراقة الحق

ففي مثل هذه الليلة كانت ولادة إمام العصر ومنقذ الأمة وأمل المسلمين والمستضعفين وبقية الله في أرضه. وقد أهلت طلعته المباركة على الوجود فأنارته في ليلة النصف من شعبان في سنة (٢٥٥)، تروي عمة العسكري عليه السلام السيّدة حكيمة بنت الإمام الجواد عليه السلام فتقول: بعث إلي أبو محمد الحسن بن علي عليهما السلام فقال: **«يا عمة، اجعلي إفطارك الليلة عندنا؛ فإن الله تبارك**

---

(١) القصص: ٥ ـ ٦.

وتعالى سيظهر في هذه الليلة الحجّة، وهو حجّته في أرضه». فقلت له: ومن اُمّه؟ فقال عليه السلام لي: **«نرجس»**. فقلت له: جعلني الله فداك، ما بها أثر. فقال عليه السلام: **«هو ما أقول لك»**.

قالت: فجئت، فلما سلّمت وجلست جاءت تنزع خفّي وقالت لي: يا سيدتي كيف أمسيت؟ فقلت: بل أنت سيدتي وسيّدة أهلي. فأنكرت قولي وقالت: ما هذا يا عمّة؟ فقلت لها: يا بنيّة إن الله تعالى سيهب لك في ليلتك هذه غلاماً سيداً في الدنيا والآخرة. فخجلت واستحيت. فلما أن فرغت من صلاة العشاء الآخرة، أفطرت وأخذت مضجعي فرقدت، فلما أن كان في جوف الليل قمت إلى الصلاة ففرغت من صلاتي وهي نائمة ليس بها حادث، ثم جلست معقّبة، ثم اضطجعت، فانتبهت فزعة وهي راقدة، ثم قامت فصلّت ونامت، فخرجت أتفقّد الفجر، فإذا أنا بالفجر الأول كذنب السرحان وهي نائمة، فدخلني الشكوك، فصاح بي أبو محمد عليه السلام من المجلس فقال: **«لا تعجلي يا عمّة، فهاك الأمر قد قرب»**.

فجلست وقرأت ﴿ألم﴾ السجدة و﴿يس﴾، فبينما أنا كذلك إذ انتبهت فزعة، فوثبت إليها فقلت: اسم الله عليك، أتحسّين شيئاً؟ قالت: نعم يا عمة. فقلت لها: اجمعي نفسك واجمعي قلبك، فهو ما قلت لك. فأخذتني فترة وأخذتها فترة، فانتبهت بحسّ سيدي، فكشفت الثوب عنه فإذا أنا به عليه السلام ساجداً يتلقّى الأرض بمساجده، فضممته إليّ، فإذا به نظيف متنظّف، فصاح بي أبو محمد عليه السلام: **«هلمّي إليّ ابني يا عمّة»**.

فجئت به إليه، فوضع يديه تحت إليتيه وظهره، ووضع قدميه على صدره، ثم أدلى لسانه في فيه، وأمرّ يده على عينيه وسمعه ومفاصله، ثم قال عليه السلام: **«تكلّم يا بني»**. فقال عليه السلام: **«أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً رسول**

الله صلى الله عليه وآله وسلم ». ثم صلّى على أمير المؤمنين عليه السلام وعلى الأيمّة عليهم السلام إلى أن وقف على أبيه، ثم أحجم، فقال أبو محمد عليه السلام: « **يا عمّة، اذهبي به إلى أُمّه ليسلّم عليها وائتيني به** ».

فذهبت به إليها، فسلّم عليها، ورددته فوضعته في المجلس ثم قال: « **يا عمّة، إذا كان يوم السابع فائتينا** ».

تقول: فلما أصبحت جئت لأُسلّم على أبي محمد عليه السلام، وكشفت الستر لأتفقّد سيدي عليه السلام فلم أرَه، فقلت: جعلت فداك، ما فعل سيدي؟ فقال: « **يا عمّة، استودعناه الذي استودعته أُمّ موسى عليه السلام** ».

قالت حكيمة: فلمّا كان اليوم السابع جئت فسلّمت وجلست، فقال: « **هلمّي إليّ ابني** ». فجئت بسيدي عليه السلام وهو في الخرقة، ففعل به كفعلته الأُولى، ثم أدلى لسانه في فيه كأنه يغذّيه لبناً أو عسلاً، ثم قال عليه السلام: « **تكلّم يا بني** ». فقال عليه السلام: « **أشهد أن لا إله إلّا الله** »، وثنّى بالصلاة على محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى أمير المؤمنين وعلى الأيمّة الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين) حتى وقف على أبيه عليه السلام، ثم تلا هذه الآية: ﴿ **وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ** ﴾[1].

لماذا استأثرت ولادته عليه السلام باهتمام المسلمين؟

والواقع أن ولادة الإمام صاحب الزمان عليه السلام تستأثر باهتمام المسلمين من نواحٍ عدة:

الأولى: بلوغ الروايات حدّ التواتر

فالروايات التي وردتنا في هذا الخصوص قد بلغت كمّاً هائلاً عند الكثير من

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ٤٢٤ ـ ٤٢٦ / ١.

المحدّثين والمؤرّخين، وهي مسألة وصلت عند بعض المسلمين إلى حدّ كونها من الضرورات الإسلاميّة، وأن إنكارها كفر. فهناك فتاوى حتى عند أبناء المذاهب الإسلاميّة الأُخرى تكفّر من ينكر صاحب الزمان (عليه الصلاة والسلام)[١]. إن مسألة وجود الإمام المهدي عليه السلام وولادته وأنه الإمام الثاني عشر مسألة مفروغ منها تماماً، وذلك بحكم الروايات والنصوص الواردة إلينا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومنها ما ورد في كتب الصحاح من أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«لا يزال الدين قائماً حتى يكون اثنا عشر خليفة من قريش»**[٢].

وفي رواية أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«لا تنقضي الدنيا حتىٰ يملك العرب رجل من أهل بيتي ـ** أو قال: **عترتي ـ يواطئ اسمه اسمي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً»**[٣].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«من ولدي اثنا عشر نقيباً نجباء محدثون مفهمون، آخرهم القائم بالحقّ يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً»**[٤].

ثم يبدأ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بإعطاء صفات هذا الإمام (عليه أفضل الصلاة والسلام)، فيقول: **«على خده الأيمن خال، مفلّج الثنايا»**[٥].

وفي رواية أُخرى أنه إذا خرج **«قسم بالسوية، وعدل في خلق الرحمن؛ البرّ**

---

(١) وسوف يذكر المحاضر إن شاء الله من خلال هذا البحث الكثير من المصادر التي تناولت هذا الموضوع وأشبعته بحثا ودراسة.

(٢) مسند أحمد ٥: ٨٦، صحيح مسلم ٦: ٣ـ ٤، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩ / ٤٢٧٩.

(٣) انظر: الحدّ الفاصل: ٣٢٩، صحيح ابن حبّان ١٥: ٢٣٧، المعجم الأوسط ٢: ٥٥، ٧: ٥٤، المعجم الكبير ١٣٣ ـ ١٣٧ / ١٠٢١٤ ـ ١٠٢٣٠، وغيرها كثير.

(٤) تقريب المعارف: ٤١٩، شرح أُصول الكافي ٢: ٢٤٠.

(٥) الغيبة (النعماني): ١٥٠، عن أمير المؤمنين عليه السلام.

منهم والفاجر منهم، من أطاعه أطاع الله، ومن عصاه عصى الله... وتخرج الأرض كنوزها من الذهب والفضة، فيقول: أيها الناس هلمّوا، فخذوا ما سفكتم فيه الدماء، وقطعتم فيه الأرحام. ويعطي ما لم يعطِه أحد قبله، ولا يعطيه أحد بعده. اسمه اسم نبي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً» [1].

إلى آخر ماورد في نعته من الروايات.

إذن فالروايات قد تكاثر نقلها بخصوصه عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعن أمير المؤمنين عليه السلام، وكذلك عن أيمّة أهل البيت عليهم السلام. إن كلّ الروايات التي تشير إلى هذاالمجال تنصّ على أنه الحفيد الثاني عشر لأمير المؤمنين عليهم السلام، وأنه بهذا الاسم. أما الإضافة التي أُضيفت إلى الروايات المختصّة بهذا الباب وهي عبارة «**واسم أبيه اسم أبي**» [2]، فهي منحولة وغير صحيحة؛ لأن الروايات الصحيحة لم تذكر هذه الزيادة، وقد وضعت بعد ذلك. وهذه المسألة مجمع عليها.

وكما ذكرنا فإن هناك الكثير من المصادر التي تناولت قضية الإمام عليه السلام وأشبعتها بحثاً ودراسة وإجابة عن الإشكالات المعترضة والمطروحة كافّة. وذلك من قبيل كونه حيّاً يعيش بيننا، ومن قبيل كونه من أهل البيت عليهم السلام أو من حيث تسلسله بالنسبة للأئمة عليهم السلام، وقد ردّت على كل الإشكالات والاعتراضات والشبهات التي طرحت في الساحة في خصوص هذا الموضوع. وقد وصل الأمر عند البعض إلى حدّ الحكم بكفر منكرها وخروجه عن الملّة كما ذكرنا.

ولعل أقرب المصادر التي بين أيدينا، والتي تناولت هذه المسألة بحثاً ودراسة

---

(١) شرح الأخبار ٣: ٣٩٧ / ١٢٧٨، بحار الأنوار ٥٢: ٣٣٧ / ٧٧، سنن ابن ماجة ٢: ١٣٥٧ / ٤٠٧٥، المستدرك على الصحيحين ٤: ٤٩٢ - ٤٩٣.

(٢) سنن أبي داود ٢: ٣٠٩، تحفة الأحوذي ٦: ٣٩٣، المعجم الأوسط ٢: ٥٥.

ورداً كتاب (البيان) للجلندي الشافعي، وكتاب (الغيبة) للشيخ الطوسي وكتاب (المهدي الموعود) للشيخ نجم الدين العسكري. وهناك عشرات الكتب غيرها، ومنها القسم الخاص بالمهدي المنتظر من كتاب (البحار) للعلّامة المجلسي، وما إلى ذلك. ومن هذا نرى أن مسألة حقيقة المهدي هي مسألة مفروغ منها عند المذاهب الإسلامية كافّة.

اختلاف المسلمين في زمان ولادته

لكن هنالك نقطة هامة تعترض في هذا الباب، وهي: هل إنه مولود وموجود، أم إنه غير مولود الآن، وإنه يولد في زمان ظهوره؟ الذي عند الأعمّ الأغلب من المذاهب الإسلامية أنه سوف يخلق بعد ذلك، وأنه سوف يولد في زمان ظهوره. وحتى أكثر المؤرخين بعداً عن هذا اللون من الفكر كابن خلدون فإنه يذكره في مقدمته [1]، وينصّ عليه. كما أن هناك روايات تشير إلى أنه سيفتح القسطنطينية ويستولي على أموال الروم ويوزّعها على فقراء المسلمين [2]. وابن خلدون ليس وحده في هذا الأمر، بل هنالك طائفة أُخرى من أبناء المذاهب الإسلامية وإن كان هؤلاء يقرّون بأنه يولد في زمان ظهوره.

أسباب إنكار وجوده

وسرّ استبعادهم لهذه المسألة واعتراضهم عليها وإشكالاتهم حولها تعود إلى عدّة أسباب منها:

الأول: انتفاء جدوى وجوده

فهو إذا كان موجوداً غائباً، فإنه لافائده تتحقّق منه، فمادام غائباً لا يتّصل

---

(١) تاريخ ابن خلدون ١: ٣٢٥.

(٢) المصدر نفسه، شرح الأخبار ٣: ٣٧٦، تاريخ مدينة دمشق ٣٧: ١٥.

بالناس ولا ينفعهم، فأي فائدة ترجى من وجوده إذن؟

الثاني: أن في بقائه خرقاً للناموس الطبيعي

كما أن في بقائه عليه السلام هذه الفترة الطويلة خرقاً لقوانين العمر البشري الذي لا يمكن أن يدوم لهذه الفترة الطويلة من وجهة نظرهم. وهو عليه السلام بهذا يكون قد تجاوز معدل عمر الإنسان في هذا الزمان، وحتى معدل عمر آبائه عليهم السلام برقم كبير جدّاً؛ حيث إن آباءه عليهم السلام قد توفّوا وهم في عقدهم السابع. إذن فمن غير الممكن أن يعيش هذا العمر الطويل الخارق للعادة وللقوانين الطبيعية البشرية.

الثالث: انعدام مبرّرات الغيبة

وهنا ينتقلون إلى جهة أُخرى من الإشكالات وهي انعدام الدوافع التي تبرّر اختفاءه عليه السلام، فهم يقولون: ليس هنالك أي موجب لأن يختفي عن الناس، فما هي العلّة التي حصل من أجلها هذا الاختفاء؟

الردّ على هذه الإشكالات

ولنبدأ بالإجابة على هذه الإشكالات واحداً واحداً بإشارات بسيطة إن شاء الله تعالى:

الجواب عن الإشكال الأول

وهو الإشكال المبتني على انعدام الثمرة من وجوده عليه السلام حال غيبته، والجواب عن هذا الإشكال هو أن يقال: إن ظواهر الروايات والنصوص تحملنا وتأخذ برقابنا أخذاً للإيمان بهذا المعتقد والتصديق به، وهي الروايات التي تؤكّد ـ على نحو الجزم ـ على أن الله جلّ وعلا لا يخلي الأرض من حجّة له، فالأرض لا يمكن أن تخلو في يوم من الأيام من نبي، فما ترك الله جل وعلا عصراً من العصور لم

يبعث فيه نبيّاً للناس يعلّمهم ويرشدهم، ويهديهم ويوضح لهم معالم طريق الله تعالى والصواب من طريق الشيطان. والسبب في هذا واضح، وهو أنه تعالى إذا ترك أمّة من الأمم في زمان من الأزمنة من غير نبيّ يبعثه إليهم فإنه يكون قد أعطاهم المسوّغ لأن يحتجّوا عليه بأنهم لم يُبَلّغوا قوانينه وتشريعاته، وبالتالي فإنهم غير مستحقّين لعذابه.

كما أنه تعالى لا يبعث لهم الحجّة التي تحتجّ عليهم يوم القيامة بأنه كان نبيّاً لهم، وانه أمرهم ونهاهم ولم يأتمروا ولم ينتهوا [١]. فالله تعالى حينما يسأل عباده غداً عن التكاليف التي كلّفهم بها لابدّ أن يكون هناك من أوصلها إليهم ليعذّبهم على تركها، وإلّا فكيف يمكن أن يسألهم ولم يكن قد بعث إليهم نبيّاً؟ بل إن هؤلاء المكلّفين من السهل جدّاً أن يروا بأنهم لم يُبَلغوا ولم يأتهم من يلقي الحجة عليهم أو يقيمها عليهم. فإذا أرد الله أن يحتجّ على عباده فلابد أن يبعث إليهم بنبي حتى يقول لهم: إني قد بلّغتكم وألقيت عليكم الحجّة عن طريق النبي الذي بعثته إليكم، والكتاب الذي أنزلته عليكم.

وهذا الأمر من البديهي والثابت الذي لايناقش فيه إلّا معاند، فالله جلّ وعلا لابدّ أن يلقي الحجة على عباده، ولا يلقيها إلّا نبي وكتاب، أو وصيّ نبيّ. وعليه فإن الله جلّ وعلا ما لم يبعث الحجة لا يعذب عباده [٢].

هذا في خصوص النبي ﷺ أما الإمام ﷺ ـ وهو وصيّ النبي ـ فمن الثابت أن الغاية من بعثته ومن وجوده هي الغاية عينها من وجود النبي ﷺ ومن بعثته، والله

---

(١) وهو تعالى يقول: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الزمر: ٦٩.

(٢) قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ الإسراء: ١٥.

جلّ وعلا حينما يتوفّى أنبياءه فمن غير المعقول أن يترك الأرض من غير حجّة تقوم مقامهم، وتبلّغ عباده، وتلقي عليهم هذه الحجة يوم يلقونه.

وربما هنا يقول قائل: إن العالِم يكفي في هذا المجال، والكتاب موجود، وهو يكفي كذلك، وعليه فلا حاجة في هذا العصر إلى هذا الحجّة التي تحلّ محل النبي عليه السلام.

والجواب: أن هذا الكلام ينطوي على مغالطة؛ ذلك أنه لو كانت الكتب السماوية كافية لما بعث الله أنبياءه بعد من أنزل عليهم كتبه، كالنبي موسى والنبي عيسى عليهما السلام، فما دام الكتاب كافياً فلا حاجة إذن إلى بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم معه بعد عيسى عليه السلام أو لبعثة الأنبياء عليهم السلام بعد موسى عليه السلام. وحتى على صعيد كتاب المسلمين ـ وهو القرآن الكريم ـ فإنه إذا كان كافياً فلا حاجة معه إذن إلى نصب الإمام مع أن الأُمّة الإسلاميّة كافّة مجمعة على ضرورة نصب الإمام ووجوبه، لكن هذا الإجماع على النصب يختلف باختلاف نظريات المسلمين؛ فمنهم من يذهب إلى أن وجوبه عقلي، وغيرهم يرى أنه شرعي. فهذا الأمر قد وقع فيه اختلاف بين المسلمين.

رواية «لا تخلو الأرض من حجّة»

ثم إن هناك رواية مشهورة، هي رواية عدم خلو الأرض من حجة، فالله جلّ وعلا لا يخلي الأرض من حجة، وهذا الحجّة إمّا أن يكون نبيّاً، وإمّا أن يكون وصيّاً له[1].

---

(١) انظر: الأُصول الستة عشر (عدة محدثين): ١٦، ٩٠، المحاسن ١: ٣٨، ٩٢ / ٤٥، ٢٣٤ / ١٩٣، ٢٣٦ / ٢٠١، بصائر الدرجات: ٤٨٨ / ١، ٤٨٩ / ٤، ٥٠٥ ـ ٥٠٦ / ٤، ٩ ـ ١٠، ١٥، ٥٠٧ / ١٧، ٥٠٩ / ٨، الإمامة والتبصرة: ٢٥ / باب أن الأرض لا تخلو من حجّة، الكافي ١: ١٧٨ ـ ١٨٠ / باب أن الأرض لا تخلو من حجّة.

الجواب عن الإشكال الثاني

أمّا حول غيبته عليه السلام وتعذّر الوصول إليه، فهذا أيضاً غير صحيح؛ لأن الوصول إليه غير متعذّر، وهنالك الكثير من الروايات التي تنصّ على أنه قد رآه كثير من الناس [1].

احتجاب عن النظر وليس احتجاباً عن الوجود

وهذا يقودنا إلى تأكيد مسألة هامّة جداً، وهي أن احتجابه عليه السلام ليس احتجاباً عن الوجود وإنما هو احتجاب عن النظر، فربما هو عليه السلام الآن في مجلس من مجالسنا ولا نراه، وربما نراه ولكن لا نعرفه كما تقول الروايات التي تنصّ على وجود مسألة الرؤية له عليه السلام. فهو عليه السلام إذن محتجب عن العيون والأبصار، وليس عن الواقع والحياة التي يعيش فيها أتباعه، والتي يعيش فيها المسلمون وغير المسلمين بشكل عام. بل إن البعض من علمائنا يذهب إلى أن الإجماع إنما كان حجّة لأنه قد دخل فيه الإمام عليه السلام، وقول الإمام عليه السلام حجّة. وهذا يعني أن الإمام عليه السلام يسدّد هؤلاء العلماء ويوجّههم الوجهة الصحيحة في استنباط الحكم الشرعي.

فهو عليه السلام يلقي برأي من آرائه الحكيمة أو الصائبة أو الصحيحة التي تصيب الحكم الواقعي في هذه المسألة بين هؤلاء العلماء المجمعين؛ حتى يسدّد رأيهم.

وهذه المسألة دقيقة جدّاً، وهي مسألة واسعة ومعقدة، ولا أُريد أن أخوض فيها الآن في هذه العجالة؛ لأنها ممّا لايتّسع له الزمان ولا المقام.

وعلى أية حال فعلى نحو الإجمال نقول: إن العلّة من وجود الإمام عليه السلام هي عينها العلّة من وجود النبي صلى الله عليه وآله في كلّ زمان وفي كلّ مكان، وعليه فإن الله جلّ

---

(١) انظر بحار الأنوار ٥٢: ١ ـ ٧٨ / ب ١٨.

وعلا لايمكن أن يخلي الأرض من حجّة يثبت الحكم الشرعي، ويتّصف بكونه معصوماً؛ لأنه لابدّ من أن ينقل الحكم بشكل لايمكن معه الأخذ والردّ، أو التشكيك فيه، فلا يمكن للمعصوم أن ينقل حكماً يكون معه قائل لهذا الأخذ والردّ وما إلى ذلك. وبمعنى آخر فإنه لابدّ من العصمة حتى لايتطرّق الخلل والعيب إلى مضمون الأحكام.

مفهوم العصمة عند المسلمين

وكأنما يمثّل مفهوم العصمة حالةً من حالات التعسّف للمسلمين، وينظر إليه بعضهم على أنه شيء خيالي لايمكن وقوعه، فينظرون إليه نظرة ملؤها الشكّ والريب والتحفظ، بل والتهاون أيضاً. كنت مرّة في الإمارات وقد بحثت هذا الموضوع في إحدى المحاضرات، فجاءني أحد المسؤولين الكبار وقال لي: كنت متخلّفاً عن فهم هذه المسألة، ولم أستطع أن أُدخلها في ذهني، أمّا الآن فلا.

والذي جعله يصل إلى هذا الفهم هو أنني طرحت هذه المسألة على صيغة تساؤل فقلت: هل يمكن لنا الآن أن ننقد أحداً من صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ ثم أجبت بأنه لا يمكن لنا هذا في واقع المسلمين؛ لأننا حينما ننقد صحابياً فإن المسلمين جميعاً يتوجّهون إلينا باللوم، وبالاتّهام بأننا نخطّئ أشخاصاً لايمكن أن يخطئوا. فهم يرموننا بأننا نخطّئ صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهم جماعة لا يجوز عليهم الخطأ. وليس هذا في واقع الأمر إلّا العصمة؛ لأن العصمة هي أن ندّعي لشخص أو نُثبت له أنه لايجوز عليه الخطأ. فإذا كان هذا المفهوم جائزا لصحابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فعليٌ عليه السلام منهم، وكذلك أولاده عليهم السلام من بعده [1].

---

(١) لأنهم عليهم السلام مطهّرون بنصّ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ الأحزاب: ٣٣.

فالعصمة هي أن يكون الشخص على نمط معيّن من التربية العالية؛ بحيث إنه لايصدر منه القبيح، ولا يترك واجباً، ولايفعل محرّماً. ولو رجعنا إلى تعريف العصمة عند فقهائنا، لوجدنا أنهم ينصّون على أنها لطف يفعله الله تعالى بالمكلف؛ بحيث إنه لا يكون معه داعٍ إلى ترك الطاعة أو فعل المعصية مع وجود القدرة عليهما. أي أن هذا المعصوم يستطيع أن يفعل المعصية لكنه لا يأتيها بما يمتلكه من التربية العالية، والخلق الرفيع.

ولو رجعنا إلى واقعنا الذي نعيشه، لوجدنا أن هناك الكثير من الأشخاص على شاكلة المعصوم وإن لم يكونوا كذلك بالمعنى الاصطلاحي، فنجدهم يمتنعون عن فعل القبائح والمعاصي، ولايتركون الطاعات، بل إنهم يلازمونها.

وكذلك الأمر في تهذيب المعصوم عليه السلام وأخلاقه واستقامته وورعه وتقواه، وليس هذا إلّا العصمة التي هي لطف إلهي.

ونحن لانقول: إن في العصمة إلجاء؛ لأنه لو كان فيها إلجاء لم يكن فيها فضل أو فضيلة لصاحبها؛ لأن الله جلّ وعلا قد جبله على ترك المعصية وفعل الطاعة. وحينئذٍ فلا فضل له؛ لأنه حينما يسلبه الله جلّ وعلا القدرة على تحقيق الدواعي إلى فعل المعصية وترك الطاعة، فإنه حينئذٍ لا فضل له في هذا المجال. وعليه فالمسألة لاتعدو كونها نوعاً من التربية العالية والخلق السامي الذي يربّي الله جلّ وعلا عليه أنبياءه ورسله وأوصياءه وخاصّته.

وكما أن الأب المؤمن الملتزم يحاول أن يربّي أبناءه على التربية العالية والخلق القويم؛ كي يكونوا أفراداً صالحين محبوبين في المجتمع، يحترمهم الناس ويقدّرهم، فكذلك الله جلّ وعلا يعمل على تربية أنبيائه ورسله بذلك النمط، وكذلك يفعل مع أوصيائهم ذلك النمط من التربية العالية والخلق السليم والقويم؛

كي يكونوا قدوة للناس فيهتدوا بهم.

إذن فوظيفة الإمام هي وظيفة التثبيت للأحكام الشرعيّة، وهذه هي الوظيفة عينها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وما داما يؤدّيان الوظيفة عينها فلابدّ إذن أن يكونا في هذا المجال على مستوى واحد من الحجّة؛ لأنه جل وعلا لا يخلي الأرض من حجّة على الناس يوم القيامة. وهذه الحجة لابدّ أن تكون موجودة في كلّ عصرٍ وزمان ومكان، فإن لم تكن لنبي فهي لوصي نبي.

ثم إن المسلمين يعتقدون بأن هناك بعض الأشخاص لازالوا يعيشون حتى الآن، ومنهم النبي عيسى عليه السلام فإنه لازال حيّاً، والقرآن الكريم يقول: **﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾**[1].

كما أنهم يعتقدون بحياة الخضر وغيره من الأشخاص الذين يرون أنهم قد عاشوا كلّ هذه الفترة الطويلة. ولو أننا رجعنا إلى أخبار المعمرين لوجدنا أن الكتب المختصّة في هذا المجال تروي أن هناك بعضاً ممن عُمّر ثلاثمئة سنة أو أربعمئة سنة أو حتى أكثر من ذلك، والكتاب الأصدق من كل هذه الكتب هو القرآن الكريم الذي يحدّثنا عن النبي نوح عليه السلام الذي عُمِّرَ طويلاً حتى إن فترة دعوته فقط كانت تسعمئةٍ وخمسين سنة[2].

وحينما يجتاز الإنسان المعدل الطبيعي لعمر الإنسان، فإنه حينئذٍ لافرق بين أن يكون هذا الاجتياز بألف سنة أو أقل منه أو أكثر، فما دام قد اجتاز السنّ المألوفة والطبيعيّة فحينذاك لا فرق في كون هذا الاجتياز قليلاً أو كثيراً، فمادام الخصم يقول: إن من الممكن أن يجتاز الإنسان المعدّل الطبيعي ـ وهو

(١) النساء: ١٥٧.

(٢) قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامَاً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ العنكبوت: ١٤.

السبعون سنة، أو الثمانون سنة ـ فحينئذٍ لا ضير ولا فرق في أن يكون هذا الاجتياز مئتي سنة أو ألف سنة؛ ذلك أنه باجتيازه الحدّ الطبيعي تصبح المسألة كميّةً فقط، ليس إلّا.

إذن فنحن لسنا منفردين في هذا المجال، ولم نكن بدعة في التاريخ أو في العقائد حينما نقول بهذا. ثم إن الذي يقول بأن الإمام موجود حالياً، لا يقول بأنه كذلك بشكل طبيعي، بل بشكلٍ معجز، بمعنى أن المعجزة تتدخّل هنا ويقوم الإعجاز الإلهي بدوره في تحقيق هذا الأمر. وإذا كانت معجزةً فإن الأمر حينئذٍ يخرج من حيّز الاستغراب ودائرة التعجّب؛ لأن الله جلّ وعلا لايعجز أن يجعل عمر إنسان معين داخلاً ضمن نطاق الإعجاز. فهذا غير ممتنع أبداً؛ ذلك أنه داخلٌ في دائرة الإمكان وليس في دائرة الممتنع.

وبمنظار آخر فإننا نقول: إن الموت ما هو إلّا قطع حبل الحياة. وإذا أراد الله جل وعلا أن يمدّ في هذا الحبل ولا يقطعه، فليس هناك من مانع أبداً، فيمنح خلايا الإنسان القدرة على عدم التلاشي، ويمنح أجهزته القدرة على الاستمرار؛ وبالنتيجة فإنه سوف لن يستهلك تلك الأنسجة والأجهزة، وإنما سوف يعيش بتجدّدها كلّ مرة. وهذا معنى أن الله تعالى يعطي الإنسان القدرة على البقاء.

نعم إن هذا هو الشيء الاستثنائي عن القاعدة، فالقاعدة هي أن يكون للإنسان أمدٌ وأجل تنتهي حياته عند بلوغه، أما إذا خرمت هذه القاعدة، ومدّ في حبل الحياة، ومدّ في عمر الإنسان وأجله، فإن هذا هو استثناء من القاعدة، وليس هو الأمر الطبيعي أو القاعدة. فالروايات الشريفة تأخذ بأعناقنا، وتحملنا على الاعتقاد بهذا الأمر، مع أنه غير ممتنعٍ واقعاً أو عقلاً.

وليعلم الآخرون بأن هذه الخطرات والإشكالات التي تخطر في أذهانهم تخطر

في أذهاننا أو على عقولنا كذلك دون اختلاف ودون توقّف، لكن مالذي يمكن أن نفعله ونحن أمام هذا الكمّ الهائل من الروايات والنصوص المثبتة لهذا الأمر، والتي تأخذ بأعناقنا إلى الاعتقاد به؟ فنحن حينما نقرأ رواية صحيحة السند عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تخبرنا بأن الإمام الثاني عشر من ولده يعيش بين ظهرانينا، فإننا نصبح ملزمين أن نأخذ بها ونتعبد، وأن نقطع بوجوده عليه السلام. والرواية التي أشرنا إليها أنه عليه السلام **«بين ظهرانيكم، يراكم وترونه، ويرعاكم وترعونه»**.

إضافة إلى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: **«لا تخلو الأرض من حجّة»**[1]، وإلى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: **«لو لم يبقَ من الدنيا إلّا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج من أهلي من يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»**[2].

و **«المهدي منّا أهلَ البيت، أشم الأنف أقنى أجلى، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، يعيش هكذا»**، وبسط يساره وإصبعين من يمينه؛ المسبّحة والابهام، وعقد ثلاثة[3].

---

(١) انظر: الأُصول الستة عشر (عدة محدثين): ١٦، ٩٠، المحاسن ١: ٣٨، ٩٢ / ٤٥، ٢٣٤ / ١٩٣، ٢٣٦ / ٢٠١، بصائر الدرجات: ٤٨٨ / ١، ٤٨٩ / ٤، ٥٠٥ـ٥٠٦ / ٤، ٩ـ ١٠، ١٥، ٥٠٧ / ١٧، ٥٠٩ / ٨، الإمامة والتبصرة: ٢٥ / باب أن الأرض لا تخلو من حجّة، الكافي ١: ١٧٨ ـ ١٨٠ / باب أن الأرض لا تخلو من حجّة.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٩٧، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩ / ٤٢٨٢، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٣: ٣٤٣ / ٢٣٣٨، المعجم الأوسط ٢: ٥٥.

وقد روي في كثير من الكتب من غير لفظ: «لطوّل الله ذلك اليوم»، انظر: سنن ابن ماجة ٢: ٩٢٩ / ٢٧٧٩، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩ـ ٣١٠، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٣: ٣٤٣، المصنف (ابن أبي شيبة) ٨: ٦٧٩، صحيح ابن حبّان ١٣: ٢٨٢ ـ ٢٨٣، المعجم الكبير ١٠: ١٣٣، المعجم الأوسط ٢: ٩٩، وغيرها.

(٣) شرح الأخبار ٣: ٥٦٥ / ١٢٥٩، دلائل الإمامة: ٤٦٤ / ٤٤٥، مسند أحمد ١: ٨٤، سنن ابن ماجة ٢: ١٣٦٧ / ٤٠٨٥، المستدرك على الصحيحين ٤: ٥٥٧، قال: هذا حديث

وإلى آخر ما هنالك من الروايات التي لا يمكن إلّا أن يذعن لها الإنسان، وإلّا أن يتعبّد بها ويخضع لها. وبناء على هذا فقضيّة العمر المديد مسألة مأخوذةٌ هنا على نحو المعجز لا على نحو الشكل الطبيعي.

الجواب عن الإشكال الثالث

وهو المتعلّق بالمبرّر لغيبته عليه السلام، وأنه عليه السلام إذا كان موجوداً فما الفائدة من وجوده، وهو لا يمكن أن يرى؟ ولقد ولد (سلام الله عليه) سنة مئةٍ وخمس وخمسين للهجرة، وتوفّي أبوه الإمام العسكري عليه السلام وله من العمر خمس سنوات، وكان خلال تلك الفترة يلتقي أصحابه ويلقي عليهم تعاليمه، ويسألونه فيأخذون منه أحكامهم على نحو التكتّم. وبعد ذلك اضطرّته أسباب كثيرة أغلبها سياسي إلى أن يغيب عن نظر أوليائه. وهناك عدّة نظريات تعلل وتفسّر تلك الغيبة، منها نظريّة تقول بأنه عليه السلام إنما غاب عن الأنظار تجنّباً للقتل. وإن كنت أرى أن بهذه النظريّة شيئاً من اللّامعقوليّة وشيئاً من الضعف، لكنها تبقى ممكنة ولا يمنع منها الواقع؛ لأننا عشنا ظروفاً صعبة وحرجةً تجعل كلّ ما هو شيعي مصدر رعب وخطر على السلطات ومركز خوف وتخوّف لها حتى قبر الإمام عليه السلام وليس الإمام نفسه. وكمثال شاهد على ذلك قبر الإمام الحسين عليه السلام الذي أوصل الرعب منه بصاحبه إلى أن يقصف ذلك القبر.

إذن فنحن لانستطيع أن نبتّ في العلّة أو الحكمة الكامنة وراء غيبته عليه السلام أو أن نحددها، أو أن نحدّد اللطف الكامن وراء ذلك. وغاية ما في الروايات أنها تنصّ

☚ صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، الجامع الصغير ٢: ٦٧٢ / ٩٢٤٣، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٨: ٦٧٨ / ١٩٠.

على أنه عليه السلام إنما غاب، وأن غيبته عن الأنظار وليست عن الوجود؛ بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**بين ظهرانيكم**». أما الدوافع الحقيقية للابتعاد والغَيبة، فربما كانت ما علّلوه، وربما كانت ما لم يعلّلوه؛ ذلك أن الله جلّ وعلا أعلم بحقائق الأُمور.

الغيبة الصغرى

على أية حال فالإمام عليه السلام غاب غيبته الأُولى المسمّاة بالغيبة الصغرى التي كان فيها الواسطة بينه وبين الناس أربعة سفراء هم:

الأول: عثمان بن سعيد الأسدي السمان، المتوفىٰ سنة (٢٨٠) هـ.

الثاني: ولده محمد بن عثمان، المتوفىٰ سنة (٣٠٤) أو سنة (٣٠٥) هـ.

الثالث: الحسين بن روح النوبختي، المتوفىٰ سنة (٣٢٦) هـ.

الرابع: على بن محمد السمري، المتوفىٰ سنة (٣٢٩) هـ.

وهم الذين كانوا يسمون بالنواب الأربعة، أو الوكلاء الأربعة، أو السفراء الأربعة للإمام الحجّة المنتظر عليه السلام، والذين كانوا يمثّلون حلقة وصل بينه وبين شيعته وأتباعه. فقد كانت تمرّر عن طريقهم الاستفتاءات والأوامر والحقوق وما إلى ذلك، وكانت التوقيعات الشريفة التي تخرج من الناحية المقدّسة إلى الشيعة تخرج على أيدي هؤلاء الأربعة، ومن ذلك مثلاً التوقيع الذي أقرّ للمرأة الخروج في جنازة زوجها، تقول الرواية: سئل عليه السلام عن المرأة يموت زوجها، هل يجوز لها أن تخرج في جنازته، أم لا؟ التوقيع: «**تخرج في جنازته**». وهل يجوز لها وهي في عدّتها أن تزور قبر زوجها، أم لا؟ التوقيع: «**تزور قبر زوجها، ولا تبيت عن بيتها**». وهل يجوز لها أن تخرج في قضاء حقّ يلزمها، أم لا تخرج من بيتها وهي في عدّتها؟ التوقيع: «**إذا كان حقاً خرجت فيه وقضته، وإن كان لها حاجة ولم يكن**

لها من ينظر فيها خرجت لها حتى تقضيها، ولا تبيت إلا في منزلها» [١].

وعلى يد آخر النواب الأربعة ـ وفي آخر لحظات سفارته ـ خرج التوقيع من الناحية المقدّسة موجّهاً إلى شيعته، يقول فيه للسمري: **أيام، فاجمع أمرك ولا توصِ إلى أحد فيقوم مقامك بعد وفاتك؛ فقد وقعت الغيبة التامّة، فلا ظهور إلّا بعد إذن الله تعالى ذكره، وذلك بعد طول الأمد، وقسوة القلوب، وامتلاء الأرض جوراً»** [٢].

وبالفعل فإنه جهز نفسه، واستعدّ للقاء خالقه بعد الأيام السبعة التي حدّدها له الإمام وتوفي ولم يعهد إلى أحد، ولم يوصِ بعده بوصيّة السفارة.

الغيبة الكبرى

وبوفاة السفير علي السمري (رضوان الله تعالى عليه) حدثت الغيبة الكبرى التي لا يعلم أمدها إلّا الله جلّ وعلا، ولا يعلم أحد متى يخرج الإمام سواه تعالى، فموعد الفرج على يديه الشريفتين هو من مختصّات علم الله جلّ وعلا، وليس يعلمه أحد. وهناك جملة كبيرة من الروايات الشريفة التي تنصّ على أنه يتحيّن وينتظر ساعة الفرج، فهو ينتظر متى يأمره الله تعالى بأن يخرج ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

وقد أحببت أن أُبيّن هذه الفكرة وأبعادها وإن كنّا على عجالة في هذه الليلة؛ لأنها ليلة مولد هذا الإمام المنقذ؛ حيث تشرّفت الدنيا إذ تشرّفت أبعادها بطلوع جبين هذا الإمام العظيم.

---

(١) الغيبة ٢: ٢٣٠، وسائل الشيعة ٢٢: ٢٤٥ / ٢٨٥٠٣.

(٢) الغيبة (الطوسي): ٣٩٥، الثاقب في المناقب (ابن حمزة): ٦٠٣.

والجواب على التساؤل الوارد أول الكلام عند الجواب عن الإشكال الثالث حول المبرّر لوجوده يكون في مقامين:

الأوّل: أنه لطف بالمكلّف

يقول العلماء: إنّ وجود الإمام عليه السلام هو لطف إلهي للمكلّفين وبهم، بمعنى أنّ كل المسلمين يعتقدون الآن بوجود الجنة والنار، والقرآن الكريم يصرّح بهذا في موارد كثيرة، منها ﴿**وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[1]، وأُعدت بمعنى هيّئت، أي أنّها موجودة فعلاً، مع أننا لا يمكن لأحد منا أن يصل إلى الجنة والنار، فهل معنى هذا أنّ وجودهما عبث؟ إذ أننا الآن في دار تكليف ولسنا في دار جزاء، وإذا أساء أحد المكلّفين أو أحسن فهو لا يُدخل النار أو الجنّة الآن، بل إنّه سيحشر يوم القيامة، ثم يجازىٰ حينها على عمله.

إذن فما فائدة الجنة والنار الآن؟ ولماذا هما موجودتان بالفعل مع أننا لا نستطيع أن نصل إليهما ولا أن نحشر فيهما الآن، واللّه تعالى منزّه عن العبث؟ يجيب علماء المسلمين على هذين التساؤلين وغيرهما بأنّ هناك لطفاً من اللّه تعالى بعباده حيث أوجدهما الآن وخلقهما مع أننا لا نتمكن من الوصول إليهما. فهو لطف من اللّه تعالى للمكلف وبه؛ إذ أن المكلّف إذا عرف أن هناك ناراً وجنة وأنهما أُعدّتا له؛ إن أحسن فللجنّة لينعّم فيها، وإن أساء فللنار ليعاقب فيها، فإن هذا سيكون له تأثير على سلوكه؛ حيث إنّه حينها سيخشىٰ النار ويحاول تجنّبها ويسعىٰ لذلك، وسيطمع في الجنة ويحاول الوصول إليها ويسعى لذلك لمرحلة ما بعد الموت. وبهذا يكون وجودهما لطفاً بالمكلفين.

---

(١) آل عمران: ١٣٣، وكذا ما ثبت من حديث المعراج، ورؤيته صلى الله عليه وآله وسلم النار وأهلها.

وفي قضية الإمام المهدي عليه السلام يكون الجواب نفسه؛ حيث إنّ وجود الإمام فيه لطف بالمكلف وإن لم يكن هذا المكلّف يراه.

الثاني: أنه عليه السلام يُرىٰ ويستفاد منه

إنّ هذا التقريب المارّ هو تقريب بناءً على القول بأنّ الإمام عليه السلام لا يمكن أن يرىٰ، وتسليماً لمن يقول بذلك، أما وجه الحقّ فمن قال: إنّه عليه السلام لا يمكن أن يرىٰ أو يُتّصل به؟ إنّ الحقّ أنّه عليه السلام يمكن رؤيته لكن لا يمكن معرفته. وهذا له نظائر عندنا أيضاً، فالمسلمون بأجمعهم يرَون أن النبي عيسى عليه السلام رفع إلى السماء حياً، وأن الخضر حيّ كذلك، وهذا بإجماع منهم، وأن الخضر يرىٰ من قبل فئة خاصة، أي أنه حي يعيش معنا لكن لا يمكن معرفته، وكذلك الإمام المهدي عليه السلام، فإنّه يمكن أن يلقي بين العلماء رأيه في مسألة ما يكون اختلافهم فيها كبيراً، ويمكن أن يرشدهم إلى الجواب الصحيح دون أن يعرفوه. وهذا ما عليه أغلب جمهور علماء الشيعة الإمامية[1].

المناسبة الثانية: أنها ليلة الرغائب

وهي الليلة التي يعبّر عنها القرآن الكريم بأنها ﴿**فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ**﴾[2]. ومعنى هذا أنها تحدّد فيها كثير من الأُمور، ومنها مسألة الآجال؛ ففي هذه الليلة تحدّد آجال جميع الناس. وإن كانت هنالك رواية تقول: إن هذا الأمر يحصل ليلة القدر[3]، أي إن ليلة الرغائب هي ليلة القدر. وهنالك بعض الروايات التي تحاول أن تجمع وتوفّق بين هاتين الطائفتين من الروايات بأن تجعل إنزال الأمر على

---

(١) للاطلاع على رؤيته عليه السلام في زمن الغيبة الكبرى انظر: بحار الأنوار ٥٢: ١٥٩ ـ ١٧٨.

(٢) الدخان: ٤.

(٣) فضائل الأشهر الثلاثة: ٦٢ / ٤٤.

نحو الإجمال في هذه الليلة، ويكون على نحو التفصيل في ليلة القدر [١].

على أيّة حال هنالك ـ كما قلنا ـ طائفة من الروايات التي تقول بأنها هذه الليلة، أي ليلة الخامس عشر من شعبان، وتنصّ الرواية على أن كلّ شخص سيكتب له في مثل هذه الليلة إلى مثلها من العام القادم؛ هل إنه سيعيش أم لا، وهل إنه سيوسّع عليه أم لا، وهل إنه سيصحّ أو يسقم، وما إلى ذلك من الأُمور. إذن ففي مثل هذه الليلة يقدّر لكلّ مخلوق أُمور عدّة:

الأول: الآجال

هل إنه سيعيش هذه السنة حتى الليلة نفسها من العام القادم أم لا، حتى إن الرواية تقول: «**إن أحدكم ليشتري ويبيع ويتجهّز ولا يدري أنه في الأموات**».

الثاني: الأرزاق

وكما ذكرنا فإنه في هذه الليلة أيضاً تقدّر الأرزاق، ففيها يقدّر ما هو مكتوب له أن يرزقه، وأن يعطاه في هذه السنة منذ هذه الليلة وحتى الليلة نفسها من العام القادم، أي ما يمكن أن يحصله وما يمكن أن يدخل إليه من أموال. فكلّ هذا سيسجّل في مثل هذه الليلة، وستحدّد نسبته وقسمه من الرزق، او سيحدّد نسبة الرزق إليه.

الثالث: أمر الحاجّ

ومما يحدّد في هذا الليلة أيضاً أمر الحاجّ، ففي مثل هذه الليلة يكتب كلّ من قُسم له أن يحجّ البيت الحرام في هذه السنة، فهل إنه مكتوب له أن يتوفّق لأداء هذه الفريضة أو غير مكتوب له ذلك.

---

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٢٣.

إذن فكلّ مايتعلّق بحياة الإنسان، وكلّ مايتعلّق بمسيرته في الوجود سوف يحدّد في مثل هذه الليلة.

نظريّة البداء

وهنا نقطة هامة أود أن أشير إليها وهي أن كلّ شيء يكتب في هذه الليلة للإنسان فإنه يكتب تحته: لله فيه البداء. ومعنى «لله فيه البداء» أن هذا سيحصل لهذا الشخص ما لم يبد لله فيه شيء آخر. ومسألة البداء من الأُمور التي لم يفهمها بعض المسلمين ولم يهضمها، فلم يتمكن من أن يتقبّلها؛ لذا فإنه راح يهرّج على مذهب بأكمله بسببها، ويتهموننا بالكفر؛ لأنهم يتهموننا بأننا نقول: إن الله تعالى لم يكن يعلم ثم علم. مع أننا لانقول بهذا أبدا؛ فهذا كفر معاذ الله منه.

وهذه كتبنا الكلاميّة ومصادرنا في العقيدة والحديث كلّها تنصّ على خلاف هذا، وكلها تنصّ على أن الله جلّ وعلا عالم حكيم. لكن ببالغ الأسف أقول: إن هؤلاء إما أن يكونوا غير عارفين بحقيقة هذه المسألة ولم يتوصلوا إلى فهمها بشكل صحيح، أو إنهم لايريدون أن يفهموها ويستوعبوها لأغراض معيّنة، وإلا فإننا ليس أحد منا من ينسب إلى الله جلّ وعلا هذا الشيء، بل إننا نبرأ ممّن يقوله في الله تعالى، وينسبه إليه تعالى، ونكفّره ولا نعترف به مسلماً. ولأهمية هذا الموضوع فإنه ليس هناك كتاب من كتب العقائد عندنا إلّا ويتناول مسألة البداء ويتطرق إليها بشكل أو بآخر؛ تارة بتفصيل، وأُخرى بإجمال.

ثم إن البداء لم نقل به عن تحكّم أو تعسّفٍ في الرأي، بل إننا نستدلّ عليه بقوله تعالى: ﴿**يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾[1]. ومعنى هذا أن هذه الأشياء

---

(١) الرعد: ٣٩.

التي تكتب لشخص في هذه الليلة فإنها إنما تكتب بحسب الظاهر الذي سيكون عليه هذا الشخص، لكن الله تعالى يظهر بعد ذلك في اللوح ما أخفاه عن العباد، لا لجهل منه تقدّس عن ذلك وتنزّه، بل لحكمة ومصلحة يرتئيها جلّ وعلا. وهذا الأمر حاله حال النسخ بلا اختلاف، فالنسخ في الأحكام الشرعية موجود عند المسلمين كافّة ومذكور في كتبهم، بل إن أهل السنة يجمعون على وجوده، ومتّفقون على تحقّقه وحصوله.

وأبرز شيء على ذلك مسألة القبلة التي كانت إلى بيت المقدس ثم بعد ذلك نسخت وجعلت إلى الحرم المكي. فهل إن الله جلّ وعلا لايعلم أنه بعد ذلك ستحصل أُمور تجعل من الضرورة الانتقال بالقبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة؟ طبعاً لا؛ فإن الله عالم وحكيم، ولا يتصرّف إلّا عن علم وحكمة، وبهذا فإننا نذعن بأن هذا إنما حصل لمصلحة؛ فلمصلحة أبقى القبلة إلى بيت المقدس ولمصلحة نسخها بعد ذلك وجعلها إلى بيت الله الحرام. ولهذا فإن البداء لايختلف عن النسخ في هذا الأمر: لأن النسخ في الأديان والشرعيّات، والبداء في التكوينيات.

فالشخص الذي يقدّر له عمر مثلاً، ثم يبدو لله في هذا العمر شيء، فإن معناه أنه تعالى إنما قدّر له مثلاً عشرين سنة فيما لو قطع رحمه، أما لو وصل رحمه فإن عمره سيصبح ستين سنة. وهذا يعني أنه قدر له عمراً ما بين العشرين والستين، وتبقى هنالك العوامل الخارجية التي تعمل على جعل هذا العمر عشرين سنة كقطع الرحم وما إلى ذلك من أُمور، أو ستين سنة كصلة الرحم والبر بالآخرين.

إذن فهذا هو معنى البداء، لا أن الله جلّ وعلا علم بعد جهل تنزّه عن ذلك وتقدّس. وموضوع البداء كما ذكرت في أكثر من محاضرة هو موضوع معقد

وعويص، ويحتاج إلى زمن أكبر من هذا؛ لنستطيع أن نقدّم صورة واضحة متميّزة عنه. وبوسع الإنسان أن يقرأ ماكتب عن البداء في كتب العقائد عند الإمامية، فمثل هذا اللون من التفكير السطحي والساذج الذي يرمينا به البعض لا يمكن أن يكون عندنا، فنحن أبعد غوراً، وأعمق فكراً من أن ننزلق في مهاوي هذا التفكير السطحي والساذج الذي يحاول البعض أن ينسبه إلينا. إننا لا يمكن بأي حال من الأحوال أن ننزلق إلى هذا اللون من التفكير السطحي كما ذكرنا، فعقيدة أن الله علم بعد جهل لا يقول بها إنسان مؤمن أبداً، ونحن بُراء ممّن يقولها ويعتقد بها. وهذا هو الذي موجود في كتب عقائدنا، وكتب علم الكلام عندنا.

في مستحبات هذه الليلة

إن على الإنسان أن يستغلّ كلّ طاقاته وجهده في إحياء هذه الليلة المباركة في العبادة والدعاء والصلاة وما إلى ذلك؛ لأنه لايعلم ما الذي خبّئ له في هذه الدنيا من موت أو ماشاكل

وبطبيعة الحال فإن الدعوات في هذه الليلة لاتقتصر على الأمور الأُخروية، بل إنها تتّسع لتشمل الأُمور الدنيوية، فمن الشيء الطبيعي أن الإنسان يحبّ الصحة والعافية والغنى وما إلى ذلك، والسلامة في الدنيا؛ لأن الإنسان لا يعلم ما الذي سيحصل له بعد حين؛ ولذا فإنه قد ورد في الدعاء الشريف: «**اللهم إني أعوذ بك من شرّ ما تعلمه ولا أعلمه، وأسألك من خير ماتعلمه ولا أعلمه**». وهناك الكثير من الأشياء التي تكون عادة خارج دائرة حواسّنا وعلمنا وقابلياتنا على التنبّؤ والتوقّع، وهذه الأشياء قطعاً نتوجّه إلى الله تعالى بالاستعاذة به منها؛ ليجنّبنا ضررها وأذاها.

ثم إن هذا الأمر ليس ببدعة في الكلام ولا في الاعتقاد، ذلك إن الله جلّ وعلا قد أمرنا بالدعاء، فقال عزّ من قائل: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1]. وإضافة إلى ذلك وحول هذه الليلة المباركة فقد وردت الرواية بأنه يصدر النداء من ملكين من قبله تعالى: «**هل من تائب فيتاب عليه؟ هل من سائل فيعطى؟ هل من مستغفر فيغفر له؟ هل من طالب حاجة فتقضى له؟ فأجيبوا داعي الله، واطلبوا الرزق فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس؛ فإنه أسرع في طلب الرزق من الضرب في الأرض، وهي الساعة التي يقسم الله فيها الرزق بين عباده**»[2].

وطبعاً هناك من يشفع بذاته وهو تعالى، وهو هنا يريد من عباده أن يحقّقوا معنى العبودية له في هذه الليلة، وهذا الأمر يريده الله تعالى من عباده في كلّ زمان وفي كلّ مكان، لكن التأكيد ينصبّ على هذه الليلة؛ لما لها من خصوصيّة، ولما فيها من بركة وخير، ولما فيها من خصائص جعلتها بهذه المنزلة. والله جلّ وعلا إنما يتفضّل على عباده بكلّ هذا من منطلق الربوبيّة؛ لأنه المالك الحقيقي للأشياء كافّة، فهو مالك الملك، وهو مقسّم الرزق وباسطه، وهو الممتنّ به على عباده. فهو تعالى واهبها وخالقها.

وفي مثل هذه الليلة يكون للدعاء قيمته، وقد ورد في الحديث الشريف «**ادفعوا أمواج البلاء بالدعاء**»[3]. فعلى الإنسان في مثل هذه الليلة أن يتوجّه إلى الله تعالى، وأن ينقطع إليه بشيء من الإخلاص والعبودية والتوجّه الكامل إليه جل وعلا، وأن يجتهد إليه بالصلاة بقلب خاشع؛ لأنه يرجو من الله جل وعلا أن يعطيه وأن يرزقه في هذه الليلة المباركة الكريمة التي خصّها الله بخصائص

---

(١) غافر: ٦٠. (٢) الخصال: ٦١٦، تحف العقول: ١٠٦.

(٣) الدعوات (الراوندي): ٢١: / ٣٢.

وميزها بميزات تفرزها عن الليالي العادية الأُخرى من ليالي الدهور.

وقد نصّ أكثر من مفسّر [١] على أن المراد بليلة الرغائب هذه الليلة المباركة؛ لأنها يقدّر فيها للإنسان كلّ مايتعلق به من أعمار وأرزاق وما إلى ذلك من متعلقات الحياة، فكلّ ماله مدخليه كبيرة في حياة الإنسان وكل شيء هام في حياة الإنسان يكتب في هذه الليلة. وكما ذكرنا سابقاً فإن ما يكتب فيها لإنسان يكتب مذيّلاً بكلمة: «لله فيه البداء»، أي أن هذا هو الظاهر لكم من الأُمور، أما ما خفي فالله أعلم به، فانقطعوا له بالدعاء حتى يكتب لكم خيرا منه، واستزيدوا من الله جل وعلا واطلبوا منه أن يمنّ عليكم وأن يتكرّم ويتفضل.

الثالثة: أنها ليلة نزول الملائكة على شهداء الطفّ

ففي مثل هذه الليلة من كل عام تتنزل أفواج من الملائكة لتترحّم على الشهداء عامّة وعلى شهداء الطفّ خاصّة، فالرحمة ينزلها الله تعالى أحياناً على أيدي ملائكته أي بشكل غير مباشر، فهو تعالى تارةً ينزلها بشكل مباشر، وأُخرى بشكل مباشر عن طريق أحد خلقه. وهنا ينزلها تعالى على يدي كرام مخلوقاته، وهم الملائكة؛ ولذا فإننا نجد في الروايات أن هناك أفواجاً من الملائكة تتنزّل في مثل هذه الليلة، وتتوجّه لزيارة الحسين عليه السلام. وموضوع زيارة الإمام الحسين عليه السلام قد حرص عليه تاريخ الإماميّة بشكل خاصّ حرصاً شديداً.

وهكذا فإننا حينما نتناول الروايات المختصّة بهذا المجال نجدها مفعمة بالحثّ على الزيارة، ونجدها على درجة كبيرة من الاستيثاق، ومن هذه الروايات ما يقوله الإمام الباقر عليه السلام لأحد أصحابه: «**الغاضرية هي البقعة التي**

---

(١) في خصوص قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾.

كلّم الله فيها موسى بن عمران عليه السلام، وناجى نوحاً عليه السلام فيها، وهي أكرم أرض اللّه عليه، ولولا ذلك ما استودع الله فيها أولياءه وأبناء نبيّه؛ فزوروا قبورنا بالغاضريّة» [١].

و**«لو أن أحدكم حجّ دهره كلّه، ولم يزر الحسين عليه السلام كان تاركاً حقاً من حقوق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»**. وهذا هو الشكل الطبيعي لحفظ حق الآخرين؛ لأن المرء إنما يحفظ في ولده، والحسين هو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [٢].

كما أن هذا المكان الذي استشهد فيه الإمام الحسين عليه السلام هو مكان قد جسد عليه السلام فيه أهداف رسالة جدّه صلى الله عليه وآله وسلم، بمعنى أنه كان الامتداد الطبيعي لجدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الأصعدة كافّة؛ سواءً كانت صعيد الرسالة، أو صعيد الخُلق، أو صعيد الدين، أو صعيد الدم، وما إلى ذلك ممّا يتعلق بهذا المجال. والحسين عليه السلام في نهضته المباركة هذه ما جاء إلّا ليجدّد ما أخلقه الأُمويّون في محاولاتهم لإرجاع الناس إلى الجاهلية الأُولى، وطمس معالم الدين؛ فالإسلام حينما جاء أصّل حرّيّة الإنسان في ممارسة حياته وعقيدته واقتصاده وما إلى ذلك من أنواع الحريات الشخصية الأُخرى، وكذلك أصّل الحفاظ علىٰ كرامته، لكن الأُمويّين حينما جاؤوا أعلنوا نظرية استعباد المسلمين واسترقاقهم والاستحواذ عليهم وكانوا يختمون على جباه العبيد [٣]؛ ليحقّقوا معنى أن الناس أقنان لهم، وهذا ما حصل في أخذ البيعة القسرية من أهل المدينة

---

(١) كامل الزيارات: ٤٥٢ / ٦٨٠.

(٢) مرّ تحقيق كون هذه البنوّة بنوّة حقيقيّة في أكثر من موضع من كتابنا هذا، منها ما في ج ١ / محاضرة (اصطفاء أهل البيت عليهم السلام)، وج ٤ / محاضرة (في ذكرى الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم).

(٣) قال ابن أبي الحديد: وكانت بنو أُميّة تختم في أعناق المسلمين كما توسم الخيل؛ علامة لاستعبادهم. شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢.

بعد واقعة الحرة حيث قال لهم مسرف: تبايعون على أنكم عبيد أقنان ليزيد بن معاوية[١]. كما إن الإسلام جاء لحفظ أعراً، الناس والتأكيد على طهارة المولد، وعفّة الإنسان؛ رجلاً كان أو امرأة، لكن الامويين خرقوا هذا التشريع وأباحوا المدينة ثلاثة أيام.

وكذلك فإن الإسلام جاء ليكرّم الإنسان وليحقن الدماء وليحفظ للإنسان حقوقه ورزقه، فوضع تشريع بيت مال المسلمين، وكذلك جاء لرفع مستوى الإنسان، ولكن الأُمويين صادروا كلّ تلك الحقوق، فقطعوا أرزاق كثير من المسلمين بحجة أنهم شيعة لعلي بن أبي طالب؟. فكل هذه القيم العالية، وكلّ هذه الأخلاقيات الرفيعة التي نادى بها الإسلام قد سحقت واستهزئ بها وسخر منها. وكان المتصدّون لكل ذلك، ولفعله وتحقيقه أُغيلمة من بني أُمية، الذين يعبّر عنهم الرسول؟ بأنهم ينزون على منبره نزو القردة، قال؟: **«رأيت بني أُميّة ينزون علىٰ منبري نزو القردة يردّون الناس عن الدين القهقرىٰ»**[٢].

ولذا فإن الحسين؟ جاء ليحقّق أهداف النهضة المحمدية، وليقف بوجه هذه الوافدات الجاهليّة التي حاول الأُمويون إدخالها ودسّها بين صفحات الإسلام

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) جامع البيان: المجلّد ٩ ج ١٥: ١٤١، الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٨٢، سير أعلام النبلاء: ٢١٠٨. فهبط عليه جبرئيل؟ يحمل سورة القدر، وأخبره أن ما رآه حقّ، وأن مدّة ملك بني أُميّة ألف شهر.

وروى الفخر الرازي وغيره عن ابن عباس قوله: إن الشجرة الملعونة في القرآن هم بنو أُميّة.
وروى السيوطي عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول الله؟ يقول لأبيك وجدك: «إنّكم الشجرة الملعونة في القرآن». انظر: التفسير الكبير ٢٠: ١٨٩، تفسير غرائب القرآن ٤: ٣٦٢، الدر المثور ٤: ٣٤٦.

وتاريخه. وعليه فإننا حينما نذهب لزيارته عليه السلام فإنما نذهب لنؤدّي بها حقّاً من حقوق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن من امتدّ برسالته يجب أن يحفظ كما يحفظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وكما قلنا: إن المرء يحفظ في ولده، وإلّا فما معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: **«حسينٌ منّي وأنا من حُسين»**[1]؟ فالكل يعرف أن التبعيض هنا غير مراد في هذا الحديث الشريف وغير مقصود؛ لأنهم يعرفون بأن الولد بعض أبيه أو جزء أبيه. إذن فلابد أن تكون كلمة «من» هنا لغير التبعيض، أي أن تكون لأمر من الأُمور التي ينبغي التوجّه إليها والتنبه إلى المراد الكامن وراءها، وإن لم تكن كذلك فهي أشبه ما تكون باللغو الذي يجب أن ينزّه عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

إذن فكلمة «من» هنا استعملت لغرض آخر، وهو بيان الجنس، بمعنى أن المراد بها السنخية، أي أن الحسين عليه السلام من سنخ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وبتعبير آخر أن **«حسين مني وأنا من حسين»** يعني أني حامل لرسالة السماء، والحسين امتداد لهذه الرسالة.

المبحث الثاني: الآثار المترتّبة على زيارة الحسين عليه السلام

وعليه فزيارته عليه السلام تحقّق عدة أُمور منها:

الأول: أن فيها صلة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

فالقرآن الكريم يرفع عقيرته آناء الليل وأطراف النهار وهو ينادي: **﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾**[2]، و**﴿الْقُرْبَى﴾** هنا المقصود بهم آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذين

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٥.

(٢) الشورى: ٢٣.

ورد بهم حديث الكساء[١]. أما مودتهم فظاهرها الفرح لفرحهم والحزن لحزنهم، ونحن حينما نتوجّه إلى قبر الحسين‌عليه السلام ونزور ذلك الضريح الشريف المبارك، فإنما نؤدّي نوعا من الآداب الاجتماعية التي اقتضتها آية (المودة في القربى)؛ لأن هذه الزيارة تمثّل مظهراً من مظاهر المودّة.

الثاني: استلهام أهداف الثورة

إننا بهذه الزيارة الشريفة إنما نستلهم أهداف الثورة، وأهداف الحركة، واستبيان أبعادها العقيدية والسياسية وما إلى ذلك مما يتعلق بها.

الثالث: تحقيق فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

فبهذه الزيارة إحقاق لهذه الفريضة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وإنكار له أيضاً؛ لأن هذه الزيارة إنما جاءت لتذكّر بهدف الثورة، وبأن هذه الأصوات في الزيارة إنما ترتفع لتذكّر الناس بهذه الدماء التي أُريقت في أرض كربلاء في موقف الحقّ ضد الباطل، فهذه الدماء قد أُريقت ظلماً وعدواناً ومن غير حقّ. وهذا ما تؤكّد عليه الزيارة الشريفة حيث تقول: **«أشهد لقد اقشعرّت لدمائكم أظلّة العرش مع أظلّة الخلائق»**[٢].

إذن ففي الواقع نحن حينما نزور الحسين‌عليه السلام فإنما نكون قد حقّقنا فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر برفع الأصوات للتذكير بهذه الفاجعة التي وقعت أو التي حصلت على أرض الطف، وبهذه الدماء التي أُريقت ظلماً وعدواناً، وبغير وجه حقّ إلّا لأنها وقفت بوجه الباطل وأهله. ومن هذا فإننا نجد أن الإمام الصادق‌عليه السلام -بل وجميع الأيمّة‌عليهم السلام- يؤكّد على أن زيارة الحسين‌عليه السلام في ضريحه

---

(١) المعجم الأوسط ٧: ٣١٩، فيض القدير شرح الجامع القدير ١: ٢١٧ / ٢٠٤.
(٢) الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٤٢، المزار: ١٤٤.

أفضل من زيارته بشخصه ـ أي الإمام الصادق عليه السلام ـ يقول أحد أصحابه: قلت له: سيدي لقد تجشّمت وعثاء السفر. فقال لي: «**لا تشكُ أمر ربّك، هل زرت من هو أعظم مني منزلة؟**».

يقول: فعظمت عليَّ المسألة، فمَن هنالك في الوجود من هو أعظم من أبي عبد الله الصادق عليه السلام؟ ومن هو هذا الذي أعظم حقاً عليَّ من زيارة هذا الإمام المعصوم المفترض الطاعة؟ فالتفت إليَّ وقال: «**هلّا زرت جدّي الحسين عليه السلام، فهو أعظم حقاً مني**».

وعظم الحقّ هذا إنما جاء من حمل هذه الرسالة، فهذا هو السرّ في قول الإمام الصادق عليه السلام لصاحبه هذا، فهو حمل رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وامتدّت على يديه، وكأنما قام بأمر لم يُتح للأيمّة عليهم السلام غيره أن يقوموا به؛ ولذا فإنه يؤكد على هذه الزيارة، ويبيّن له بأن زيارة الحسين عليه السلام أهمّ من زيارته هو بشخصه.

وكذلك هناك رواية أُخرى تقول: دخل أحد صحابة الإمام الصادق عليه السلام وهو سدير بن حكيم عليه، فقال له: «**يا سدير، أتزور الحسين عليه السلام في كل يوم؟**». فقال: لا. فقال عليه السلام: «**ما أجفاكم! أفتزوره في كلّ شهر؟**». قال: لا. فقال عليه السلام: «**أفتزوره في كلّ سنة؟**». قال: قد يكون ذلك. فقال عليه السلام: «**ما أجفاكم بالحسين عليه السلام! أما علمت أن الله تعالى بعث ألف ألف ملك غبر يبكونه ويزورونه، ولا يفترون؟ وما عليك يا سدير أن تزور الحسين عليه السلام في كلّ يوم مرّة؟**».

قال سدير: فقلت: جعلت فداك، إن بيننا وبينه فراسخ كثيرة! فقال عليه السلام: «**اصعد فوق سطحك، ثم التفت يمنة ويسرة، ثم ارفع رأسك إلى السماء، ثم تنحو نحو القبر وتقول: السلام عليك يا أبا عبد الله، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته**»[1].

---

(١) المصباح (الكفعمي): ٤٩٠ ـ ٤٩١.

شبهة حول زيارة الحسين عليه السلام

والواقع أن هؤلاء الذين يظنّون أننا حينما نتوجّه إلى زيارة الإمام الحسين عليه السلام فإننا نقصد عظاماً ونقصد تراباً، إنما هم واقعون في وهم كبير؛ لأنهم لايعرفون ولا يفقهون الفلسفة الحقيقيّة في زيارة هذا الإمام العظيم الحقّ؛ لأن من يزور الحسين عليه السلام إنما يقف على موقف، ويقف على حركة وعلى مبادئ، وليس على تراب أو على عظام. فهذا تصوّر مخطوء للمسألة. إن الزائر يقف على صرخة مدوّية قد انطلقت من هذا المكان، ولم يستطع أن يحتويها، وهو إنما يقف على مجموعة من القيم والمثل التي جسّدها الإمام أبو الشهداء عليه السلام على صعيد الطف؛ ولهذا فإننا لانزور عظاماً أو تراباً:

ويا كربلا يا هدير الجراحِ	وزهو الدم العلوي الأبيْ
ويا صرح مجد بناه الحسين	وأبدع في رصفه المعجبِ
وياعبقاً من عبير الخلود	يشدُّ الأنوف إلى الأطيبِ
سيبقىٰ الحسين شعاراً علىٰ	أصيلك والشفق المذهبِ [١]

وهكذا نجد أن من يظن أن الذاهب إلى زيارة الحسين عليه السلام أنه يتوجّه إلى زيارة قطعة من تراب أو شباك من معدن، أو قطعة من عظام بالية لهو في قمّة الخطأ وفي قمة الوهم؛ لأنه لم يكن بالذي يدرك الأهداف الحقيقيّة لهذه الثورة المباركة [٢].

وأكبر دليل على هذا الأمر ـ هو كون الزائر لايزور عظاماً بالية، ولا شباكاً من المعدن أو الخشب، ولا أرضاً أو تراباً وإنما يزور مثُلاً ومبادئ وقيماً ورسالة ـ هو

---

(١) ديوان المحاضر ٢: ٢٥.

(٢) هذه الثورة التي امتدّ صداها حتى خارج البلاد والمجتمعات الإسلامية، وقد ذكرنا سابقاً كيف أن غاندي كان يتمثّل الإمام الحسين عليه السلام في حياته وثورته.

وقوف الظالمين أجمع بوجه زيارة هذا المكان المطهّر؛ فقد وقف الظالمون والجبابرة في ذلك الزمان وإلى زماننا هذا بوجه زيارة الإمام الحسين عليه السلام وبوجه من يزوره، وفرضوا على زيارته الضرائب الكثيرة؛ ماليةً ودموية، فلو كانت زيارة عادية أو كانت زيارة عظاماً بالية لما أرعبت هذه الزيارة الجبابرة والظالمين. لقد خشي الأُمويون والعباسيّون من أمثال المتوكل وغير المتوكل وذيولهم من بعدهم من هذه الزيارة، فوقفوا بوجهها وحاولوا منعها بكل ماأُوتوا من قوة؛ وما ذلك إلّا لأنهم يرون في زيارة هذا القبر إحياءً لتلك النهضة المباركة، وإحياءً لذلك الامتداد العظيم لرسالة السماء المتجسّدة بشخص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

واستمر الرعب من هذه الزيارة الشريفة حتى عصرنا الحاضر وقد ظن هؤلاء أنهم حينما يضربون القبر فإنما يضربون مُثُل الحسين عليه السلام، ويضربون مبادئ الحسين عليه السلام، ويضربون قيم الحسين عليه السلام التي هي مُثُلُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومبادئه وقيمه. فالحسين عليه السلام أكبر من كلّ هذه الأفعال الجاهليّة؛ لأنه مضمون، والمضمون لايمكن أن يموت أبداً:

إن تهاوى الضريحُ والجدرانُ ما تهاوى الشموخ والعنفوانُ

إنما تهدم الحجارة والمضـ ـمون يبقى مع المدى ويُصانُ

إننا لا نقف على قبر فيه مجموعة من العظام، وإنما نقف على صرخة مدوّية شقّت أرجاء الكون ولم تتّسع لها الدنيا: **«والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرُّ فرار العبيد»**[1].

الرابع: الجانب العاطفي

فكلّ هذه الأُمور التي ذكرناها والتي نستمدّها ونستوحيها من زيارة الإمام

(١) الإرشاد ٢: ٩٨، تاريخ الطبري ٤: ٣٢٣، البداية والنهاية ٨: ١٩٤، وفيها أقرّ إقرار.

الحسين عليه السلام صاحب تلك النهضة المباركة لا تمنع من أن تكون هنالك جنبة عاطفية في البين؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يفرغ من عواطفه ومن مشاعره وأحاسيسه، فلا يمكن لأي إنسان مهما أُوتي ومهما كان أن يتخلّى عن مشاعره وأحاسيسه وعواطفه أو يتجرّد عنها (١).

إذن فنحن لا يمكن أن نتخلّى عن الجنبة العاطفية؛ لأنها مسألة فطريّة عند كل إنسان، وإن كان الهدف الأسمى والهدف الأوّل والرئيس، والهدف الأكبر هو تحقيق الأهداف الثلاثة المارّة التي ذكرناها قبل قليل. ولذا فإننا نتذكّر تلك الدماء التي أُريقت ظلماً، ونتذكّر ذلك الثغر الذي طالما أشبعه رسول الله صلى الله عليه وآله لثماً

---

(١) روي أن النبي صلى الله عليه وآله بكى على ولده إبراهيم عليه السلام وقال: «إن القلب ليحزن، والعين تدمع، ولا نقول ما يسخط الربّ، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون». انظر: صحيح مسلم ٤: ١٤٤٢ / ٢٣١٥، التفسير الكبير ١٨: ١٩٤، الرحلة في طلب الحديث (الخطيب البغدادي): ١٤.
وقد بكىٰ علىٰ عمّه الحمزة، وعلىٰ ابن عمّه جعفر، وقال صلى الله عليه وآله: «على مثل جعفر فلتبكِ الباكية». الطبقات الكبرىٰ ٨: ٢٢٠.
وبكى صلى الله عليه وآله علىٰ الإمام الحسين عليه السلام، فقد ورد أن الإمام الحسين عليه السلام دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله، فوضعه في حجره، فإذا عيناه الكريمتان تهريقان الدموع، فلمّا سئل صلى الله عليه وآله عن سبب بكائه، قال: «أتاني جبرائيل فأخبرني أنّ أُمّتي ستقتل ابني هذا»، فقلت: أيكون هذا؟ فقال: «نعم، وأتاني بتربة من تربته حمراء». المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٦ ـ ١٧٧.
قال صاحب (المستدرك): «وهذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين».
وعن أُمّ سلمة قالت: كان النبيّ صلى الله عليه وآله جالساً ذات يوم في بيتي، فقال: «لا يدخلنّ عليّ أحد». فانتظرت، فدخل الحسين عليه السلام، فسمعت نشيج النبيّ صلى الله عليه وآله يبكي، فاطّلعت فإذا الحسين في حجره يمسح رأسه وهو يبكي، فقلت: والله ما علمت به حتىٰ دخل، فقال النبي صلى الله عليه وآله: «إنّ جبرئيل كان معنا في البيت، فقال: أتحبّه؟ فقلت: أما من حُبّ الدنيا فنعم. فقال: إنّ أُمّتك ستقتل هذا بأرض يقال لها كربلاء». فتناول جبرئيل من ترابها فأراه النبيّ صلى الله عليه وآله. كنز العمّال ١٣: ٦٥٦ / ٣٧٦٦٦. وقال: «أخرجه الطبراني». المعجم الكبير ٣: ١٠٨ ـ ١٠٩ / ٢٨١٩، ٢٣: ٢٨٩ / ٦٣٧.

وتقبيلاً، والذي راحت عصا يزيد تعبث به، ولنكرم ذلك الفم الذي طالما ظلّ مشغولاً بذكر الله دون أن يفتر عنه لحظة واحدة، ولنكرم ذلك الجبين المشرق الطاهر الذي وقع عليه حجر أبي الحتوف الجعفي. إننا نقف على ذلك كلّه؛ ولذلك فإننا حينما نحتضن قبره فإنما نحتضن تلك السمات الكريمة والمواقف الجليلة.

ومن هنا فان الزوار يقفون على ذلك القبر ينتزعون منه كلّ تلك المبادئ والقيم، وأوّل من وقف على ذلك الضريح المقدّس لينتزع منه كلّ ذلك عبيد الله بن الحر، ثم وقف من بعده سليمان بن قبّة، ثم بعد ذلك جابر بن عبد الله الأنصاري الذي قال لغلامه: ياغلام، ألمِسني القبر. فلما أخذ بيده إلى القبر ووضعها عليه، وأحسّ ببرد ترابه صاح: ياحسين، ياحسين، ياحسين. ثم قال: حبيب لا يجيب حبيبه، وأنى لك بالجواب وقد شخبت أوداجك على أثباجك، وفرق بين رأسك وبدنك؟ ».

وهنا أطلت أُخت الحسين عليه السلام ومن ورائها السبايا يقصدن زيارة القبر الطاهر، وكانت زيارة من نوع آخر، كانت زيارة فيها روح عمليّة، فقصدن القبر ووقعن عليه، وهن يحتضنّه، ثم جلن حوله:

يا من على رغمي نزلت بقربكم ... ردوا سؤال موله في حيكم

أين البدور الطالعات بأُفقكم ... (يانازلين بكربلا هل عندكم

خبر بقتلانا وما أعلامها)

على گبر السبط ذبت نفسها ... تون بهدايماينسمع حسها

ولم يتأخّر الإمام السجّاد عليه السلام في ذلك المقام بل إنه سمح لهن بالبقاء ثلاثة أيام، ثم أمر بالرحيل، فقال له أحد من معه: يابن رسول الله، دع النساء تتزوّد من أبي عبد الله الحسين عليه السلام. فقال له: **«أما إنكم لا ترون كما أرى»**. قالوا: وما ترى يا بن

رسول الله؟ قال عليه السلام: **«إني أخشى على عمتي زينب أن تموت، فإنها تقوم من قبر وتجلس عند قبر»**.

ثم أقبل إليها وقال لها: **«عمتي قومي»**. قالت: عمة إلى أين؟ قال عليه السلام: **«عمّة إلى أرض المدينة»**. قالت: وماذا بقي لي في المدينة؟ وكأني بها:

شفت ونتي وهضمة اعـيالي بـيت وبگـى مـن الزلـم خـالي

تلك الديار العامرات بأهلها



﴿١٨٩﴾

النبي يحيى بن زكريا عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: بيان نزول الآية الكريمة

هذه الآية الكريمة تتضمن مضامين عدة سوف نتناولها في مباحث مستقلة إن شاء الله. وهي تتعلّق بحادثةٍ تدور حول الحياة الشخصية للنبي زكريا عليه السلام، فقد كانت زوجته عاقراً لا تلد، وكان عليه السلام يشرف على رعاية السيدة مريم العذراء عليها السلام. وحينما كان يشرف أو يقوم بدور الرعاية هذا كان ينظر إلى بعض المعاجز التي تظهر على يديها عليها السلام أو تأييداً لها، ومن ذلك أنه كان يرى أن الله تعالى يُنزل عليها مائدةً من السماء فيها فواكه الصيف في الشتاء وفواكه الشتاء في الصيف، وكان أن سألها: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

---

(١) آل عمران: ٣٩.

(٢) آل عمران: ٣٧.

فهذا المعنى وهو حصول مريم على فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء جعل زكريا يأمل أن تلد زوجته؛ ذلك أنه نظر إلى أن الوقت عبارةٌ عن رحمٍ من أرحام المنتجات النباتية مثل التراب فكما أن التراب يُعد رحماً لإنتاج الكثير من الكائنات النباتية وغيرها فكذلك الزمان هو رحمٌ أيضاً، فالزمان منه رحمٌ ولودٌ ومنه رحمٌ عقيم، ففصل الشتاء يعتبر رحمٌ ولودٌ للنباتات الشتائية ورحمٌ عقيمٌ للنباتات الصيفية وكذلك الحال مع فصل الصيف.

وإذا حصلت المعجزة وكان أن أنتج رحمُ الشتاء نباتاتٍ وفواكه صيفية فإن بالإمكان أن تلدَ زوجته، وهنا رفع رأسه إلى السماء وقال: **﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾**(١)، فجاءت هذه الآيةُ الكريمةُ تردُ على طلبه وتستجيب له دعاءه.

المبحث الثاني: لماذا إقام الصلاة؟

تقول الآية الكريمة: **﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي﴾**، ومن هذه الآية الكريمة نستشف أن الصلاة غير مقصورةً على الدين الإسلامي أو على المسلمين، ونعني بها الصلاة بالمعنى الشرعي لا الصلاة بالمعنى اللغوي التي هي الدعاء، ففي اللغة حينما نقول: فلان يصلي، فهذا يعني أنه يدعو الله جلَّ وعلا لكن بالمعنى الشرعي فإن الصلاة هي عبارة عن وحدة متكاملة من الأفعال والأقوال والأجزاء والشرائط والمقدمات، والتي تمتاز بأن لها طقوساً معينة وحركات مختصّة بها.

إذن فالذي يبدو أن الصلاة كانت موجودة في الشرائع (٢) ذلك أن الأديان

---

(١) آل عمران: ٣٨.

(٢) ويدل على هذا قول نبي الله موسى، ذلك أنه لمّا عرج برسول الله إلى السماء

السابقة تلتقي مع الدين الإسلامي في الأسس والضوابط الرئيسة، ففي كل دين هنالك ضوابط أساسية وهنالك قواعد رئيسة محفوظة تعتبر صبغةً ثابتةً لكل دين ومن هذه القواعد الأساسية والرئيسة الصلاة التي فُرضت على كل الأُمم. فالقرآن الكريم إذن هنا يقرر أن الصلاة كانت فريضةً عند الأديان السابقة. ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: **﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾**[1]،ولهذا فإننا نجد أن القرآن الكريم يُعنى بالصلاة أشد عناية: **﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾**، و **﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾**[2].

ونحن هنا إذ نجد تأكيداً كبيراً على الصلاة فلما لها من أهمية قصوى في تربية الفرد وتربية المجتمع وحياة الفرد كذلك. وعند تتبع السنة النبوية فإننا نجد ذلك التأكيدَ عينهُ الموجود في القرآن الكريم فهي ـ السنة النبوية ـ لم تكن تتوانى عن التأكيد على الصلاة والاهتمام بها وبأجزائها وشرائطها ومقدماتها، ومن ذلك ما ورد في الحديث الشريف: **«الصلاة معراج المؤمن»**[3] والمعراج يعني أن روح

☚ وأمره ربّه عز وجل بخمسين صلاة لم يسأله التخفيف عن أُمّته فلما رجع ومرّ بالنبي موسى بن عمران عليه السلام طلب منه أن يرجع إلى ربه ليسأله التخفيف، وكرّر عدّة مرّات، حتى كانت المرّة الأخيرة، فقال له: «كم فرض عليك؟». فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «خمس صلوات». فقال: «فرض على بني إسرائيل صلاتان فما قاموا بهما... ارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف؛ فإن أُمّتك لا تطيق ذلك». فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنها من الله». ولم يرجع. انظر: التوحيد: ١٧٦ ـ ١٧٨ / ٨، الدر المنثور ٤: ١٣٨.

(١) النساء: ١٠٣. (٢) البقرة: ٣.

(٣) لم نعثر عليه في كتب الحديث الشيعيّة والسنيّة، ولا في كتب الفقه الشيعيّة والسنيّة المتقدّمة، أمّا المتأخّرون فلم يذكره منهم إلّا متأخّرو الشيعة، حيث ذكره الشيخ البهائي والمجلسي (رحمهما الله) ومن جاء بعدهما. والظاهر أنه من كلمات علمائنا المتأخّرين. انظر: الاثنا عشريّة: ٣٩، بحار الأنوار ٧٩: ٣٠٣، ٨١: ٢٥٥، وغيرهما من كتب المتأخّرين.

المؤمن تلتقي بخالقها، وهو لقاءٌ غير مادي بل إنه لقاء روحي. وإذا كانت الصلاة بهذه المنزلة وإنها معراج المؤمن إذن فلا بد أن تكون فيها الكثير من المزايا والصفات التي تجعلها بتلك المنزلة، حيث إن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهّرة يحثّان ويؤكّدان عليها، وبحيث إننا نجدها في كل الشرايع والأديان السماوية السابقة.

إن الصلاة هي في حقيقتها محرابٌ؛ لأنها موضع لمحاربة النفس والشيطان مع أن المشرع الإسلامي يعتبر العالم كله محراباً وليس المسجد فقط، فكل نقطة من نقاط الدنيا إذا راعى الإنسان فيها وجه الله تعالى كانت محراباً بالنسبة إليه على ضوء تلك المراعاة ويعتبر في موضع عبادةٍ لله جلَّ وعلا؛ سواءً كان طالباً أو عاملاً أو ما إلى ذلك من ممارسة فعاليات الحياة التي تقتضيها تلك الحياة ويقتضيها استمرارها وهذه الدنيا كما أنها يمكن أن تكون بؤرةً للشيطان فإنها يمكن أن تكون محراباً لمحاربة ومقارعة الشيطان، فالكادُّ على عيالهِ إذا خرج إلى السوق ليعمل من أجل كسب لقمة عيشه وعيش أسرته فهو إنما يأكل من حلال، ويشبع أُسرته من حلال، ثم إذا عمد إلى تلك الأموال التي اكتسبها من عمله وأنفقها في طريق مشروع فهو في عبادة حتماً بل في أفضل العبادات. وكذلك الحال مع العامل إذا عمل في مصنعه وهو يراعي وجه الله فلا يسرق من العمل ولا من صاحب العمل فهو هنا يكون في حالة من العبادة.

إذن فالكون كله محرابٌ للعبادة إذا التقى الإنسان مع الله جل وعلا وإذا راعى الخطوط العريضة للأديان السماوية وللتعاليم الإلهية، ومع كل هذا فإننا نجد أن هناك تأكيداً على محراب الصلاة بالذات وذلك يعود إلى أسباب عدة منها إيجاد حالة من التربية العالية للنفس، والتربية تكون على نحوين: تربيةٌ مقصودة وأُخرى

غير مقصودة. فالمقصودة هي أن ينصح شخصٌ شخصاً ويقول له: إن هذا الفعل حرام فيجب عليك أن تجتنبه، وإن هذا الفعل واجب فيجب عليك أن تفعله؛ لأن في الأول آثاراً سلبيةً سيئة، وفي الثاني آثاراً إيجابيةً طيبة. فالخمرة حرام لأنها تأخذ أغلى ما عند الإنسان وهو عقله؛ ولذا فإنها قد حُرّمت في الشرائع السماوية.

إذن فالتربية المقصودة هي أن ينصح إنسانٌ إنساناً ويعطيه سلسلةً طويلةً عريضةً من المفاهيم والقيم، وينبهه إلى ضرورة التزامها والعمل بها، ويؤكد له على ذلك، أما التربية غير المقصودة فهي التي لا تكون عبر إلقاء العظات والمحاضرات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإنما تكونُ تربيةً ميدانيةً ذات ممارسة فعلية كأن يأخذ الإنسان شارب الخمرة وهو صاحٍ منها إلى الخمارة بدلاً من أن يفيض عليه بالنصح والوعظ والزجر عن شربها؛ ليريه هنالك ما الذي يمكن أن تفعله هذه الخمرة بأصحابها أو بشاربيها.

وهو هنا حينما يجد من يشربون الخمرة على تلك الحال المزرية فإنه سوف يتّعظ ويعتبر ويستشعر ذلك حياءً من نفسه وربما على ضوء ذلك يمتنع من شربها لأنه من المحتمل أن يتفاعل مع هذا الجو برؤية تأثير الخمرة على من يتعاطونها ومن يشربونها إذ أنه سوف يرى أنها قد حولتهم إلى حيوانات لا تعي ما حولها، يقول أحد الأدباء:

محمّد حرّم شرب الطّلا	صلّوا عليه وعلى آلهِ
اذهب إلى الحانةِ تؤمن به	إن كنت لم تؤمن بأقوالهِ
فكم ترى بالحانِ من شارب	يحرّم الخمر بأفعالهِ

فبالخمر يفقد الإنسان المتّزن اتّزانه وعقله وكرامته، ويتحول إلى كيان مخزٍ، وباطلاع هذا الإنسان على ما تفعله الخمر بشاربيها فإنه من الممكن أن يتّعظ

ويمتنع. فالتربية أحياناً يمكن أن تكون عن طريق اللوازم، وليست بالمباشرة والتوجيه.

الصلاة والتربية

ومن هنا فإننا نلاحظ كيف أن الصلاة تربي الإنسان تربيةً غير مقصودة على الفضائل، وتمنعه عن الولوغ في الرذائل. ثم إن في الصلاة نوعين من أنواع التربية:

النوع الأول: التربية اللفظية

فعندما يقرأ الإنسان القرآن في الصلاة فإنه سوف يستشعر وجود الله تعالى معه ويشعر بأنه في المحراب، وهو بهذا سوف يخاف منه ويمتنع عن فعل المعصية.

النوع الثاني: التربية الفعلية

وهي تربيةٌ تتأتى من حيث إن الصلاة لا تجوز إلّا إذا كانت في مكان مباحٍ غير مغصوب، وفي لباسٍ مباحٍ غير مغصوب وكانت مقدماتها أيضاً مباحةً غير مغصوبة، فحينما يتفهم المصلي بأن صلاته في المكان المغصوب غير مقبولة فإنه سوف يستشعر هذا الخطأ، وبالتالي فإنه يتراجع عن غصبية المكان، وكذلك الحال مع اللباس والماء الذي يتوضّأ به وما إلى ذلك. وهذا هدف هامّ جداً من الأهداف التي ترمي الصلاة إلى خلقها في نفس الإنسان بصورةٍ غير مباشرة، وهي بهذا تعطي للمصلي درساً غير مباشرٍ في ألّا يلبس الثوب المغصوب وألّا يستعمل الشيء المغصوب وألّا يسكن البيت المغصوب وما إلى ذلك. بمعنى أنها تربيه على احترام حقوق الآخرين وعدم الإساءة إليهم بأخذ ما يملكون دون رضاهم، وهذا يعني أن الصلاة تضع للإنسان طرقاً غير مباشرةٍ للابتعاد عن الأشياء المحرمة وللابتعاد عن التسبب في إحداث

الأذى للناس وسلب أموالهم وغصبها.

إذن فهذا لون من ألوان التربية وهناك لون آخر من ألوان التربية، وهو ما نشاهده عند البعض من الناس الذين ما إن يستشعروا أنفسهم أنهم قد حصلوا على شيء من العلم أو المعرفة أو حاز مقداراً من المال أو جلس في منصبٍ يمكنه من أن يأمر وينهى كما يشاء، فإنه ينظر إلى الآخرين نظرة تكبر وتعالٍ، فلا نجده يجلس مع غيره من الناس ولا يؤاكلهم ولا يحترم وجودهم. وهذا المعنى كان موجوداً عند القرشيين من مشركي مكة فهؤلاء كانوا يأتون إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويقولون له: نحن نرغب في سماعك، لكن يمنعنا نتن أجسام هؤلاء الذي معك، فاجعل لنا يوماً ولهم يوماً.

فهذا اللون هو صورةٌ من صور التكبر والخيلاء والتعالي على الناس، وهو موجود عند الكثير من بني آدم، لكن الصلاة جاءت لتقضي على هذا الشعور عند هؤلاء، فتجعل الرئيس مع المرؤوس في صفٍّ واحدٍ في الصلاة، وتجعل الغني مع الفقير، والشريف مع الوضيع، والمولى مع العبد، وما إلى ذلك من اختلاف الطبقات. فهؤلاء كلهم يقفون صفاً واحداً بل ربما تقدم العبدُ سيده، وربما تقدم الفقيرُ الغني في صفوف الصلاة. وهذا لونٌ من ألوان التربية العالية التي تهدف الصلاة إلى أن تخلق منها مجتمعاً قائماً على أساس الخُلق القويم والتعاليم السماوية. فهي بهذا تُشعر الجميع بأنهم سواءٌ وطينةٌ واحدةٌ في أصل المنشأ والخلقة، وما هذا التفاوت الدنيوي الذي بينهم إلا تفاوت لا قيمة له ولا اعتبار في الشرع الإسلامي؛ لأنه لا يقدح في أصل الإنسانية ولا يقدح في عدالة الإنسان وإيمانه وتقواه إن كان عادلاً مؤمناً تقيّاً.

إذن فالصلاة تهدف من ضمن ما تهدف إلى تحقيق عامل المساواة بين الناس؛

ولهذا فإننا نجد الضرورة الملحة لصلاة الجماعة؛ لأنها تربّي المسلم، وتؤكد كثيراً على تأصيل هذا الجانب وهذا المفهوم الإنساني في أذهان الكثير من المسلمين الذين لا زالوا يعيشون العقائد والموروثات الاجتماعية الجاهلية. إذن ففي الصلاة دروسٌ كثيرة لا توجهها بصورة مباشرةٍ إلى الناس في محاولة تربيتهم وإنما هي توجهها إليهم بصورة غير مباشرة.

ومن هذا نخرج بنتيجة هي أن الصلاة فيها الكثير من الدروس الحياتية الهامة والضرورية في حياة الفرد المسلم، كالنظافة والرياضة الروحية والأخلاق وما إلى ذلك من جوانب ضرورية تفتقر إليها شخصية الإنسان المسلم فلا يكون مسلماً حقيقياً إلا إذا توفرت في شخصيته تلك الصفات وتلك الأخلاقيات. وهذا هو الذي يفسر أنه ما من شريعةٍ من الشرائع السماوية إلّا وللصلاة فيها مكانة عظمى، بل إلّا والصلاة فيها هي أُولى العبادات وأهم العبادات وهذا ما نجده في آية المقام حيث تقول: **﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي﴾**.

إذن فالصلاة التي يصليها الإنسان لها أجزاء وممارسات وشروط ومقدمات معيّنة لابد من مراعاتها وهي بهذا الهيكليّة تشكّل الصورة الصحيحة للصلاة التي أُمرنا بها.

المبحث الثالث: في معنى المحراب

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: **﴿فِي الْمِحْرَابِ﴾** إن معظم المفسرين يرون أن مكان الصلاة إنما سُميَ محراباً؛ لأن فيه نوعاً من المحاربة بين الإنسان والشيطان.. بين الإنسان وغرائزه وشهواته ورغباته؛ لأن الإنسان حينما يأتي ليصلي ركعةً لله عزَّ وجلّ فإنه إنما يتوجه إليه جلَّ وعلا بعيداً عن كل خصائص

الدنيا وعن كل مشاكلها، لكن الذي يحصل عند الكثير هو أنه لا يستذكر مشاكل الدنيا ومصائبها إلا إذا قام إلى صلاته، فما إن يقُم إلى صلاته حتى تشخص جميع هذه المشاكل أمامه فيشرد ذهنه ويتشتت يميناً وشمالاً وحينئذٍ لا يبقى من الصلاة إلا صورتها وهيكلها دون مضمونها ومحتواها.

وهذه مشكلةٌ حقيقية؛ لأن هذا الإنسان ليس له إقبالٌ حقيقيٌ على الصلاة بل إن إقباله كان على الدنيا ومشاكلها ومصاعبها ومصائبها، وما يواجه فيها، وهو بهذا يقتل الصلاة ولا يعطيها لوناً من الحيوية، فتصبح بذلك صلاةً بغير روح. وهي مصيبة عظمى؛ لأنه «**ليس للعبد من صلاته إلّا ما عقل منها**»[1]، فالمفروض أن الإنسان يقف بين يدي الله جلَّ وعلا فلا بد إذن من أن تخرج الكلمةُ في الصلاة مكهربةً بالروح؛ لأنها تخاطب الله جلَّ وعلا.

ولو رجعنا إلى سيرةِ أيمتنا عليهم السلام لوجدنا أنهم كانوا يقفون بلا حراك، بل لا يتحرّك منهم شيء إلا ما تحرّكه الريح؛ لأنهم يكونون في كامل الخضوع ومنتهى الخنوع إلى الله جلَّ وعلا. وليس معنى هذا أنهم فوق مستوى البشر، لكنهم مهذّبون بتهذيب الله ومؤدّبون بتأديبه بما عهد إليهم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من علم وأدبٍ وكمال. ولذا فإنهم أصبحوا في القمة من هرم البشرية، يسأل أحدهم الإمام السجّاد عليه السلام: ما بالك يابن رسول اللّه؟ فيجيبه: «**ويلك، أتدري بين يدي من أقف أنا**»[2]؛ لأن من يقف بين يدي الله فلابدّ له ولا ينبغي عليه إلّا أن يكون بهذا المستوى.

---

(١) إعانة الطالبين ١: ٢١٢، التفسير الكبير ٢٣: ٧٧، ٧٩، فتح القدير ٣: ٤٧٣.

(٢) عوالي اللآلي ١: ٣٢٤ / ٦٣، الطبقات الكبرىٰ ٥: ٢١٦، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٧٨، تهذيب الكمال ٢٠: ٣٩٠، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٩٢، البداية والنهاية ٩: ١٢٣.

إذن فالمحراب حربٌ بين المصلّي والشيطان.. بين المصلّي وغرائزه ورغباته ودنياه؛ ولذلك فإن من المستحسن أن يستعيذ المصلي بالله من الشيطان الرجيم قبل قراءته في الصلاة، ثم يبدأ بالبسملة التي ينصّ الفقهاء على أنها جزء من السورة لا تتمّ الصلاة إلّا بها.

المبحث الرابع: في بشارة الملائكة لزكريا عليه السلام

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ﴾، إن البشارة لا تكون إلّا بشيء محبوب إلى الإنسان، وهذا هو الشكل الطبيعي والمألوف. ووجه البشارة هنا هو أن النبي زكريا عليه السلام ما لم يرزقه الله بهذا الولد فإنه سوف يخرج من الدنيا من غير ذرية، والإنسان حينما يشعر بأنه سوف يخرج من الدنيا ولم يُخلِّف أحداً وراءه يحيي ذكره أو يستغفر له فإنه سوف يشعر بالحسرة والندم. ولذا فإن زكريا عليه السلام عبّر عنه بأنه ﴿يَرِثُنِي﴾[1]، فالنبي زكريا عليه السلام كان يريد أن يرزقه الله بولدٍ ليرثه من بعده... يرث علمه ويرث النبوّة، ويرث كل ما يُخلِّف وراءه خشية أن يأخذه بنو إسرائيل. ولهذا فإنه شعر بالألم حينما وجد نفسه قد شاخ وكبر ولما يرزق بولد بعدُ.

إذن فالنبي زكريا عليه السلام كان يعرف بأن الولد نعمة، وكونه نعمة فإنه يعني أن على الإنسان أن يفرح به، وهذا هو وجه البشارة فيما إذا حملت زوجته ورزق منها بولد.

وهناك نماذج من البشرية لا يصحّ أن يقال: إن الأب قد بُشر بهذا المولود، لو كان يعلم ما سوف يقوم به، ومن أُولئك الحجاج الذي يعدّ قاذورةً من قاذورات

---

(١) مريم: ٦.

التاريخ، فهذا لم يكن ولداً وإنما كان كارثةً على أهل الأرض في زمانه، ولهذا فإن على الإنسان أن يترك تقدير هذه الأُمور إلى السماء: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[1]. فالله جلَّ وعلا له تخطيطه المبتني على الحكمة وعلى العدل. وهذه الآية الكريمة تتناغم مع الطبيعة البشرية، وتكشف عن مشاعر الإنسان حينما يُبَشَّرُ بالولد، وأنه يريد أن يرزقه الله بذرية ترثه وتخلفه من بعده.

المبحث الخامس: في معنى ﴿بِيَحْيَى﴾

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿بِيَحْيَى﴾، وإنما سُمي يحيى؛ لأن الله تعالى أحيا به عقم أُمّه التي قضت جُلَّ عمرها عاقراً لا تحمل، فحينما حملت بيحيى وهي كبيرةٌ وعقيمٌ فكأن الله جلَّ وعلا يريد أن يقول لها بأنه قد أحياها بعد عقم، وأنه جلَّ وعلا لا يمكن أن يقف شيءٌ بوجه إرادته: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2].

إذن فالله تعالى أحيا به عقم أُمّه زوجة النبي زكرياعليه السلام بعد عقمٍ طويلٍ وبعد كبر سن[3].

والعقم مسألة خاضعةٌ للأمر وعدم الأمر، فهناك آباء وأُمّهات غير عقيمين وعندهما كلّ الشروط اللازمة لحصول الحمل أو الجنين، لكنهما مع ذلك لا ينجبان الأطفال؛ ذلك أن المسألة كلّها بيد الله جلَّ وعلا؛ فهو يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء.

---

(١) الشورى: ٤٩ ـ ٥٠. (٢) يس: ٨٢.

(٣) قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ هود: ٧٢.

المبحث السادس: في معنى الكلمة

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ﴾، والمراد بـالكلمة هـنا كـما يذهب إليه المفسرون أحد أمرين:

الأول: أنها كتاب الله

ذلك أن الكتاب فيه الكلمة المنزّلة من الله تعالى، فالقرآن كلام الله؛ لأن فـيه كلماتٍ، والكلمات ذات معانٍ، وكلّها منزلة من الله جلّ وعلا. وهذا الكتاب المنزل من الله جلَّ وعلا مبرّرٌ لنبوة يحيى عليه السلام؛ ذلك أن الأنبياء عليهم السلام عندما يُبعثون فـإنهم ملزمون أمام الناس بأن يأتوهم بشيء معجز يثبت نبوّتهم ويبرهن على صدقهم، وعلى أنهم مبعوثون فعلاً من السماء. وهذا كما هو معروف ما يسمى بالمعجزة. والمعجزة تكون على نحوين: فهي تارة تكون معجزةً فعلية، وأُخرى تكون معجزةً قولية. فيحيى عليه السلام حمل كلمة الله جل وعلا؛ وبشر بكلمة السماء للأرض. وبتعبير آخر فإنه قال لأهل الأرض: إن الله قد أنزل لكم نظاماً فيه صلاحكم.

إذن فالمراد من الكلمة هنا: هي الكتاب المنزل من الله جلَّ وعلا، وهو الحاوي للشريعة المقدسة.

الثاني: أنها عيسى عليه السلام

وهذا الرأي هو الذي عليه الأغلب من المـفسّرين، فـهؤلاء يـذهبون إلى أن الكلمة التي صدَّق بها يحيى عليه السلام هو نبي الله وروحـه عـيسى بـن مـريم عليه السلام؛ لأن عيسى عليه السلام يُسمى كلمة الله.

السبب في كون عيسى عليه السلام كلمة الله

وهنالك رأيان في تفسير كون النبي عيسى عليه السلام يطلق عليه كلمة الله:

الأول: أنه خُلق من غير أب بكلمة

وهذه الكلمة هي قوله تعالى: ﴿كُنْ﴾[١] فكـان. فـالله جـل وعـلا لم يـخلق عيسى عليه السلام بالصورة الطبيعية أو بالشكل الطبيعي لخلق الإنسان، وإنما خلقه بقوله: ﴿كُنْ﴾. ومن هنا فإنه خُلق بكلمة؛ فسمي كلمة الله.

نقد هذا الرأي

وهذا الرأي لا يصمد أمام النقد؛ لأنه وإن كان لم يخُلق لأسباب طـبيعية قـد عوَّدَنا الله تعالى عليها إلّا إننا نجد أن هناك البعض من الكائنات مما لم يخلق من أبوين، بل إن آدم عليه السلام لم يُخلق من ذكر ولا أُنثى، بل بكلمة من الله جلَّ وعلا، ومع ذلك فهو لم يسمّ كلمة الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٢].

إن الله جلَّ وعلا قد أجرى العادة على السبب الطبيعي، لكن إذا تجاوزنا العادة فإن الله جلَّ وعلا لا يمكن أن تتقيّد إرادته بعادةٍ معيّنة، أو أن تخضع لها، ذلك أن قدرته مطلقة.

إذن فالتعبير بأنه إنما سُمي كلمة الله؛ لأنه خُلق بكلمة منه هو تعبير غير صحيح، بل فيه لون من الهروب من الحقيقة أو الواقع.

الرأي الثاني: أنه عليه السلام كلمة مجسّدة

ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن الله تعالى له نوعان من الكلمة، هما: الكلمة الملفوظة، والكلمة المجسّدة. فالكلمة الملفوظة هي الكلمة المكتوبة أو التي سوف تُقرأ، وهذا ما يُعبر عنه بالكتاب التدويني، أما الكلمة المـجسّدة فـهي الكـتاب التكويني.

---

(١) البقرة: ١١٧.　　(٢) آل عمران: ٥٩.

فالكتاب التدويني هو الكتب السماوية المنزلة من الله جلَّ وعلا على أنبيائه، ومنها القرآن الكريم، وهو أفضلها وأشرفها.

والكتاب التكويني هو العترة المطهّرة، يقول رسول الله ﷺ: **«إني مخلّف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض»**.

والمجانسة بين العترة والكتاب الذي هو القرآن أن كليهما كتاب من الله جلَّ وعلا، وكليهما يحمل شرع الله جلَّ وعلا، غاية ما في الأمر أن القرآن كتاب تدويني وأن العترة كتاب تكويني:

ساووا كتاب الله إلّا إنه ... هو صامت وهُمُ الكتاب الناطقُ[1]

ومع أن الكثير من مصادر التاريخ والحديث عند المسلمين من أبناء المذاهب الأربعة كـ(صحيح مسلم)[2] و(سنن الترمذي)[3] و(الصواعق المحرقة) وغيرها[4] يزوون هذا الحديث بأنه **«كتاب الله وعترتي أهل بيتي»** نجد أن البعض منهم يرويه بصيغة «كتاب الله وسنتي»[5]. وهذا التهمة الحاقد لا يضرّ آل

---

(١) البيت لمحمد رفيع الدين الجيلاني. أعيان الشيعة ٩: ٤٤١.

(٢) صحيح مسلم ٧: ١٢٣، وفيه: «ألا واني تارک فيكم ثقلين: أحدهما كتاب الله عزّ وجلّ؛ هو حبل الله من اتّبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة، وأهل بيتي، أُذكركم الله في أهل بيتي، أُذكركم الله في أهل بيتي، أُذكركم الله في أهل بيتي». فقيل لزيد راوي الحديث: من أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: لا وأيم الله؛ إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر، ثم يطلّقها فترجع إلى أبيها وقومها، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده.

(٣) الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢٩ / ٣٨٧٦.

(٤) انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٤١٨وغيرها.

(٥) كنز العمّال ١: ١٨٧ / ٩٤٨.

محمدصلى الله عليه وآله وسلم بشيء، بل إنه يضر صاحبه، فآل محمدصلى الله عليه وآله وسلم عطاء للمسلمين كافّة، وليس لفرقة معيّنة.

وكل إنسان يعتزّ بالشخصية المسلمة التي تحمل الإسلام حيّاً وتعمل به وتنشره سواءً كان من فرقةٍ من الفرق الأُخرى أو من الشيعة، فهو موضع اعتزازنا؛ لأنه ما دام الكل في خطّ «**لا إله إلّا الله**»، فإن الواجب هو الاعتزاز بهؤلاء. لكننا مع الأسف نجد هذا اللون من الإصرار على التغاضي عن بعض الحقائق التي تختصّ بأهل بيت رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم، وهذا طبعاً ينافي طبيعة الإسلام.

وعليه فالمقصود هنا بكلمة الله هو النبي روح الله عيسىعليه السلام وهو كتاب تكويني كما هو حال العترة المطهّرة، كما كان (الإنجيل) كتاباً تدوينيّاً؛ لأن فيه شرائع الله جلَّ وعلا التي تحتاجها الأمم في ذلك الزمان.

المبحث السابع: في صفات النبي يحيىعليه السلام

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿**وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ**﴾، ونرى في هذا المقطع الشريف من الآية الكريمة مجموعةً من الصفات الحميدة التي منحتها السماء لهذا الوليد:

الصفة الأولى: السيد

والسيد هو الرئيس المتبوع، فحينما يقال: فلان سيد قومه، بمعنى أنه رئيسهم المتبوع المطاع. والإنسان إنما يُتبع إما لسلطة دنيويةٍ كأن يكون زعيم قبيلة أو رئيس دولة أو ذا منصب اجتماعي، وإما أن يكون ذا سلطة دينية وهم الأنبياء والأوصياء والعلماء؛ لأنهم يتمتعون بتلك السلطة الروحية التي جعلها الله لهم في قلوب الناس. فهؤلاء يقودون الناس علميّاً وروحياً في حين أن الرئيس الدنيوي

يقودهم بعامل الغلبة.

والواقع أن السيادة العلمية لا تبلغها سيادة قط؛ ولهذا فإننا نجد أن في العالم أباطرة وقياصرة وأكاسرة حكموا لفترة ما، لكنهم عندما خرجوا من الدنيا انتهى ذكرهم، ولم يعد يذكرهم ذاكر، أما حملة الفكر والعلم فإنهم لا زالوا يعيشون بيننا حتى بعد آلاف السنين من موتهم، فهؤلاء يعيشون في عقول الناس ومشاعرهم، وفي تفكيرهم، وفي كل حيثيات حياتهم وجزئياتها؛ لأن سيادتهم لا يمكن أن تموت. فكان الناس يخضعون لسلطة هؤلاء أكثر ممّا يخضعون للسلطات الأُخرى من السلطات الدنيوية؛ لأن سيادة العلم لا تضاهيها سيادة أُخرى.

ويحيى عليه السلام كان له نوعان من السيادة:

السيادة الدينية باعتباره نبيّاً من الأنبياء.

والسيادة الاجتماعية؛ لأنه كان معزّزاً مكرماً عند بني إسرائيل. تذكر الروايات أن النبي يحيى عليه السلام ولد لستة أشهر وعاش، ونحن نُرتب على هذا أثراً. وهذا الأمر موجود في تاريخنا، فعبد الملك بن مروان ولد لستة أشهر وهذا يمكن أن يُرتبَ عليه أثر وهو أن المرأة إذا ولدت بعد ستة أشهر من زواجها فإن الولد يعتبر ابن زوجها، ولا يحقّ له أن ينفيه عنه، أو يقول بأن أُمه قد حملت به قبل أن يتزوّج منها؛ لأن ابن الستة أشهر يعتبر ابناً شرعيّاً. وهذا ما يؤكّده القرآن الكريم بمقابلة آيتين كريمتين من آياته هما: ﴿**وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً**﴾[1]، و﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ**﴾[2]، فبطرح الحولين الذين مجموعهما أربعة وعشرون شهراً من ثلاثين شهراً، فإن المتبقي يكون الزمن

---

(١) الأحقاف: ١٥.
(٢) البقرة: ٢٣٣.

الصحيح والطبيعي للولادة، وهو ستة أشهر. وهذه الإمكانية مهيأة لأي إنسان، وليست هي ميزة خاصةٌ بيحيىعليه السلام، أو بعبد الملك بن مروان أو بغيرهما، فإن الولد يمكن أن يولد لستّة أشهر ويعيش، كما أنه يولد لتسعة أشهر ويعيش.

ولهذا فإننا نستغرب الإصرار من قبل البعض على أن يحيىعليه السلام ولد لستة أشهر ومع ذلك فإنه قد عاش، فإن هذا ليس موضع استغراب مادام يحصل عند الآخرين، ومادام القرآن الكريم قد أقرّه كما ذكرنا بمقابلة هاتين الآيتين الشريفتين المارتين. وإن كانت هنالك معجزة في ولادة يحيىعليه السلام فإنها تكون بولادته بعد يأس أُمّه وكبرها في السن وبعد مانع العقم. فهي لم تكن عاقراً فقط وإنما دخلت سنّ اليأس وسنّ الشيخوخة الذي لا يمكن أن تنجب فيه المرأة ولداً، ومع ذلك فإن الله جلَّ وعلا أحيا به عقمها فولدته.

الصفة الثانية: الحصور

وهذه الصفة تشكل مركز ثقلٍ في الآية الكريمة؛ لأن الحصور هو الذي لا يقرب النساء. وهنا فإن المفسرين انقسموا إلى قسمين حول تفسير هذا المقطع:

الأول: أنهعليه السلام لا قدرة له على الفراش

فهؤلاء يرون أنهعليه السلام كان عنده مانع خلقي من الزواج، أي أنهعليه السلام ليس له القدرة على مقاربة النساء.

نقض هذا الرأي

وهذا لا يمكن أن يكون بحالٍ من الأحوال؛ لأنه نقصٌ، والله جلَّ وعلا لم يبعث نبيّاً فيه نقصٌ. ونحن بدورنا يجب أن ننزّه الأنبياء من النقائص؛ سواء كانت في القدرة، أو في الجسد، أو ما إلى ذلك.

فالنبي يأخذ كلّ أبعاد الكمال الجسدي والروحي والعقلي؛ لأنه ممثّل السماء، وإذا كان عنده نقصٌ معينٌ في مجالٍ ما فإنه ممّا ينافي نبوّته، فهو بهذا لا يمكن أن يكون نبياً؛ لأنه سوف يكون مبعث سخريةٍ من الناس وانتقادٍ منهم، وما إلى ذلك من تجريح وغيره.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الآية الكريمة في معرض المدح للنبي يحيى ﷺ، فإذا كان الأمر كذلك فإن الله جل وعلا لا يمكن أن يمدحه بما هو نقص، فالمدح لابدّ أن يكون بصفة الكمال لا بصفة النقص.

ثم إن هناك رواية تتجاوز هذا الحد وتقول بأنه ﷺ ليس لديه القدرة على إرضاء المرأة من ناحية عضوٍ معيّن، وهذا في حقيقته أكثر من كونه نقصاً؛ لأنه موجب للفسخ أحياناً؛ ذلك أنه إذا التقى مع العنن عدم إرضاء الزوجة فإن الملاك يصبح واحداً، وهو وجوب الفسخ.

إذن فالشخص الذي يُدلّس عليه ويجد أن عند شريكه نقصاً أو عجزاً في حالته الجنسية، فإن من حقّه أن يفسخ العقد؛ لأن الغاية من الزواج هي أن تكون هنالك ذريّة، وهذا لا يؤدي هذا الغرض. وهذا الزوج لا يستطيع أن يؤدي هذا الدور، وبالتالي فإنه لن يحصل هذا الغرض.

وبهذا فإننا لا نعتبر أنبياء الله عز وجلّ ممن يعتريهم النقص في هذا المجال ولا في غيره، والآية كما قلنا في مقام مدح النبي يحيى ﷺ، والمدح لا يكون بوجه النقص، وإنما بوجه الكمال.

الثاني: أن ذلك باختياره ﷺ

وهذا هو الرأي الصحيح، أي أن كلمة (حصور) تعني أنه ما كان يقرب النساء باجتهاد منه وصبر عنهن، لا أنه لا يقوى على مقاربتهن كما يذهب هؤلاء.

فكأنه عليه السلام كان لا يقربهن بحالة من الرهبانية والتبتّل التي كان يعيشها. فهو عليه السلام كأنما يقول: لا أُريد أية علاقةٍ تشغلني عن ربّي، والقرب من المرأة ربما يؤدي إلى هذا؛ لأنه يؤدّي إلى حصول الولد، وبالتالي تعلّق قلبه به، وبالنتيجة فإنه سوف يأخذ من وقتي واستعدادي وانصرافي إلى الله جلَّ وعلا فيشغلني عن ذكر ربي.

وهذا فيه وجه من المعقولية؛ لأن مشاكل الأولاد تأخذ جمّ تفكير الإنسان، والقسط الأكبر من راحته، وإذا أراد الإنسان أن يتفرّغ إلى العبادة، فإنهم قد يشغلونه عن هذا [١].

إذن فمن يرد أن يتفرغ لعبادة الله جلَّ وعلا فإنه إذا لم يكن ذا ولد فسوف يتفرغ تفرغاً كاملاً له، أما إذا كان ذا ولدٍ فإنه سوف لن يتفرّغ تفرغاً كاملاً له. وهذا المنهج موجود ليس على مستوى الأديان بل حتى على مستوى المجتمعات، فهناك الكثير من الناس ممن ابتعد عن الناس لهذا السبب.

لكن هذا المنهج هل يقره المشرّع الإسلامي؟ طبعا لا يقرّه؛ لأن الله جلَّ وعلا لم يودع الغرائز عند الإنسان عبثاً، فهو تعالى حينما وضع عنده هذه الغريزة إنما وضعها لحكمة، وهي أنها وسيلة توصل إلى هدفٍ معيَّن، فغريزة الأنانية وحب الذات تحفظ كرامة الإنسان بشرط ألّا تتجاوز حدودها؛ فتصبح حالة سلبية، أي أنها يجب أن تكون بين الإفراط والتفريط [٢]. وغريزة الجمع توصل إلى هدفٍ هو تحريك الاقتصاد في المجتمع، وكذلك غيرها من الغرائز. فكل غريزة من هذه الغرائز لها هدف ومنها غريزة الجنس، وهدفها إمداد النوع البشري بالأجيال، فإذا لم يحصل التزاوج بين الرجل والمرأة فإن النوع سوف لن يُمدّ بالأجيال، وبالتالي

---

(١) وقد مرَّ أن الأبناء وسيلة لإعاقة الآباء عن الجهاد.

(٢) وهو ما يعبر عنه أرسطو بـ«الوسط الذهبي».

سوف يؤدّي إلى انقراضه.

ولذا فإن المشرع الإسلامي ينصّ على أنه: «**لا رهبانيّة في الإسلام؛ تزوّجوا فإني مكاثر بكم الأُمم**»[1].

وقد نهى النساء أن يتبتّلن ويقطعن أنفسهن من الأزواج [2]

ومن هذا المنطلق دعا الإسلام إلى الزواج وإلى عدم إقرار الرهبانية، دخلت امرأة على الإمام الصادق وقالت له: إني أُريد أن أتبتّل. فقال لها: «**لو كان فيه فضل لسبقتك إليه فاطمة**».

فهذا تفكيرٌ أعوج وأهوج؛ لأنه مخالفةٌ للفطرة ومخالفةٌ لسنة الله جلَّ وعلا.

ومن هذا نعرف أن (الحصور) صفةٌ كانت باختيار النبي يحيى، وهي من خصوصياته التي أجازه الله بها وعليها. والدليل على هذا أنه تعالى امتدحه بها.

الصفة الثالثة: النبوّة والصلاح

إن النبوّة معروفة، لكن ربما يشكُل هنا قوله تعالى: ﴿**مِنْ الصَّالِحِينَ**﴾، فما الذي يقصد بها؟ أي بمعنى هل إن هنالك أنبياء غير صالحين؟ من وجهة نظر المفسّرين من المذاهب الإسلامية الأُخرى أن الجواب بالإيجاب؛ لأنه «**ما من نبي إلّا وقد عصى أو همّ بمعصية غير يحيى؛ فإنه لم يعصِ ولم يهمّ**»[3]؛ ولذا فإن القرآن الكريم عبَّر عنه بأنه ﴿**مِنْ الصَّالِحِينَ**﴾.

وهذا تفكير عجيب؛ ذلك أن الأنبياء إنما يبعثون للقضاء على المعاصي، ولطرد المعاصي من نفوس الناس، فكيف يقومون بممارستها؟ إن هذا غير ممكن، بل إنه أمر يثير العجب والسخرية. وعليه فإن الآيات الشريفة التي تتناول هذا

---

(١) دعائم الإسلام ٢: ١٩٣ / ٧٠١، مسند أحمد ٣: ٨٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) التفسير الكبير ٨: ٤٠.

الجانب فإنها لابدّ أن تُنزل منزلة أُخرى غير منزلة المعصية أو الهم بها والإقدام عليها؛ كي تتفق مع هذا الاعتقاد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[1]، فإن معناه على التحقيق أن آدم عليه السلام ترك الأولى وإن سُميَ هذا عصياناً؛ لكنه لم يعمل شيئاً يستوجب عليه العقوبة سوى أنه ترك الأولى.

وعليه فلا يمكن لنبي أن يهمّ بالمعصية مع الأخذ بنظر الاعتبار أن المفروض أن الله جل وعلا قد أرسله لمحاربة المعاصي وللقضاء عليها، ولترويض النفس على عدم الولوج فيها، ولتقويم الناس على الطاعة وترك المعصية.

إذن فهذه الرواية لا يمكن أن يُنظر إليها؛ لأنها تتنافى مع أُصول المعتقدات في هذا المجال، وإذا كان الأمر كذلك فإننا لا بد أن نجد معنىً مناسباً لقوله تعالى: ﴿مِنْ الصَّالِحِينَ﴾، وهذا مقرونٌ بتقريب أنه ليس هناك من نبي غير صالح بل لا نبي إلا وهو صالح، فإذا كان غير صالح فإن الله جل وعلا لا يمكن أن يبعثه. وهنا نعرف أن كلمة ﴿مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ تعني بأنه موجود في قائمة الأنبياء؛ لأنه ما من نبي إلا وهو صالح.

المبحث الثامن: البشارة بالنبي يحيى عليه السلام

وبالرجوع إلى جوّ الآية الكريمة نجد أن هناك بشارةً بيحيى عليه السلام، وهذه البشارة تنفتح على معنيين:

الأول: البشارة بالولد

الثاني: المعجزة بخروجه من رحم عاقرٍ وكبيرة في السن.

وبهذا يستدلّون على أن الولد نعمة كبيرة يجب عليها الشكر، وبالمقابل فإن

---

(١) طه: ١٢١.

فقده يعتبر مصيبة لا تعدلها مصيبة؛ لأن الولد ريحانة الفؤاد وثمرته، ومصرعه لا يمكن أن يتصوّر كم من الممكن أن يأخذ من أبيه من مآخذ. فمأخذه لا يمكن أن يأخذه أحدٌ غيره؛ لأن المصيبة به تكون عظيمة، إن فقد الأولاد يكون في حال صبر الإنسان عليه كرامة وتكريماً من الله جل وعلا وإن كان مصيبة؛ ولذا فإن الله جل وعلا أراد تكريم أبا الشهداء عليه السلام بهذه الكرامة حيث إنه قدَّم أولاده الخمسة في سبيله، وهم:

الأول: الذي ألقته أمه سقطاً في طريق السبي.

الثاني: الذي ولدته أُمّه في اليوم العاشر من المحرّم الحرام، وأعطته للحسين عليه السلام، وهو ابن أُمّ إسحاق حيث جاءت به إلى الإمام الحسين عليه السلام وهي تحمله، وقالت له: هاكم رضيعكم يا آل محمد، لقد جفَّ صدري. فأخذه الحسين عليه السلام وهو يطيل النظر في وجهه ثم قال: **«بني، تعساً لقوم قتلوك»**. ثم كبّر في أُذنه اليمنىٰ، وقبّله، فأقبل إليه سهم ذبحه من الوريد إلى الوريد، فقال عليه السلام: **«اللهم بعينك»**.

الثالث: عبد الله الرضيع الذي كان له من العمر ستة أشهر.

الرابع: ابن شهربانويه أُخت شاهزنان، وقد تزوّجها الحسين عليه السلام بعد موت الحسن عليه السلام، فلما سقط الإمام الحسين عليه السلام على وجه الأرض صنع له وسادة من التراب فخرج إليه ابنه هذا وقُتل عنده. وكان عمره سبع سنوات.

الخامس: هو علي الأكبر الذي أخذ مصرعه من الحسين ما لم يأخذه مصرع آخر غيره، فلم يحدّثنا التأريخ أن مصرعاً أخذ من الإمام الحسين عليه السلام مأخذاً كالذي أخذه مصرع الأكبر، فحينما سمع عليه السلام صوته منادياً: عليك مني السلام أبا عبد اللّه. انقضّ عليه السلام، وذاد عنه الخيل يميناً وشمالاً إلىٰ أن وصل إليه، فوجده وقد

غطّاه الدم، فرمىٰ بنفسه عليه من علىٰ ظهر فرسه وصاح: «**بني علي، علىٰ الدنيا بعدك العفا، أمّا أنت فقد استرحت من هم الدنيا وغمّها، وألقيت أباك لهمّها وغمها، وما أسرع اللحاق بك**». ثم احتضنه وجلس عنده:

يبني علي يا فتشة العين   كلّي صواب الضاهدك وين

أنا منين اجتني كربلا منين

ثمّ التفت إلىٰ الفتية وقال: «**احملوا أخاكم؛ فإني لا طاقة لي علىٰ حمله**». فحملوه ورجلاه تخطّان الأرض، وأقبلوا به إلىٰ الخيمة، فهرولت إليه عمّاته وخالاته وجلسن عند رأسه:

يمغسّل الشبان بهداي   ابهيده من تصب عليهم الماي

* * *

ومحا الردىٰ يا قاتل اللّه الردىٰ   منه هلالَ دجىً وغرّةَ فرقدِ

يا نجعةَ الحيّينِ هاشم والعلا   وحمىٰ الذمارين العلا والسؤددِ



المحتويات